

فردريك و. فارار

حياة المسيح

ترجمه
دكتور / جورجى يوسف عقداوى

أعده للنشر
راهب من الاسقيط المقدس

حياة المسيح

تاليف
فرديك و. فارار

ترجمة
الدكتور جورجي يوسف عقداوى

أعده للنشر
راهب من الإسقيط المقدس
٢٠١١م

اســـم الكتاب : حياة المسيح
الطبعة الأولى : أغسطس ٢٠١١
رقـــم الإيداع : ١٤٦٩٩ / ٢٠١١

يطلب من :
مكتبة دير السريان - وادى النطرون
مكتبة كنيسة مارجرجس - سبورتنج



صاحب الغبطة والقداسة

البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٧)

شكر وتقدير
لكل من ساهم في إخراج هذا الكتاب القيم

بدءا من المترجم المرحوم الدكتور جورجي عقداوي، الذي ترجمه إلى العربية بأسلوب سهل بسيط وعميق في ذات الوقت...

وأيضا إلى أسرته الكريمة التي سمحت بإعادة طبع الكتاب لمنفعة الكثيرين ولمجد الله أولا وآخرا.

وكذلك إلى الخادم المبارك المهندس حسام الذي إهتم بإعادة تجميعه على الكمبيوتر، واختصار بعض الفقرات التي تسهب في وصف المناطق الجغرافية لأرض فلسطين، بما يشت عن الهدف الرئيس من الكتاب، دون أن يخل بالمعنى الأصلي له، وبما يزيد من المنفعة الروحية، وتركيز ذهن القارئ على أعمال المسيح وتعاليمه فقط دون تشتيت أو تشويش.

الرب يستخدم هذا العمل لمجد اسمه ولبنيان كنيسته، ويعوض كل من له تعب فيه.. بشفاعة السيدة العذراء وصلوات الآباء القديسين، وبركة أبينا المكرم البابا أنبا شنودة الثالث.

آمين

تمهيد

«تذكاراً للمحبة الأخوية العميقة»، هذه هى الكلمات الرقيقة التى كتبها صديقى الفاضل القمص إبراهيم لوقا على غلاف نسخة من كتاب «**حياة المسيح**» هذا، تكرم بإهدائها لى سنة ١٩١٦م. فراعتنى حلاوة أسلوبه، ودقة بحوثه، والعناية الفائقة فى توخى الصدق فى كافة الامور، والإقرار بالعجز عن الوصول إلى كنه بعض الحقائق.

وفى سنة ١٩٢٩م، أهدانى أحد جيرانى المستر ف. ربتون نسخة أخرى من ذات الكتاب واضحة الحروف، ضافية الحواشى، عكفت على مطالعتها بإمعان، فإزدادت قيمة الكتاب فى نظرى من الوجهه العلمية اللاهوتية، ومن الوجهة التقوية الروحية. وكان له تأثير فعال فى نفسى، فصرت أطالع منه أجزاء متفرقة، مراراً متعددة، الحين بعد الآخر.

وفى سنة ١٩٣٢م حصلت بعد جهد على نسخة ثالثة، شائقة، مصورة ـ نفذت طبعتها ـ أوحت إلىّ فكرة تعريب الكتاب، لإفتقارنا إلى تاريط مطول محقق عن المسيح، يفصِّل حياته صحيحة، جلية، قريبة إلى الأذهان، محببة إلى القلوب. ولكن كان يحول دون ذلك أمران. الأول شعورى بأنى لست أهلاً للقيام بهذا العمل الخطير، إذ أن موضوع هذا الكتاب أجلّ المواضيع وأسماها، لأن الترجمة لا تؤدى المعنى الأصلى تماماً فى قوته وجماله. والثانى ضيق الوقت.

وأشكر إلهى الذى ذلل العقبتين، فأعطى "المعيى قوة، ولعديم القدرة كثر شدة"، وبارك فى الأوقات القصيرة التى أستطعت أن أغتنمها بين فترات عملى، وإن كان عدم التفرغ قد أطال وقت التعريب إلى بضع سنوات، كانت برهات الترجمة أسعدها بل كانت كل السنين موفقة، مباركة بسببها. وقد فزت خلال ذلك بزيارة قصيرة للأراضى المقدسة لن يمحى أثرها.

وألفت النظر أن هذا الكتاب قد ألفه كاتبه أيام حكم الملكة فيكتوريا. ونشره فى إنجلترا، أى فى دولة مسيحية إبان مجد المسيحية. وقد فصل دوافعه، وأغراضه، ومراجعه فى المقدمة القيمة التالية، فلايفوت القارئ أستيعابها تجلو له كثيراً من الغوامض.

وكان من توفيق الله أن راجع الكتاب معى قبل طبعه صديقى العزيز الأستاذ عياد عياد. فله ولجميع الذين شجعونى وعاونونى على إنجازه ونشره فائق الشكر.

ويسرنى أن أنوه أن الآيات التى أوردتها فى الترجمة قد نقلتها عن النسخة القبطية. وعلى ماأعلم، فهذا أول كتاب أتبع فيه هذا.

أسال القدير أن يكون نفع هذا السفر الجليل عميماً. وألا أكون قد تعبت فى تعريبه باطلاً. بل يصير خيراً وبركة لكل من يطالعه، وواسطة لتمجيد اسمه القدوس من أعماق النفوس.

دكتور

جورجي يوسف عقداوي

المنصورة فى ٧ مايو ١٩٤٩

مُقَـدّمَة

للقيام بواجب صعب وخطير كتأليف كتاب «حياة المسيح» أشعر أنه لابد لى من ذكر الأسباب التى حدت بى للاضطلاع به، والمبادئ التى أسترشدت بها حتى أتممته.

أولاً: مقصد الناشرين لهذا الكتاب منذ زمن طويل إذاعة مزايا العلم إلى أقصى حد. ورغبة فى اتمام غرضهم أرادوا أن يضعوا بين أيدى قرائهم وصفاً لحياة المسيح يساعد على تفهمها بأكثر وضوح، ويشرح حوادث الإنجيل وتتابع أخباره بتفصيل وتدقيق ولذلك لجأوا أولاً إلى لاهوتى بارز قبل إقتراحهم، ولكن ترقيته إلى رتبة الأسقفية حالت دون أتمام مطلبهم.

ولهذه الظروف عرض علىّ الأمر. فأحجمت أولاً إذ شعرت أننى لو أوقفت كل أوقات فراغى طيلة حياتى لكان هذا الزمن غير كاف، وأن إقتداراً أعظم بكثير مما لى غير واف. ولكن حفزتنى إعتبارات كان أقواها بلا شك ميلى العميق منذ البداية إلى هذا المشروع. فوافقت على القيام بهذا المجهود، عالماً أننى أقدر على الأقل أن أعد ببذل أقصى مافى وسعى، مؤمناً أن من يعمل أحسن مافى مقدوره مع طلب بركة الله لمجهوده، يستحيل أن يبوء بالفشل.

وإنى لأشكر الله لقبولى مبدئياً أن آخذ على عاتقى هذا الواجب. لأننى - بالرغم من كل العقبات التى إعترضتنى - ثابرت حتى أتممته. فإن كانت الصفحات التالية تؤدى على أى وجه الأغراض التى من أجلها يدون مثل هذا الكتاب، فيجب أن تملأ عقول الذين يطالعونها أفكاراً مقدسة سامية، وتضيف ضوء الشمس إلى نور النهار، فتزيد السعيد غبطة، وتقوى المكدود، وتعزى المحزون، وتهدى الضعيف إلى نبع القوة الوحيد والحقيقى.

ولكن سواء أدى هذا الكتاب إلى هذه الغايات المباركات، أو قوبل بخشونة وعدم أكتراث، فلن يقدر شئ أن يسلبنى المسرة العميقة المستمرة التى شعرت بها فى كل ساعة من الساعات التى قضيتها فى تدوينه. بل أحياناً كثيرة - عندما كانت تمضى شهور دون أن أجد متسعاً لكتابة سطر واحد، إذ كانت واجبات هامة تتطلب جميع وقتى - فى وسط هذه الإهتمامات المتصلة، لم يمنعنى شئ من أن أفكر فى العمل الذى وضعت قلبى عليه، وأن أجد فيه سلاماً وفرحاً يختلفان عن كل مايمكن أن تمنحهما أو تمنعهما جميع الأمور الأخرى.

ثانياً: بعد أن أعددت نفسى قليلاً لهذا العمل العظيم، أنتهزت أول فرصة وسافرت سنة ١٨٧٠ إلى فلسطين لزيارتها ولاسيما الأماكن التى ستظل تذكر أبد الدهر ماذكرت أعمال يسوع على الأرض. وعندما وقفت فى الأماكن التى أجتازها. وفى الحقول المقدسة التى وطأتها قدماه الطاهرتان اللتان سمرتا منذ مئات السنين على الصليب المر لأجلنا، ووقفت على العادات الثابتة التى تذكرنا – فى كل كبيرة وصغيرة ـ بكيفية معيشته فى أورشليم وجبل الزيتون وبيت لحم وبئر يعقوب وشاطئ بحر الجليل البهيج وساحل صور وصيدا ـ ساورتنى أفكار جديدة، ووضحت أمامى للمرة الأولى أشياء كثيرة وكأنها قد بعثت إلى الحياة بجلاء كامل لم أعهده من قبل. فرجعت عاقد النية بعزم ثابت على أن أقص ـ بمساعدة ماوصلت إليه معرفتى بالمعلومات المتكدسة من قرون ـ حكاية الإنجيل على نمط يضمن على الأقل للجهلاء والبسطاء تفهم حياة إبن الله والظروف البشرية التى أحاطت به على الأرض.

ثالثاً: بينما أقول هذا لأعفى الكتاب من الحكم عليه بمقياس خاطئ أو على ضوء أغراض غير التى أردتها منه، فانه ادعاء أن أنكر أنه يحتوى على كثير من الأمور القيمة حتى عند العلماء. ومع أن صفحاته ليست مليئة بماهو عريق فى اللوذعية، فإنها حافلة بالكثير مما حققه أو افتكره رجال لهم فى العلم القدح المعلى. والكتب التى أستعنت بها تشمل مباحث رجال أتقياء كانت ميزتهم الخاصة أنهم كرسوا أحسن سنى حياتهم ـ بإجتهاد وبدون انقطاع ـ لدرس هذا الموضوع أو حتى جزء بسيط منه. فلا يمكن للحاصد – مهما كان ضعيفاً ـ إلا أن يجنى من هذه الحقول العامرة ولو قليلاً مما يقدره المتخصص فى اللاهوت، كما يستفيد منه غير المتبحر فى الدرس. وإذ آمل من كل قلبى أن هذا الكتاب سيحوز قبول إخوتى القسوس، أدخلت على الهوامش بعض الإقتباسات والشواهد النافعة التى قد تظهر للقارئ قليلة الأهمية. غير أننى أحتطت كثيراً لكى لا أكون كسابح فى لجة لا يعرف مداها. فظللت محتفظاً بغرضى الأصلى وهو مساعدة الآلاف ليستمرئوا قراءة الكتاب الأوحد الذى إذا قيست به أعظم المؤلفات وأعمقها، ظهرت كأنها مقطوعات سخيفة أو شروح ناقصة مبهمة.

رابعاً: من المهم أن يعرف القارئ تماماً أن هذا الكتاب تأليف من يعترف جهاراً أنه رجل مؤمن حقاً. فالذى يبحث فيه ليجد نظريات جديدة عن لاهوت المسيح، أو عن معتقدات ركيكة مدهونة لاختلاطها بخرافات براقة كسحب قاتمة يتخللها. شفق خيالى ـ فإنما يبحث دون جدوى. فلم يكتب هذا الكتاب خصيصاً للرد على ترهات الملحدين أو لصد هجمات القادحين، ولكنه يعنى فقط وبطريق غير مباشر بالشكوك الخطرة التى يقع فيها بعض الناس ضد إرادتهم ظانين أنهم يساقون ـ رغم أنوفهم – إلى إنتقاد برئ.

إلى أمثال هؤلاء أجرؤ أن أصرح بيقين أنهم لو تتبعوا مطالعة هذا الكتاب بروح طيبة، سيجدون فيه ـ هنا وهناك ـ بحوثاً قيمة نفيسة تحل لهم معضلاتهم، وترد على إعتراضاتهم الوهمية. ولو أنه قصد من هذا الكتاب الرد على المخالفين، لكتب على نمط جدلى وبغير الطريقة التى كتب بها.

خامساً: إن كانت ثمة مشكلات أعوص وأعمق من الإنتقادات البريئة لم أعن ببحثها، فلم يكن ذلك إستخفافاً بالحجج التى تسندها، أو كرها لذكر الأسباب التى تجعلنى أقول مع عشرات الألوف ممن هم أقدر منى وأجدر، عن كل حقيقة من حقائق الإيمان المسيحى. إن الإيمان لايتبدل. وإذ أكتب كمؤمن لمؤمنين، وكمسيحى لمسيحيين، أعتقد أنه يسمح لى ـ بعد مضى تسعة عشر جيلاً أن أورد من الإنجيل إحدى العجائب دون أن ألتجئ لدحض كل الإحتجاجات التى قدمت ضد إمكانية حدوث ماهو خارق للطبيعة. لأنه بعد الجهود العظيمة، والبراهين القوية، والإستشهادات التاريخية، التى تخصص لها كثير من العلماء الجدليين ـ أرى أنه من غير الضرورى بل من المستحيل أن أعيد ـ فى كل مناسبة – الأصول الإيمانية الأولى البديهية.

كذلك لم أهمل بتاتاً البراهين على إمكانية حدوث العجائب وصدق أخبار الإنجيل ولو أننى فى غنى عن ذكر شئ بخصوص هذه الأمور بعد أن أوضحت كل ما أستطيع من بيان الأصول التى يرتكز عليها إيمانى. هذه الملاحظة تنطبق على الإعتقاد الأعظم خطورة وهو ألوهية المسيح، الأمر الذى أوفيته حقه فى المحاضرات التى ألقيتها سنة ١٨٧٠ فى جامعة كامبردج ونأيت فيها كل المسائل العويصة والمصطلحات المدرسية العميقة، بل ضمنتها الحقائق الكتابية على بساطتها، واجتهدت أن أوضح فيها ما أعتقد شخصياً بأنه أهم شهادات الغير عن إيماننا وهى «شهادة التاريط عن المسيح».

إننا ندرس كل الكتب التى تعتبرها ديانات العالم المعروفة أنها كتب مقدسة، ونحقق تأثير هذه الديانات على عقول أتباعها، نجدها تقصر جميعاً عن أن تمنح البركات التى لا تحصر، والتى ننعم بها من الصغر ونعتز بها كحياتنا ذاتها، والتى هى نتيجة إستقرار وإنتشار الإيمان المسيحى الذى نتمسك به. واننا نقرأ أيضاً مؤلفات وأسفار الحكمة والفلسفة القديمة ورغماً عما تزخر به من المبادئ النبيلة، نراها تعجز تماماً عن أن تعزى، أو تقوى، أوتخلص، أو تجدد العالم. ولكن عندما بزغ وميض المسيحية كضياء الفجر يوم الربيع اللطيف، بدد ظلام المسكونة الدامس الشامل. وبالرغم من أنه فى بدئها قد ولدت فى مهاد الضعف واعتنقها بسطاء العالم، ولم يسندها مال ولا علم ولا دهاء ولا سلاح ولاشئ مما يجذب النفوس أو يخلبها ـ ديانة المنبوذين والمنفيين، ديانة المشردين والمسجونين ـ ولم ينضم إليها عند نشأتها لا كثير من النبلاء ولا عديد من الفهماء، ولا نفر من الأقوياء ـ بل دخل فيها أمثال سجان فيلبى وآبق

كولوسى ـ وليس لها عون إلا ماجاء من الأعالى ولا نور إلا ما أضاء من السماء ـ بالرغم من كل هذا. هرب أمامها الملوك وخضعت لها الجيوش، ونفثت فى العالم حياة جديدة، ورجاءً جديداً، وقداسة جديدة غير مألوفة فى دنيا أثيمة متدهورة. نرى هذا، ونرى تأثيرها ينمو ويزداد، ويقوى وينتشر برقة النسيم، وبلطف مداعبة البحر للشاطئ، وحينئذ نذكر النظرية الثاقبة التى فاه بها منذ نحو ألفى سنة ذلك الرابى الطويل الأناة "...... إن كان هذا الرأى أو هذا العمل من الناس فسوف ينتقض، وإن كان من الله فلاتقدرون أن تنقضوه لئلا توجدوا محاربين لله أيضاً " (أع٥: ٣٨، ٣٩)

وإذ أسفر بنا البحث عن أن الديانة المسيحية هى الوحيدة فى العالم التى أسست المثل الأعلى للطهارة الكاملة، وجعلت فى متناول الجميع الوصول إلى هذا المثل، ونالت القسط الأوفر من تعضيد الله، فنحن نفحص حقائقها بإحترام عميق. والسجل الذى فيه هذه الحقائق، السجل الذى فيه التعاليم التى أذاعت تلك الحقائق فى العالم قاطبة، هو أسفار البشائر التى تعلمنا أشياء أخرى كثيرة. إذ فضلاً عن أنها بينت لنا السر فى وجود وإنتصار الإيمان الذى به ندين، فإنها تبنى داخلنا مبادئ تؤثر فى قلوبنا وعقولنا بقوة ليست أقل من قوة السماء المزدهرة بالنجوم فوقنا، أو الضمير الذى فينا، وتعلمنا أننا أولاد الله، وأننا أخوة لكافة البشر عامة. أننا أيضاً نجد فى هذه البشائر إعلاناً لله فى إبنه يساعدنا على معرفته أكثر، والثقة به أتم، وخدمته بأمانة أعظم ـ إعلاناً لله أوضح مما فى باقى الكتب المقدسة، أو التاريط، أو تجارب الحياة، أو رسائله غير المرئية المطبوعة على صفحات كل قلب. ولما نتحقق أن هذه الإعلانات قد كتبها رجال أمناء، وأنها مهما كانت مختصرة، فقد طابقت تماماً ما جاء فى التاريط فضلاً عن أنها موسومة بخاتم الصدق الكامل والبساطة الناصعة. ولما كنا مستعدين فى الوقت نفسه أن نقبل بفرح إعلان محبة الله لخلاص البشر بما نتبينه من البراهين الدنيوية الخارجية، وإختبارات قلوبنا الداخلية، فإننا لا نجد صعوبة إذا طالعنا فى ذلك السجل أن الذى نؤمن به هو إبن الله الذى كانت حياته على الأرض أعجوبة خالدة لأنها الحياة الوحيدة الخالية من العيب المنزهة عن الدنس، كما لا نجد صعوبة فى أنه قد مشى على البحر أو حول الماء إلى خمر.

وإذا آمنَّا بصحة العجائب، فإنها تصبح لدينا دروساً أخلاقية عظيمة القيمة. اننا ننظر إليها بعين غير التى كان ينظر بها المؤمنون الأولون. كانت العجائب فى نظرهم قوة عظيمة تدعم تعاليم السيد. كانت كختم الله على إعلان ملكوته الجديد. ولكننا نحن الذين قد مضى علينا تسعة عشر جيلاً ونحن أبناء المسيحية ـ فى غنى عن شهادة وبرهان العجائب. كانت العجائب للرسل كوثيقة إعتماد إرسالية المسيح، أما لنا فهى دلائل جديدة على إرادته. العجائب عندنا أعمال أكثر منها علامات، وإعلانات أكثر منها

إنذارات. وقيمتها التاريخية عندنا أنه لولاها لما تأصلت ولا إمتدت المسيحية. ونحن نركن إليها ليس للبرهنة على صحة المسيحية، ولكن لتفهم الوسيلة التى ساعدت على إنتشارها. ومع أن المسيحية قائمة على رضى من الله أكثر مما هى قائمة على إظهار القوات الفائقة للطبيعة، ومع أن القدرة التى حافظت على المسيحية مدة ألفى سنة أعجوبة أقوى فى دلالتها من إقامة الميت وتفتيح عينى الأعمى، فإن الإيمان بهذه العجائب يساعدنا على حل بعض المسائل التى لولاها لبقيت دون حل، ويساعدنا على تتبع تعاليم أخلاقية عظيمة لولا العجائب ما وجدت صوراً توضحها. أما الذين يرفضون تصديق العجائب، والذين يتوهمون أن الديانة التى أسست أخلاقاً عالية وتقوى سماوية لم ير العالم مثلها قط إنما ترتكز على أكاذيب أو أخطاء ـ فسيظل تاريط العالم لهم لغزا لا يحل وأكذوبة غاشة ثائرة.

سادساً: إنى أعترف بعدم إمكانية التوفيق الكامل بين البشائر الأربعة من وجهة تاريط الحوادث. فأى توفيق زمنى بينها يجوز أن تقدم ضده إعتراضات هامة. ولم يتفق كاتبان تماماً على ترتيب واحد، لأن التوقيت لم يذكر بالتفصيل فى البشائر إلى حد يمكن معه الوصول إلى ترتيب فاصل. لذلك كتبت أحياناً بإسهاب وأحياناً بإيجاز فى تحديد بعض الأزمنة. فتحديد مدة كرازة المسيح مثلاً ذكرته إلماماً. أما عند إحتياج الأمر لإيضاح الأسباب القوية التى تدعو لإختيار رأى دون آخر فى نقطة عظم فيها الإختلاف ـ مثل العيد الذى ألمح إليه يوحنا فى (ص٥: ١) فقد عالجت المسألة بإسهاب يتناسب مع حجم الكتاب، وإجتهدت أن أضع بين يدى القارئ الحجج البينة والأسباب التى بنى عليها القرار. ولكننى وجدت من العبث واللغو أن أحشو صفحات عديدة بذكر الإختلافات القائمة على مبحث كمالى. فهذا ـ فضلاً عن أنه عقيم وغير مجد ـ فانه لا يؤدى إلى نتيجة حاسمة. لذلك عندما نقرر ترتيب بعض حوادث حياة المسيح، يمكن أن نقول فقط إن هذا الأمر «مرجّح» وليس فى مقدرونا أن نقول بأى حال أنه «محقق». وفى كل مسألة من هذه المسائل قد بحثت كل المعلومات بنفسى فى دراسة مطولة، ثم لخصتها فى سطور قليلة، وأحياناً فى إشارة عرضية.

سابعاً: أننى فى غنى عن أن أذكر أن جميع هذا الكتاب تقريباً هو نتيجة درسى الشخصى للبشائر الأربعة جنباً إلى جنب. وعندما إستشهدت بآيات منها كنت، دائماً وعن قصد، أنأى عن الترجمة وأنقلها من اللغة الأصلية. لأن غرضى الأكبر أن أوضح الحوادث وأصفها مثل الذين عاينوها. فالتفصيلات المتقنة للحوادث ودقة إعادة تصويرها بالتالى، تتوقف لدرجة ليست بالقليلة على إستكشاف النص الأصلى والمراعاة الدقيقة للإستعمال الحقيقى للكلمات والمقاطع والحروف. لكن لايجب أن يخطر على البال، لحظة، اننى أستشهد بالنص الأصلى لأنه أضبط أو أفضل من الترجمة، ولكن لأننى واضع نصب عينى

دائماً أن أصور الحوادث بالوضوح والقوة كما فى الأصل اليونانى.

ثامناً: قد يعجب المطالع لكثرة إقتباسى من المصادر اليهودية. وبدون أن يركب المرء بحر التلمود كما يقول الرابيون أنفسهم ـ وقد يستغرق هذا طول العمر ـ سيجد المطالع مادة غزيرة وربما كل المادة اللازمة لإيضاح تواريط الإنجيل، ليس فى كتابات المسيحين فقط، بل أيضاً فى كتابات الرابيين العلماء الصادقين. ولقد تيقنت أنه لا يوجد شئ مطلقاً ذا أهمية، ولو بسيطة، يستفاد من التلمود بالنسبة للمسيح نفسه. ولكن فائدة مطالعة كتب الرابيين، فائدة غير مباشرة وأهميتها لتواريخها وليست لمباحثها. وأعظم مافيها هو النور الذى تبعثه شهادة على أمانة البشيرين. وهذه الشهادة لها فضلها وقيمتها لأنها من مصدر عدائى تستبعد منه الشهادة.

تاسعاً: إن ظهر فى أى جزء من هذا الكتاب أننى خالفت الوصية الإلهية الآمرة بالتسامح، فانى أسأله الصفح والغفران. وحسبى أنه، إن كان فى بعض صفحاته أثر للخشونة أو الغلظة، فاننى ماوجهتها ضد الأشخاص ولكن ضد المبادئ والمعتقدات، أو أحياناً ضد بعض الرجال أو نوع منهم كانوا هم المسئولين فى العصور الأولى عن هذه المعتقدات. وقد يقع هذا الكتاب فى يد مطالع يهودى فله خصيصاً أسوق هذه الملاحظة: انى أعتقد أن اليهودى قد إبتدأ منذ زمن طويل أن ينظر بعين المحبة والإحترام لذاك الذى رفضه آباؤهم. بل أعتقد أكثر من هذا، أن عدداً منهم بعد أن أقنعهم منطق التاريط الذى لا يدحض، قد اعترفوا جهاراً أنه كان حقاً المسيا المنتظر، ولو أنهم لا يقبلون الإعتقاد بألوهيته. وإنى لأجد فى كتابات كثيرين من اليهود المتأخرين، أنهم قد ترفعوا عن نعته بصفات الكراهية الموجودة فى التلمود، واعترفوا صراحة أن يسوع كان على أى حال ـ أعظم معلم دينى، وأعلى وأنبل نبى أنجبته أمتهم. ولذلك هم آخر من يدافع عن أعظم جناية إرتكبت فى التاريط وهى صلب إبن الله. وإذ لا يحلم أى مسيحى أن يضع على اليهود الحاليين عقاب وزر آبائهم، كذلك يجب على اليهود أن يكفوا عن اتهام مسيحى هذه الأيام بكراهيتهم. إن المسيحيين لا ينظرون بكره إلا إلى التعذيبات الطويلة، الشنيعة، المريعة التى أملتها الجهالة والقساوة القديمة التى ملكت أمتهم العظيمة النبيلة. ونحن نؤمن بإتضاع أن اليوم قريب عندما يهدم ذاك الذى صلبه اليهود الحائط الحاجز الفاصل، ويجعل الإثنين واحداً فى الدين والقلب والحياة، ويصالح الآرى مع السامى، واليهودى مع الأممى، ويتصافح الجميع لتمجيد الله وتطهير العالم.

عاشراً: بقى واجب واحد محبب إلى نفسى وهو شكر إخوانى الذين أولونى مساعداتهم القيمة وعطفهم، والذين إحتفلوا بإتمام كتابى بتذكارات مفرحة أو هدايا. فأقدم أولاً خالص الشكر القلبى إلى

صديقى مستر «مورنو» عضو كلية اللاهوت بكامبردج ومستر «جارنت» الموظف بالمتحف البريطانى، فقد منحانى من وقتهما ورعايتهما ماجعلنى مديناً لكرمهما الفائق العديم الأثرة. وجعلنى أتمادى خجماً فى لطفهما للدرجة التى يستحيل على أن أكافئهما بمثلها. كذلك أشكر تلميذى القديم مستر «بويد» خريج كلية بارسينوز باكسفورد إذ تكرم بعمل جدول المحتويات. وأشكر أيضاً البروفسور «بلمتور» والمستر «جروف» ليس فقط للإهتمام الشديد الذى أظهراه نحو كتابى، ولكن أيضاً لمقترحاتهما الثمينة التى قدماها لى. كذلك أشكر آخرين كثيرين لم أذكر أسماءهم وأعتقد أنهم يشعرون بدون تأكيد منى أن ذلك ليس نكراناً لجميل المساعدات الجمة التى أدوها لى. وأخيراً أقدم أحسن واجبات الشكر للقس «شور» الذى لولا تشجيعه الفائق ما كنت أقدمت على تأليف هذا الكتاب. وشكرى أيضاً لكل الذين تعبوا فى إنجاز طبعه.

والآن أقدم هذا الكتاب غير عالم ما يكون نصيبه، رافعاً صلوات حارة أن يكون وسيلة للبركة وانتشار الحق والبر. وأسأل ذاك الذى كتب عليَّ اسمه أن يرحمنى، ويغفر لى من فضله إن كنت قد أخطأت فى شئ منه، وأن يمنحنى من حكمته حكمة.

كلية مارلبورة - الإثنين السابق لعيد الصعود سنة ١٨٧٤م



الفصل الأول

الميلاد

على مسافة ميل من بيت لحم يوجد منبسط صغير فيه - تحت حقل من شجرة الزيتون - كنيسة بسيطة مهملة تعرف باسم «كنيسة الملاك والرعاة» [1] بنيت فى نفس المكان المظنون أنه هو الذى عناه لوقا البشير بلغته العذبة التى تقع على أذن المسيحى أشجى من أى لحن "كان فى تلك الناحية رعاة يرعون فى الحقل ويسهرون على رعيتهم فى حراسات الليل وإذا بملاك الرب قد وقف بهم ومجد الرب أضاء عليهم" [2] وسمعت آذانهم السعيدة بشرى الفرح العظيم أنه ولد لهم اليوم "فى مدينة داود مخلص هو المسيح الرب".

كل ما أحاط بميلاد المسيح ربنا كان وضيعاً. بل ان ذات المكان الذى ولد فيه كان حافلاً بتذكارات الفقر والحرمان. حقيقة إن السماء قد إنفتحت فى هذه الليلة، وأرسلت جوقة الملائكة المرنمين. ولكن الآيات القصيرة التى كتبها البشير، والتى تهز العاطفة، تخبر أن هذه الأغانى الملائكية لم يسمعها أحد سوى رعاة قرية صغيرة ساهرين - تحت الندى فى ليل شتاء قارص - يحرسون غنمهم من الذئاب واللصوص.

وأضاف البشير الوحيد الذى سجل حوادث تلك الليلة الخالدة التى ولد فيها المسيح، والتى مرت دون إكتراث العالم الغافل عن مخلصه: "وبغتة كان مع الملاك جمهور من جند السماء يسبحون الله قائلين المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام للناس الذين بهم المسرة" [3] (لو٢:١٤).

ولما إنصرفت عنهم الملائكة إلى السماء قال الرعاة بعضهم لبعض: لنمض إلى بيت لحم [4] وننظر

---

١ . بالقرب من هذا المكان قام فى القديم برج اسمه «مجدل عدر» أو «برج القطيع» (تك ٣٥: ٢١). والكنيسة البسيطة الموجودة الآن ربما كانت جزءاً من الكنيسة العظيمة التى بنتها الملكة هيلانة وقد ذكر «برج القطيع» و «بيت لحم» ميخا النبى فى معرض الرجاء عن مجئ المسيا (مى٤: ٨ و ٥: ٢) ويقول ايرينيموس — الذى كانت آراؤه شائعة فى أيامه . عن هذه النبوة: ان اسمها ذاته تنبؤ قديم عن وجود الرعاة عند ميلاد ربنا.

٢ . «مجد الرب» (لو٢: ٩).. غالباً يعنى الشاكيناه، أو سحابة النور التى ترمز إلى حضرة الله، أو «السكينة».

٣ . الترجمة الشائعة هى "المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة".

٤ . أى بيت الخبز.

هذا الخبر الواقع الذى أعلننا به الرب. قام الرعاة، وكان لابد لهم أن يجتازوا التل المتصعد، ثم بساتين بيت لحم ـ على ضوء القمر ـ حتى يصلوا إلى قمة الأخدود الرمادى الذى بنيت فوقه تلك البلدة الصغيرة.

وعلى هذه القمة بنى خان القرية الذى لم يكن يختلف كثيراً فى تلك الأيام عما يشاهد للآن فى فلسطين، لا فى منظره ولا فيما به من وسائل الراحة أى عبارة عن بناء وطئ من الحجارة الخامة يتألف من طابق واحد به فناء مربع متسع، تربط فيه الماشية لضمان سلامتها ليلاً. ويحتوى على سقيفة يستريح تحتها المسافرون. وأرض تلك السقيفة مرصوفة بالحجارة، ومرتفعة قدماً أو قدمين عن مستوى الفناء وتسمى الليوان. وإذا أتفق أن حضر المسافر متأخراً فعليه أن يرضط ويكتفي بركن من الفناء القذر تشاركه فيه الخيل والجمال والبغال.

وليس من النادر فى فلسطين أن يكون الخان جميعه ـ أو على الأقل الجزء الذى تبيت فيه الحيوانات ـ إحدى المغارات التى يكثر وجودها فى التلال الجيرية. والظاهر أن هذا ما كان فى بيت لحم ـ الصغرى فى أفراته اليهودية. ويرجح أن مولد المسيح قد تم فى إحدى هذه المغارات أو الكهوف. وهذا هو التقليد القديم فى جميع الكنائس الشرقية والغربية. وفوق هذه المغارة شيدت كنيسة الميلاد والدير الذى عرف باسمها.

ونزل يوسف ـ نجار القرية ـ مع خطيبته العذراء مريم من موطنهما الناصرة فى جبال زبولون وشقا طريقهما فى الطرق الموحلة. ومع فقرهما كان كلاهما من بيت ونسل داود ـ فسارا رحلة تقرب من الثمانين ميلاً ليصلا إلى القرى التى كانت مقر جدهما العظيم عندما كان غلاماً أشعث يرعى الغنم ويسوقها فوق التلال الموحشة. وكان الغرض من هذه الرحلة المتعبة أن يسجلا أسميهما فى بيت لحم لكونهما من بيت داود وعشيرته. وقد أصدر أمر هذا الإكتتاب أوغسطس قيصر. فجرى هذا الإكتتاب ليس حسب العرف الرومانى ـ أى أن كل أمرئ فى مكان سكناه ـ بل حسب العادة اليهودية أى فى المكان الذى نبتت فيه عائلته. وكان اليهود ولايزالون يتمسكون بالأنساب والإنتماء إلى الأسباط وإن كانت قد انقرضت منذ زمن طويل.

ومع أن الرحلة كانت متعبة ومكروهة، إلا أنها كانت مريحة لذهن يوسف إذ سيعترف بنسبه الملوكى رسمياً، وربما أيضاً لأنها ضاعفت فى داخله نور الرجاء بمجئ المسيا إذ كان هو الشخص الوحيد المطلع على الظروف المحيطة بالعذراء[١].

---

١ ـ يظهر أن يوسف كان يعلم وحده هذه الأمور كما يتضح من (مت ١: ١٩) "لم يرد أن يشهرها" والعدد ٢٠، يدل على أن هذه النية إستمرت عنده حتى أعلن له الملاك تفسير الأمر.

والغالب أن بئر راعوث - التى تبعد حوالى خمسة عشر ميلاً عن أورشليم أو عن بيت لحم[1] التى تقع جنوب أورشليم بنحو ستة أميال - كانت محط الرحال الأخيرة لهذه الرحلة. وكان كل ليوان قد شغل. فإن الاكتتاب جعل كثيرين يفدون إلى هذه البلدة الصغيرة حتى إنه "لم يكن لهما موضع فى المنزل" فولد يسوع فى المغارة الخشنة الملحقة بالمنزل كحظيرة للحيوانات. ولد محاطاً بالقش الذى تفترشه وتأكل منه البهائم. ولد وأبواه متعبان من سفر النهار. بعيدان عن موطنهما وسط الغرباء فى ليل الشتاء القارص، فى ظروف بعيدة عن كل راحة أو مجد عالمى، حتى أنه يستحيل علينا أن نتصور ميلاداً أوضع من هذا.

وهدى الرعاة إلى خان بيت لحم السراج المعلق فى الحبل المشدود على مدخله، ولكن بصرهم لم يقع فى المغارة إلا على فلاح جليلى جاوز متوسط العمر، وأما صغيرة السن ومعهما طفل وليد لم يكن لأمه من يساعدها، فقمطته بيديها وحدها. إن النور الذى أضاء الظلمة لم يكن حسياً ولكن ضياء معنوياً. ونور العالم الذى جاء من السماء وشرف الجنس البشرى لم يضىء حينذاك إلا قلوباً قليلة مؤمنة متواضعة.

والبشائر التى تظهر فى كل صفحة من صفحاتها تلك البساطة الكاملة التى هى ختم الأخبار الصادقة الأمينة، تذكر هذا الحادث بدون أى تعليق.

ولا نعرف بالضبط مقدار الوقت الذى قضته الأم العذراء وإبنها القدوس فى هذا الكهف أو مغارة الماشية، ولكن يظهر انه لم يكن وقتاً طويلاً لأن الكلمة الواردة فى (لو٢: ٧) والمترجمة إلى كلمة «مذود»[2] تطلق على كل مكان يطعم فيه الحيوان. والمرجح ان إزدحام الخان كان وقتياً. ولاشك أن اللياقة أوجبت نقل الأم وطفلها سريعاً إلى مكان أكثر راحة. ونحن نعلم من بشارة متى أن المجوس زاروا مريم فى «البيت» (مت٢: ١١).



١ ـ يسميها متى "بيت لحم اليهودية" (مت ٢: ١)، وهى نفسها بيت لحم أفراتة المذكورة فى (تك ٤٨: ٧) و (ميخا٥ :٢) ليفرق بينها وبين بيت لحم زبولون (يش١٩: ١٥، ١٦).

٢ ـ معنى الكلمة اليونانية: «أنا آكل» وقد وردت بمعنى «معلف» (أم١٤: ٤) و(اش١: ٣) و (أي٣٩: ٩). وبمعنى «أوارى» (٢أيا٣٢: ٢٨) وأوارى لكل أنواع البهائم وللقطعان «أوارى». وبمعنى «حظيرة» (حب٣: ١٧) وبمعنى «مذود» (لو١٣: ١٥) فالكلمة الأصلية تشمل المكان الذى تأكل فيه الحيوانات والمكان الذى تأكل منه الحيوانات أى تعنى كلا «الحظيرة والمزود».

الفصل الثاني

التقديم إلى الهيكل

لم تسجل البشائر سوى أربعة حوادث عن طفولة المسيح وهى الختان، والتقديم إلى الهيكل، وزيارة المجوس، والهرب إلى مصر. وقد ورد الحادثان الأولان فى بشارة لوقا فقط، والأخيران فى بشارة متى فقط.

ولا يمكن البت فى ترتيب الحوادث التى وقعت قبل الرجوع إلى الناصرة، غير أنه من المحقق أن الختان كان فى اليوم الثامن (لو١: ٥٩ و٢: ٢١)، وأن التطهير كان بعد ذلك بثلاثة وثلاثين يوماً (لا١٢: ٤)، وزيارة المجوس كانت "ولما ولد يسوع فى بيت لحم" (مت٢: ١)، والهرب إلى مصر كان بعد ارتحال المجوس مباشرة.

ومع أن أى ترتيب للحوادث لا يخلو من إعتراضات ـ لجهلنا بكل الظروف المحيطة ـ فمن المحقق أن الهرب إلى مصر والأسباب التى دعت إليه، حدث بعد التطهير. وبذلك يتسنى للعائلة المقدسة أن تقطن الناصرة ـ فى سلام وعزلة ـ فى بقعة تحيطها مناظر بهيجة وتقدسها تذكارات عائلية عديدة.

وفى اليوم الثامن ختن يسوع والختان عند المسيحى ذو معنى كبير. إنه يعلن أن المسيح لم يأت لينقض الناموس بل ليكمل الناموس، إذ لاق به أن يكمل كل بر (مت٣: ١٥) وأنه قد تألم منذ البداءة ليعلمنا ختان الروح والقلب وقطع الشهوات الجسدية.

وفى اليوم الثامن أيضاً تسمى الطفل[١] علانية باسم يسوع كما أمر الملاك جبرائيل. وهو اسم شائع جداً بين اليهود فى ذلك الوقت. وهو مشتق من كلمتين «يشوع» ومعناها الخلاص، و«يوشيا» ومعناها الذى خلاصه يهوه. وكان هذا الإسم عزيزاً لديهم لأنه اسم القائد الكبير الذى قادهم إلى النصر لامتلاك أرض الميعاد. ولأنه اسم رئيس الكهنة الذى تزعم جمهرة المنفيين العائدين من بابل[٢] وقد صار لهذا الاسم منذ ذلك الحين ـ ليس بين اليهود فقط بل فى كل العالم ـ أهمية عظمى مقدسة، إذ صار علما على

---

١ ـ وكانت تطلق الأسماء على الأطفال عند الرومان فى اليوم الثامن أو التاسع أما اليهود ففى اليوم الثامن اتباعا لما ورد فى (تك١٧: ٥. ١٥).

٢ ـ (عز٢: ٢و٣: ٢)، (زك٣: ١). وحمل هذا الاسم آخرون أتى ذكرهم فى (أى ٢٤: ١١) و (١صم٤: ١٤) و (٢مل٢٨: ٨) و (لو٣: ٢٩). ويقال أن ابنا لشاول تسمى به أيضاً. وفى العهد الجديد نجد: «يسوع» المسمى يسطس. (كولوسى٤: ١١) و «باريشوع» (أع٨: ٦).

ابن الله المتأنس. أما كلمة «مسيا» العبرانية و«المسيح» اليونانية فتدلان على وظيفته كالنبى الممسوح والكاهن والملك. أما «يسوع» فهو الاسم الشخصى الذى تخيره ذاك الذى أخلى ذاته من المجد وصار إنساناً بلا خطية ليخلص الخطاة.

وبعد أربعين يوما أخذته أمه - وما كانت تستطيع مغادرة مكانها قبل ذلك - إلى أورشليم لتقدم نفسها وطفلها للرب. «**لقد أحضروا رب الهيكل إلى هيكل الرب**» وكانت التقدمة الواجبة فى مثل هذا الظرف كبشاً حوليا لتقدمة المحرقة، وحمامة صغيرة أو يمامة لذبيحة الخطية[1] وكانت شريعة موسى تسمح - رأفة منها بمن لا تملك أيديهم تقدمه غالية كهذه - أن يأتوا بدلا منها بزوج يمام أو فرخى حمام (لا١٢: ٦ - ٨) وبهذه التقدمة الفقيرة جاءت مريم إلى الكاهن.

ولم يكتب لنا تفصيل عن التقديم أو التطهير غير ما سلف. ولكن هذه الزيارة خلدها حادث مزدوج وهو تعرف سمعان وحنه على «المخلص الطفل».

ولم يذكر لنا عن سمعان سوى أنه كان شيخاً إسرائيلياً تقياً ينتظر عزاء إسرائيل[2]. وأوحى إليه أنه لن يرى الموت حتى يرى المسيح. فاقتاده الروح إلى الهيكل حيث تعرف على الطفل القدوس، وطفر يغنى تلك التسبحة المجيدة (صلاة سمعان) التى ظلت طوال الأجيال محببة إلى قلوب المسيحيين. ولقد تعجب يوسف ومريم من غرابة ما حدث ومن النبوة التى قالها الشيط عن الطفل من أنه سيكون «**نور إعلان للأمم**» ولم يخبئ عنهما الشيط أحزان المستقبل، بل أنبأ [3] أمه العذراء بأمرين: المقاومة المميتة التى سيصادفها طفلها الالهى، والمخاطر والاضطراباب التى كانت - ستتمخض عنها الآيام الآتية. الكتب التاريخية ورد بها أن نيسفورس ذكر أن سمعان بينما كان يطالع[4] فى الكتب المقدسة أعثرته الآية "**هوذا العذراء تحبل وتلد**" (اش٧: ١٤)، فأوحى إليه أنه لن يموت حتى يرى إتمامها.

ومن الغريب أننا لم نخبر بشئ عن سمعان الشيط، بينما قد ذكرت لنا تفصيلات شيقة عن حنة النبية من بينها أنها كانت من سبط أشير. وهذا برهان قاطع على أن الانتساب إلى العشائر كان له حيز هام فى أذهان الناس.

---

١ - (لو٢: ٢٢)، (لا١٢: ١ - ٨) و (عدد ١٨: ١٦).

٢ - كلمة ينتظر عزاء إسرائيل تشابه ما قاله مرقص البشير عن يوسف الذى من الرامة "كان هو أيضاً منتظراً ملكوت الله" (مر١٥: ٤٣).

٣ - النبوة "سيجوز فى نفسك سيف" استعمل فيها ذات اللفظ الوارد فى (زك١٣: ١٧) "استيقظ يا سيف".

٤ - المعرب: جاء فى أخبار الكنيسة القبطية أنه أعثر وهو يترجم الاسفار المقدسة ضمن سبعين شيخاً.

الفصل الثالث

زيارة المجوس

إن خبر زيارة المجوس الذى جاء فى انجيل متى الاصحاح الثانى له مكانة عميقة فى تاريخ المسيحية، لأنه كان قبل كل شئ بمثابة إعلان المسيح للأمم، ولأنه يربط حوادث الانجيل مع المعتقدات اليهودية، والنبوات القديمة، والتواريط الفلكية، والعلوم الحديثة.

كان هيرودس الكبير - بعد حياة مليئة بالنجاح الإجرامى والإزدهار البائس - يقيم فى قصره الجديد فى صهيون. وإذا به تتملكه نوبة قاسية من الحذر والخوف أثارتها زيارة مجوس من المشرق، يتحدثون بخبر غريب، ويقولون أنهم رأوا فى المشرق نجماً لملك لليهود حديث الولادة، وقد أتوا ليسجدوا له. وإمتلأ هيرودس من الخوف والحنق لدرجة لم يستطع معهما كتمان ما ألم به عندما سمع هذا النبأ المبهج. فلما علم أن أورشليم كلها تشاركه التساؤل والإضطراب، دعا إلى قصره رؤساء الكهنة واللاهوتيين اليهود. ليسألهم أين يولد «المسيا» [1] فأجابوه سريعاً وبإيقان أن بيت لحم هى المدينة التى ألمحت النبوة أن يكون لها هذا الشرف كما جاء فى ميخا [2] فأخفى غرضه الجهنمى وأمر المجوس أن يذهبوا إلى بيت لحم ومتى وجدوا الطفل يخبروه لكى يأتى هو أيضاً ويسجد له.

لنقف هنيهة عن متابعة ذكر هذا الحادث لنسأل من هم هؤلاء المتجولون الشرقيون؟ ومايمكن أن نستكشفه من رحلتهم الغريبة؟

كلمة «مجوس» التى دعاهم بها متى البشير يونانية ومعناها مبهم وغامض. وأطلقت أولاً على شيعة من طلاب العلم المديانيين والفارسيين. ثم إستعملت بعد ذلك على الفلكيين أو قراء البخت. وأمثال هؤلاء كانوا معروفين فى القديم بإسم الكلدانيين.والتقليد الذى يعلمنا أنهم ملوك ربما يكون إستنتاجاً من نبوة أشعياء القائلة "فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء إشراقك" (أش٦٠:٣) غير أنه أقرب لمقصدنا أن نتحرى الأسباب التى أوحت إليهم برحلتهم الخالدة.

---

١ - «المسيح» معناها الممسوح بالدهن وهى تستعمل غالباً كصفة لا كإسم علم ماعدا فى مستثنيات أربعة. (يو١٧ : ٣).

٢ - (مى٥ : ٢) قارن (يو٧ : ٢) ويتبين من الآية الأخيرة أن هذه النبوة كانت شائعة بين الناس ورؤساء اليهود الذين ذكروا الآية إقتبسوها بتغيير فى ألفاظها ولكن بذات معناها.

يخبرنا متى البشير أن سبب تحفز رجائهم هو أنهم رأوا نجم المسيا فى المشرق وأن الدافع لرحلتهم أنهم أرادوا أن يتعرفوا إليه.

كان الإعتقاد الجازم فى تلك العصور أن أية ظاهرة فلكية غريبة تدل على مجئ ملك.

جاء المجوس إلى بيت لحم وقدموا للطفل فى مقره[1] الحقير العارى إحتراماً لم نسمع أنهم قدموا مثله إلى ذلك المغتصب العاتى فى سرايه الفخم " ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً ومراً " وقد إرتأى المسيحيون الأولون أن لكل هدية منها مغزى خاصاً. الذهب رمز ملوكيته، واللبان رمز كهنوته، والمر رمز آلامه.



١ . (مت٢:١١) يظهر أن المزود أو الحظيرة كان مكاناً مؤقتاً للمسيح.

الفصل الرابع

الهروب إلى مصر ومذبحة الأبرياء

كان طبيعياً أن يعود المجوس إلى هيرودس بعد أن قدموا هداياهم. ولكن إذ حذرهم الله فى حلم رجعوا إلى كورتهم عن طريق آخر. ولكن زيارتهم قد نجم عنها حوادث هامة جداً.

فالحلم الذى حذرهم من الخطر قد أذكى ما داخلهم من الشكوك من جهة الطاغية القاسى المرائى الذى أعلن بمكر رغبته فى تقديم الخضوع للملك الطفل. وإن كانوا ـ كما نخال ـ قد ألحوا ليوسف عن مخاوفهم وريبتهم، فقد أعدوا بذلك فكره لحلم التحذير الذى أمر فيه أن يهرب إلى مصر ليحمى الوليد من غيرة هيرودس.

ولا يذكر لنا الإنجيل تفاصيل عن الهرب أو مدته وكل مادونه أن العائلة المقدسة قد هربت ليلاً من بيت لحم وعادت بعد أن أوحى ثانية ليوسف فى حلم أنه قد صار أماناً أن يرجع بالمخلص إلى أرض ميلاده.

ولم يذكر لنا متى البشير أين أقامت العائلة المقدسة ولا مقدار الزمن الذى قضته فى هذا النفى، ولكن التقليد القديم يقول أنها قضت بعيداً عن فلسطين مدة سنتين فى جهة المطرية التى تقع على بعد بضع أميال شمال شرق القاهرة حيث توجد عين ماء يقال أن يسوع قد حول ماءها الأجاج عذباً، وشجرة جميز عتيقة يقال أن العائلة المقدسة إستراحت تحتها. وإنما ذكر البشير فقط أسباب هروبهم وعودتهم ورأى فى رجوعهم إتماماً جديداً عميقاً لكلمات هوشع النبى "من مصر دعوت إبنى" (هوشع١١ :١).

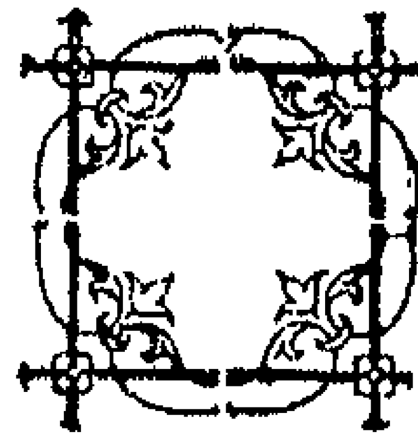
وقد أدى الهرب إلى مصر إلى حادثة مروعة فإذ لم يرجع المجوس إلى هيرودس إزدادت أوهامه ومخاوفه وغيرته ظلاماً وخبثاً. ولم يكن لديه علامات يستدل بها على الطفل الملكى الذى من ذرية داود، وما كان ليخطر على باله أن يفتش عنه فى حظيرة الغنم فى خان القرية. ولكنه كان متحققاً أن الطفل ـ الذى أخبره المجوس بأنه سيكون مناهضاً له أو لبيته ـ كان رضيعاً. ولما كانت الأمهات فى الشرق يرضعن أولادهن حولين غالباً، فقد أصدر أمره الجائر أن يقتل كل أطفال بيت لحم "من إبن سنتين فما دون".

إرتفع عويل الألم من أمهات حرمن بقسوة بالغة من أولادهن الرضع، ولم يستطع أحد أن يخفته. والذين سمعوا تذكروا راحيل جدتهن العظيمة - وقبرها جانب الطريق على بعد ميل واحد من بيت لحم - وكأنها شاركت مرة أخرى فى الصورة الأليمة التى رسمها النبى الحزين وعلا صراخها مع النواح والعويل الذى لأمهات بكين بلا عزاء أولادهن الصغار المقتولين(١).

وقد مات هيرودس بعد حادثة قتل الأبرياء بقليل. وقبل موته بخمسة أيام حاول محاولة جنونية أن ينتحر، وأمر بقتل أكبر أولاده، أنتيباتر. وقد كان فراش موته محوخاً بأهوال مريعة. ومات بمرض قذر نادر ما يحدث إلا للرجال الذين يتصفون بالغيرة الشنيعة القاتلة.

إن كان إعلان يوسف بموت هيرودس قد حدث بعد وفاته مباشرة، فإن الإقامة بأرض مصر كانت أقصر من أن يكون لها تأثير على النمو الجسدى لربنا يسوع. وربما كان هذا هو السبب فى أن لوقا البشير لم يذكر أى شئ عنها.

ولطاعة لإعلان آخر عن إرادة الله، رجع يوسف ومريم مرة ثانية إلى وطنهما الأصلى و "إنصرف إلى نواحى الجليل" حيث مكث فى مكان هادئ فى حمى الفقر والعزلة لتعيش العائلة المقدسة فى أمان تحت حكم إبن آخر لهيرودس هو أنتيباس الذى وإن كان مثل أخيه ضعيف المبادئ والصفات إلا أنه كان متراخياً عديم الإكتراث.



١ . (أرميا ٣١: ١٥) قيلت هذه النبوة أصلاً عن السبى، ثم تمت فى حادثة قتل الأطفال.

الفصل الخامس

حداثة يسوع

الناصرة، تلك البلده الصغيرة التى تقع فى منطقة الجليل - الجزء الشمالى من فلسطين - حيث قضى إبن الله مخلص البشر زهاء الثلاثين عاماً من حياته، إذ كانت موطنه ومكان سكناه كل أيامه على الأرض ما خلا ثلاث أو أربع سنين. وهى القرية التى أعارته إسمها المحتقر فى ذلك الوقت ليكتب إستهزاء فى عنوان الصليب، والتى لم يأنف هو أن ينسب ذاته إليها عندما تحدث فى الرؤيا مع شاول[1].

يتبادر إلى ذهن كل مسيحى أن يتساءل بإحترام عميق وشغف وتعطش كيف أمضى السيد هذه السنوات الثلاثين؟ أما كلمات البشائر التى تجيبه فقليلة جداً وهادئة جداً.

يمر إثنان من الأربعة البشيرين بسكوت تام على هذه السنين، وهما يوحنا الرسول الحبيب، ومرقس صديق بطرس وإبنه[2]. أما متى البشير فيخصص إصحاحاً لزيارة المجوس والهرب إلى مصر، ثم ينتقل إلى كرازة يوحنا المعمدان. ولكن لوقا وحده بعد أن ذكر لنا حوادث التقديم إلى الهيكل، دون لنا واقعة واحدة مهمة عن صبوة مخلصنا وآية واحدة غالية تصف نموه إلى أن بلغ الثانية عشرة. وهذه الآية لا تروى من تعطشنا ولا تشبع من غريزة حب الإستطلاع فينا، ولا تعطينا أية تفصيلات عن حياته ولا عن حوادثه أو إختباراته، ولكنها تخبرنا فقط كيف أنه فى طفولته الحلوة المقدسة "... كان ينمو ويعتز ممتلئاً من الحكمة ونعمة الله كانت عليه" (لو٢: ٤٠) ولهذه الفترة من حياته يمكننا أن نضيف أيضاً الآية التالية "وكان يسوع ينمو فى القامة والحكمة والنعمة عند الله والناس" [3].

ويوجد ما يقرب من الإجماع بين البشيريين الأربعة على الصمت وعدم ذكر شئ عن هذه الفترة ولكن أية بلاغة فى هذا الصمت! ألا نجد فى سكوتهم حكمة ودروساً أقوى وأكثر مما لو كانوا قد ملأوا مجلدات مطولة بتفصيلات دقيقة.

كان الصدق الذى سجلوه بصمتهم هو إفصاح عن طرق الله، مع أنه يخالف كل ما يمكن أن

---

١ - (يو١٩: ١٩) و (لو٢: ٥١) و (أع ١٢: ٨).

٢ - (١بط٥: ١٣) "... ومرقس ابنى".

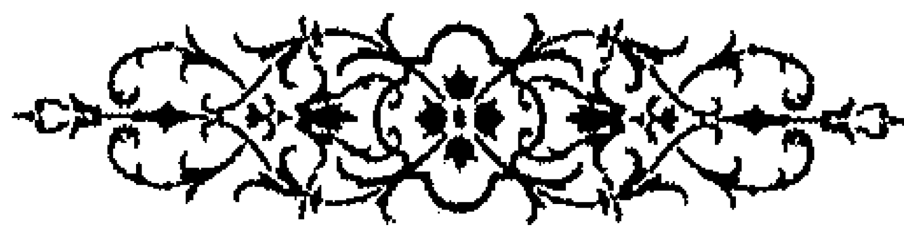
٣ - (لو٢: ٥٢) قارن (عب٥: ٨).

يتصوره الإنسان، ويخيب ما كنا نشتهى أن يكون لو لم نكن قد إستنرنا. وهذا الصمت - من جهة أخرى - يتمم ما جاء عنه فى النبوة القديمة "نبت قدامه كفرخ وكعرق من أرض يابسة" (أش٥٣:٢) وما ذكر عنه فى قول لاحق "لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد" (فى٢:٧).

ويذكر متى البشير أن سكنهم كان فى الناصرة لكى يتم ما قيل بالأنبياء «إنه سيدعى ناصرياً» ومن المعلوم أنه لم ترد آية هذا نصها الحرفى فى العهد القديم. غير أنه لما كانت كلمة الناصرة تحمل معنى الكراهية والإحتقار كما يستدل على ذلك صريحاً من سؤال نثنائيل الجارى مجرى الأمثال "هل يخرج من الناصرة شئ صالح" [1]، فلا شك أن متى البشير قد لخص معنوياً فى هذا التعبير مختلف النبوات التى لم تكن تفهمها أمته، والتى أشارت إلى أن المسيا سوف يكون رجل الأحزان.

لكن الرأى القائل إن كلمة «ناصرى» مشتقة من «نتسر» أى «الفرع» وهو الإسم التنبؤى عن يسوع رأى محتمل جداً. وقد يجوز أن القرية ماسميت ناصرة إلا لكثرة الفروع الخضراء فيها. والعهد القديم ملئ بالبراهين على أن العبرانيين - المهرة فى علم الإشتقاق والمقابلات - يعلقون أهمية كبرى على مجرد تشابه وقع نطق الكلمات على الآذان. فمتى البشير إذ هو عبرانى من العبرانيين قد رأى مشابهة تنبؤية فى سكنى المسيح فى مدينة من الجليل يعيد إسمها إلى الأذهان النبوة التى قيلت عنه فى أشعياء[2].

ومع الإحتقار الكامل الذى كان يكال لهذه المدينة الصغيرة فإن الناصرة فضلاً عن موقعها الصحى فى الوادى المنزوى كانت قريبة من تخوم أمم عظمى وسط سكان مختلفى الجنس ولذا وافقت تماماً أن تكون موطن مخلصنا فى صبوته والمكان الذى فيه تقدم "فى القامة والحكمة والنعمة عند الله والناس"[3].



١ . ربما كان فى هذا السؤال ما جعل فى كلمة «النصارى» شيئاً من الإحتقار.

٢ . "ويخرج قضيب من جذع يسى وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم وروح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب" (أش١١:١). و "..... أقيم لداود غصن بر....." (أر٢٣:٥). و " لأنى ها أنذا آتى بعبدى الغصن" (زك٣:٨).

٣ . (لو٢:٥٢) قارن (أم٣:٤) و (مز ١١١:١٠) و (١صم٢:٢٦).

الفصل السادس

يسوع فى الهيكل

توجد فى الجزء غير المعروف من حياة السيد حادثة فريدة، سناء مجدها وقوتها كفيل بأن ينير لنا هذا الجزء من حياته. وهذه الحادثة قد تشبه فى العصر الحاضر «إعلان التثبيت».

إن بلوغ الثانية عشرة سن مهمة فى تاريط الصبى اليهودى. إنها السن التى فيها ـ حسب التقليد اليهودى ـ ترك موسى منزل إبنة فرعون، والتى فيها سمع صموئيل الصوت الذى دعاه لخدمة النبوة، والتى فيها فصل سليمان فى القضية التى أظهرت حكمته، والتى فيها حلم يوشيا لأول مرة بإصلاحه العظيم، والتى فيها أثبت دانيال براءة سوسنة.

وفى هذه السن تحتم أوامر الحاخاميين وعادات الأمة أن يتعلم أى ولد مهما كان مركزه صناعة يعول بها نفسه. وفى هذه السن يحرر الطفل من سلطة أبويه فلا يقدران أن يبيعاه كعبد، وفيها يصبح «ابن هاتوراه» أى ابن الناموس. قبل هذه السن كان يدعى «كاتون» أى الصغير، وأما بعدها فيدعى «جادول» أى البالغ، ومن ثم يعامل كرجل ويلبس «التفلين» أى الأحراز فى يوم سبت يسمى لهذه المناسبة «سبت التفلين».

وهذه السن أى إكتمال الثانية عشرة من العمر هى الحد الفاصل فى تعليم الصبى اليهودى. فيذكر لنا الحاخام يهوذا إبن طيما أنه كان على الولد اليهودى أن يبدأ عند الخامسة فى درس التوراة، وفى العاشرة درس المشنة، وفى الثامنة عشرة يتزوج، وفى العشرين يقتنى الممتلكات، وفى الثلاثين القوة، وفى الأربعين الفطنة، وهكذا إلى نهاية العمر.

كانت عادة أبوى السيد زيارة أورشليم كل سنة فى عيد الفصح. وكان الناموس يحتم فقط على كل ذكر أن يحضر إلى أورشليم فى الثلاثة أعياد العظيمة: عيد الفصح، وعيد العنصرة، وعيد المظال. ولكن مريم فى تقوى الخضوع لأوامر هلليل كانت تصحب خطيبها كل سنة. وفى هذه المرة أخذا معهما الصبى يسوع إذ شارف السن التى تُفرض فيها أوامر الناموس.

وتمت فيها الزيارة الأولى إلى هيكل أبيه الملئ بذكريات كثيرة وعظيمة من قصص الملوك والأنبياء السابقين.

وتبعد الناصرة عن أورشليم حوالى ثمانين ميلاً، وكانت الجموع التى إحتشدت للفصح من جميع جهات الشرق تعد بعشرات الألوف[١]. كانوا أكثر من أن تسعهم المدينة، فكان كثيرون يقيمون لأنفسهم أكواخاً صغيرة من حصر البوص. وكان العيد يظل أسبوعاً يقضونه فى مسرة فائقة، وشعور دينى عميق، وما أسهل أن يفقد غلام صغير فى هذا البحر الخضم من الآدميين.

ولكن لوقا البشير يذكر بأكثر بساطة وأكمل صدق أنه "تخلف الصبى يسوع فى أورشليم عند عودتهما " (لو٢:٤٣)، ومضى اليوم قبل أن ينتبه أبواه لأنهما لن يكتشفا ذلك إلا عند إستراحة المساء[٢]. أما طول النهار فما إعتراهما خوف عليه إذ ظناه بين الرفاق والأقارب فى القافلة الكبيرة، ولكن عندما حل المساء وسألا عنه بتدقيق ولم يجداه، رجعا فى اليوم التالى ثانية إلى أورشليم بجزع وخوف، ولاشك أنه فى هذا اليوم الملئ بالخوف والبؤس قد جاز سيف فى نفس الأم العذراء.

ولم يجداه لا فى هذا النهار ولا فى مسائه ولا فى الجزء الأكبر من اليوم الثالث وأخيراً وجداه فى مكان لغرابته على أذهانهما كان آخر مكان يظنان أن يفتشا عنه فيه "**وجداه فى الهيكل جالساً فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم وكان كل من يسمعه يبهت من علمه وأجوبته**"، وجد يوسف ومريم الطفل المقدس جالساً على الأرض المنمقة بالفسيفساء الملونة وسط المعلمين ـ فلما أبصراه جالساً هادئاً وسعيداً فى هذه الحضرة المهيبة تعجبا[٣] ومريم ـ وليس يوسف ـ هى التى تجرأت أن تخاطبه بروح العتاب الحبى الرقيق وقالت له: "**يا ابنى ما هذا الذى صنعت بنا هكذا. هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين**". فأجاب بذلك الجواب المؤثر فى طهارة بساطته، غير المحدود فى عمق معناه، والمتناهى فى الإعزاز عندنا لأنه أول كلمات يسوع المكتوبة "لماذا تطلبانني. ألا تعلمان أنه ينبغى لى أن أكون فيما لأبى" (٤).

---

١ ـ ذكر يوسيفوس أن جمعهم لا يحصى، ويذكر الحادثة المشهورة أن سيستوس لما أراد أن يبرهن لنيرون على عظمة المدينة سأل رؤساء الكهنة عن عدد الحملان التى تقدم فى الفصح فوجدت أنها لا تقل عن ٢٥٦٥٠٠ رأسا فإذا قرنا حملا لكل عشرة أشخاص على المتوسط فيكون عدد المعيدين لا أقل من ٢٦٠٠٠٠٠ عدا الغرباء وغير الطاهرين حسب الناموس.

٢ ـ القراءة الأصلية فى (لو٢: ٤٣) هى «أبواه» كما فى النسخة القبطية. ويظن أن الاستراحة الأولى كانت عند بئر راعوث التى تبعد حوالى ٦ أميال من أورشليم.

٣ – الكلمة الأصلية تفيد منتهى التعجب.

٤ – (لو٢: ٤٩) قد يعنى «فى بيت أبى» ولكن «فيما لأبى» أعم وأصوب. قارن (١تى٤: ١٥) و (تك٤١: ١٥)

هذا الجواب السماوى بطبيعته، العلوى فى نبله، يحمل طابعاً خاصاً يدل على صدقه فما فيه من مختلف الأفكار، ومن الدهشة الممتزجة ببعض اللوم لعدم فهمهما له، ومن الاعتداد الكامل بالنفس مع الاتضاع الشامل ـ يجعله حتماً بعيداً جداً عن أفكار البشر وأقوالهم.

قالت له مريم «هوذا أبوك»، ولكنه فى إجابته لا يقر هذا لأنه من ذلك الوقت لن يعرف له أباً سوى أبيه السماوى. وفى قوله «ألا تعلمان» يذكرهما بلطف بالأمور التى علماها والتى تطرق النسيان إليها فى ذاكرتيهما. وفى قوله «ينبغى» وضع الناموس المقدس لتضحية النفس والذى سيسير بمقتضاه حتى إلى موت الصليب.

«فلم يفهما الكلام الذى قاله لهما» ذلك الشيخ الذى حماه فى طفولته، وحتى أمه التى تعلم سر مولده الرهيب لم يفهما المعنى العميق لهذه الكلمات الهادئة.

ومع أنه قد تبينت الآن جلياً بنوته الالهية ومع أنه قد ومض شعاع من مجد عظمته المخبوءة ولكنه ببساطة واجبة وطاعة مقدسة "... نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما". " أما مريم أمه فكانت تحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها" (لو٢: ٥١).



الفصل السابع

بيت الناصرة

إن كانت الاثنتا عشرة سنة الأولى من حياة السيد على الأرض لم يسجل عنها إلا حادثة واحدة، فلم يدون عن الثمانية عشرة سنة التالية أى شئ سوى ما تحمله آيه واحدة وردت فى بشارة مرقص "أليس هذا هو النجار" (مر٦: ٣).

أولاً : تظهر لنا هذه الآية أن سيدنا كان فقيراً ليس فقط فى سنى كرازته الثلاث بل طول حياته.

توجد فى كل العصور رغبة جامحة مسرفة للإكثار من الثروة، وإعجاب زائد بمن يحوزها ونتيجة لهذه الأخطاء طغى فيضان من الإهتمامات والغيرة والسفه أفسد حياة الإنسان. لذلك فضل يسوع مختاراً حالة الفقراء، ولكن بكل تأكيد - ليست حياة الفقر المذل المضنى الطاحن، بل ذلك الفقر الأمين الذى هو نصيب الأكثرين والذى إن حتم نكران الذات فإنه يمنح بسهولة وعلى الدوام كل إحتياجات الحياة البسيطة.

ثانياً: كانت الفكرة الثابتة المستقرة فى العقول غير المستنيرة أن حب الكسل والبطالة علامة مميزة للطبقة العليا الأرستوقراطية. وكان العمل مقصوراً على الطبقات الدنيا. ولكن سيدنا أراد أن يعلمنا أن العمل طاهر ونبيل، وأنه ملح الحياة، ومنطقة الرجولة، ومنجاة الجسم من الترهل والنفس من الأفكار الدنسة. فإشتغل ربنا عاملاً بيديه صانعاً محاريث وأنياراً لمن يريدونها.

ثالثاً: نتعلم من هذا الصمت الطويل والعزلة الكاملة والعيش الرتيب فى حياة خالية من الحوادث الجسيمة أن وجودنا الحقيقى فى عين الله هو فى حياتنا الداخلية وليس فى الصورة الظاهرية.

رابعاً: جاء المسيح ليعلمنا أن الإهتمامات المتواصلة، والأعمال الجسيمة، والخدمات الممتازة، والنجاح الباهر، ليست عناصر ضرورية للحياة الحقة النبيلة، وان ملايين من المكرمين عند الله هم من المجهولين وغير الظاهرين. ويعلمنا أن «من يريد أن يكون قديساً فليتواضع مثل السيد» هو الدرس المعزى المقوى، الباعث على النبل، الذى تصيح به تلك الأعوام الثلاثون الطويلة الصامتة.

خامساً: ومع أن سيدنا قضى هذه السنين فى العمل اليدوى فربما أشركه أبواه مع أولاد الناصرة الذين كانوا يتلقون قليلاً من الدين ومبادئ العلوم الأولية على «السوفريم» أو أى خادم أخر

للمجمع.[١] وكان أيضاً يسمع أثناء الصلوات اليومية التى تقام فى المجمع كل مايمكن أن يعلمه الشيوخ عن الناموس والأنبياء. أما عدم ذهابه لأورشليم أو دخوله أحد مدارس الربيين فظاهر مؤكد من أسئلة الحنق التى وجهها إليه أعداؤه الحاسدون "من أين لهذا هذه" (مر٦: ٢) و "كيف هذا يعرف الكتاب ولم يتعلم ؟" (يو٧: ١٥).

سادساً: شهادة الأعداء هذه تعطينا برهاناً قاطعاً وموفقاً على أن تعاليمه لم تكن كناية عن طريقة مختارة إستعارها من مختلف شيع معلمى زمانه. ومن المؤكد أنه لم يلتحق باحدى مدارس الكتبة الذين كان كل همهم تدريس تقاليد الآباء. فممن يمكن أن يكون قد إستعار طريقته؟ هل من الصوفيين الشرقيين أم من الفلاسفة اليونانيين؟ هل استعار من الفريسيين أم من الصدوقيين؟

لم تكن المدارس التى تعلم فيها المسيح أى من هؤلاء، ولكن مدرسة الطاعة المقدسة، والقناعة العذبة، والبساطة غير الزائفة، والطهارة التى بلا عيب، والكد المفرح. ولم تكن الحكمة التى درسها حكمة الربيين ولكن حكمته هو واضحة فى كتب الله الظاهرة أى الكتب المقدسة، والطبيعة، والحياة، وفى كتب الله الباطنة المحفورة على ألواح القلب اللحمية.

ولكن من الواضح أنه أظهر تعليماً أكثر مما تقدم...

١ ـ معرفة الكتابة ليست شائعة فى الشرق حتى فى أيامنا هذه. ولكن من إشاراته المتعددة عن أشكال الحروف العبرانية (مت٥: ١٨) ومن انحنائه على الأرض ليكتب (يو٨: ٦) يبرهن على أن السيد كان ملما بالكتابة.

٢ ـ كانت معرفته للكتب المقدسة واسعة عميقة حتى كان يبدو للناس كأنه يحفظها عن ظهر القلب وقد إستنتجوا هذا من تنويهاته المختلفة ومقتبساته العديدة من الناموس والأحكام، وكذلك من أشعياء، وإرميا، ودانيال، ويوئيل، وهوشع، وميخا، وزكريا، وملاخى، وبالأكثر من المزامير[٢]. وكذلك الكتب اليهودية غير القانونية[٣]. وهذه المعرفة العميقة الحاضرة فى الذهن جعلت أهمية بالغة لسؤاله

---

١ – يدل التلمود على وجود «السوفريم» و«الخزانيم» أى قرائين يقومون بواجبات المدرسين الخصوصيين. ويقولون إن الذى وضع أساس المدارس المنظمة للأطفال هو يسوع بن غمالائيل الأول أما فى أيام سيدنا فكان «الخزان» يشغل مكانه أقل والنظم السالفة ترجع إلى تاريخ أقرب.

٢ – كلها واردة فى إنجيل متى.

٣ – قارن (مت١١: ٢٨) مع (سيراخ ٥١: ٢٦)، و (لو١٤: ٢٨) مع (٢مكا٢: ٢٩، ٣٠) وكانت كل عائلة يهودية تحتفظ بأجزاء من الكتب المقدسة. ولاحظ «بلامتر» أن يعقوب أخا الرب كان يقتبس أيضاً منها قارن (يع١: ٦، ٨، ٢٥) مع (ابن سيراخ ٧: ١٠ و ١: ٢٨ و ٢٣:١٤).

المتكرر الذى يشعر بالغيظ. «أما قرأتم؟»

٣ ـ كانت اللغة الآرامية هى التى يتحدث بها السيد عادة. ومع أن اللغة العبرانية فى أيامه كانت لغة قديمة لا يعرفها سوى المتعلمين، ولا تحفظ إلا بجهد، غير أن يسوع كان يتحدث بها وهذا ظاهر من الإقتباسات التى أخذها رأساً من العبرانية[١]. وكذلك كان يتكلم باليونانية إذ كانت اللغة السائدة فى المدن المتاخمة لمسقط رأسه مثل صفور وقيصرية وطبرية. وبها تفاهم يسوع مع قائد المائة الذى أبرأ غلامه، أو مع بيلاطس، أو مع اليونانيين الذين رغبوا أن يتحدثوا إليه فى الأسبوع الأخير من حياته[٢]. وإن بعض المقتبسات الواردة فى البشائر عن الكتب المقدسة جاءت باليونانية[٣].

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه فى هذه السنين الساكنة التى لم يدون شئ عنها قد تم جزء كبير من عمله. فى هذه السنين «إبتدأ يعمل» قبل أن «إبتدأ يعلم» بزمن طويل (أع١:١).

سابعاً: هل كان للمسيح أخوة وأخوات حقيقيين؟

وإن كان الجواب بالنفى فمن هم أولئك الذين دعتهم البشائر مراراً «أخوة الرب»؟

يرى المطالع المنصف والمطلع غير المتحيز أنه:–

أولاً: لا يمكن أن يكون ليوسف أولاد من زوجة سابقة:

أ ـ لم يذكر فى أى موضع فى الكتاب ما يُشتَمّ منه أن يوسف النجار كان له أولاد من مريم أو من غيرها. بل على العكس من ذلك كان يذكر يوسف ومريم ويسوع فقط فى كل المناسبات مثل إكتتاب بيت لحم، وزيارة الرعاة، وسجود المجوس، والهروب إلى مصر، والصعود إلى أورشليم.

ب ـ لو كان ليوسف أولاد من زوجة سابقة لما إعتبر يسوع وريثاً لعرش داود إذ يكون الأصغر.

---

١ – (مر١٢: ٢٩، ٣٠) و (لو ٢٢ :٣٧) و (مت٢٧: ٤٦).

٢ – (مت٨: ٦ –٩ و ٢٧ – ١١) و (يو١٢: ٢١).

٣ – فى البعض فقط. نعتقد أن البشيرين أوحى إليهم أن يعلنوا لنا كل ما هو ضرورى للخلاص فى حياة السيد ولكن إختلافاتهم تدل على أنهم لم يدققوا تدقيقاً حرفياً لا فائدة منه.

ثانياً: لا يمكن أن يكون ليوسف أولاد من العذراء بعد ميلاد يسوع:

أ ـ وإلا لما تسلمها يوحنا بل يكون واحد منهم قد أخذها إلى خاصته. أما كلمة «إبنها البكر» فلا تدل على شئ سوى أنه الإبن الأول. وهذه التسمية تطلق دائماً على الولد الفاتح رحم ولو لم تخلف أمه غيره.

ب ـ إن كان له أولاد آخرون من مريم لما إعتبر يسوع وارثاً لكرسى داود لأن إبن العصب أحق بالوراثة من إبن التبنى.

ثالثاً: لا يمكن أن يكون يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان أولاد للعذراء وأخوة ليسوع. لأنه ظاهر من مراجعة (مت٢٧:٥٦) و (مر١٥:٤٠) و (لو٢٣:٥٥) و (يو١٩:٢٥) أن للعذراء أختاً إسمها مريم هى زوجة كلوبا (حلفى) (الأول باليونانى والثانى بالآرامى) "**وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا**" وأن أولادهما هم يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان. وبعضهم لم يؤمنوا به فى الوقت الذى يشير إليه يوحنا فى (يو٧:٥) وظهر يسوع بعد قيامته لواحد منهم (١كو١٥:٧)، وصار الباقون أعمدة فى الكنيسة فيما بعد.

رابعاً: المعتاد فى الشرق تسمية العم أو الخال بالأب وأولادهما بالأخوة والأخوات وهذا لا يزال شائعاً ذائعاً إلى وقتنا الحاضر فى فلسطين ومصر على السواء.

خامساً: نبوات العهد القديم تثبت بتولية العذراء أنظر (حزقيال ٤٤:٢).

(أخيراً) يحيل المعرب كل من يرغب زيادة البحث فى هذا الموضوع على المؤلفات العديدة القيمة سيما كتاب مشكاة الطلاب فى حل المشكلات الكتاب للأسقف إيسيذوروس وكتاب مريم العذراء الصادر عن جمعية المحبة القبطية الأرثوذكسية.



الفصل الثامن

معمودية يوحنا

على هذا النحو من الخضوع الوديع والسكون المقدس مرت حداثة يسوع وشبابه والأعوام الأولى من رجولته حتى أصبح فى الثلاثين من العمر. وها قد أتت الساعة لكرازته وعمل الخلاص العظيم. وها قد بدأ يرن فى البرية صوت صارخٍ ليحرك قلب تلك الأمة قائلاً: "توبوا لأنه قد إقترب ملكوت السموات".

كانت طبيعة يوحنا مملوءة غيرة نارية، ولقد قال عنه المسيح أنه كان فى ظهوره وإرساليته مثل السراج الموقد المنير (يو٥:٣٥)، وحياته العامة مثل الزلزلة الشديدة بل كان الرجل كله موعظة وحقاً سمى بـ «صوتْ صارخٍ فى البرية» إذ كان صوتاً يردد صرخة واحدة «أعدوا طريق الرب».

مجرد منظر يوحنا المعمدان كان يدل على أنه معلم من طراز آخر. كان وجهه الملفوح، وشعره المسترسل، ومنطقته التى من الجلد، ولباسه الذى من وبر الإبل[١]، تدل بوضوح على أنه قد قام أخيراً رجل حق يستطيع بعظمته الذاتية وقوته الجريئة، كمثيله النبى البدوى الخشن إيليا، أن يقف دون وجل أمام تعدى من هو شبيه آخاب، وفجور من هى مثل إيزابل.

كانت حياته الطاهرة ظاهرة لدى الجميع. فكان معروفاً أن شرابه ماء قراح وطعامه جراد[٢] وعسل برى. وشعر الناس أن له قوة الغلبة التى تمنح دائماً للذين ينكرون ذواتهم تماماً وكان مكان كرازته ووعظه، البرية الشاسعة، القاحلة، غير المأهولة، التى تمتد جنوباً من أريحا ومخاوض الأردن إلى البحر الميت.

هرع الناس أفواجاً يلتمسون سماع ذلك الصوت الغريب (مت٣: ٥). وكانت كلمات ذلك الصوت كمطرقة حطمت أقسى القلوب الصخرية فنثرتها. قد وبخ العشارين لارتشائهم، والجند لشدتهم وظلمهم وجشعهم[٣]، ووبخ الصدوقيين الأغنياء والفريسيين العظماء لحذلقتهم وكذبهم

---

١ - قارن (٢مل١:٨) و (زك١٨:٤) و (عب١١:٣٧).

٢ - (لا ١١: ٢٢)، أما عن العسل البرى فقارن (١ صم١٤: ٢٥) و (مز٨١: ١٦).

٣ - كلمة «جند» فى (لو٣: ١٤) معناها «العسكر الرحالة». ولا نعلم شيئاً عن ظروفهم.

وملسهم الذى جعلهم حيات أولاد أفاعى[١]. وحذر جميع الناس مؤكداً أن الامتيازات التى يتكلون عليها لتقيهم من الغضب الآتى هى أقل من العدم إن لم تكن مقترنة بالتوبة. وإذ كانوا يفخرون بنسبهم العريق، ذكّرهم أن الله الذى خلق آدم من طين قادر أن يقيم من الحجارة التى على ضفاف الأردن أولاداً لإبراهيم[٢]. وقد سمعوه بضمائر مبكتة، وقلوب كسيرة. وإذ كان قد إختار العماد علامة لتوبتهم وتطهيرهم فقد "كانوا يعتمدون منه فى نهر الأردن معترفين بخطاياهم". وحتى الذين لم يخضعوا لمعموديته قد فرحوا بنوره زماناً.

على أنه كانت ليوحنا رسالة أخرى أعجب وأكثر رجاء. ما إغتصب لنفسه سلطاناً سوى أنه السابق لغيره. ولم ينسب لمعموديته أهمية سوى أنها السبيل للمملكة التى كانت على الأبواب[٣] وعندما سأله رسل السنهدرين عمن يكون - وكان كل الناس يفكرون فى قلوبهم ألعله المسيح - لم يتردد هو لحظة أن يعلن أنه ليس المسيح ولا إيليا ولا النبى[٤]. بل هو "صوت صارخ فى البرية"، ولا شئ سوى ذلك، ولكن بعده - وهذا الاعلان قد هز قلوب السامعين بقوة - سيأتى من هو أعظم منه لأنه كان قبله[٥]. من سيعمد ولكن ليس بالماء بل بالروح القدس ونار[٦]، من رفشه فى يده وسينقى بيدره ويجمع الغلال إلى مخازنه أما القش فيحرقه بنار لا تطفأ. لقد جاءت الساعة لظهور المسيا الموعود به والمنتظر منذ زمن طويل. وأنه لقريب منهم بل موجود بينهم ولكنهم لم يعرفوه، أما هو فيعرفه ويرى نفسه غير مستحق أن ينحنى ويحل سيور حذائه[٧].

كانت التوبة وإقتراب ملكوت السموات هما النقطتين الأساسيتين فى وعظه. ومع أنه لم يدعم ارساليته بعمل ولو بأعجوبة واحدة، إلا أنه أنذر بعقاب المرائين وهلاك القساة، وبشر بالعفو للتائبين ودخول الطاهرين والأنقياء إلى ملكوت السموات. ولقد قيل: [إن الاعلانين العظيمين اللذين أتى بهما

١ — (مت٣: ٧). «حيات أولاد حيات» قارن (مز٥٨: ٥) و (اش١٤: ٢٩).

٢ — قارن (يو٨: ٣٣) و (رو٢: ٢٨) و (رو٤: ١٦) و (رو٦: ٨) و (أر٧: ٤) و (لو٣: ٨) «لا تفكروا أن تقولوا» (مت٣: ٩) معناها لا تفكروا لحظة واحدة.

٣ — معمودية للتوبة وليست غسلاً للتجديد (تيطس٣: ٥).

٤ — أى أحد الأنبياء الكبار مثل أرميا (قارن ٢مكا٢: ٧) الذى كان اليهود ينتظرون مجيئه ثانية ليتقدم المسيح كما يظهر ذلك جليا (تث١٨: ١٥ و ١٨). (أع٣: ٢٢ و ٧: ٣٧).

٥ — الكلمة الأصلية فى (يو١: ٣٠) لا تعنى فقط الذى كان «قبلى» بل تعنى «قبلى بكثير».

٦ — المعنى القريب والواضح لهذه الكلمات هو ما ورد فى (أع٢: ٣).

٧ — أو كما جاء فى (مت٣: ١١) «أن أحمل حذاءه» وكلا العملين من أعمال الخدم.

من الصحراء كانا الوعيد للخطية والوعد بالمغفرة، النار التى تحرق والنور الذى يضيء، وهما الدعامتان المهمتان فى أساس استعداد الانجيل].

ولهذا الوعظ ولهذه المعمودية جاء يسوع من الجليل وهو فى الثلاثين من العمر ليعتمد منه. ومع أن يسوع لم يكن أعلن بعد كالمسيح لنبيه وسابقه العظيم، فقد كان هناك شئ فى نظرته، شئ فى سلوكه النبيل وطرقه الجميلة التى بلا اثم، شئ فى عظمة هيئته الوقورة امتلك وأرهب يوحنا لساعته. فاجتهد بكل إخلاص أن يرفض طلب يسوع (مت٣: ١٤). وذاك الذى قبل إعترافات جميع الآخرين ابتدأ أن يعترف هو نفسه بإحترام وخضوع قائلاً "أنا المحتاج أن أعتمد منك. وأنت تأتى إلى؟". أجابه يسوع بثانى كلماته المدونة وأول كلمات خدمته الجهارية: " دع الآن. لأنه يليق بنا أن نكمل كل بر".[١]

كان يوحنا يقدم رسالته للخطاة الذين صحت توبتهم. فان كان الأمر كذلك فلماذا قبل السيد العماد من يد خادمه؟ كلماته نفسها تجيبنا أنه أراد أن يتمم كل مشيئة الله (مز٤٠: ٧، ٨) وهو لم يتقبل العماد بعد الاعتراف إذ أنه بلا إثم، ولذلك قرر المعمدان حتى قبل أن يعرف أنه المسيح أنه يقوم له بهذه الخدمة استثناءاً. إنما تقبل يسوع العماد ليدعم إرسالية سابقه العظيم آخر وأعظم مواليد الناموس القديم، وأول مبشر بالعهد الجديد. وتقبل العماد كعلامة جميلة التطهير، وكحفلة متواضعة لتدشين بدء شريعته التى ما جاء بها لينقض الناموس بل ليكمله. وكلماته ذاتها لا تدع مجالا لسوء الفهم، فلم يقل «يجب» ولكن «لأنه يليق بنا». لم يقل «أنى محتاج أن أعتمد» بل يوحنا هو الذى قال «أنا المحتاج أن أعتمد منك»

على هذا الرسم نزل يسوع إلى مياه الأردن، وحينئذ أعطيت العلامة الجليلة أن هذا هو «الآتى». وإذا السموات انفتحت ونزل روح الله مثل حمامة[٢] واستقر عليه كلهب مرفرف، وصوت من السماء وقع على الآذان الصماء كرعد غير مفهوم ولكنه تكلم فى أذنى يوحنا قائلاً "هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت".



١ – (مت٣: ١٤، ١٥) قيل انها تعنى كل «طقس».

٢ – وردت «مثل حمامة» فى البشائر الثلاث ووردت «فى هيئة جسمية مثل حمامة» فى لوقا قارن (١مكا١: ٢).

الفصل التاسع

التجربة

بعد أن إعتمد يسوع من يوحنا أراد الإعتزال لكي يكون منفرداً ويفكر فى عمله العظيم. فلما رجع من الأردن إقتاده الروح أو كما ذكر مرقس البشير بتعبير قوى واضح " أخرجه الروح إلى البرية".[1]

كان هناك يسوع كما قال البشير الثانى فى لغته الوصفية المؤثرة "**وكان مع الوحوش**" ولم تلحق بـه أذى "**علـى الأسـد والصـل تطـأ. الشبـل والثعبـان تـدوس**" (مـز٩١:١٣)، "**ووحـوش البريـة تسالمك**" (أيوب٥:٢٣) هكذا قال صوت الوحى فى القديم وقد تم هـذا الوعد ليسوع ولكثير من المؤمنين به.

وكان فى البرية أربعين يوماً. وهذا العدد قد تكرر وروده مراراً فى الأسفار المقدسة مقترناً دائماً بحوادث التجربة أو الإنسحاق. وظاهر أنه عدد مطلق ومقدس، فقد قضى موسى أربعين يوماً فى سيناء وإيليا أربعين يوماً فى البرية. ويجب أن نفهم كلمات لوقا الشير "**ولم يأكل شيئاً**" على حرفيتها.

«وجاع أخيراً» وكانت هذه فرصة المجرب. كانـت مـدة الأربعين يومـاً جهـاداً متواصلاً " **أربعين يوماً يجربه إبليس**" (لو٤:٢).

وقد جُرّب يسوع " **لأنه لاق.... أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام**" (عـب٢:١٠)، " **لأنه فيما هو قد تألم مجرباً يقدر أن يعين المجربين**" (عب٢:١٨).

قال له المجرب أولاً "**إن كنت إبن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً**". وربما كانت «**هذه الحجارة**» تكاثفات رملية جيرية معروفة أحياناً بالكلسيات تتخذ أشكالاً تشابه تماماً أرغفة صغيرة.

١ ـ لقد أثر إنهاك الصوم الطويل على بنية يسوع بشدة لأنه لم يكن معتاداً على ذلك، إذ أنه لم يعش كمتصوف معتزل فى قسوة وآلام يفرضـها على نفسه ولكـن لغرض نبيـل عـاش كرجـل وفـى وسـط الرجال. ولم يمتثل لصوم كأنه واجب محتم عليه ولكنه سمح به وحبذه تماماً كمساعدة قيمة، ورد ذلك فى مكانين (مـت٦: ١٦ ـ ١٨) و (٩:١٥)[2] لـذلك كـان جوعـه شـديداً بعـد أربعين يومـاً. إن كـان

---

١ – قارن (رو٨:١٤) و (حز٣:١٤) و (مر١:١٢).

٢ – فى (مت١٧:٢١) "... لا يخرج إلا بالصوم والصلاة " يفهم منها أن يسوع نفسه كان صائماً، وكذلك (مر٩:٢٨). (المعرب: عن ضرورة الصوم راجع كتاب اللآلئ النفيسة).

إسرائيل لما تذلل وأنهكه الجوع فى القفر قد أطعمه الله المن الذى هو طعام الملائكة والذى هو الخبز النازل من السماء ليسد حاجته القصوى هذه، فلماذا لا يعد إبن الله لنفسه مائدة فى البرية؟ وإن كان ملاك قد لمس إيليا وهو مضنى من الجوع وأراه الطعام، فلماذا ينتظر هو خدمة الملائكة؟ وانه لفى غنى عنها.

وياالعمق حكمة الجواب! وقد ألمح فيه إلى نفس الدرس الذى كان نزول المن معنياً بتعليمه وإقتبس إحدى البينات النبيلة من وحى العهد القديم قائلاً "مكتوب[1] ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله" [2]. وأى درس يحويه هذا الجواب لنا، درس قد تثبت بمثال ما أعظمه، درس يوجب علينا ألا ننقاد لطبائعنا السفلى، وألا نسئ إستعمالها فى كسب عيشنا أو ملذاتنا، وأن نتأكد أننا لسنا ملك أنفسنا فلسنا أحراراً لنصنع ما نريد بما نظن أنه ملك لنا.

وكل من إعتقد أنه يحيا بالخبز وحده فإنه يجعل حصوله على الخبز مبتغاه الأهم فى حياته، ويوطد العزم للحصول عليه بأى ثمن. فإذا قل عنه الخبز، أو حرم منه ولو إلى حين يصبح تعساً ثائراً. ولأنه لا يطلب غذاء أقدس يموت أخيراً من الجوع وهو فى وسط الخبز. ولكن من يعتقد أنه لا يحيا بالخبز وحده فإنه لن يفقد فى سبيل العيش الأشياء التى تجعل الحياة عزيزة، أو يفرط فيها. ويثق أنه ما دام يعمل واجبه فإن الله سيمنحه كل إحتياجات الجسد الذى خلقه، فيسعى بجهد وإخلاص فى طلب الخبز الذى من السماء والماء الحى الذى كل من يشرب منه لا يعطش أبداً.

وهذه التجربة الأولى تماثل فى شكلها التعبير الأخير الذى وجه إليه وهو على الصليب "إن كنت إبن الله فإنزل من على الصليب".. «إن»..... الإيمان والثقة هما أساس كل قداسة الإنسان ولذلك يحوز المجرب قوة أعظم عندما يثير الشكوك، ويحوز قوة أيضاً عندما يستفز إرادة الإنسان وحريته الذاتية.

٢ ـ ترتيب التجارب مختلف فى البشارتين. ففى متى نجد أن التجربة الثانية هى منظر جناح الهيكل، وفى لوقا رؤية ممالك العالم. ربما تأثر لوقا فى ترتيبه بفكرة أن تجربة الكبرياء الروحية والإقتدار الذاتى لقوة صنع المعجزات أشد مكراً وأقل ظهوراً فتكون أعظم نكاية من تجربة السقوط وتحدى قوة الشرير. ولكن الكلمات «إذهب خلفي يا شيطان» التى دونها البشيران كلاهما (لو٤:٨ ومت٤:١٠) ولأن متى البشير يعطى ترتيباً صريحاً «بعدئذ... وثم.....»، ولأنه ربما أيضاً لكونه أحد الإثنى عشر رسولاً

١ – (مت٤:٤) والكلمة «مكتوب» فى الأصل تعنى لصيغتها النحوية حقاً مستمراً أبدياً.

٢ – (تث٨:٣).

ويكون قد سمع الحديث مباشرة من شفتى يسوع يجعل الترتيب الذى كتبه أكثر أرجحية.

ولقد إنتصر يسوع فى التجربة الأولى مجاوباً بآية تمكن البشر من الثقة التامة فى الله. وإذ إكتشف الشيطان بمكره اللانهائى إتجاه روح المخلص إلتجأ على الفور فى التجربة التالية وهاجم مباشرة تلك الثقة التامة طالباً برهاناً عليها ومظهراً لها. وهذه التجربة ليست لسد حاجة ملحة ولكن لدرء خطر جارف. "حينئذ أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح هيكل عال" (مت ٤ : ٥).

«إن»، مرة ثانية يستعمل الشيطان هذه الكلمة ليثير ذلك الشك وكأنه يوقظ روح الكبرياء التى كان يجربه بإظهارها فى قوة صنعه المعجزات " إن كنت أنت إبن الله فإطرح نفسك من هنا إلى أسفل" إنك فى خطر لم تسع بنفسك إليه، فخلص نفسك منه. إنك تقدر وتريد، وبذلك تظهر قوتك الإلهية. أليس مكتوباً أن ملائكته تحملك؟ ثم ألا يكون هذا برهاناً ساطعاً على ثقتك فى الله؟ كانت هذه التجربة عميقة ماكرة وإذ أن يسوع قد إقتبس من الكتب، فهكذا الشيطان قد إقتبس من الكتب أيضاً حسب أهوائه.

وأى جلال كان فى الجواب البسيط المملوء من التحذير "مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك" والكلمة الأصلية (مت٤ :٧ و ٦ :١٦) قوية شديدة فى دلالتها ومعناها «لا تجرب إلى التمام» الرب إلهك. ولا تطالب قوته بالبرهان ولكن فى طريق تأدية واجباتك ثق به على التمام بإيمان كامل ولا تستمع للهمس المتعجرف المغرى «وتكونان كالله»، وكلمات المجرب ذاتها إعتراف منه بعجزه: «فإطرح نفسك من هنا إلى أسفل» فحتى فى ذلك العلو الشاهق الذى يورث الدوار لم تكن للشيطان القوة أن يطرح ذاك الذى يمنح الأمان، ولقد كان الاقتباس الذى إستشهد به الشيطان من الكتاب حقاً، ولكنه قد قلبه وحرفه. ولنتحقق أن التجربة مهما عظم مقدارها لا تحتم الخطية، بل مع كل تجربة قد أعد الله المنفذ.

"مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك" هكذا قال يسوع فثبت وإنتصر. أما الشيطان فضربته الدهشة وإندحر.

٣ ـ وإذ إندحر أصابه الخذلان فى تجربة إستفزاز الجوع الطبيعى وتجربة حفز الكبرياء الروحى جاء المجرب ليثير «آخر ضعف فى العقول النبيلة»، ويرمى أشد سهم فى جعبته، ولإفتقار هذه التجربة إلى مكر وإخفاء المظهر فقد أفاض فى جلال المخبر ولذلك أصعد يسوع على جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال «رئيس هذا العالم» لذاك الذى عاش كنجار قرية «أعطيك هذه بأسرها إزاء سجدة

واحدة، أى إزاء عمل واحد تعترف به لسلطانى». [١]

ممالك العالم ومجدها! معنا لا يحتاج الأمر لهذا كله لأننا لا نعرف قدر نفوسنا ونعرضها سلعة بسعر بخس فهو يشترينا بأخسأ الأثمان وكثيراً ما لا يحتاج الشيطان أن يعلو بنا إلى الجبل، فالتل علوه كاف جداً، بل ربما أحط برج فى المدينة يكفى بالغرض، بل دعه يحملنا حتى على سلم أو منور فى منازلنا، أو حتى على نافذة أو باب ويظهر لنا انه مزمع أن يعطينا ما يمكن أن نراه من مثل هذا المكان، فإنه يجربنا وينجح ونحن نرضخ ونشكره أيضاً..!!

ولكن المسيح علمنا أنه "ماذا يستفيد الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه".

ومن هو وارث لملكوت السموات فهو المالك لعوالم أكثر إتساعاً وأمعن حقيقة، ثم هو أعظم سعادة بما لا يمد لأنه أظهر بما لا يقاس. وعلى هذا الملكوت لا سلطان للشيطان لأنه ملكوت الله وإذ أن الشيطان لا يمنح أقل عطية من هباته المخربة إلا بعد أن يستعبد النفس لتسجد له فليس من جواب على كل تجاربه إلا جواب المسيح «**اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد**». لقد إنتصر يسوع فى فترة العزلة التى فى مثلها فقط يكتسب النصر. وهذه اللحظات التى للجهاد الأمين الذى يتكلل بالظفر هى أحلى الساعات التى يمكن أن تمنحها حياة الناس إذ تكون ملآى بالسمو والفرح اللذين لا يمكن وصفهما إلا بلغة تستعار من تشبيهات السماء.

«**ثم تركه إبليس**».. ويضيف لوقا البشير قوله «**إلى حين**» **وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه.**



١ – (يو١٢: ٣١ و ١٦: ٢ –٣٢) و (أف٢: ٢) و (٢كو٤: ٤).

الفصل العاشر

الرسل الأوائل

ترك المخلص البرية منتصراً على تلك التجربة الثقيلة ظافراً فى ذلك الإختبار النارى، وعاد إلى ضفاف الأردن[1].

ونحن مدينون للبشير الرابع فى معرفة الحوادث التى أعقبت التجربة مباشرة. حيث هو وحده الذى سجل لنا الدعوة المبدئية للرسل الأولين، وذكرها بتدقيق فى التفصيلات وصدق فى التصوير كشخص قد تركت كل حادثة فى قلبه أثراً لا يمحى.

ويظهر أن المندوبين الذين بعثهم السنهدرين ليوحنا المعمدان[2] جاءوه فى اليوم السابق لرجوع السيد من البرية. فلما كان الصباح التالى[3] ورأى المعمدان يسوع مقبلاً شهد له علانية وبتأكيد أمام الجموع أنه حقاً المسيا وقد إستدل عليه بالعلامة المعلنة التى ظهرت فقال لهم **"هوذا حمل الله الذى يحمل خطية العالم"**. وقد إستعار التشبيه ووصف عمله من النبى الإنجيلى أى الصورة التى للصبر الإلهى والآلام الشفاعية التى ذكرها أشعياء (أش٥٣:٧ قارن ايضاً ١١:١٩) ولا يمكن أن تحمل كلماته معنى أقل من أن الرجل الوديع الذى بلا خطية الذى أشار إليه سيكون رجل الأحزان، وأن هذه الأحزان ستكون لخلاص شعبه.

ومع قيمة هذه الشهادة فيظهر أنها لم تؤت ثماراً فى اليوم الأول. ولكن فى اليوم الثانى بينما كان المعمدان واقفاً مع إثنين من تلاميذه مر يسوع بهم فثبت يوحنا عليه نظرة[4] مخلصة قوية وقال ثانية بإعجاب ورهبة "هوذا حمل الله!"

وكانت الكلمات أعظم من أن تهمل ثانية فتبع الشابان الجليليان اللذان سمعاها شخص يسوع

---

١ - من المعروف أن «بيت عنيا» هى القراءة الصحيحة لـ (يوحنا ١: ٢٨).

٢ - (يو١: ١٩ - ٣٤)

٣ - (يو١: ٣٥ -٤٣) والكلمة «لم أكن أعرفه» تدل فى الأصل على انه لم يكن «يعرفه أنه المسيا» حتى رأى وشهد أى نظر ولاحظ العلامة السماوية.

٤ - المعنى الأصلى للكلمة يفيد تثبيت النظر. قارن (مت١٩:٢٦) و (لو٢٠:١٧) و (مر١٠:٢١).

المتباعد، ولما سمع وقع أقدامهما الخائفة إلتفت إليهما وهما يقتربان وسألهما بلطف «ماذا تطلبان»؟

كان يسوع لا زال فى أول خدمته الجهارية، وما كانا يعرفان عن حقيقته كل شيء، وما كانا قد سمعا بعد كلمات النعمة الفائضة من بين شفتيه. فيجوز أن يكون قد دفعهما إلى الإتيان لرؤياه دوافع ليست قوية، أو مجرد حب الإستطلاع، والأوجب أن يأتيا إليه عن إقتناع ذاتى ويعلنا غرضهما بمحض إرادتهما.

كان هذا السؤال أصعب من أن يجاوب عليه الشابان الجليليان مباشرة، ربما كان أعظم مما يعرفان أو يفهمان ولكن جوابهما أظهر أنهما كانا جادين إذ قالا: "رابى الذى تفسيره يا معلم أين تسكن"، وإستعمل هذا اللقب الدال على منتهى الشرف والإعتبار والذى يظهر أن مجرد شخصيته قد أثرت فيهما للدرجة القصوى.

ونحن لا نعلم أين كان يسكن. قال يسوع لهما "تعاليا وأنظرا" وكانت كلماته هذه أيضاً غاية فى البساطة ولو أنها وردت فى مواضع ذات أهمية كبيرة[1] ولكنها لم تحدث قط مثل النتائج التى إنتهت إليها الآن. أتيا ونظرا أين كان يسوع يمكث، وإذ كانت حينذاك الساعة الرابعة[2] بعد الظهر فقد صرفا ذلك النهار والأغلب أن يكونا قد باتا أيضاً تلك الليلة هناك. ولكن قبل أن يرقدا ليناما كانا قد عرفا وتأكدا من أعماق قلبيهما أن ملكوت السموات قد إقتربت، وأن آمال الأجيال الطويلة قد تحققت، وأنهما فى حضرة ذاك الذى هو مشتهى الشعوب: الكاهن الأعظم من هارون، والنبى الأعظم من موسى، والملك الأعظم من داود، ونجم يعقوب الحقيقى ومخلص إسرائيل.

كان إندراوس[3] أحد هذين الشابين اللذين تبعا يسوع أولاً، أما الثانى فقد كتم إسمه إذ كان هو المتحدث التلميذ الحبيب يوحنا البشير فلا عجب إن كانت أصغر التفصيلات حتى إلى ذكر ساعة النهار نفسها حاضرة فى ذهنه ولم ينسها قط حتى فى شيخوخته البالغة.

---

١ – (يو١١:٣٤) و (رؤ٦: ١و٣ و٥ و ٧) و (مز٦٦:٥).

٢ – كان التوقيت فى ذلك الزمن يبدأ فى الصباح (أى أن الساعة الثانية عشرة . وهى بدء التوقيت . تقابل عندنا السادسة صباحاً) وعليه فالساعة العاشرة التى ذكرها يوحنا فى (يو١:٣٩) تقابل الرابعة بعد الظهر حسب التوقيت الحديث.

٣ – ولذا أسماه الآباء «أول المدعوين».

كان إهتمام أندراوس الأول أن يبحث عن أخيه سمعان[١] ويزف إليه تلك البشرى العظيمة. أتى به إلى يسوع فنظر إليه يسوع بعينه الفاحصة المسيطرة التى تقرأ أعماق الأفكار، ورأى فى ذلك الصياد البسيط الضعف الكامل وأيضاً العظمة الفائقة، وقال له معطياً إياه إسماً جديداً قد تثبت بقوة فيما بعد "أنت سمعان إبن يونا. أنت تدعى كيفا" أى أنت سمعان «إبن اليمامة» ومن الآن ستكون الصخرة حيث تعيش اليمامة[٢].

كيف أن هذين الشابين الجليليين - يوحنا المتوقد ولكن المفكر، وأندراوس المندفع فى محبته ولكن المتردد فى عزماته - قد إرتميا حالاً كما بنظرة واحدة أو كلمة واحدة على قدمى المخلص؟ كيف أنهما بلمحة واحدة من البصيرة أو الالهام قد تحققا أن نجار الناصرة هو مسيا النبوات، هو ابن الله، هو مخلص العالم...؟

لا شك أن هذا حدث تحت تأثير ما سمعاه من كلماته وما شهد به المعمدان عنه، ولا شك أنه حدث أيضاً تحت تأثير مجرد منظره. قال القديس ايرينيموس [حقاً كان ينبعث من عينيه لهب نارى وضياء متألق، وتلمع فى وجهه العظمة الالهية].

أما اليوم الثالث لرجوعه من البرية فيظهر أن يسوع قد صرفه فى التحدث مع تلاميذه الجدد. وفى اليوم الرابع أراد يسوع أن يبدأ العودة إلى الجليل. وفى أثناء الرحلة صادف شاباً صياداً آخر اسمه فيلبس من بيت صيدا وفيلبس هو الوحيد بين جميع الرسل الذى له اسم يونانى وربما يدل اسمه اليونانى على أنه كان مختلطاً مع بعض الجماهير الذين يتكلمون اليونانية والذين عاشوا معاشرين للجليليين على شواطئ جنيسارات. وهذا يفسر لنا أنه التلميذ الوحيد دون باقى الرسل الذى لجأ إليه اليونانيون الذين أرادوا أن يروا يسوع فى الأسبوع الأخير من حياته. وكلمة واحدة كانت الدعوة المثمرة «اتبعنى» كانت كافية لتجعل ذلك الرسول اللطيف البسيط يرتبط بيسوع إلى الأبد. والمظنون أن يسوع كان يعرفه من قبل.

وفى اليوم التالى ضم عضواً خامساً جديداً لتلك الجماعة المقدسة السعيدة. وإذ كان فيلبس متحمساً أن يذيع الاكتشاف الثمين الذى خبره، بحث عن صديقه نثنائيل متمماً بذلك أسمى ميزات الصداقة التى تحتم علينا إيصال ما خبرناه بأنفسنا إن كان سامياً ومقدساً إلى الآخرين، ونثنائيل فى جدول الرسل على الرأى الذى لا شك فيه هو عين الرسول برثولماوس فإن برثولماوس كنية لا إسم، ومعانه «ابن

١ – يدل بحث إندراوس عن سمعان (يو ١: ٤١) على محبة أخوية حقيقية.

٢ – هناك تفسير آخر: «أنت ابن الضعف من الآن ستكون الصخرة».

ثولومى» وقد ذكر نثنائيل مرة واحدة أخرى بهذا الاسم (يو٢١: ٢)، بينما برثولوماوس يذكر دائماً فى جدول الرسل ملحقاً بفيلبس. وإذ أنه من قانا الجليل فمن السهل أن يكون ابن ثولومى صديقا للصياد الشاب الذى من جنيسارات. كانت العزلة التى انتحاها يسوع حتى ذلك الوقت تامة حتى أن نثنائيل كان يعرف فيلبس ولم يعرف يسوع. ويظهر أن بساطة تفكير فيلبس جعلته يلذ له أن يقارن بين عظمة عمل يسوع ووضاعة مولده إذ قال لنثنائيل "إن الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء قد وجدناه"، "هو يسوع ابن يوسف الذى من الناصرة".

ويظهر أن نثنائيل قد أدرك ما رمى إليه فيلبس من مقارنة واستدعى انتباهه ذلك الاسم المنسوب للناصرة. والمجمع عليه أن جوابه كان أحد الأمثال، غير أنه قد يجوز أن يكون تليمحاً عرضياً لكلمة «ناصورة» أى «المحتقرة» أو ربما كان جوابه بسيطاً ارتكن على كلمة الناصرة تلك المدينة غير المعروفة أو المشهورة في واديها الصغير الذى قليلاً ما يطرق، فهل يمكن أن يخرج منها شئ صالح. أما جواب فيلبس فقد كان نفس الكلمات التى خاطب يسوع بها يوحنا وأندراوس. لقد كان تلميذاً مقتدراً فردد هو أيضاً "تعال وانظر".

ولليوم يتردد هذا السؤال «أيمكن أن يخرج صالح من الناصرة؟». والجواب الوحيد الممكن الآن كما كان فى الماضى هو «تعال وانظر». وكان معناه فى ذلك الزمان تعال وانظر شخصاً يتكلم بما لم يتكلم به إنسان. تعال وانظر شخصاً مع كونه نجاراً من الناصرة فانه يرهب أرواح كل الذين يدنون منه، لأن مجرد وجوده يعلن خفايا كل القلوب ولكنه يقرب منه ويجتذب إليه أشقى الخطاه بمحبة فائقة. تعال وأنظر شخصاً يشع منه جمال لا يقاوم للطهارة التى بلا إثم، جمال فائق لحياة إلهية. قال فيلبس «تعال وأنظر» وهو متيقن فى قلبه البسيط المخلص أن رؤية يسوع معناها أن تعرفه، وأن معرفة يسوع معناها أن تحبه، وأن محبة يسوع معناها أن تعبده.

وحالاً إنتفى إحجام نثنائيل المتحفظ فعندما رآه يسوع مقبلاً أعلن أن ختم الله على جبهته وقال عنه «هاهوذا في الحقيقة إسرائيلى لا غش فيه» ولما سأله نثنائيل ومن أين تعرفنى أتاه ذلك الجواب الفاحص القلب «قبل أن يدعوك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك».

كانت عادة اليهود الأتقياء وهى عادة أقرها التلمود أن يقرأوا «الكريشما» أو خدمة الصلاة اليومية تحت شجرة تين. وقد ظن بعضهم أن شيئاً له دلالته فى إستدعاء الرسول وهو تحت ظلال شجرة ترمز

إلى الطقوس اليهودية والتقاليد اليهودية التى كانت مبتدئة أن تنهار إلى الأرض[١].

هناك لحظات تهز فيها نعمة الله القلوب البشرية ويظهر أن الروح فيها تعتلى أجنحة نسور الرجاء والصلاة إلى سماء السموات وكأنها أختطفت إلى حضرة العلى ذاتها فترى وتسمع أشياء لا ينطق بها. وفى هذه اللحظات نحيا كما لو عشنا الحياة كلها لأن المشاعر التى تتملكنا تمحو كل إعتبار للوقت «وتحشد الأبدية فى لحظة وتطيل اللحظة إلى أبدية» فى مثل هذه اللحظات نكون أقرب إلى الله ويظهر أننا نعرفه وأننا معروفون منه.

فمثل هؤلاء سيفهموا الهزة العلخفية التى إستولت على نثنائيل وخرف السهم للإيمان الكامل الذى أصاب فى تلك اللحظة قلبه وجعله كأنه ينحنى على ركبتيه وهو يصرخ قائلاً "يا معلم أنت إبن الله أنت ملك إسرائيل".

بعد ذلك قلما نسمع ثانية عن نثنائيل إذ يلوح لنا أنه كان من أرباب الروح الهادئة المفكرة والتى وإن كانت دائرة حياتها هنا ولكنها كانت تعيش «بعيداً عن كل الأصوات ـ الضوضاء ـ حيث يكون السلام». كانت حياة لم ير العالم منها شيئاً لأنها كانت مستترة مع المسيح فى الله. ولكننا نتأكد أنه حتى زمان إستشهاده بل حتى وهو فى آلام إستشهاده لم ينس تلك الكلمات الهادئة التى دلت على أن إلهه «قد فحصه وعرفه وإختبر أسرار أفكاره»، وأنه لم يرتب أو يشك ولا مرة واحدة، ولكن لأيام عديدة مستقبلة قد تم له الوعد ولرفقائه بأنهم بعين الإيمان[٢] سيرون "السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان" [٣].



١ – راجع (١مل٤:٢٥) و (ميخا٤:٤) و (زك٣:١٠) و (مت٢١:٢٠) و (لو٨:٧).

٢ – هذا الوعد روحانى كما أكد الأباء. "أنكم سترون" (يو١:٥١) أى من هذه الساعة فصاعداً راجع (مت٢٦:٢٤)، أو قولنا فى التضرعات [إجعلنا مستحقين يا سيدنا.......الخ] لا تدل على المستقبل بل تعنى من ذلك اليوم وما بعده. «الحق الحق» وردت ٢٥ مرة فى بشارة يوحنا ودائماً مزدوجة راجع (أش٦٥:١٦) و (٢كو١:٢٠) و (رؤ٣:١١).

٣ – «ابن الإنسان» هو اللقب الذى يدل على أن المسيح هو الممثل الوحيد لكل ابن من الأسرة الآدمية التى خلقها الله. أنظر (دا٧:١٣ و١٤) و (رؤ١:١٣) الخ [ابن الانسان = ابن آدم].

الفصل الحادي عشر

المعجزة الأولى

قال البشير يوحنا "وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل" وإذ كتب بذاكرة حية ومعرفة تامة عن كل حادثة وقعت فى تلك الأيام الخالدة الإلهية، فقد كتب دلالة الأزمنة كما لو كان الجميع مثله يعرفونها جيداً. لذلك فهمت «فى اليوم الثالث» على وجوه عدة أبسطها أنه اليوم الثالث لسفر يسوع ميمما الجليل.

ويظن أن سبب مجئ العذراء مريم من الناصرة لحضور الزفاف ربما كان أن أحد العروسين من ذوى قربى العائلة المقدسة. وقد دعى يسوع وتلاميذه أيضاً. ولكن من المحقق أن العذراء قد إتخذت مركزاً رئيسياً فى المنزل، وأمرت الخدم بصيغة السيادة. وهذا يجعل من الجائز أن يكون العرس لإحدى إبنتى أختها زوجة حلفى «أخوة الرب». وفى وقت ما من العرس نفذ الخمر على غير إنتظار (يو٢:٣) وليس غير من إختبر يعرف أن كرم الضيافة مقدس فى الشرق، وأنه من الواجب المحبوب قلبياً أن يكون هذا الكرم بالغاً حد الكمال يستطيع أن يعلم مقدار الغم الذى يخيم على الحفل، ولا مقدار الألم والبؤس الذى يحيط بالعروسين.

تحت هذه الظروف ولوجود هذا السبب قالت أم يسوع له "ليس عندهم خمر" وواضح أن هذه الملاحظة كانت مقصودة ولا يمكن إغفال ما تنطوى عليه. وما كان يعلم أحد مثل مريم من كان إبنها. كان إيمانها قوياً ودوافعها نقية. ولكن قد صار من الضرورى الآن وإلى الأبد أن يظهر لها أنه من الآن فصاعدا لم يعد يسوع بن مريم ولكنه المسيح ابن الله، وإنه إزاء عمله العظيم وإرساليته وإزاء كيانه الأزلى قد إنتفت أهمية تلك الصلة الجميلة وأن أفكاره غير أفكارها وطرقه غير طرقها وما كان ممكناً أن يفهمها ذلك على وجه أكثر صراحة وفى الوقت ذاته أشد لطفاً إذ قال لها يسوع: **"ما لك ولى يا إمرأة"** هذه الكلمات تظهر لنا للوهلة الأولى أنها ثقيلة على السمع بل تكاد تكون صادة فى خشونتها وإيجازها. ولكن هذا الخطأ مصدره الترجمة من جهة والظرف المحيط من جهة أخرى. وفى ظرف كهذا ما كان ليدعوها «أمى» بل خاطبها بقوله «يا إمرأة» وهو لقب كان محترماً للغاية فكانت تخاطب به الملكات، وكان رقيقاً جداً فكانت تخاطب به فى أشد أوقات الحنان أعز الأحباء[1]، و «مالك ولى»

---

١ - مثلاً عندما خاطب يسوع مريم المجدلية فى البستان "يا إمرأة لماذا تبكين" (يو٢٠:١٥) وخطاب الملاكين لها (يو٢٠:١٣) وعندما خاطب يسوع أمه وهو على الصليب "يا إمرأة هوذا إبنك" (يو١٩:٢٦).

هى الترجمة الحرفية لجملة أرامية ذائعة «ماه لى فلاك» وهى وإن كانت تصد رغبة وتبعد أى مناقشة أخرى بخصوصها، فإنها مطابقة تماماً لما جرى عليه الذوق والإحترام والوقار[١].

ولا نشك مطلقاً فى أن الصد البسيط الذى إنطوت عليه تلك الكلمات الهادئة قد خف كثيراً بالنظرة التى صحبتها واللهجة التى نطقت بها. وكثيراً ما منعت النظرة واللهجة كلمات أشد غلظة من هذه من أن تكون مثيرة للألم. ولذا نجد مريم بإيمان لم ينتقص وشعور خال من أى جرح تأمر الخدم الذين كان لها سلطان ظاهر عليهم قائلة: "ما يقوله لكم إفعلوه".

من أول الواجبات فى الشرق غسل الأرجل عقب السفر وغسل الأيدى قبل الأكل. ولتسهيل القيام بهذا كان يوجد عند مدخل الباب ست أوان خزفية كبيرة حلوقها مغطاه بورق الشجر النضير لتبقى على برودة الماء، وكل منها تسع مطرين[٢] أو ثلاثة. فأمر يسوع أن تملأ هذه الأجران ماء إلى فوق (يو٢:٧)، ففعلوا كما أمر. ثم قال أن يستقوا منها فى أوان صغيرة، ويقدموا منها إلى رئيس المتكأ الذى كان ينتخب حسب عادة ذلك الزمان ويعتبر رئيساً للعرس. وإذ لم يكن قد علم شيئاً مما حدث، فقد لاحظ منشرحاً أن العريس قد خالف العرف المتبع فى الولائم. هذه بداية (يو٢:١١) الآيات التى صنعها يسوع لقصد معين حسى، ولقصد رمزى قدسى، وبها أظهر مجده فآمن به تلاميذه.

كانت هذه هى الآية الأولى. وبأى بساطة وهدوء ربانى! والكيفية التى تمت بها الآية. تعلو كثيراً عن قوة أفهامنا. ولكنها لم تعمل بضجة أثيرت حولها أو بنفخة مجد عرضى.، إنما كانت أعاجيب يسوع علامات أو كما سبق وذكرنا تكاد أن تقرب من علامات عرضية لإرساليته الإلهية لأن الغرض الأول منها كان تخفيف آلام البشرية، أو التمثيل عن الحقائق المقدسة.

توجد خاصتان لهذه المعجزة الأولى تسترعيان الإلتفات:

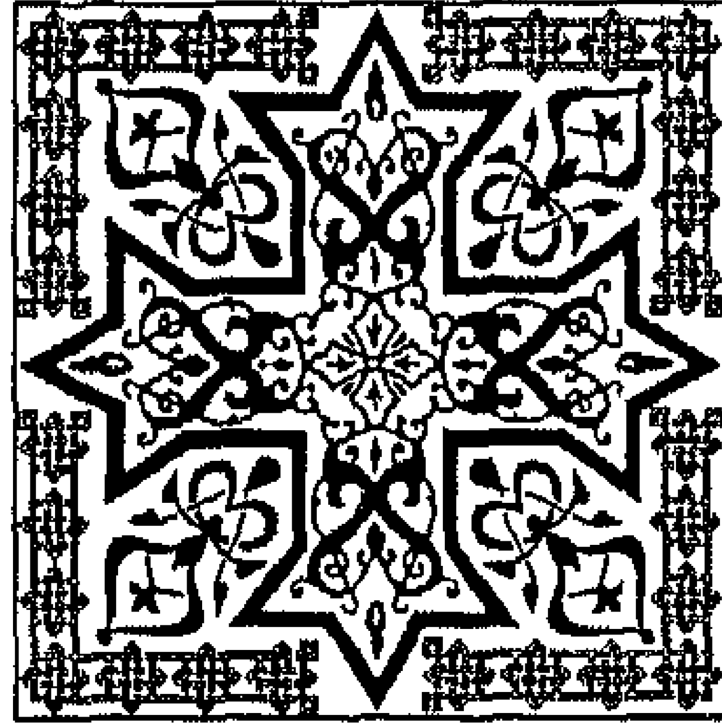
الأولى: أنها معجزة إلهية فى الإيثار. ستكون ديانته ديانة الفرح والسلام، فأقر لا التقشف المميت بل المسرات الطاهرة، وصادق ليس فقط على البتولية القاهرة بل أيضاً على الإتحاد المقدس. وذاك الذى لم يشأ أن يحول حجارة البرية إلى أرغفة عمد بعد ستة أو سبعة أيام فقط، لأجل الآخرين إلى قوته القادرة على تحويل العناصر، ليزيل الحيرة والألم من وليمة العرس المتواضعة ويحول الماء خمراً. كانت أعجوبة

١ – أنظر (٢صم١٦:١٠) و (١٩:٢٢) و (١مل١٧:١٨) و (قض١١:١٢) و (٢مل٣:١٣) و (يشوع٢٢:٢٤).

٢ – قارن (٢كو٤: ٧) أوان خزفية والمطر هو البث ومقداره – نحو سبعة جالونات ونصف.

موسى الأولى عقاباً صارماً إذ حول نهر أمة مذنبة إلى دم، وكانت أعجوبة يسوع الأولى أن يملأ أجران الماء لعائلة بريئة بالخمر.

والثانية: مغزاها الرمزى. فهذه المعجزة ككل معجزات السيد تقرن عمل الرحمة بمثل أو نبوة. يقدم العالم لخيب ماعنده أولاً وبعد ذلك الدون والحثالة، ولكن يسوع أتى ليحول الأدنى إلى الأعلى والأفضل، ويكمل ناموس موسى إلى ناموس الحرية الكامل، وعماد يوحنا إلى عماد الروح القدس ونار، وإنكار الذات الذى للوحدة المؤلمة إلى إنكار الذات الذى للعائلة المفرحة، والحزن والتنهد إلى الأمل والبركة، والماء إلى الخمر. وفوق ذلك فإن الحالة القدسية التى مجدها المسيح، وأكمل جمالها بحضوره إلى قانا الجليل وصنع أول معجزاته فيها، ترمز إلى الإتحاد السرى بين المسيح وكنيسته. والعنصر المادى الذى تحول بقوته القادرة صار رمزاً لحياتنا على الأرض التى تحولت وتغيرت وصارت نبيلة فى إنتظار أفراح السماء مثل الخمر الذى يشربه جديداً معنا فى ملكوت الله فى عشاء عرس الخروف.



الفصل الثاني عشر

مكان الكرازة

كانت أعجوبة المسيح الأولى فى قانا علامة على أنه جاء لا ليدعو تلاميذه خارج العالم فيطلقونه وكل واجباته العادية، ولكن ليجعل الناس أكثر سروراً ونبلاً وصلاحاً فى العالم. وأرادهم أن يكونوا أزواجاً وآباء ومواطنين صالحين، وأظهر إرتياحه لفرح الإجتماعات الطاهرة وبهجة المجتمعات البريئة لا أقل من إنشغاف المتعبد فى البرية وأحلام المتصوف فى صومعته المنفردة.

قد إنقضت أيام العزلة المحببة فى وادى الناصرة البهيج، وستبدأ الآن حياة كلها كد لا ينقطع، وإهتمام عميق، وإضطراب، وتجوال، ومناهضة، ووعظ، وشفاء، وصنع خير.

فى بدء كرازة يسوع العامة لم تكن إقامته فى كفر ناحوم تلك المدينة الصغيرة التى إختارها لبدء كرازته لأيام عدة ولكنها كانت مثالاً لباقى أيام حياته. كان يعظ فى مجمع يهودى بناه قائد مائة رومانى. وكانت أعمال محبته[1] تنتشر بين رجال مختلف الأمم.

ومع أهمية ما صرفه المسيح من حياته فى هذه البقعة الجميلة فمن المستغرب أن الموقع الأصلى لكفر ناحوم (مدينته مت٩:١)، والتى رأت كثيراً من أعظم عجائبه وسمعت كثيراً من أعظم إعلاناته، يظل إلى يومنا هذا غير محقق. بلا شك كان واحد من إثنين، أما مكان «خان منية» أو مكان «تل حوم»، هذا مؤكد على وجه التحقيق، ولكن أيهما؟ فكلاهما قريب جداً من بيت صيدا وكورزين. وسواء كان هذا الموقع أو ذاك هو المكان الذى فيه بيت بطرس حيث كان يقيم المسيح أيضاً (مت٨:١٤)، فكلاهما الآن دمار موحش. فالويل المحزن الرهيب الذى نطق به يسوع على هذه المدينة التى كانت حينئذ عامرة مزدهرة قد تم "وأنت أيضاً يا كفر ناحوم أترتفعين إلى السماء لسوف تهبطين إلى الجحيم" (يو١٠:١٥) "لأنه لو حدث فى سدوم هذه القوات التى حدثت فيك لبقيت إلى اليوم" [2]



١ – إن أعمالاً عظيمة صنعها فى هذه الزيارة القصيرة ظاهرة من (لو٤:٢٣) ولكنها لم تصل إلى درجة العجائب وذلك واضح أيضاً من (يو٤:٥٤).

٢ – (مت١١: ٢٣).

الفصل الثالث عشر

يسوع في عيد الفصح

كانت زيارة يسوع السالفة لكفر ناحوم قصيرة جداً [1] وليس بعيداً أنه أقام فيها ريثما تبدأ رحلة القوافل العظيمة للحجاج الذين كانوا مزمعين أن يتخذوا طريقهم لحضور العيد العظيم فى أورشليم.

قد سكت البشيرون عن ذكر أية زيارة للمسيح لأورشليم لحضور عيد الفصح ما بين الثانية عشرة من عمره إلى قرب موته [2] عدا يوحنا الذى إتبع مقصد ومميزات بشارته فذكر زيارة يسوع للفصح عند بدء كرازته وأعطانا تفصيلات ما حدث فى أثنائها.

وأهم شئ إمتازت به هذا الزيارة هو تطهير الهيكل، وهو عمل لم ينتفع به اليهود فى التغلب على رذيلتهم المتأصلة حتى أنه إضطر لإعادته بكلمات أشد قسوة عند ختام مدة كرازته أى لأربعة أيام قبل موته [3].

قد أسلفنا أن جموعاً كثيرة كانت تهرع إلى المدينة المقدسة أثناء العيد السنوى العظيم. وفى ذلك الزمان كان هذا الحشد الزاخر من الحجاج والمتهودين حديثاً من كل أمة ومكان يحضرون معهم مختلف الحاجيات العديدة.

ولا شك أن البائعين أو المشترين الذين سدوا الطريق المؤدية للهيكل فى عيد الفصح الذى صعد فيه يسوع، كانوا يبيعون الثيران والكباش والحمام. فمن جانبى الباب الشرقى - باب شوزان - إلى باب سليمان قامت دكاكين التجار ومكاتب الصيارفة، وبالتدريج إحتلت أخصاص البائعين وموائد الصيارفة رواق الأمم وأصبح مبعثاً للحرارة القاسية فى أيام إبريل، مفسداً لهواء الهيكل بالروائح الكريهة وأقذار القطعان الكبيرة من الغنم والبقر بينما كان يتحدث أصحابها مع الحجاج ويتساومون عليها. وإزدحم الرواق أيضاً بباعة الحمام وأقفاصهم الوسيعة المصنوعة من الجريد. وجلس الصيارفة تحت الأقبية المقامة

---

١ - "وأقام هناك أياماً ليست بكثيرة" (يو٢:١٢).

٢ - كما أن يوحنا يذكر بجلاء (يو٧: ٣ - ٤) كرازة اليهودية فكذلك البشيرين يذكرون بوضوح كرازة الجليل.

٣ - (مت٢١: ١٢) و (مر١١: ١٥ -١٧) و (لو١٩:٤٥) يظهر فيما أنه يستحيل أن تنصب على حادث واحد.

على رباعيات من الأعمدة القورنثية وأمامهم موائدهم عليها أعمدة صغيرة من العملة الفضية، يحسبون ويعدون ويشتغلون بأقل الأعمال أمانة، وترقص عيونهم مملوءة من شهوة الطمع. وهذا كان مدخل هيكل الله! والرواق الذى كان يجب أن يكون عنواناً بأن البيت يجب أن يكون بيت الصلاة لجميع الأمم قد إمتهن حتى صار لقذارته أقرب لمربط البهائم.

فعندما دخل يسوع الهيكل إمتلأ بغضب حق ضد كل هذا الإمتهان الوضيع، وإشتعل بغيرة نبيلة لا تقاوم، فصنع سوطاً من الحبال الملقاة على الأرض، ولكى يطهر الرواق المقدس من هذه النجاسات الزرية، طرد أولاً وبالجملة الخراف والثيران والجمع الخفير الذى كان يقتادها، ثم ذهب إلى موائد الصيارفة فقلبها وما عليها من أعمدة العملة المختلفة المرتبة بإعتناء تاركاً أصحابها يتلمسونها ويجمعونها من على الأرض القذرة. وحتى للذين يبيعون الحمام أصدر أمره إليهم بالرحيل. ولم يقلب موائد باعة الحمام لئلا تصاب فى أقفاصها. ولكن حتى لباعة الحمام قال بكل سلطان «إرفعوا هذه من ههنا» ولم يبرر أعماله أمام الجموع المذعورة الحقيرة المتذمرة التى أصابها الضرر إلا بهذا التوبيط «لا تجعلوا بيت أبى بيت تجارة» (١). وإذ رأى تلاميذه هذه القوة من الغضب النبيل القاهر تذكروا ما كتبه داود النبى لرئيس الضاربين على الشوشنيم المخصصين لخدمة ذات الهيكل "غيرة بيتك أكلتنى" (مز٦٩: ٩).

ومع أن الكهنة والفريسيين والكتبة واللاويين كانوا كما لو أن الكبرياء والتقاليد قد طمست بصيرتهم، إلا أنهم لم ينتقدوا عملاً نبيلاً كهذا كان يعمل مثله نحميا أو يهوذا المكابى، ويتفق مع ماهو طاهر وحسن فى تاريخهم. ولكن عندما علموا بهذا الحادث أو شاهدوه ثم إستفاقوا مما تملكهم من مزيج الإعجاب والكره والإستغراب الذى داهمهم أتوا إلى يسوع ولم يستطيعوا أن يوبخوا ما عمل وإنما بشمم جزئى سأله اليهود (٢) أن يريهم آية تدعم سلطانه فيما فعل.

كان جواب يسوع بكامل معانيه أبعد ما يكون عن أفهامهم، وما ظهر لهم منه ملأهم من الذهول غضباً ودهشة إذ أجاب يسوع وقال لهم "إنقضوا هذا الهيكل وأنا فى ثلاثة أيام أقيمه"

أنقضوا هذا الهيكل، الهيكل الذى إحتاج فى بنائه لألف عربة وعشرة آلاف عامل متطوع وألف

١ – (يو٢: ١٥) وفى هذه المرة إستعمل يسوع كلمة «بيت تجارة» أما فى المرة التالية فقد إستعمل تعبيراً أشد «مغارة لصوص» قارن (أرميا ٧: ١٠و١١).

٢ – كلمة «اليهود» فى (يو٢: ١٨) تعنى كما يقصد بها دائماً فى بشارة يوحنا «المضادين من اليهود» وهذا التعبير لا يوجد فى باقى البشائر إلا عند ذكر عنوان الصليب «ملك اليهود» وذلك لأن يوحنا البشير بقى حتى بدء حقبة العهد المسيحى فإستعمل كلمة اليهود بما يعنى «الأعداء الألداء للمسيحية».

كاهن فى ثيابهم المزركشة ليضعوا حجارته بعد أن صقلها النحاتون، الهيكل الذى كان أعجوبة الزمان لأساساته الرخامية الفخمة، وفسيفسائه الثمينة، وأخشابه العطرة الرائحة، وسقوفه اللامعة، وكرمته الذهبية.

وهذا الشاب الجليلى غير المعروف يأمرهم بنقضه وهو يقيمه فى ثلاثة أيام! هذا هو المعنى الظاهرى والحرفى، والخطأ الذى إختاروا أن يفهموه من كلامه مع أنه مدون فى كتب أنبيائهم العظماء أمثلة[1] تشعرهم بوجود معنى آخر مخفى فى الآية التى قالها لهم.

ومما يثبت أن هذه الكلمات تركت عندهم أثراً لا يمحى أنه بعد ثلاث سنوات قد تمسك بها شهود الزور أكثر من كل أحاديثه، وإجتهدوا أن يحرفوها ويقدموها إتهاماً له، بل أكثر من هذا فإنها ذات الكلمات التى عيره بها اللص البائس وهو على الصليب، ولكنهم إضطروا أن يحرفوها تماماً إلى "إنى أقدر أن أنقض هيكل الله وفى ثلاثة أيام أبنيه" (مت٢٦:٦١) أو إلى "إنى أنقض هذا الهيكل المصنوع بالأيدى وفى ثلاثة أيام أبنى آخر غير مصنوع بأيد" (مر١٤:٥٨)، مع أنه لم يقل هذا بتاتاً ولم يستعمل هذه التعابير حتى أن شهادة الزور هذه لم تتفق فسقطت من نفسها.

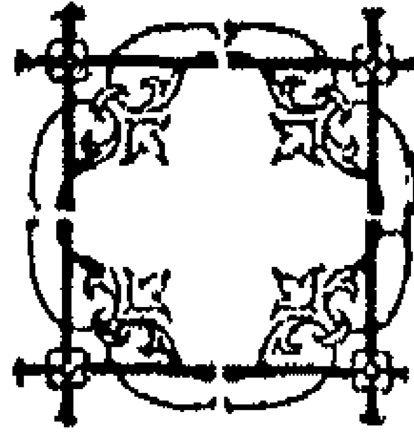
قال يوحنا البشير "أما هو فكان يقول عن هيكل جسده". ولو أنهم أرادوا لفهموا بعض الفهم ما قصده المسيح. كان يجب أن يفهموا هذا من صوت المعمدان الذى أعلن أنه المسيا، ويتحققوه مما قاله لهم فيما بعد "هوذا أعظم من سليمان ههنا" أى أعظم من بانى الهيكل - وأن يتأكدوه من كلام أحد الربيين فى تفسير نبوة دانيال (٩:٢٤) والذى يجب على الأقل أن يعلموه «أن قدس الأقداس الحقيقى هو المسيا نفسه».

ولكن يوجد دليل آخر -ولو أنه عرضى إلا أنه عميق الأهمية - نرى منه أنهم علموا من المعنى الحقيقى الذى قصده يسوع أكثر مما إختاروا أن يظهروه. فعندما مات يسوع ودفن فى القبر الصخرى ذهبوا إلى بيلاطس يعيدون نفس هذه الكلمات - الكلمات الرسمية الأولى التى خاطبهم بها يسوع - وقالوا له قولتهم المشهورة «يا سيدنا إنا تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حى أنى بعد ثلاثة أيام أقوم» ونحن نعلم أن يسوع لم يصرح لهم أبداً بمثل هذا الكلام. فإن لم يكونوا سمعوا هذا القول من يهوذا أو تناقلتها الشائعة عن التلاميذ، أى أنه لو لم تكن «إنا تذكرنا» كذبة صريحة، فإنهم ما تذكروا سوى هذه الحادثة. أما سماعهم لها من أحد التلاميذ فغير مرجح بالمرة لأن كلمات السيد هذه مرت على قلوب

١ - قارن (أش٧: ١١ و١٤).

التلاميذ البطيئة الفهم مثل ريح عابرة.

ولكن كان هناك معنى آخر تحتمله هذه الكلمات ليس أقل منه كراهة فى مذاقه ولكنه مملوء بالتحذير وأقرب لدائرة أفهامهم. كان الهيكل يمثل قلب الشريعة الموسوية وحصن كل المظهر اللاوى، ففى إمتهان هذا الهيكل وسماحهم بإمتهانه ثم بتركهم من إعتبروه كمعلم جليلى مسكين أن يطهره، الأمر الذى لم يجرأ أن يتمه أو يعمله قيافا أو حنان أو هليل أو شماى أو غمالائيل أو هيرودس، إما تغافلاً أو جبناً أو حرصاً على المنفعة الشخصية. ألم يكن فى هذا معنى نقضهم لهذا الهيكل وإلغاء ذلك الترتيب شاهدين بذات أعمالهم أن معنى الهيكل الحقيقى قد إنتهى من ناحيتهم؟ كان يسوع إذن كمن يقول لهم بطريق النبوة والأمر (إنقضو هذا الهيكل)[1] لا تؤخروا عملكم المخرب هذا وأنا فى ثلاثة أيام كالمخلص القائم من الأموات أقيم ما هو أفضل وأعظم، هيكلاً غير مادى، أقيم كنيسة حية. وهذا هو المعنى الذى يظهر أن إستفانوس قد فهمه من هذه الكلمات. وهذا هو المعنى الذى توسع فيه فى جملة مواضع بولس الرسول الذى لا يجارى فى قوة مداركه وشدة غيرته.



١ – (يو ٢: ١١) المعنى الأصلى لكلمة «أنقضوا» هو «أنقضوا حالاً» وبالأمر المؤكد. قارن (مت ١٢: ٣٣).

الفصل الرابع عشر

نيقوديموس

تتكون الشيع أو الطوائف غالباً من قوم غلاة فى التعصب، ومن أتباع غيورين. ولكن يكون غريباً حقاً لو خلت أية شيعة ممن يشذ عن هؤلاء. غريباً لو أن الأمانة والإخلاص والتعقل يكون ميتاً عندهم كلهم. لذلك قد وجد يسوع حتى بين الحكام والكتبة والفريسيين وأغنياء أعضاء مجلس السنهدرين، مؤمنين وأتباعاً، وأولهم وأشهرهم نيقوديموس الذى كان غنياً ورئيساً وفريسياً وعضواً فى السنهدرين[1].

ويتضح لنا من مجمل ما تذكره البشائر أن جبنا طبيعياً كان متأصلاً عند نيقوديموس، جبنا لم يتغلب عليه تماماً حتى وقت رغبته الأمينة فى ابداء صداقته واحترامه لمن تحقق أنه نبى، ولو لم يتضح له أولا أنه المسيا الموعود. لذلك نرى أن الكلمات القليلة التى قالها وقت الحكم على يسوع والتى أودعها ثنيات حديثه ليدفع بها الظلم العجول الذى تورط فيه زملاؤه، كانت ترتكز على المبادئ العامة ولا تكشف عن ايمان شخصى بذلك الجليلى الذى تحتقره شيعته. وحتى عندما تجلت محبة يسوع على الصليب وصيرت أخوف أتباعه شجعاناً لم يتقدم نيقوديموس بهداياه الثمينة الدالة على إخلاصه إلا بعد أن رأى أن غيره من درجة غناه ورتبته ومكانته فى الهيئة الاجتماعية ـ وهو يوسف الرامى ـ قد سبقه.

فهذا هو الرابى الذى كان مزيج من الاخلاص ليسوع والخوف من الناس والذى أتى خفية باحتراس إلى يسوع ليلاً، مشتاقاً أن يعلم أكثر عن هذا الجليلى ويخشى على سمعته وربما على سلامته لو زاره نهاراً جهاراً.

ولو أنه قد أشير بكلمات قليلة فقط أثناء ذكر التعاليم السامية التى أفضى بها إليه يسوع إلا أن الأثر الذى تركته لنا شخصيته واضح ثابت، فملاحظته الأولى ذاتها تظهر لنا حقيقة عقليته غير الصريحة، وطريقته فى ايحاء ما يريده دون التصريح به، ورغبته المتأججة للسؤال وفى الوقت ذاته تلكؤه الرجعى فى صوغ سؤاله، والتسليم بأن يسوع قد أتى «من الله»، ثم فى الوقت ذاته ادخال الملاحظة المترددة أنه أتى «معلماً» فقط، ثم السؤال المضمر ماذا ينبغى أن أعمل؟

رأى السيد عمق قلبه فترك كل ما اصطلح عليه العرف وأهمل مناقشة أوليات الأحاديث

---

١ - (مت٩: ١٨) و (مر١٢: ٢٨).

وفاجأه دفعة واحدة بخطاب حازم وقرر "الحق الحق أقول لك ان لم يولد الانسان من فوق فلا يقدر أن يعاين ملكوت الله". يجب على تلميذى أن يكون لى قلباً ونفساً وإلا فلا يكون لى تلميذا قط. فالسؤال ليس أن «يعمل» أو «لا يعمل» بل أن «يكون».

وهذه الاجابة أثارت فى نيقوديموس حماساً شديداً ولكنه كاليهود فى الفصل السالف (يو٢: ٢٠) لم يقدر أو لم يشأ أن يفهم معناها الكامل. وفضل أن يتلاعب بطريق مشاغب مدهش حول المعنى الحرفى للكلمات التى اختار أن يحور معناها إلى أمر مادى للغاية بعيداً عن العقل. ولم يقف يسوع ليفند هذه المزاعم بل أوضح تحذيره المتقدم المتكرر بوميض جديد، فلم يتكلم عن الميلاد اللحمى ولكن عن التجديد الروحى الذى لا يمكن أن يعلم إنسان عن كيفيته أو طريقه. كلمه يسوع عن التجديد الروحى الذى يجب أن يكون ولادة من الماء والروح وغسلاً أو تطهيراً، أى علامة خارجية ونعمة داخلية، موتاً عن الخطية، وولادة جديدة فى الحق.

أما نيقوديموس فلم يستطع أن يجاوب سوى بتعجب وارتياب إذ ظن أنه قد يجوز أن يحتاج الأممى إلى ولادة جديدة عند إعتناقه اليهودية، ولكن وهو ابن إبراهيم الرابى الحريص على حفظ الناموس هل يحتاج لهذه الولادة؟ كيف يمكن أن تكون هذه الأمور؟

أجاب يسوع "أنت معلم اسرائيل ولا تعلم هذا" أنت العضو الثالث فى السنهدرين! أنت الحاخام أى الرجل الحكيم ولا تعلم أول وأبسط درس للدخول فى ملكوت السموات؟ إن كانت معرفتك جسدية ومحدودة. فكيف يمكن أن تفهم الحقائق العويصة التى لا يمكن أن يعلنها إلا من أتى من السماء؟ وقد إنطوت كلمات السيد على الحزن والتوبيط. ولكنه إستمر يظهر لمعلم اسرائيل هذا أموراً أعظم وأغرب، إذ أظهر له أن خلاص الانسان يتم بآلام ورفع ابن الانسان[1] وأن محبة الله قد أعلنت فى إرسال ابنه الوحيد لا ليدين العالم بل ليخلص العالم، وأن الخلاص هو بالايمان به، والهلاك للذين يرفضون الحقائق التى أتى ليعلنها.

كانت هذه أسرار ملكوت الله وهى حقائق لم يحلم بها ولكنها أعلنت للناس، وإن كانت قد تعدت كل تقليد وأبعدت كل رجاء وقتى لذلك المستفسر المسن، حقائق لكى يتعلمها يجب أن ينسى طريقة تفكيره وما اعتاده من تجاريب، حقائق نعلم من مجرى الحوادث التالية أنه رغم عدم فهمه لها تماماً

---

١ – (يو٣: ١٤) يرفع تدل على المعنى الحرفى والرمزى، يرفع على الصليب ويعلى فى الملكوت قارن (تك١١: ١٣) و (يو١٢: ٣٢) و (لو٥: ٣٥).

قد نقشت عميقاً على روحه الداخلية. ولا شك أن ظلام الليل ازداد قتاماً ويسوع ومعلم اسرائيل يناقشان أسرار ملكوت الله. وفى الكلمات الخالدة عن النور والظلام التى اختتمت بها المحادثة وبط يسوع بلطف الخوف من الناس الذى دعى ذلك الرابى العظيم أن يحتمى بانتصاف الليل فى أداء عمل ليس من أعمال الظلمة فيحتاج إلى الخفاء، ولكنه كان فى الحقيقة مجيئاً إلى النور الحقيقى والوحيد.

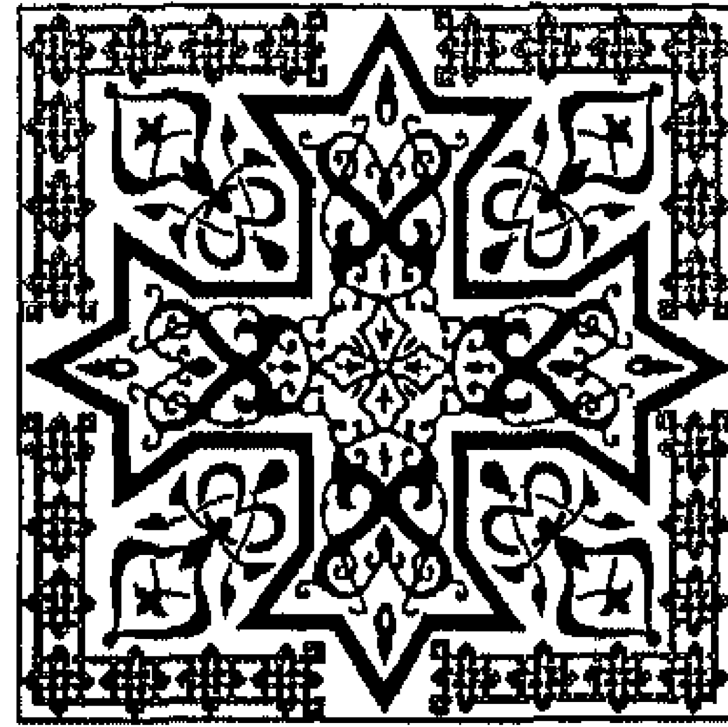
لم نعط تفصيلات عن أى دروس أخرى فاه بها يسوع أو آيات صنعها فى المدة الباقية من فترة هذا الفصح الأول. وإذ وجد السيد معارضة غليظة خرقاء ترك أوروشليم وجاء هو وتلاميذه «إلى أرض اليهودية»، ربما إلى ضفاف الأردن لأن يوحنا البشير يخبرنا أن تلاميذه بدأوا يعمدون. ولقد فتش اللاهوتيون فى مختلف وشتى وعميق التفاسير لمعمودية التلاميذ هذه ولكن لا شئ من كل ما تخيلوه يلقى ضياء على هذا الموضوع، ولكننا نعتقد فقط أن يسوع سمح بهذا التقليد الجميل إلى وقت ما كعلامة للتلمذة وكرمز ظاهر للرغبة فى نقاوة القلب، الأمر الضرورى لكل الذين يطلبون دخول ملكوت السموات.

كان يوحنا المعمدان إلى ذلك الحين مستمراً فى معموديته التى للتوبة، وإذ أن تبشير المسيح فى كامل قوته لم يكن قد بدأه بعد فقد كانت معمودية يوحنا وكذلك معمودية التلاميذ علامة للتوبة والطهارة. ولن يستغرب أحد ممن يعتقدون أن التوبة هى الشقيق الأصغر للطهارة، وأنها روح الحياة للخطاة. إن بدء كرازة يسوع كانت مثل يوحنا "توبوا لأنه اقترب منكم ملكوت السموات" [١] حقيقة إن زمان الاستعداد لم يكن قد انتهى بعد ولكنه كان يقترب من النهاية، فكانت معمودية التلاميذ ايذاناً بفترة الظهور وافتتاح الكرازة. ويدل انقطاع يوحنا عن الوعظ فى البرية أو التعميد فى بيت عنيا وشعوره أنه من المناسب أن ينقص وإن ذاك يزيد ثم تركه الأردن مجال مجده ونجاحه القصير، هذا يدل على ابتداء أفول «نجم فجر الانجيل»، أى يوحنا المعمدان المتواضع.

وانتقل يوحنا إلى عين نون قرب ساليم وأتى بعضهم أيضاً لهذه المعمودية وإن كان غالباً بعدد أقل لأن أكثر الجمع جرى وراء معمودية تلاميذ المسيح. ولكن الغيرة غير النبيلة التى لم تظلم روح المعمدان النيرة وجدت مكانا رحباً فى قلوب تلاميذه. وحدث أن بعض اليهود أغاظوا تلاميذ يوحنا فى مناظرة بشأن التطهير فأتوا بعواطفهم الحائرة الكسيرة إلى معلمهم العظيم قائلين "يا معلم الذى كان معك فى عبر الأردن الذى أنت شهدت له ها هو يعمد والجميع يقبلون إليه". وحذف الاسم عمدا له

١ - (مت١٨: ٣) و (مر١: ١٥).

معناه، وتجلت عظمة يوحنا الكامنة فى إجابته النبيلة. بل أظهر لهم أن الله هو النبع الوحيد لكل المواهب، وأن أمام عينى الله لا تعد العظمة البشرية شيئاً. وذكرهم بتأكيداته أنه ليس يسوع ولكنه مرسله. ليس هو العريس بل صديق العريس، وأن قلبه قد فرح الآن فرحاً عظيماً عندما سمع صوت العريس، وأنه قانع منذ الآن أن ينقص، بل وراض أن يتلاشى ضوءه الضئيل فى نور الصبح الذى لا يحد إذ لم يكن سوى رسول أرضى ولكنه ختم إيمانه بكل إيقان أكيد أن الله صادق، وأنه قد أعطى كل شئ للابن، وأنه بالابن فقط تربح الحياة الأبدية.



الفصل الخامس عشر

المرأة السامرية

تيقن السيد أن الفريسيين كانوا يراقبون أعماله بعين عدائية لأن تعاليمه صادفت نجاحاً أكثر. ولهذا السبب، أى الاصرار على رفض ما ابتدأ أن يعلم به، ولكن بالأكثر لأنه فى ذلك الوقت وصلته أخبار أن هيردوس انتيباس قد القى القبض على يوحنا وأودعه السجن، ترك يسوع اليهودية ويمم شطر الجليل[1]. وإذ كان فى شمال اليهودية فقد اختار الطريق الذى يجتاز السامرة. ولم يقم وزنا للتعصب والكره اليهودى.

وابتدأ فى الصباح الباكر لتتوفر له فى السفر ساعات أكثر من وقت الصباح العليل الهواء. وأخيراً وقف للراحة واسترداد القوى بالقرب من سيخار، ليس بعيداً عن البئر التى فى الاقليم الخصب الذى منحه أبو الآباء يعقوب محاباه لابنه المحبوب. وكانت البئر ككل الآبار المستعملة فى الشرق مظللة بخميلة صغيرة تحتها مقاعد حجرية. كانت ساعة الظهيرة وإذ كان تعباً من طول السير وربما أيضاً من اشتداد الحر "جلس كذلك على البئر". وقد تركه تلاميذه والغالب أنهم كانوا أوائل من إختارهم وهم بطرس وأخوه أندراوس ويوحنا وأخوه يعقوب، والصديقان فيلبس وبرثولوماوس، ذهب هؤلاء جميعاً إلى المدينة المجاورة ليشتروا ما كانوا فى إحتياج إليه، بينما مكث ذلك الذى حمل كل أوجاعنا عطشاناً وجوعانا، ينتظرهم تعبا، وإذا السكون قد قطعه مجئ امرأة.

وقد جاءت هذه المرأة لتستقى ماء فى هذا الوقت لأن سيرتها لم تكن نقية فتحاشت الساعة[2] التى يزدحم فيها البئر بكل نساء القرية. وكان السيد تعبا وعطشاناً ولا وسيلة عنده للوصول إلى الماء البارد المتألق عميقاً عن فتحة البئر. ولذلك بادر المرأة قائلاً "أعطينى لأشرب".

كل من سافر فى الشرق يعلم المسرة والسرعة فى إجابة هذا الملتمس، فالفلاح المسكين وحتى البدوى الغليظ يجدان سروراً أكيداً فى اشتراك المسافر العطشان فى هذا العنصر المجانى، لكن الكراهية والمنافسة كانتا مميتتين بين اليهود والسامريين[3] حتى انتفى الحديث العادى بينهم تماماً.لذلك أبدت المرأة

---

١ - السببان الأولان يذكرهما يوحنا (٤: ٢، ٣) والأخير ذكره مت (٤: ١٢) و (مر ١: ١٤) وهما يجعلان سجن يوحنا بدء الكرازة فى الجليل بينما يوحنا يذكر الأسباب الأخرى.

٢ - (تك٢٤: ١١).

٣ - (يو٤: ٩). راجع (عزرا ٤: ١) وقد تكلم السيد عن السامرى بأنه «غريب الجنس» (لو١٧: ١٨). وكان اليهود يسمونهم «كوثيين» ويقرنون «السامرى» مع «الشيطان» ويتهمونهم بعبادة الآلهة الغريبة والأقراط

السامرية دهشتها من تقديم هذا الطلب.

أجابها السيد بلطف وبدون توبيط أنها لو علمت عطية[١] الله ومن هو الذى طلب منها أن تعطيه ليشرب لكانت هى التى تسأله فيعطيها ماء حيا. فأشارت المرأة إلى البئر[٢] وعمقها حوالى مائة قدما، وقالت لا دلو لك فمن أين لك الماء الحى. وربما بإبتسامة ارتياب وفخر وطنى سألته إن كان أعظم من أبيهم يعقوب الذى حفر هذه البئر وشرب منها ولكن بالتأكيد كان شئ فى كلامه جعلها تدهش وتخاف لأنها الآن تخاطبه بلقب الاحترام «يا سيد» الذى خلا منه حديثها الأول.

ولم تكن حرفية إجابتها القاسية لتحول دون إتمام حديث السيد معها بل قابل غباوتها القليلة التصور بأن رفع أفكارها إلى أعلى وإلى منزلة أسمى. كانت تفكر فى الماء العادى الذى كل من يشرب منه يعطش أيضاً، وهو يتكلم عن الماء الذى يعطيه ومن يشرب منه يكون فيه ينبوع ماء يطفئ الظمأ إلى الأبد ويفيض حياة أبدية[٣].

أصبحت الآن هى السائلة. طلب منها معروفاً بسيطاً فتلكأت أو رفضت نصف رفض. وهو الآن يعرض عليها عطية أبدية فتيقنت أنها فى حضرة عالية وتضرعت من أجل هذا الماء الحى، ولكن أيضاً بنفس ضيق التصور غير الروحانى. فهى تطلب لكى لا تعطش ثانية ولا تعود تستقى أبداً.

ولكن كفى الآن ما قيل لإيقاظ وتعليم تلك الغريبة البائسة، فأنهى يسوع فجأة ذلك الجزء من الحديث وأمرها أن تدعو زوجها وتعود. ولا يمكن الافصاح عن كل ما جال بخاطره عندما ألقى عليها هذا الأمر. ربما يكون هذا مراعاة للعادات الخالدة فى الشرق أو يعتبر غير لائق - إن لم يكن خطأ محضا - أن يحادث رجل - سيما إن كان هذا الرجل معلما - إمرأة غريبة، وربما أيضاً لكى يكسر قلباً حجرياً

التى طمرها يعقوب تحت البطمة (تك٣٤: ٤) ويلعنونهم فى مجامعهم ولا يسمحون لهم أن يتهودوا ويشبهون من يأكل خبزهم بمن يأكل لحم الخنزير. وينكرون عليهم القيامة، ويتهمونهم بسلب اليهود وقطع الطريق عليهم وتضليلهم بعلامات نارية كاذبة، وأنهم قد نجسوا الهيكل إذ ذروا عظاماً فيه.

١ - عطية الله تعنى قبل كل شئ عطية الله العامة المجانية أى الماء.

٢ - بئر يعقوب وهى أحد الأماكن القليلة فى فلسطين التى يمكن القول بكل ترجيح وبتقليد متفق عليه بالاجماع أن المخلص قد اتى إليه. وبالقرب منها يوجد نبع ماء جار عذب ومجاورة هذا النبع للبئر التى تعب يعقوب فى حفرها إلى عمق كبير يظهر جلياً مقدار تشككه وارتيابه فى معاملته لجيرانه الكنعانيين. والبئر الآن جافة ولا يرى منها سوى حفرة عمقها حوالى ٢٠ قدماً أما البئر ذاتها فمطمورة ببقايا المواد الحجرية التى بنيت منها المظلة.

٣ -قارن (اش١٢: ٣).

ويوقظ ضميرا نائما، إذ أنها اضطرت أن تعترف بألا زوج لها، والسيد وهو يؤكد برهبة إقرارها المحزن كشف لها سر حياتها الفاجرة الخليعة "لأنك تزوجت خمسة أزواج والذى معك الآن ليس هو زوجك" رأت أن الذى أمامها نبى.

أليست هذه فرصة مناسبة لكي تصفي إلى الأبد تلك المنافسة الكبيرة القائمة بين اليهود والسامريين؟ هل أورشليم أم جرزيم حيث نطق يشوع بالبركة وحيث أراد ابراهيم أن يقدم ابنه ذبيحة؟[1] ثم أشارت الي قمة الجبل المرتفع نحو ثمانمائة قدم والى بقايا هيكل منسى الذى خربه هيركانوس وسألت سؤالها المشكل «آباؤنا سجدوا على هذا الجبل وأنتم تقولون أن مكان السجود في أورشليم حيث يحل السجود».

وحل يسوع مشكلتها الراهنة باختصار وبطريق المقارنة. فاليهود دون السامريين كانوا بلا نزاع محقين، لأن أورشليم هي المكان الذي اختاره الله، واليهودية ديانة حقه وطاهرة سيما اذا قيست بالعبادة الخليط الناقصة التي للسامريين ولكن بعد أن فض هذا الاشكال الأرضى الزمنى نطق بنبوته العظيمة الخالدة بأن الساعة آتية بل هى الآن حيث لا على هذا الجبل ولا في أورشليم يسجد الساجدون الحقيقيون للآب بل فى كل مكان بالروح والحق ينبغى أن يسجدوا.

وحقا قد تأثرت المرأة تأثراً عميقاً، ولكن أنى لها أن تقدر لمجرد كلام عرضي مع غريب غير معلوم علي ترك ايمانها المتأصل الذي فيه ولدت ونشأت هي وآباؤها؟ فتنهدت مؤجلة البت النهائى فى هذا الأمر، وفى كافة الاشكالات الأخرى الي مجيء المسيا.

وعند ذلك قال لها يسوع تلك الكلمات البسيطة الرهيبة "أنا هو الذى أكلمك"

أول اعلان عن ميلاده كان ليلا، ولقليل من الرعاة المجهولين. وأول اعلان كامل واضح صرح به بنفسه أنه المسيح كان فى الظهيرة القائظة جوار بئر، ولامرأة سامرية مجهولة. ولهذه الغريبة الخاطئة المسكينة الجاهلة قد نطق بكلمات قيمتها لا نهائية إذ أنصتت لها كل الأجيال التالية بخشوع، جاثية حابسة الأنفاس.

وهنا قوطع الحديث لأن التلاميذ ـ وضمنهم كاتب الخبر ـ رجعوا الي سيدهم. فمن بعيد رأى وسمع التلاميذ سيدهم يتحدث طويلاً وجدياً مع شخص على انفراد، رأوه وهو اليهودى الرابى يتكلم

---

١ – (تث٢٧: ٤) قارن (تك٧: ٧) و (٣٣: ١٨) و (تث١٢: ٥) و (١١: ٢٩).

مع امرأة[1]، وهذه المرأة سامرية وهذه السامرية خاطئة! لكنهم لم يقدروا ان يقولوا شيئاً له، ولم يقدروا أن يسألوه، فشعورهم بعظمته وبالهيبة والثقة اللتين ينفثهما مجرد وجوده، أزال كل الشكوك الصغيرة ونظرات الاستغراب.

وفى الوقت ذاته أسرعت المرأة وقد نسيت جرتها - في دهشتها الشديدة - وجرت إلى المدينة بقصتها العجيبة تخبر أن هناك من أعلن لها كل أسرار حياتها، وتسأل ألعل هذا هو المسيح؟ وخرج السامريون سراعاً عندما سمعوا كلامها وأتوا جماعات. وعندما شوهدوا آتين حث التلاميذ السيد ليأكل لأن ساعة الظهيرة قد فاتت وهو تعب من السفر، ولكنه قد أشبع جوعه من سرور كرازته فأجابهم "ان لى طعاماً آخر لستم تعرفونه" ومع أن كتبهم المقدسة بل وأمثالهم الجارية مليئة بالاستعارات والتشبيهات، فلم يصلوا إلى تعليل لما عناه سوى أنه ربما قد جاءه أحد بشيء يأكله[2]. ولا شك أنه كان مؤلماً جداً للسيد أن يجد فى كل حين حتى تلاميذه المختارين يظهرون عدم مقدرة غريبة تعجزهم عن معرفة أن الأشياء المنظورة ليست سوى أمور تشير إلى أفكار روحانية عميقة. ولكن ذلك الوديع المتواضع القلب لم ينقصه الصبر فأجابهم "طعامى أنا أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله".

ونظر إلى سكان شكيم المتدفقين على السهل الآتين نحوه واستمر فى حديثه قائلاً "ألستم تقولون أنه بعد أربعة أشهر يأتى الحصاد. ها أنا أقول لكم ارفعوا أعينكم وأنظروا إلى الكور أنها قد أبيضت للحصاد. الذى يحصد يأخذ أجرته ويجمع ثمراً للحياة الأبدية لكى يفرح الزارع والحاصد معاً" أنتم ستكونون الحاصدين السعداء للحصاد الذى أزرعه فى كد وألم، ولكنى أنا الزارع أسر لمجرد التفكير فى هذا الفرح العتيد[3].

ولقد أقنعت أحاديث يسوع أولئك السامريين أكثر جداً من كلام المرأة التى أعلن ذاته لها أولاً. ولقد استجاب بجلال دعوتهم ليمكث بينهم فنزل هو وتلاميذه عندهم يومين. ولا شك ان التعاليم التي غرسها أثناءها كان لها النصيب الأوفى فى الحصاد الوفير الذى جمع بعد سنين قليلة (أع ٨: ٥).

١ – (يو٤: ٢٧) كان يتكلم «مع إمرأة» وليس «مع المرأة».. والتكلم مع إمرأة علانية كان إحدى الأمور الستة التى يجب ألا يعملها الرابى حتى ولو كانت زوجته.

٢ – لمثل هذا الفهم الحرفى انظر . (يو٢: ٢٠ ، ٣: ٤، ٤: ١١، ٦: ٤٢ – ٥٢) و (مت ١٦: ٦) و (مر٨: ١٥).

٣ – (هوشع ١٣: ١٤).

الفصل السادس عشر

مرفوض من أهل الناصرة

حتى الآن قد تتبعنا حوادث هذا التاريط المقدس مسترشدين في الترتيب الزمني بما جاء في بشارة يوحنا. والآن نصادف لأول مرة مشكلة صعبة في إيراد الترتيب الحقيقي لحوادث كرازة السيد.

هل من الجائز، أو من المتعذر، عمل توفيق تام بين البشائر يبعد كل الصعوبات الناجمة عن اختلاف ترتيب البشيرين لنفس الحوادث، مع علمنا أن ذكرهم للحوادث كان مقتضباً، وايرادهم لملاحظات التوقيت كان غامضاً، بل أحياناً خالياً تماماً من هذه الملاحظات؟

وربما كان جواباً كافياً إذا ذكرنا أنه لم يتفق عالمان في ترتيب نظمه كل منهما لهذا الغرض. ولقد خصص باحثون كثيرون في كل الأمم المسيحية سنين عديدة بل كرس بعضهم كل حياتهم للبت في هذا الأمر، ولكنهم أخفقوا في الحصول على ترتيب حاز الرضاء العام.

إن الوحي الذي هدى البشيرين في تدوين حياة المسيح ساعدهم على ذكر كل ما هو ضروري لسلام وكمال نفوسنا، دون أن يسترسلوا في كل ما نتوق إلى معرفته لنطفيء غريزة حب الاستطلاع أو حتى ما يرضي اللذة التاريخية. وليس من الصعب أن نرى في هذه دلالة جديدة على أنه يجب أن ترتكز أفكارنا على الأشياء الروحية أكثر من المادية، على يسوع الحي إلى الأبد والذي هو معنا دائماً وإلى إنقضاء الدهر، أكثر من أن ترتكز على الحوادث العرضية لحياته على الأرض والتي كانت الطريق المعين في حكمته الأزلية لإقتداء الناس. ولن نتمكن من معرفة كل ما كنا نتوق إلى معرفته عن السنين الطاهرة التي عاشها تحت القبة الزرقاء، ولكن يمكننا أن نصير أولاد الله وتلاميذ المسيح أن حفظنا كلامه وعملنا وصاياه.

يقول يوحنا البشير أنه بعد اليومين اللذين قضاهما يسوع بين السامريين المتسعي المدارك، ذهب إلى الجليل "لأن يسوع نفسه شهد أنه ليس نبي مكرماً في وطنه"، وفي الآية التالية "فلما جاء إلى الجليل قبله الجليليون الذين عاينوا كل ما عمل بأورشليم في العيد" ويضيف بعد ذلك "ثم جاء أيضاً إلى قانا الجليل" حيث شفى إبن خادم الملك. وكلمة «لأن» المحيرة تدل على أحد تلك الأفكار التي يكتم تسلسلها كما هو متعدد في إنجيل يوحنا. وإني أفهمها أنها تعني أنه رغماً عن البارقة الوقتية في قبوله، ففي الناصرة -نفس وطنه ـ قد إنتظره الرفض، وإن كان ينتظر مثل هذا الرفض «لأن» يسوع قال في

أحد أحاديثه الصريحة «ليس نبى مكرماً فى وطنه».

لم يكن غرض البشير يوحنا الإسهاب فى ذكر كرازة الجليل التى تناولها بالتطويل باقى البشيرين. وعلى ذلك فإنا نستقى أكمل تفصيلات العمل الأول الجهارى للسيد فى مدينة موطنه من إنجيل لوقا.

ويظهر أن يسوع لم يذهب من سيخار مباشرة إلى الناصرة (ما لم نعتبر أن لو٤: ١٥ ملاحظة عامة لا تسلسل تاريخى) بل كان فى طريقه يعلم بإستمرار فى مجامع الجليل بين القبول والإعجاب العام. وعلى هذا النحو وصل إلى الناصرة. وإذ كان منذ الصبا أحد المترددين الصامتين فى هذا المكان المتواضع، سبتاً بعد سبت، دخل المجمع يوم السبت كعادته.

ولم يكن فى تلك البلدة الصغيرة سوى مجمع واحد (لو٤:١٦) أما خدمة المجامع فكانت غير بعيدة الشبه من الخدمة عندنا. فبعد الصلاة كان يقرأ دائماً فصلان واحد من الناموس، وفصل من الأنبياء. وإذا لم يكن هناك كهنة مخصصون لقيادة الخدمة ـ فكان أى شخص كفء يأخذ الأذن من رئيس المجمع ويتقدم للقراءة. وكان فى حل أيضاً أن يضيف من عندياته أى ملاحظات.

ويظهر أن مطالعة الفصل من الخمسة أسفار قد إنتهت عندما صعد يسوع درج المقعد. واذ سلموا بحقه فى القيام بالعمل الشريف الذى للقارئ، فقد أخذ السيد السفر وقرأ من النبوة الشهيرة فى الاصحاح الحادى والستين من أشعياء، ووقف كل المجمع ينصت له. وكان فصل النبوات يتراوح مابين ثلاث آيات وإحدى وعشرين آية. ولكن السيد قرأ فقط الآية الأولى وجزء من الثانية ووقف برأفة قبل القول الغاضب «وبيوم إنتقام لإلهنا» لتكون آخر الكلمات التى تقع على آذانهم هى الكلمات الرقيقة «بسنة الرب المقبولة» ولتكون موضوع حديثه. ثم طوى السفر ودفعه للخادم، وكما كان معتاداً عند اليهود «جلس» ليلقى عظته.

وفصل النبوة الذى طالعه سواء كان جزءاً من الدرس المختار العادى لذلك اليوم أو قد إنتخبه هو بنفسه، كان عظيماً حقاً وبالتأكيد قد إكتسب عظمة أزيد وجلالاً أشد من شفتى ذاك الذى تمت فيه هذه النبوة، وكانت أبصار كل من فى المجمع شاخصة إليه بإنتباه[1]. ويمكننا أن نتخيل هزة الرجاء والحماس الرهيبة التى سرت بين قلوب سامعيه أثناء العظة البحثية التى لم يذكر البشير سوى موضوعها فقط، والتى إرتقى بهم فيها ناصباً نفسه المسيا الذى تغنى عنه النبى منذ سبعمائة سنة[2]. وكانت كلماته

١ – (لو٤:٢٠).
٢ – (لو٤:١٨).

مملوءة نعمة وسلطاناً وقوة، ولم يقاوموها فى البداية بل استولت على دهشة الجميع رغماً عنهم، ولكنه عندما استمر شعر بتغييرهم فإن سمو حكمته وحلاوة كلامه[1] قد تلاشيا عندما ابتدأ أولئك الجليليون الغلاظ يفهمون تماماً المعنى الكامل الذى يرمى إليه والمكانة الالهية التى يعزوها لنفسه.

وكان من المعتاد عند اليهود أثناء العبادة فى مجامعهم أن يعبروا بصراحة تامة عن عواطفهم فلم يمض وقت طويل حتى سمع يسوع دمدمتهم الثائرة المهتاجة ورأى أن تلك العيون البراقة النشيطة التى شخصت إليه أولاً بمزيد الانتباه قد ابتدأت تلمع بشرر خبيث من الحسد والكراهية. ودار التهامس بين السامعين وهم يوسوسون بمثل: «أليس هذا هو النجار؟ أليس خوته يعقوب وسمعان ويوسى ويهوذا صناعاً مثله أيضاً، وتعيش أخواته بيننا؟ أليس أقرباؤه لا يؤمنون به؟»[2] ثم أنه ليس رابياً متعلماً متخرجاً من مدرسة غمالائيل أو شماى ولكنه يتكلم بسلطان ليس حتى لعظماء الكتبه، «كيف هذا يعرف الكتاب ولم يتعلم؟» [3].

ويسوع لم يترك تغيير الشعور الذى طرأ على سامعيه بدون ملاحظة، بل إبتدرهم بإعلان أنه هو المسيا، وأن عمله كنجار لا ينتقص من عظمته، وأن غلظتهم وعدم إيمانهم به قد أحزنا روحه حتى قبل دخوله المجمع. لكنه اذ لحظ عاطفة أخرى تسيطر على عقولهم وتطلب آية علوية يدعم بها كلامه، عاطفة الغيرة لأنه عمل عجائب فى قانا وأظهر قوته فى كفر ناحوم ناهيك بما عمله وعلّمه فى أوروشليم ثم هو لا يقدم علامة خاصة تؤيده بينهم، وإذ علم أن المثل «أيها الطبيب اشفي نفسك»[4] تتحدث به قلوبهم بدون أن تنبس به شفاههم، خاطبهم بوضوح كامل معلناً أنه أعظم منهم، وأنه لم يكن فقط كأى ناصرى عاش ثلاثين عاماً بينهم، وأنه ليس لهم وحدهم بل هو للعالم كله. وذكرهم أن الأعجوبة ليس لها حدود إقليمية، فإيليا لم يرسل إلا إلى أرملة فينيقية من صرفة صيدا، وأليشع لم يشف سوى الأبرص السرياني. فماذا اذن؟ أكانوا فى نظر هذا النجار أقل من الأمميين والبرص؟ كان هذا أكثر مما يحتمل من مواطن لهم أرادوا أن يحسبوه كواحد منهم. فعند هذه الكلمات اندلع غضبهم المكبوت إلى لهيب وإستشاط جميعهم غضباً[5] وقاموا فأخرجوه خارج المدينة، ومضوا به إلى أعلى الجبل الذى كانت

---

١ – (مز٤٥: ٢).

٢ – (مت١٣: ٥٧) «وبيته» قارن (يو٧: ٥) و (مر٣: ٢١) و (مت١٣: ٥٦).

٣ – قارن (يو٧: ١٥).

٤ – هذا المثل له نظير فى كل أمة وقد خوطب به يسوع علانية بعد ذلك على الصليب.

٥ – (لو٤: ٢٠) الكلمة الأصلية تعنى إمتلأوا فجأة جميعهم بالغضب.. قارن (أع٢٢: ٢٢) و (٢٨: ٢٥).

مدينتهم الناصرة الصغيرة مبنية على فجواته القبلية. ولأحدى هذه المهاوى الصخرية جروه ليرموه على أم رأسه[1] من عل.

ولكن ساعته لم تكن قد أتت بعد، فخلصوا من جريمة لو أتموها لدمغتهم إلى الأبد بعار لا يمحى "أما هو فجاز فى وسطهم ومضى".

وعلى هذا النحو تركهم وبدون أن يعود ثانية إلى مدينتهم أو يعاود الوعظ فى مجمعهم الصغير، بعد هذا رحب به أصدقاء آخرون بعيداً عن الناصرة الغليظة من بين صيادى بيت صيدا اللطفاء ذوى القلوب النبيلة، وأنه بعد هذا قد صار بيته ـ لو أن له بيتاً ـ فى كفر ناحوم المدينة الصغيرة قرب بحيرة الجليل الصافية المياه.



١ – الكلمة الأصلية معناها «ليحدروه على أم رأسه» ولا تذكر هذه الكلمة سوى فى موضع واحد آخر فى العهد الجديد (٢كو٥ ٢:١٣) وهذا الإحدار كان نوعاً من الرجم وهو العقاب الرسمى للتجديف.

الفصل السابع عشر

بدء كرازة الجليل

حينما رفضت الناصرة السيد كان طبيعياً أن يمضى إلى القرية المجاورة، قانا الجليل، حيث صنع أول معجزاته، ولم يبق هناك طويلاً حتى جاءه أحد قواد بلاط هيرودس أنتيباس المجاور إذ علم بحضور يسوع. أتى القائد وتضرع إليه بإلحاح أن ينزل إلى كفر ناحوم ليشفى إبنه المحتضر.

وطلب الإسعاف من صاحب سطوة، الطلب الذى ظهر أنه لم يكن له أصل كبير فى الإعتقاد الروحى أولاً، إحتاج إلى كبح وقتى. كان لزاماً أن يفهم قائد الملك أن يسوع ليس مجرد طبيب محسن مستعد فى كل وقت أن يصف علاجات محلية، أو يضع قوته الخارقة تحت أمر وطلب أى متألم يحضر إليه كآخر ملجأ للمعونة. فوبخ للحال الروح التى تتطلب آيات وعجائب كالطريق الوحيد الأساسى للإيمان، ثم إستجاب ضراعة الوالد القلبية، وصرفه مؤكداً له أنه إبنه حى. وحدث هذا نحو الساعة السابعة، أى الأولى بعد الظهر. وحتى فى النهار القصير لشهر نوفمبر كان لا زال ممكناً أن يعود الوالد فى ذات اليوم إلى كفر ناحوم، لأن المسافة بين قانا الجليل وبين كفر ناحوم لا تزيد عن خمس ساعات. ولكن نفس الوالد كانت قد هدأت وإرتاحت إذ آمن بوعد يسوع، فنام تلك الليلة فى إحدى القرى التى على الطريق. وفى اليوم التالى قابله عبيده وأخبروه أن إبنه قد شفى، وتأكد منهم أن ذلك كان فى نفس الساعة التى تكلم فيها يسوع. وكانت هذه هى المرة الثانية التى أعلن فيها يسوع عند وصوله إلى الجليل بعمل معجزة ظاهرة. ولا شك أن مركز موظف البلاط جعلها تذاع كثيراً، وأنه كان لها أثر فى الإستقبال المفرح الحماسى الذى صاحب السيد فى هذه الفترة الأولى المضيئة من كرازته والتى أطلق عليها بجمال «ربيع الكرازة».

يظهر إذ أنه بعد أن ترك السيد قانا ذهب تواً إلى كفر ناحوم ومعه غالباً أمه وأخوته، وجعل تلك البلدة مدينته[1]. ولكن الإهانة القاتلة التى حاقت بيسوع كانت وحدها كافية لتحفز عائلته لترك المكان ولو لم يقع عليها مباشرة الإضطهاد والتطاول اللذين سببتهما كلماته، لذلك فمن المؤكد أنه، ولو أنهم سكنوا كفر ناحوم، فبيتهم لم يكن بيته. ولم يكن له بيت، ولكن البيت الذى كان يأويه عادة كان

١ – مدينته (مت٩:١) قارن (مت١٧:٢٥) ويرى متى البشير (٤: ١٥ – ١٦) أن مكان كرازته هذا يتمم بإيقان نبوة أشعياء (أش٩:١).

بيت تلميذه بطرس. كان سمعان وأندراوس من بيت صيدا، ولكن من الميسور أن يستأجرا منزلاً فى كفر ناحوم تملكه حماة سمعان.

ولقد أبقى لنا البشيرون الثلاثة الأول وصفاً مدققاً عن أول سبت صرفه السيد فى كفر ناحوم. وهذا له عندنا مكانة خاصة إذ يعطينا مثالاً قيماً عن الكيفية التى كان يمضى بها أيام كرازته الأولى النشيطة. وهذا الوصف خير صورة للشعار الذى إتخذه فى حياته والذى بقى لنا فى أبهى حلة أولية[1] وهو «كان يجول يصنع خيراً». وهو الشعار الذى وجد أخص وأنبل أتباعه أنه من أصعب الصعوبات أن يماثلوه فيه، الشعار الذى سمت به حياته.

بدأ النهار فى المجمع ربما ذات المجمع الذى تلطف فبناه فى كفر ناحوم قائد المائة الحديث الإيمان. ولا شك أنه إكتظ إزدحاماً، إذ كان يعلّم جمعاً متعطشاً غيوراً، فبينما كان يتكلم وبينما كان الرجال البسطاء القلوب، المخلصون، ينصتون له بدهشة صامتة ويتلقفون ما تنفرج عنه شفتاه بإعجاب بالغ مفعم بالإحترام، قطع ذلك السكون العميق صراخ وحشى وأصوات شنيعة من أحد أولئك التعساء المساكين الذين كانوا تحت سيطرة أرواح نجسة، والذى لعدم وجود أى ملجأ لمثل هؤلاء المصابين قد إنسل غير ملحوظ إلى وسط الجمع. وحتى ذلك المجنون المسكين قد شعر فى أعماق نفسه المنحطة المرتبكة بطهارة حضرة السيد، وقداسة ذلك الصوت، وقوة تلك الرسالة الإلهية المنيرة. ولكن إذ أن كيانه الأدبى كان مشوهاً مقلوباً فقد ثار وهتف بأصوات الشياطين التى تملكته محييا «يسوع الناصرى»، وأعلن أنه قدوس الله، ثم بآلام الخوف والكراهية طلب إليه أن يتركه وشأنه ولا يهلكه.

وتبع ذلك منظر مثير حماسى، فقد إستدار يسوع لذلك المعذب المجنون الهائج ملاحظاً إزدواج عقليته ومخاطباً الشيطان الذى كان يضطره للنطق بهذه الألفاظ المليئة بالخوف وقال له «إخرس وأخرج منه» ولم يقبل يسوع ولم يحتمل هذه الشهادة عن أصله أو عمله من الروح النجس الذى لم يستطع أن يقاوم هدوء وعذوبة وقوة ذلك الأمر الإلهى، فوقع المجنون على الأرض فى نوبة مريعة يتصايح ويتشنج، ولكن سرعان ما إنتهى هذا، وقام الرجل معافى، وتبدلت نفس نظرته، ودلت أعماله على أنه قد تخلص من السلطان القاهر الذى كان يمتلكه وأصبح فى كامل عقله. وهذه المعجزة الدقيقة القوية لم يكن لها مثيل من قبل فتفرق العابدون وهم فى منتهى الدهشة والتعجب.

ونزل يسوع من مكانه فوق مقعد «المافير» أى القارئ وخرج من المجمع وذهب إلى منزل سمعان.

---

١ - لم يسبقه أحد فيه.

وهنا أيضاً صادفه التماس لدرء المرض والألم. فسمعان الذى سبق فكرس نفسه عند شاطئ الأردن منذ الدعوة الأولى ليكون رسولاً فى المستقبل كان متزوجاً[١]. وكانت حماته طريحة الفراش بحمى شديدة[٢]، وطلب واحد من العائلة المصابة كان كافياً. فوقف فوقها وتناول يدها وأقامها، وزجر الحمى فهز صوته كل كيانها، وسيطر على مخارج المرض، وأعادها فى الحال إلى الصحة الكاملة. فقامت وأخذت على عاتقها القيام بواجبتها المنزلية.

وربما أتاحت المراعاة الشديدة لحفظ يوم السبت فرصة وجيزة للراحة. ولكن كان الجمع المتحفز لاينتظر حتى ختام ساعات السبت، فبمجرد أن بدأت الشمس فى الغروب سرعان مابدأوا يطلبون منه العون فقامت المدينة كلها وإزدحمت محتشدة حول أبواب المنزل المتواضع آتين معهم بالمرضى والمجانين.

كان البيت وما حوله مثل «ليعازرية» أى مستشفى يموج بعديد المرضى من كل نوع، من التشنج المريع، وعذاب أمراض القلب، ومختلف الحميات، وصرع الشيطان، وفقدان العقل، وعلى الكل بسط الموت شوكته. ولكن عند تكاثف الغسق، شخص وحيد هادئ وديع خال من الخوف والإضطراب أسكت بسكونه أصوات الجنون وصرخات الصرع (مت٤: ٢٤) وأبدل المرض بالصحة واضعاً يده الرقيقة النقية على كل معذب بائس، وتحرك بينهم بمحبة ورأفة ذلك الذى من الناصرة، المسيح مخلص العالم. حتى أن متى البشير ذكر فى هذا الموضع كلمات أشعياء "هو أخذ أمراضنا وحمل أسقامنا" [٣] .

وقد ذاع هذا اليوم العجيب فى كل الجليل والبرية وأقصاء سورية (مت٤: ٢٤). وكنا نعتقد أن المخلص التعوب سيجنح إلى راحة طويلة، ولكن كانت أفضل وأعز راحة له هى العزلة والسكوت حينما يكون وحده فى هدوء تام. لذلك قام يسوع من غير أن يلاحظه أحد وذهب إلى مكان قفر وهناك أنعش روحه بصلاة هادئة. ولكن لم تسمح له الجموع ولو بفترة قصيرة بالراحة والإنفراد إذ فتشت عليه بإلحاح وحتى سمعان والذين معه كانوا كأنهم فى رغبتهم الحماسية يتصيدونه فسارعوا ليروه ويسمعوه. بل إنهم رغبوا فى إبقائه بينهم بالقوة الرقيقة[٤]. ولكنه قاوم بلطف لجاجتهم. فقال لهم "لنذهب إلى مكان آخر من المدن القريبة منا لأكرز هناك أيضاً لأنى لهذا العمل خرجت" [٥].

١ - قارن (١كو٩:٥).
٢ - (لو٤:٣٨).
٣ - (مت٨: ١٧) ذكرها متى بإختلاف حرفى بسيط ولكن بذات المعنى الاصلى. وفى بعض النسخ قرئت «أثامنا» بدل «أمراضنا» وبذلك تجعل الألم معنوياً أكثر.
٤ - (لو٤: ٤٢) و (مر١: ٣٦).
٥ - (مر١: ٣٨). «مكان أخر» فى اللغة الأصلية تعنى «مدينة أخرى». قارن (لو٤: ٤٣).

ولكن من المحتمل أن يسوع لم ينفذ عزمه فى الحال بل يظهر أنه إنثنى تحت ضغط الحاح وقلق الجماهير ليلقى عليهم عظة أخرى قبل أن يذهب ليبشر فى تلك الكورة المحيطة المكتظة، ويمم شطر الشاطئ وبينما كان يسوع واقفاً ليتحدث إلى الجموع كان ثنائى الأخوان الصيادين، سمعان وأندراوس ثم يعقوب ويوحنا، يمارسون عملهم المضنى الذى منه يأكلون خبزهم اليومى.

وإذ أنهم فشلوا تماماً هذه المرة فقد جلس أثنان منهم فى ذلك الجو الهادئ على مسمع من صوت يسوع يغسلان الشباك بينما جلس الإثنان الآخران فى مركبيهما مع الخدم المأجورين وابيهما زبدى يصلحان الشباك، وعندما تكلم يسوع إلى الجموع فالبعض رغبة منهم فى سماع ولو لفظ من شفتى ذاك الذى تكلم بما لم يتكلم به إنسان قط، وبعضهم رغبة فى لمسه ليبرأوا من مختلف الأوجاع، تزاحموا عليه أكثر فأكثر. ولهذا أومأ لسمعان أن يأتى بسفينته ليدخل فيها ويبتعد قليلاً عن الشاطئ ويعلم الناس من هناك، ولما إنتهى من عظته لم يفكر فى تعبه، ولكن فى تلاميذه المساكين القانطين. كان يعلم أنهم تعبوا باطلاً، ولاحظ أنهم أثناء عظته كانوا يعدون أنفسهم لصيد آخر فيما بعد يكون أكثر أنتاجاً ونجاحاً. فبشفقته التى لم تترك عملاً من أعمال الرحمة أمر بطرس أن يدفع السفينة إلى العمق، وأمرهم كلهم أن يطرحوا الشباك مرة ثانية[1] فى الحال. كان بطرس فى حالة نفسية خائرة العزم، ولكن كلمة ذاك الذى كان يحترمه أحتراماً عميقاً، والذى سبق وشاهد قوته، كانت كافية. ولقد كوفئ إيمانه إذ للوقت امتلأت الشباك بصيد كثير من الأسماك. حتى طلب سمعان وأندراوس إلى زبدى وولديه وخدامه أن يأتوا بمركبهم ويساعدوا فى إنتشال طريحة الصيد العجيب والشباك التى تكاد تتخرق. وملئت السفينتان إلى الحافتين. وفى اللحظة التالية لإنتهاء العمل تراءت لبطرس قوة هذه المعجزة العظيمة، فبحماس أندفاعه المعتاد خر عند قدمى السيد، هل ليشكره؟ أو هل ليتعهد أن يوليه طيلة حياته إخلاصاً كاملاً؟ كلا ولكن ليقول له "أخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطئ" كان الإحساس الأول الذى تملكه إحساس الخوف والدهشة قبلما يكون هناك الوقت الكافى لينمو إحساس الحب والعبادة. ولم يقصد بطرس الرسول المعنى الحرفى لقوله «أمض عنى»، ولكنه قصد، وقد عرف فاحص القلوب أنه قصد أن يقول «لست مستحقاً بالمرة أن أكون قريباً منك ولكن دعنى أبقى إلى جانبك».

وأى لطف تبدى فى جواب السيد **"لا تخف فإنك من الآن تكون صيادا يصيد الناس"**. وهكذا السيد كما فى كل تعاليمه أنتهز فرصة الظروف المحيطة وأستعملها بحذق فمنذ ذلك الوقت كان هذا الرجل الخاطئ الذى تنقى وتقدس يصطاد بشبكة الإنجيل وبإجتهاد نبيل صيداً لا يموت بل تبقى له

١ – (لو٥: ٤) «تقدم..... وأطرحوا».

الحياة[١]، وأخوه وشركاؤه سيصيرون ايضاً صيادى الناس وهذه الدعوة الأخيرة كانت كافية نهائية. سبق أن دعاهم يسوع وهم على شاطئ الأردن، وسبق أن سمعوا شهادة المعمدان، ولكنهم حتى ذاك الوقت لم يطلب إليهم أن يتركوا كل شئ ويتبعوه. لم يكونوا قد أعتادوا معرفة قوة معجزاته التى تثبت إيمانهم، ولم يكونوا قد تأكدوا أن من يتبعه لن يكون فقط آمناً فى حفظه القدوس، بل يأخذ ألف ضعف من الأشياء التى هى قوام السعادة الحقة النبيلة فى هذا العالم، ويمنح الحياة الأبدية فى العالم الآتى.

سبق فرأينا أن يسوع فى مبدأ كرازته دعا ستة من تلاميذه لخدمته، وفى هذه الفرصة الحالية أمر أربعة منهم أن يعتبروه معلمهم وأن يتركوا كل شئ ويتبعوه. غير أن تلميذاً آخر غير هؤلاء جاءته دعوة فردية وهو معلمنا متى قد دونها البشيرون فى ترتيب مختلف ولكن الأرجح أنها حدثت فى نحو ذلك الزمان. كان فى كفر ناحوم أو بالقرب منها ديوان لتحصيل الضرائب، كانت وسطاً تجارياً هاماً، وكان اليهود يكرهون هذه المراكز جداً، بل إن مجرد فكرة الإضطرار للدفع لها كانت تجرح أرق مشاعرهم. لأنها لم تكن فقط رمز العبودية، أو الشهادة اليومية المريعة على أن الله قد رفض شعبه وأن كل الآمال الموسوية السامية والوعود التى فى تاريخهم القديم قد تضاءلت وغابت فى غسق إحتلال أجنبى فرض عليهم بغلظة وإحتقار، بل كان مجرد دفع هذه الضرائب يحمل لعقل اليهودى[٢] الحقيقى الدقيق المتحسب معنى الكفر، إذ يظهر له كأنها كسر لأول الوصايا ووجوب التعبد لحكم الله وحده، فلا يجب الرضوخ لها إلا تحت ضغط القوة الجبرية. فلا عجب إن كانت توجه للمنوط بهم جمع هذه الجبايات أعمق الكراهية. ولم يكن يحتك بالشعب فى الريف العشارون أى الرومان الأشراف الموكلون بفرض الضرائب، ولكن مساعديهم الأصاغر كانوا عادة من حثالة القوم حتى أشتهروا كطبقة بخسيس الأعمال وإن كان العشار مكروهاً، فأى كراهية شديدة مضاعفة توجه إليه لو كان يهودياً[٣].

لكن ذاك الذى أتى ليفتش عن الضال ويخلصه، ذاك الذى فى مقدوره أن يخرج القداسة المسيحية من وسط النجاسة الوثنية، أمكنه أن يحول عشاراً يهودياً إلى تلميذ وبشير لمعتقد جديد حى. كان إختياره لرسله بروح بعيدة كل البعد عن سياسة الحسبان والفطنة التقليدية، فقد رفض الكاتب ذا المقام العظيم (مت٨: ١٩)، واختار العشار المكروه المحتقر. ولقد قابل متى العشار هذا التعطف بما برهن على

---

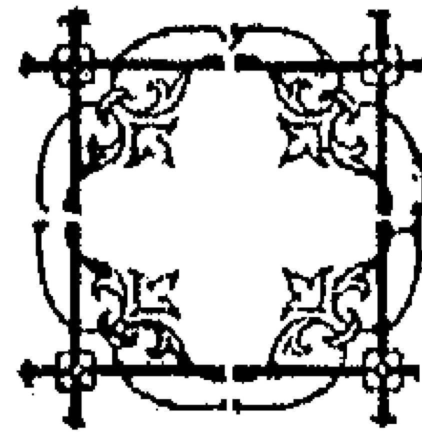
١ – (لو٥: ١٠) الكلمة الأصلية معناها «تصطاد الناس أحياء».

٢ – (تث١٧ : ١٥).

٣ – كلمة عشار صارت مرادفة لكل ما هو مكروه بغيض حتى أن السيد قد استعملها بهذا المعنى «فليكن عندك كوثنى وعشار».

أستحقاقه له، إذ حول معرفته للكتابة لعمل مقدس، وأصبح أول كاتب لتاريخ حياة سيده ومخلصه.

لاشك أن متى قد سمع بعض أحاديث المسيح، ورأى بعض عجائبه، وتأثر قلبه فصار ذلك العشار ـ حتى وهو جالس «فى مكان الجباية» [1] فى عينى ذاك الذى لم يحتقر أحداً ولم ييأس من أحد ـ مستحقاً للدعوة. وكانت «أتبعنى» كلمة واحدة كافية أن تجعل متى يتحقق أن السيد يحبه، وانه مستعد أن يصيره آلة مختارة لنشر البشرى المفرحة بملكوت الله، كانت كافية لكبح تجارب شهوة الجشع ولاخلاقه من نير أعماله اليومية المعتادة. ففى الحال «ترك كل شئ وقام وتبعه» وقد أسره الحب الغافر المفتدى فتأثر وتغير أسمى تغير.



١ – المعروف أن متى هو لاوى. فتكون دعوته التى فى (مت٩: ٩) تعنى تغيير الأسم. وربما غير يسوع أسمه ليبعد الذكر المؤلم لصناعته المحتقرة. أما اسم متى فمعناه مثل معنى نثنائيل وتيودور «عطية الله». وكان طبيعاً أن يفضل البشير هذا الاسم بينما مرقس ولوقا يدعوانه بالاسم الذى كان له عندما دعاه يسوع. ويجب أن نلاحظ التواضع المؤثر الذى انفرد به عن باقى البشيرين، إذ كان هو الوحيد الذى وضع أسمه فى جدول الرسل مقروناً باللقب المزدرى «متى العشار» (مت١٠: ٣).

الفصل الثامن عشر

الرسل الإثني عشر وعظة الجبل

بعد يوم قضاه يسوع في كد محب متواصل، وجد كعادته الراحة والسلام في الصلاة، فصعد إلى الجبل ليصلي "وكان ساهراً في صلاة لله" (لوقا٦: ١٢).

عند الفجر وقبل إحتشاد الجمع، دعا السيد تلاميذه الذين إلتفوا حوله رويداً رويداً، فمن جماعة أتباعه العموميين الكبيرة قد إختار نهائياً وخصيصاً تلاميذه الإثني عشر. كان عددهم لا يذكر إذا قيس بالمئات التي تسمى نفسها تلاميذ هلليل أو غمالائيل، وكانت مكانتهم في العالم وضيعة خافية. هؤلاء وهم سمعان وأندراوس إبنا يونا، ويعقوب ويوحنا إبنا زبدى، وفيلبس من قرية بيت صيدا الصغيرة، ومتي وهو لاوى إبن حلفي وأخو يعقوب، ويهوذا الذى يعتبر أنه هو بذاته لباوس أو تداوس. هؤلاء كانوا غالباً من قانا أو كفر ناحوم. وكان نثنائيل أو برثولوماوس من قانا الجليل وكذلك توما وسمعان الغيور كانا من الجليل أيضاً. وكان يهوذا الإسخريوطي ابناً لسمعان الإسخريوطي.

من جماعه الرسل المجيدة هذه ثلاثة لا نعلم عنهم شيئاً وهم يعقوب الصغير[١]، ويهوذا أخو يعقوب[٢]، وسمعان الغيور. بل أن شخصيتي يعقوب ويهوذا محاطتان بصعوبات جمة نجمت عن ذيوع وشيوع هذه الأسماء بكثرة بين اليهود.

---

١ - يعقوب «الصغير» لا «الأصغر» والكلمة اليونانية تعني «الصغير في جسمه».

٢ - ولكن بعضهم يعتقد أن كلاً من «يهوذا» ويعقوب المعروف لدينا وكذلك متي هم أولاد حلفي ولكن المشهور عن يهوذا أنه هو لباوس أو تداوس «التلميذ ذو الثلاثة أسماء» وكلمة «لبا» معناها القلب (ولقد ذكر ايرينيموس انه إنما أعطى أسماء أخرى لأن كلمة يهوذا بالعبرية تحتوى على ثلاثة حروف من الرباعيات، وليس هذا الرأى صائباً فإن إسم يهوذا كان أحد الأسماء الكثيرة الذيوع عند اليهود ومما يدعم هذا الإعتقاد أن «لباوس» الواردة في (مت ١٠ : ٣) جاءت في بعض النسخ «تداوس» وفي بعض آخر «لباوس الملقب تداوس» ووردت في (مر٨:١٣) «تداوس» وهو العاشر في الترتيب.

وهذا جدول الرسل بحسب وروده في البشائر الثلاث الأول وأعمال الرسل:

١ - بطرس	٧ - متى
٢ - أندراوس	٨ - توما
٣ - يعقوب	٩ - يعقوب بن حلفي
٤ - يوحنا	١٠ - سمعان القانوى أو الغيور
٥ - فيلبس	١١ - يهوذا أو تداوس أو لباس
٦ - برثلماوس	١٢ - يهوذا الاسخريوطي.

كذلك لم يكتب عنهما شئ فى الأناجيل ذات أهمية إذا إستثنينا السؤال الوحيد الذى سأله (يهوذا ليس الإسخريوطى) والذى دونه يوحنا البشير (يو١٤: ٢٢) ولا نعرف عن سمعان إلا لقبه «الغيور» أو «القانوى»، وهما بمعنى واحد ويدلان على أنه كان يوماً من أتباع يهوذا، الذى من جسكالا، الثائرين المخيفين. ويدل الإسمان اليونانيين، فيلبس وأندراوس، وأيضاً التجاء اليونان الذين أرادوا أن يروا السيد لفيلبس الذى أحال الطلب على أندراوس، على أنهما كانا مختلطين باليونانيين، وإن كنا لا نعلم شيئاً يذكر عنهما بعد دعوتهما الأولى، وهذا القول الأخير صحيح أيضاً بالنسبة لنثنائيل ومتى. أما عن توما المسمى التوأم، وهو تحريف إسمه باليونانية، فنعلم أشياء هامة تدل على شخصية هامة تتمثل فيها سذاجة الطوية والبساطة وفى الوقت ذاته الاجتهاد والكرم، وسرعة البذل حتى الموت، والتردد والبطء فى الإيمان. أما يهوذا الإسخريوطى. فقد وصم فى الأناجيل كلها بالوصف المميت الشنيع على إيجازه "يهوذا الإسخريوطى الذى اسلمه" (مت١٠: ٤) و (لو١٦: ٦).

وكان التلاميذ الثلاثة المقربون إليه، يعقوب ويوحنا وبطرس، المختارين من المختارين، والأكثر التصاقاً به من أصدقائه وصحبه. فهؤلاء وحدهم الذين سمح بوجودهم فى حضرته عند إقامته لإبنة يايرس، وعند التجلى، وعند آلامه فى البستان. ولا نعلم شيئاً عن يعقوب سوى أنه منح الشرف الرفيع بأن يكون الشهيد الأول من جماعه الرسل.

أما يوحنا وبطرس - والأول مثّل الحياة العاطفية والآخر مثل الحياة العملية - فهما بلاشك أعظم وأجمل شخصيتين فى جماعة الرسل. ولقد شارك يوحنا أخاه يعقوب فى إسم «ابنى الرعد»، وسؤالهما المزدوج أن يكونا المقربين فى ملكوت الله، وطلبهما القلبى الحماسى أن تنزل نار من السماء على مدينة السامريين (يو١١: ٥٤)، والقوة المحرقة التقوية التى كتب بها سفر الرؤيا (الأبوغالمسيس)، كل هذا لدليل أنه كان فيه روح النسر الذى أصبح الرمز الخالد ليوحنا[١]. فكان بلا نزاع وجود هذه الروح فى خلقه جنباً إلى جنب مع الرقة والمحبة جعلاه التلميذ «الذى كان يسوع يحبه» والتى جعلته أهلاً أن يسند رأسه الصغير على صدر سيده.

ولا تقل شخصية بطرس فى أهميتها عن شخصية صديقه يوحنا. وستكون لدينا فرص متعددة لنلمس خلجات الكرم، والتهور، والتردد، والنبل، والخوف، فى نزعته البشرية والمحبة للغاية.

هؤلاء هم الرسل المهمون الذين ألف السيد منهم جماعة واحدة وهو جالس على قمة الجبل. ونحن

١ – تتجلى روح النسر فى (لو٩: ٤٩) و (رؤ٢٢: ١٨) و (٢يو٩: ١٠).

نتخيل أنه قضى الليل كله فى الصلاة على قمة الجبل، وفى الصباح الباكر رافقه تلاميذه. ولا نعلم شيئاً عن المظاهر التى دشن السيد بها هذا الترتيب العظيم للرسولية، ولكننا نعلم أكيداً أن هذا الإختيار قد أصبح رسمياً ونهائياً، فلا عودة منذ تلك الساعة إلى مركب الصيد أو مكان الجباية لكسب العيش، ولكن سيشترك التلاميذ فى جولات التبشير، ومتاعب الكرازة، والغذاء الضنين، والمأوى المجهول، الأمور التى لازمت السيد حتى فى أسعد أوقات الكرازة. ويجب أن يعملوا جاهدين معه تحت شمس الظهيرة المحرقة وأن يناموا مثله تحت نجوم السماء.

وبينما كان يسوع يقرر هذا الإختيار إجتمع حشد كبير من مختلف الجموع، ليس فقط من شواطئ بحر الجليل المكتظة بالسكان، ولكن أيضاً من اليهودية وأورشليم وحتى من شواطئ البحر البعيدة كصور وصيدا، وأتى الحشد ليلمس شخصه ويسمع كلامه[١].

نزل السيد من القمة إلى رأس التل[٢]، وأول كل شئ شغل نفسه بالحاجات الجسدية لأولئك السامعين المترقبين، شافياً أمراضهم، طارداً الأرواح النجسة التى سيطرت عليهم. وبعد ذلك، عندما جلس الجمع فى هدوء كامل وإنتباه أكيد على جوانب ذلك المدرج الطبيعى الجميل المكسوة حواشيه بالحشائش الخضراء، رفع عينيه (لو٦: ٢٠) اللتين ربما كانتا منخفضتين لبرهة قصيرة فى صلاة داخلية، وفتح فاه[٣] وعلم تلاميذه، ثم قصد تعليم الجمع عن طريقهم، ونطق بذلك الحديث الذى سيعرف إلى الأبد «بعظة الجبل».

وهذه الوصايا الجديدة التى لجبل التطويبات لم تكن لتنقض بل لتكمل الناموس الذى نطق به فى سيناء منذ القدم[٤]. لذلك نبههم السيد أنه ما جاء لينقض ذلك الناموس بل ليطيعه ويكمله، وفى الوقت ذاته علمهم أن طاعته لا دخل لها مع الحذلقة اللاوية والتمسك بالحرف وإنما هى بالأحرى تسليم للقلب والإرادة للمعنى الحقيقى وللروح التى تنطوى عليها الوصايا. ولقد أتم يسوع ذلك الناموس القديم بحفظه تماماً وبمنحه قوة لحفظه لكل الذين يؤمنون به ولو انه جعل حدوده أعم وأعمق بكثير[٥].

---

١ - (لو٦: ١٧ - ١٩).

٢ - (لو٦: ١٧) الكلمة الأصلية معناها «بقعة سهلة» وقد ترجمت إلى «السهل» وفى العربية «الجبل».

٣ - (مت٥: ٢) يدل على أهمية الحديث ورهبته.

٤ - (مت٥: ٢١) تعنى الذى أعلن لهم منذ القدم وليس للقدماء. كان الربيون يعتقدون ببقاء الناموس ولكنهم كانوا يقولون عن ذلك حرفياً وليس روحياً كما أعلن يسوع.

٥ - راجع ملاحظات أوغسطينوس الجميلة عن عظة الجبل.

إبتدأت عظة الجبل بكلمة «طوبى»، وبثمان تطوبيات، وإنه لإعلان جديد عن الطوبى. كان القوم ينتظرون مسيحاً يرفع النير عن عنقهم، ملكاً مزهواً بالفخامة الأرضية ملتحفاً بأبهة النصر والإنتقام. ولكن يسوع أعلن لهم مملكة أخرى ومسرة أخرى، غنى الفقر، وملوكية الوداعة، والطوبى العظيمة للأحزان والاضطهادات. وهذا الناموس الجديد الذى لا يأمر فقط بل يساعد أيضاً كان سيظهر فى الحال وبرحمة مثل الملح يحفظ العالم من الفساد ومثل النور يهديه فى الظلمة. وأعقبت التطويبات مقارنة بين الناموس الجديد الذى للرحمة، والناموس القديم الذى للنقمة. كان العتيق وقتياً، وهذا أبدياً. كان القديم شبهاً ومثالاً، والجديد إتماماً وكمالاً. وتطلب القديم الطاعة فى الأعمال الظاهرة، أما الجديد فيستشف الأفكار الباطنة، وإحتوى القديم قواعد السلوك، أما الجديد فاحتوى سر الطاعة. فالوصية (لا تقتل) إتسعت الآن فشملت كلمات الغضب وشعور الكراهية(١).

وأظهر يسوع أن جرثومة النجاسة موجودة فى النظرة الشهوانية، وأن تحريم الحلف يتناول كل قسم، وأن قانون الإنتقام العادل قد إرتقى إلى قانون إنكار الذات الكامل، وأن حب القريب قد سما إلى حب العدو أيضاً. ومنذ ذلك الحين يجب على أولاد الملكوت ألا يتطلعوا إلى أقل من هذا، وأن يكونوا كاملين كما أن أباهم الذى فى السموات هو كامل.

والحياة الجديدة التى تنبع من هذا القانون الجديد تخالف من كل وجه العادات اليومية من التحوطات البالغة والرسميات الفريسية التى كانت معتبرة حتى ذاك الوقت أنها المثل الأعلى للمحافظة الدينية. فالإحسان لا يجب أن يصحبه حب الظهور أو الإعلان، ولكن يبذل بتواضع وفى الخفاء. والصلوات لا يجب أن ينطق بها بعلانية ريائية ولكن فى خلوة مقدسة. والصوم لا يمارس كفضيلة مذاعة ولكن كإنكار ذات خشوعى. وكل هذه الأعمال التقوية يجب أن تقدم فقط على أساس محبة الله، وتقدم ببساطة ولا تتطلب مكافأة أرضية ولكنها تختزن لنفسها كنزاً سماوياً لا يفسد. وخدمة الله لكى تكون حقة ومقبولة يجب أن تكون كاملة ولا يعتورها إنشغال آخر فلا يحد حماسها أو يعكر صفوها إهتمامات الحياة أو إضطراباتها لأن الله الذى إليه تقدم هو أب أيضاً، والذى يطعم طيور السماء التى لا تزرع ولا تحصد، والذى يكسو زنابق الحقل بجمال أزيد من الملوك، لا يعجز عن أن يكسو ويشبع - بدون هم متعب - الأولاد الذين يطلبون أولاً ملكوت الله وبره.

وما هو أساس هذه الخدمة..؟ هو فحص النفس الذى ينبع إلى عطف لا يبصر، وإلى تجاهل لا

١ - (مت٥: ٢٢) كلمة «باطلا» توضح الروح الحقيقية للوصية. لأنه يوجد شئ إسمه الغضب الحق والحنق المباح (أف٤: ٢٦) وقال أوغسطينوس بجمال «إنه ليس بالغاضب مع أخيه من يغضب من خطية أخيه».

يتعقب، وإلى رقة لا تدين خطايا الآخرين. هو الإحترام الذى لا يفرط أو يهزأ بالأشياء المقدسة. هو الإيمان الذى يطلب قوة من العلاء، ويوقن أنه إن طلب حسناً ينال حقاً. هو إنكار الذات الذى يرى أن هاديه الوحيد فى معاملته للعالم أجمع هو زيادة مجدالله ومسرة الناس.

الباب ضيق، والطريق كرب، ولكنه يؤدى إلى الحياة. وحسب أعمال الذين يعلنون أنهم يسيرون فيه يحكم على دينهم إن كان صدقاً أو كذباً، وبغير هذا لا تنفع كلمات تبشيرهم ولا صنعهم القوات بإسمه.

وأخيراً حذرهم يسوع قائلاً إن الذى يسمع هذه الوصايا ويعمل بها يشبه إنساناً بنى بيته وحفر وعمق الأساس على الصخر الحى، فبيته إذ كان مبنياً على الصخر بقى ثابتاً وسط ضربات الزوبعة والسيول القاسية، وأما من يسمعها ولا يعمل بها فمثله "كإنسان بنى بيتاً على الرمل بغير أساس فصدمه النهر فسقط لوقته وكان سقوط ذلك البيت عظيماً" (١).

هذا ملخص بسيط غير منمق لتعاليم هذه العظة العظيمة، فلا عجب إن كان الذين سمعوها "بهتوا من تعاليمه" ولاسيما أنه كان يعلم "كمن له سلطان وليس كالكتبة" (٢)، إذ كان تعليم الكتبة ضيقاً،

١ – قارن هذا المثل مع (حز١٣: ١١) و (أيوب٢٧: ١٨) ولقد تم تلخيص تعاليم عظة الجبل بجمال فائق فيما يأتى:

أ – وارثو ملكوت السموات (مت٥: ١ – ١٦)، وميزاتهم الخاصة (٣ –٦) والعامة (٧ – ١٢) وتأثيرهم (١٣ – ١٦).

ب – الناموس الجديد. (١٧ – ٤٨) إكمال للقديم عامة (١٧: ٢٠) وخاصة (القتل. الزنا. والحلف. والإنتقام. والعداوة٢١ –٤٨).

ج– الحياة الجديدة (٦ –٧ : ٢٧) أعمالها الرحيمة (٦: ١ –١٨)، أغراضها (١٩: ٣٤) نظمها (١٩: ٣٤)، مخاطرها (٧: ١٣ – ٢٣).

٢ – إنفرد الكتبة «السوفريم» كهيئة مستقلة من زمن عزرا. والكلمة مشتقة من «سفر» أى كتاب ومعناها المهتمين بالكتب، أى يفسرون ويدونون الناموس، وليس من «سفر» أى الذين يعدون، إذ كانوا يعدون كل حروف الناموس وكانوا مخصصين لنقل وقراءة وإصلاح وتفسير وحفظ الناموس. وللقيام بالأمر الأخير إبتدعوا «الدبهيرى سوفريم» أى سياجات الناموس، أو «كلمات الكتبة» التى كانت أساس «تقليد الشيوخ» (مت١٥: ٢) و (غل١: ١٤) أو «القانون الشفوى» أو الناموس الذى على الشفاه لتمييزه عن «الناموس المكتوب» والذى تقرر المشناة أن أى مخالفة له تحسب أشد بكثير من تعدى كلمات الكتاب (سنهدرين١٠: ٣) والكتبة الحقيقيون بدأوا من عزرا الكاتب وإنتهوا بسمعون العادل (سنة ٣٠٠ق.م)، وخلفهم «التنايم» أو «الناموسيون» أو «معلمو الناموس» وهؤلاء بقوا حتى سنة ٢٢٠م وحصروا كلمات الكتبة فى كتاب «الهلكوت» أى قواعد السلوك لتكون «سياج التوراة» وقد ورث «التنايم» مجداً من العظمة خلعه عليهم الأولون وكانت لهم مكانة كبيرة. وظل لقب «الكاتب» زماناً وإن كان قد عدم كثيراً من سمو منزلته الأولى.

صارماً، مادياً، وقوراً فى المنظر، كان تعليماً متحذلقاً وفي الوقت ذاته ضعيفاً، وتعليماً متكبراً وفى الوقت ذاته ضيقاً.

كان محشواً ألف مرة بالتفاصيل اللاوية عن النعنع، والشبث، والكمون، ويخول الذيل، وعرض الأهداب، وغسل الكؤوس والأوانى، والربع من الثانية الذى يبدأ فيه توقيت الهلال الجديد أو حلول يوم السبت.

أما تعليم يسوع فكان مختلفاً جد الإختلاف فى ماهيته ويعلو بما لا يقاس عن تعليمهم.

لم تعن تعاليم يسوع بالتدقيقات فى العشور، أو سفسطات الغسل، ولكن بنفس الإنسان، وآخرة الإنسان، وحياة الإنسان بالرجاء والإيمان والمحبة. ولم يكن فى تعاليم يسوع تعريفات، ولا مصطلحات، ولا تفسيرات، ولا مناهج مدرسية، ولا نظريات فلسفية، صعبة، ولكن نظرات ثاقبة سريعة إلى الأعماق الداخلية لقلب الإنسان، جريئة محيرة إذ وهى غير مسيجة بإستثناءات أو تحديدات، فإنها تعلق فى الذهن بيسلخة لا تقاوم وتحرك القلب وتسيطر عليه بسلطان كامل.



الفصل التاسع عشر

معجزات أخرى

عندما إنتهت العظة تفرق الجمع إلى مختلف الجهات. عندما نزل من الجبل[1] إقترب من إحدى المدن الصغيرة وكان يتقدم الجموع بمسافة، إذ باحترام طبيعي آثروا عدم إقلاقه بعد تعبه الجم. وقد وقع بصره على منظر يستدر الشفقة[2] لأن رجلا فاجأه ضارعا متألما، وجثا على ركبتيه بقلب مضطرب وتوسلات حارة ثم ابنطح على وجهه برأس عارية وثياب ممزقة وشفة مغطاة. لقد كان أبرص مضروباً بأشد وأقذر قروح ذلك المرض المخيف الكريه. ولا شك أن هذا البائس المسكين قد عمر قلبه بمقدار كبير من الايمان دفعه إلى أن يعتقد أن نبي الناصرة الشاب قدير على شفاء مرض، أردأ ما فيه أنه ما دام قد سرى في الدم فلا يمكن شفاؤه. بل يتفاقم خطبه. ولكن أمل الحياة كله تركز وفاض في ضراعة الرجل الحارة "يارب إن شئت تقدر أن تطهرني" وفي الحال، كرجع الصدى، كان جواب إيمانه "أريد فاطهر" وللحال مد السيد يده ولمس الأبرص فشفي.

كان هذا تعدياً شديداً «لحرفية» الناموس الذي يحتم طهرا وغسلا علنيا إذا لمس الانسان شخصا مصابا بالبرص[3]، ولكنه في الوقت ذاته مثلاً عظيماً «لروح» الناموس الذي هو «الرحمة لا الذبيحة». ويد يسوع لم تتنجس بلمس بدن الأبرص ولكن جسد الأبرص جميعه قد تقدس بلمس تلك اليد الطاهرة. وعلى هذا المثال أيضاً قد أخذ طبيعتنا الانسانية الخاطئة وظل هو بلا ذرة من الخطية.

لمس يسوع الأبرص ليمنحه الشفاء. فعل هذا في عمق تأثيره وسرعة استجابة عواطفه. ولكن كانت إرادته في ذلك الوقت أن يتم ناموس موسى بطاعة كاملة. أمر الأبرص أن يذهب ويرى نفسه للكاهن ويقدم الذبائح المعتادة ويأخذ لنفسه الشهادة الرسمية أنه قد برئ[4]. وأضاف إلى هذه التعليمات

---

١ – المكان والزمان وردت دلالتهما في (مت٨: ١) ولقد أجملت أيضاً الحوادث التي ذكرها البشيران الآخران.

٢ – هذا ظاهر من (لو٥: ١٢) «وإذا» و (مت٨: ٢) وهذا التعبير من مميزات كتابة هذين البشيرين، استعملها متى ٢٣ مرة ولوقا ١٦ مرة.

٣ – (لا١٣: ٢٦ –٤٦) و (عدد٥: ٢).

٤ – سنتكلم كثيراً عن البرص من الآن فصاعدا عندما ندرس معجزات السيد الأخرى وربما لا يمكن تكوين فكرة عنه أشد هو لا مما ورد في (لا١٣: ١٤) أما الطقوس التي ترافق التطهير الناموسي من البرص فمن فصلة في (لا١٤)، وهي عملية طويلة ذات شطرين.

أوامر صارمة شديدة ألا يقول كلمة واحدة لأى أحد[١] وقد يستخلص من سرعة حدوث هذه المعجزة أنها بقيت طى الكتمان إلا عن بعض أتباع السيد الأخصاء مع أنها حدثت فى وضح النهار، وفى الجوار القريب لمدينة، وليس على بعد كبير من الجمع السائر خلفه. ولكن لماذا فى هذه المرة وفى مرات أخرى متعددة فرض السيد على من صنع لهم معجزاته سرِّية قلما راعوها؟ ربما لن نعلم الأسباب كلها، ولكن بلا شك كان هناك دخل لظروف الزمان المكان، وعقلية من صنع المعجزات لأجلهم. وهذا واضح أنه فى مرة أخرى عندما كانت الظروف مخالفة لما تقدم، فانه أمر بإعلان المعجزة وإذاعتها[٢] فهل كان ذلك ـ كما يظن القديس يوحنا ذهبى الفم ـ لكى يزجر روح الزهو فى الناس ويعلمهم ألا يستهينوا ويتحدثوا عن الشعور الداخلى لعطايا الله العظيمة؟ أو لينأى عن زيادة إستفزاز حماس جموع الجليليين الذين تملكتهم الدهشة؟ أو لأنه لم يرد أن يعرفوه كصانع أعاجيب قدير، أو كحكيم عمومى بل أن يعرفوه على ضوء حقيقى كمخلص بالاستعلان والايمان؟

ومهما كانت الأسباب العامة فيظهر أنه فى هذه المرة كان هناك سبب له أهمية خاصة. فمرقس البشير الذى أبقى لنا ذكريات بطرس الرسول الحية والعميقة يصور لنا فى كتابته المختصرة ولكن الدقيقة كيف أن أمر السيد للرجل كان مصحوباً بانفعال شديد فالكلمة "فانتهره وصرفه للوقت" كلمة متطرفة القوة وربما صحبتها حدة فى النظرة أو الاشارة. والمعنى الحرفى لكلمة «صرفه للوقت» هو «طرده» أو «ساقه للأمام». ما كان سبب هذا الأمر الذى أعطى بشدة، وما سبب هذا الانتهار الفجائى؟ ربما كان السبب أن لمس الأبرص ولو لمسا شافيا كان فى عينى الرجعية غير المتعقلة غير الروحانية نجاسة تقليدية ورسمية. وقد حدث هذا فعلا إذ يمكن استنتاجه من الآية المذكورة عن قصد ـ نتيجة للكيفية التى أذاع بها هذا البائس المطهر المعجزة ـ حيث قيل حينذاك عن المسيح "حتى أنه لم يستطع أن يدخل مدينة ظاهراً بل كان خارجاً فى مواضع مقفرة" (مر١: ٤٥).

حالما وصل السيد مدينة كفر ناحوم التى إتخذها موطنا مؤقتاً له قابل وفد من شيوخ اليهود[٣]،

---

١ – "وقال له أنظر لا تقل لأحد" (مر١: ٤٤) وبتعبير أشد فى (١٣: ٢) و (١٤: ٢) ولمعرفة مواضع أخرى لطلب السرية راجع (مر١: ٢٥)، و (لو٤: ٣٥ و ٥: ١٤) و (مر٣: ١٢) و (مت١٢: ١٦) و (مر٥: ٤٣) و (لو٨: ٥٦) ويلاحظ من كل هذا أن هذه الأوامر قد أعطيت أغلبها فى بدء كرازته.

٢ – مجنون جدارا (مر٥: ١٩) و (لو٨: ٣٩).

٣ – أورد متى البشير هذه الحادثة باختصار وذكر أن الطلب قد جاء من قائد المائة ذاته متبعا القاعدة السارية «ما يفعله الوكيل قد فعله موكله». قارن فى حادثة مشابهة بين (مت٢٠: ٢٠) و (مر١٠: ٣٥).

ليتشفعوا عنده لقائد مائة له عبد[١] أمين محبوب أمسكته نوبة صرع خطيرة مؤلمة. وقد يظهر غريباً جداً أن يهتم شيوخ اليهود هذا الإهتمام بشخص ـ سواء كان رومانياً أو لم يكن ـ كان بالتأكيد وثنياً، وربما لم يكن حتى «على باب الهداية» ولكنهم فسروا ذلك بأنه لم يكن فقط محباً لأمتهم ـ وهو أمر نادر الوقوع من أممى لأن اليهود كان ينظر إليهم دائماً بعين الكراهية الشديدة ـ ولكن أيضاً لأنه بنى لهم على نفقته مجمعاً استحق مع كثرة المجامع التى فى كفر ناحوم أن يطلق عليه «المجمع» لجماله وأهميته. ومجرد إلتجائهم ليسوع يدل على أن هذا الحادث كان فى أيام كرازته الأولى عندما نظر إليه الملايين بدهشة ورجاء، وقبل أن تبدأ العداوة المميتة التى قامت ضده فى الأيام الأخيرة. وفى الحال إستجاب يسوع رجاءهم وقال "أنا آتى لأشفيه" ولكنه قوبل فى الطريق برسل من قائد المائة المتواضع الواثق يضرعون إليه ألا يدخل تحت سقف أممى غير مستحق بل يشفى الغلام المتألم بمجرد كلمة منه (كما فعل بابن نبيل البلاط). وإذ هو قائد مائة، ولو أنه فى وظيفة ثانوية، إلا أن له معاونين مستعدين دائماً لينفذوا أوامره، أفلا يقدر يسوع أن يأمر رسلاً غير منظورين ليتموا إرادته دون أن يتجشم التعب بنفسه؟ وقد تعجب السيد من هذا الايمان الكبير الذى لم يصادف مثله حتى ولا فى إسرائيل. لقد وجد فى العوسج ما لم يجده فى الزيتونة[٢] واستخلص من هذا النتيجة التى وقعت دون ترحيب وببرود على الآذان اليهودية وهى أن كثيرين من أولاد الميراث سيطرحون فى الظلمة الخارجية وأن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويجلسون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات. ولما عاد رسل قائد المائة وجدوا أن كلمته الشافية كانت كافية، وأن العبد المحبوب قد أعيد إلى العافية.



١ – (لو٧: ٧) يدعوه «غلامى» و (مت٨: ٦) «فتاى».

٢ – أوغسطينوس.

الفصل العشرون

يسوع في نايين

إن كان التوقيت الوارد فى إنجيل لوقا (١١:٧) حرفياً[١]، لوجب أن يكون قد رحل يسوع فى نفس اليوم الذى أعقب حدوث الوقائع السالفة من كفر ناحوم إلى نايين.

ونايين قرية تبعد نحو خمسة وعشرين ميلاً عن كفر ناحوم. وبكر يسوع ليسافر فى ساعات الفجر الرطبة، ليصل إلى تلك القرية الصغيرة بعد الظهيرة بقليل.

وفى هذه الفترة الباسمة المحبوبة من كرازته كان يصحبه عادة ليس تلاميذه فقط ولكن أيضاً جمع فرح متعبد. وبينما كان هذا الموكب السعيد ـ الملئ بآمال عالية وغالباً بأفكار مخطئة عن الملك الآتى ـ معتلياً الطريق الضيق الصخرى المؤدى إلى باب نايين، قابله موكب آخر حزين قادم منها ليدفن شاباً خارج أسوارها. وكان يبدو أن الألم أعمق من المعتاد، وربما أيضاً فى هذه الأمة الشديدة العواطف كان النوح أشد مرارة وإخلاصاً من الصراخ العادى، لأن هذا الشاب هو ـ كما ذكر البشير بلغة أشد عمقاً وتأثيراً لكامل بساطتها والتى حينما تقع على أذن اليهودى تثير شعوراً من الحزن أعمق مما تفعل فينا[٢] ـ "إبن وحيد لأمه وهذه كانت أرملة" وهذا المنظر المفجع مس قلب المخلص المحب الرقيق بقوة لا تقاوم فتوقف لحظة ليقول للأم «لا تبكى» وللمرة الثانية لم يراع المراسيم الظاهرية بل دنا ولمس النعش، أو بالحرى اللحد المكشوف الذى فيه الشاب الميت. ولا شك أنها كانت لحظة إنحبست فيها الأنفاس إنتظاراً لما عسى أن يكون. ووقف الحاملون بدون أن يؤمروا مما إعتراهم من رهبة لا توصف. وحينئذ دوى فى قلوب الحزانى المبهوتين وقلوب المشيعين الصامتين ذلك الكلام الهادئ "أيها الشاب لك أنت أقول قم" [٣] قام الميت وبدأ يتكلم وسلمه يسوع إلى أمه.

---

١ – حوادث هذا الفصل مستقاة فى الأغلب من (لو٧: ١١ –٥٠). حقيقة حادثة إرسال تلميذى يوحنا المعمدان دونها أيضاً (مت١١: ٢ –١٩) كلمة «فى اليوم التالى» وردت فى (لو٩:٣٧) أيضاً ولكن نفس الكاتب لم يدونها فى (أع٢١:١) و (٢٥:١٧).

٢ – لأنه من جهة كان يعتبر مصيبة عظيمة أن يموت المرء دون خلف ومن جهة أخرى لأن موت الخلف كان يعد عقاباً مباشراً للخطية (أر٦:٢٦ وزك١٢:١٠ وعاموس٨:١٠)

٣ – «قم» من الطبيعى أن نظن أن السيد إستعمل نفس الكلمة بالآرامية فى إقامة إبنة يايرس «طاليثا قومى» (مر٥:٤١).

لا عجب إن كان قد إعترى الجميع خوف عظيم. ربما ذكروا إيليا وأرملة صرفة، أو اليشع والمرأة الشونمية، فهما أيضاً النبيان الأعظمان اللذان قد أعاد كل منهما إلى الحياة ولداً وحيداً لأم ثكلى، ولكنهما فعلاً ذلك بتضرعات أليمة وجهود عظيمة، مصارعين في الصلاة، متمددين على جسم الميت[١]، بينما صنع يسوع هذه المعجزة عرضياً، وبهدوء، وفى الحال، وبإسمه، وبسلطانه، وبكلمة واحدة منه. لذلك ما إستطاعوا إلا أن يقروا قائلين "وإفتقد الله شعبه".

وحوالى هذا الزمان بل ربما فى ذات اليوم[٢] وصلت إلى السيد رسالة صغيرة مضطربة من سابقه العظيم يوحنا المعمدان. ونفس إختصار الرسالة زاد فى روح الشدة والحزن التى تنطوى عليه. قال: " أأنت هو الآتى أم ننتظر آخر؟"

هل كانت هذه رسالة من ذاك الذى كان أول من عرف وأعلن أن المسيح هو حمل الله؟ هل كانت هذه رسالة من ذاك الذى إبتهج إذ رأى السماء مفتوحة والروح نازلاً على رأس يسوع مثل حمامة؟

لقد ظن بعضهم أن هذه الرسالة قصد منها فقط إبعاد الشك عن تلاميذ يوحنا الذين تملكتهم الغيرة وإنكسرت قلوبهم.

لم يجاوب يسوع على هذا السؤال مباشرة بل أرشد التلميذين وجعلهما ينظران بأعينهما بعض الأعمال التى سمعوا عنها حتى ذلك الوقت بآذانهم فقط، وبعدئذ إستشهد بالإصحاح الحادى والستين من أشعياء، ثم أمرهما أن يعودا إلى سيدهما بالرسالة أن العمى يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصم يسمعون، والأموات يقومون[٣]، وفوق الكل وأعظم من الكل، إن بشارة الفرح ينادى بها للمساكين. ويمكننا أن نتخيل بأى حنان عميق قد أضاف بعدئذ «وطوبى لمن لا يشك فيَّ» طوبى لمن لا يعثر فيَّ رغم الأحزان والإضطهادات. طوبى لمن يؤمن أننى أعرف إرادة الذى أرسلنى إلى التمام وكيف ومتى أتم مشيئته.

وقد يسهل أن نتخيل ـ ولو أن هذا لم يدون لنا ـ أن التلميذين إنصرفا بعد أن زودهما يسوع بكلمات خاصة من الحب والتشجيع لذلك السجين العظيم الذى كانت نهايته تقترب، كلمات هى

---

١ - (١مل١٧: ٢١) و (٢مل٤: ٣٥).

٢ - (مت ١١: ٢ - ١٩) و (لو٧: ١٨ - ٣٥).

٣ - «الأموات يقومون» حتى لو أن المعنى الروحى لم يكن هو المقصود من هذه الكلمات كما هو ظاهر، فإن معجزة إقامة إبن أرملة نايين التى صنعها قريباً تبرر هذا الإقتباس.

أحلى عنده من قطر الشهاد الذى كان يشبع جوعه فى البرية وأعز من ينابيع المياه للأرض الناشفة.

فلما ذهب هذان التلميذان ـ حتى لا يتهم يسوع بتملق عاطل وفى الوقت ذاته ليمنع أن يتسرب فكر واحد خاسر إلى ذهن سامعيه عن نبى الصحراء العظيم ـ تكلم عن صديقه وسابقه بلغة عذبة وحب كامل ونطق بالمديح الخالد، معلناً أنه الصوت الموعود به فى الفجر الجديد لليوم النبيل، أعظم المرسلين من الله. إنه إيليا الذى ذكرت النبوة القديمة أنه سيتقدم مجئ المسيح ليعد طريقه.

"ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا؟"
"أقصبة تحركها الريح؟"
"بل ماذا خرجتم لتنظروا؟"
"إنساناً فى ثياب ناعمة؟"
"ها هم ذوو الثياب الناعمة فى بيوت الملوك!"
"بل لماذا خرجتم؟"
"التنظروا نبياً؟"
"نعم أقول لكم أنه أفضل من نبى لأن هذا هو المكتوب عنه هأنذا أرسل ملاكى قدامك فيعد طريقك أمامك".

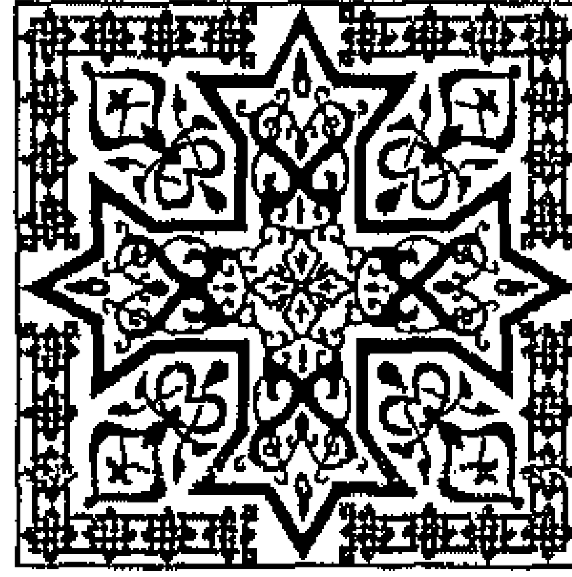
بعد أن إنتهى من هذا التقريظ الشعرى الحبى إبتدأ يتكلم بوضوح أتم عن نفسه وعن يوحنا قائلاً أنه وإن كان يوحنا أعظم وآخر أنبياء العهد القديم لكن الأصغر فى ملكوت السموات أعظم منه. وللإيجاز الذى دونت به هذه الكلمات فمعناها غير محقق تماماً، ولكن بلا شك أن العظمة المقصودة هنا هى فى الإستحقاقات الروحية وليس رفعة المركز.

ففى المعرفة المعلنة، والرجاء الذى لا حد له، وفى الإرتباط الوثيق بيننا وبين أبينا وإلهنا، أصغر طفل فى عهد النعمة قد وهب عطايا أعظم من أعظم نبى فى العهد القديم. وملكوت الله هذه التى إقتربت الآن يقدر أن يغتصبها الجميع بقوة مقدسة بهجة. ومثل هذه القوة المتحمسة ـ الطبيعية لكل الذين يجوعون ويعطشون من أجل البر ـ تكون مقبولة فى عينى الله[1].

إن كثيرين ممن سمعوا هذه الكلمات ـ سيما العشارين والشعب ـ قبلوا بفرح وشكر هذا المديح

١ – قارن (أش٦٠: ٨، ١١) و (لو٥: ٥٠) و (١٣: ٢٤).

ووثقوا بيوحنا، أما المقامون معلمين للناموس المكتوب والشفوى فأصغوا لهذه الكلمات بكره وإزدراء. ودهش يسوع لهذا التناقض فضرب لهم مثلاً عن الأولاد المدللين الذين يرفضون كل مجهود من إخوانهم لتفريحهم وتسليتهم. لا شئ يمكن أن يسر خبائع مرة متمردة مثل التى لهم، فهم لا يسرون بالمزمار ورقص الصغار الذين يعزفون ويمرحون كما فى عرس، ولا بالنواح الطويل لجنازة مصطنعة. وحكمة الله البالغة قد أظهرت لهم فى مناسبات عديدة وبطرق مختلفة[1] ولكن بدون جدوى. جاءهم يوحنا فى تقشف صارم فقالوا عنه مجنون، وإشترك يسوع فى وليمة العرس فقالوا عنه أكول وشريب خمر[2]. فالحكمة تبرأت من جميع بنيها. أما الذين تصيبهم الإفتراءات البلخلة ولم يدنسوا بسلختهم الإلهية، فمع أن الحمقى يحسبون أن حياتهم جنون وآخرتهم ستكون بلا كرامة إلا أن الأصغر فيهم سيصير بين أبناء الله وسيكون نصيبه مع القديسين[3].



١ – (أف٣: ١٠) و (عب١: ١).

٢ – (مت١١: ١٦ ـ ١٩) و (لو٧: ٣١ – ٣٥). الترجمة أكول وشريب تشعر بالمغالاة وربما لا تعنى أكثر من «منبسط».

٣ – (حكمة ٥: ٤، ٥) و (مز٥١: ٤) و (رو٣: ٤).

الفصل الحادي والعشرون

الخاطئة والفريسي

ظاهر أن أعمال وأقوال اليوم السالف لم تنته، لأنه كما يستدل من بشارة لوقا، فى نفس اليوم، ربما فى نايين وربما فى مجدلة، قد أجاب يسوع دعوة أحد الفريسيين الذى كان يحمل الإسم الذائع «سمعان»[1].

أما سبب هذه الدعوة أو الغرض منها فلا نعلمه، ولكن حتى ذلك الحين لم يكن قد وقع خلاف كبير أو ظاهر بين يسوع وشيعة الفريسيين، فربما ظنوا أنه يكون ذا نفع لهم كآلة سهلة للوصول إلى مآربهم السياسية والإجتماعية، أو ربما يكون قد دفع سمعان حب الإستطلاع أو رغبته فى إضافة معلم شهير نابغ، ومن الجائز أنه أراد أن يظهر إستحساناً خفياً وموافقته على شئ إسترعاه فى نظرات يسوع أو كلماته أو أعماله. وواضح جداً أنها كانت إستضافة مقيدة، وروعى فيها إظهار التنازل. فكل الإهتمامات العادية التى توجه لزائر محترم قد أهملت عن قصد وببرود، فلم يكن هناك ماء للأرجل المتعبة المتربة، ولا قبلة ترحيب على الخد، ولا طيب للشعر. لا شئ سوى تقديم غير كريم لمكان خال على المائدة، ومجاملات أبعد ما تكون عن المتبع فى الكلام العادى صدرت بكيفية تشعر الضيف أنه ينال شرفاً لا أن يمنحه.

يخلع كل ضيف عندما يدخل منزلاً فى سوريا أو فلسطين نعليه ويتركهما عند الباب لكى تبقى الحصر أو السجاجيد التى تقدست بالصلوات المنزلية نظيفة لا تتنجس بأقذار الطريق. وبعدئذ يتخذ مكانه على المائدة.

فالمؤكد من التعبيرات المدونة[2] أن اليهود فى أيام السيد كانوا يتكئون وقت تناول الطعام على

---

١ – (لو٧: ٣٦ –٥٠) الذين يقولون أن هذه الدعوة فى بيت سمعان الفريسى فى الجليل هى نفس الدعوة المتأخرة عن هذا الوقت جداً فى بيت سمعان الأبرص فى بيت عينيا، ودهن القدمين من إمرأة خاطئة فى المدينة هو دهن الرأس من مريم أخت مرثا، يتعرضون لنقد كبير إذ أن هذا الرأى فى حكم المستحيل. أما عن الإسمين سمعان ويهوذا اللذين جعلا كثيرين يلتبس عليهم الإسم لأشخاص مختلفين وحوادث مختلفة فكانا إسمين شائعين جداً فى تلك الأيام. ولاشك أنه كان يوجد مئات يحملون هذا الإسم فى ذلك الوقت. أما هذان الحادثان بالذات فلا يوجد أدنى شك فى أنهما مختلفان.

٢ – الكلمات المستعملة «يتكئ» فى (لو١١:٣٧) و (يو٢١:٢٠) و (طوبيا٢:١) «يتكئ على ا لمائدة» فى (لو٧:٣٧) وقارن (عزرا ٤:١٠) «ويتكئ إلى خلف» فى (لو٧:٣٦) و (١٢:٣٧) ويهوديت (١٢:١٥). قارن رئيس المتكأ (يو٢:٨)

أرائك موضوعة حول موائد مرتفعة مثل التى نستعملها الآن. وسنرى فيما بعد أنه حتى الفصح كان يؤكل على هذا النحو. والحادثة الجميلة المؤثرة التى وقعت فى بيت سمعان لا تفهم إلا إذا تذكرنا أن الضيوف كانوا متكئين على الأرائك حول المائدة وأرجلهم متجهة إلى الموجودين من غير دائرة الأضياف المدعوين.

فى هذه الفرصة كانت هناك من إحتاجت أن تستفز شجاعتها لكى تتطفل فى الدخول إلى ذلك المكان المحترم، لأن وجودها لم يكن فقط غير مرغوب فيه ولكن بالتأكيد أيضاً كان مثيراً للدهشة.

إمرأة مسكينة، ملطخة، ساقطة، إشتهرت بحياة شريرة، إكتشفت (لو٧:٣٧) أن يسوع يأكل فى منزل ذلك الفريسى، فتجرأت أن تشق طريقها وسط باقى الزائرين العديدين حاملة صندوقاً من المرمر فيه طيب. وإذ وجدت من تفتش عنه، وقفت بإتضاع خلفه وأنصتت لكلماته، وفكرت فى كل ماهو عليه وما إنحدرت هى إليه..! فكرت فى النبى الشاب الطاهر غير المدنس، وقداسته الخالية من الاثم، وفى حياتها الخسيسة المليئة بالاثم، وابتدأت تبكى. وتساقطت دموعها مدرارا على قدميه العاريتين وقد انحنت عليهما أكثر فأكثر لتخفى ارتباكها وعارها. ولو كان هو الفريسى لارتد مذعورا لمجرد لمسها إياه وبالأحرى من دموع امرأة مثلها، ولهرع يتطهر من النجاسة التى يخال أنها لحقته، ويطرد المسكينة المتطفلة الجريئة بلعنة. ولكن هذه المرأة شعرت بفطرتها أن يسوع لن يعاملها كذلك، لأنها شعرت أن الطهارة الكاملة هى أيضاً الرأفة الأعمق، وعلمت أيضاً أن التظاهر الشديد بالكرامة الذى لزميلها الخاطئ قد يطردها ولكن القداسة الكاملة لمخلصها سترحب بها. وربما تكون قد سمعت كلماته المتناهية فى الرقة والسمو والتى ربما يكون قد نطق بها فى نفس اليوم[1] " **تعالوا إلى يا جميع المتعبين والمثقلين بأحمالهم وأنا أريحكم**". وإذ لم يوبخها يسوع تشجعت وتأكدت أنه مهما قد يفعل بها الآخرون فيسوع على كل حال لن ينتهرها أو يزدريها، فاقتربت منه أزيد وركعت على ركبتيها، وابتدأت تمسح بشعرها المسدول القدمين اللتين بللتهما بدموعها، ثم غمرتهما بقبلها، وأخيراً كسرت القارورة المرمرية ودهنتهما بطيب ناردين كثير الثمن.

نظر إليها سمعان الفريسى بكراهية واشمئزاز وبرود، بل فكر فى نفسه أنه لو كان هذا نبى لعلم أى امرأة هذه، ولكان قد رفضها وطردها باحتقار كما كان يفعل سمعان ذاته. بلى، إن مجرد لمسها له يوجب العزل الناموسى، فاية إشارة من السيد كانت تجعل سمعان سعيدا إذ يجد مسندا لطرد هذه

١ - ذكرت هذه الحادثة فى انجيل متى متابعة للحوادث السالفة (١١ : ٢٨) ولكن ظاهر أن متى هنا دون أحاديث فى أزمنة مختلفة.

الرجاسة من تحت سقفه.

لم ينطق الفريسى بشئ من أفكاره هذه أو يعلنها، ولكن منظره وسلوكه الجاف ونظرة الاستخفاف البادية على وجهه والتى لم يكلف نفسه جهداً فى إخفائها، كل هذا كشف ما كان يجول فى قلبه. وسمع[1] السيد أفكاره، ولكنه لم يبادر فى توبيط قسوته الباردة وجموده، بل كى يسترعى اهتمام الجميع قال لمضيفه:

"يا سمعان عندى كلمة أقولها لك".

فأجابه سمعان بتحفظ "قل يا معلم".

"قال. كان لدائن مدينان. على الواحد خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون ولم يكن لهما ما يوفيانه فسامحهما كليهما فمن منهما يحبه أكثر".

ويظهر أن سمعان لم تكن عنده أقل فكرة أن هذا السؤال له أية علاقة بنفسه، كما لم يكن عند داود أقل فكرة عندما بادر بحكمه الواضح لناثان. وقال سمعان بصيغة متعجرفة[2] وفى عدم إهتمام عجيب.

"أظن الذى سامحه بالأكثر".

أجاب يسوع "بصواب حكمت".

ثم بدأ بعد ذلك ـ بشدة بالغة أعقبت الصبر والرقة المتناهية ـ فى تطبيق هذا المثل الصغير، ولو أن سمعان لم ير المقصود من المثل فربما قد فطن إليه الاحساس الأدق لقلب المرأة المنسحق. فما أشد موقفها وقد استدار الذى لم يلتفت حتى تلك اللحظة إليها، وواجهها، واسترعى انتباه كل الموجودين لكيانها المنكمش وهى جالسة على الأرض تخفى بيديها وشعرها المسدول اضطراب وجهها، وأوضح القول للفريسى المذهول فقال:ـ

"أترى هذه المرأة؟" [3]

---

١ – قال أوغسطينوس معلقاً على القول «سمع فكر الفريسى» [احفظ أفكارك جيداً لأن الأفكار تسمع فى السماء].

٢ – (لو٧: ٤٣) قارن (أع ٢: ١٥).

٣ – «أترى» (عدد ٤٤) وليس «أتلاحظ». ربما لم يتنازل سمعان أن ينظر إليها مليا كما لو أن حتى مجرد النظر كان نجاسة لقداسته ! «دخلت بيتك» فى اليونانية الأصلية تعنى «كنت مضيفك أنت» بشئ من التوكيد. «ماء لرجلى لم تعط» أى ليصب عليهما قارن (رؤ٨: ٣) و (تك١٨: ٤) و (قض١٩: ٢١).

"دخلت بيتك وماء لرجلى لم تعط أما هذه فقد بلت بالدموع رجلى ومسحتهما بشعرها".
"لم تقبل فمى أما هذه فمذ دخلت بيتك لم تكف عن تقبيل قدمى"
"بزيت لم تدهن رأسى أما هذه فقد دهنت بالطيب قدمى"
"من أجل هذا أقول لك إن خطاياها الكثيرة مغفورة لها لأنها أحبت كثيراً والذى يغفر له قليل يحب قليلاً".

وبعدئذ، كالختام العالى للموسيقى السامية، أضاف ليس لسمعان بل إلى تلك المرأة المسكينة الخاطئة كلمات الرحمة: " مغفورة لك خطاياك".

كانت قوة وهيبة سلطانه الناجم عن حبه وطهارته، والسمو الذى كان يشع من وجهه ويسمع فى صوته، كافية لافحام سمعان واسكاته. أما الأضياف فتهامسوا صامتين فى قلوبهم وتساءلوا فقط " من هو هذا الذى يغفر الخطايا". وعلم يسوع شكوكهم النفسية، ولكن إذ سبق وتنبأ أشعياء عنه أنه «لايخاصم ولا يصيح ولا يرفع فى الشوارع صوته»، ولكى لا يكسر قصبة إيمانهم المرضوضة ولا يطفئ فتيلة استحسانهم واحترامهم المدخنة، صرف برفق المرأة التى كانت خاطئة بهذه الكلمات الرحيمة:

"إن إيمانك خلصك فاذهبى بسلام".[1]
وإلى سلام فوق كل شك قد ذهبت...
إلى سلام الله الذى يفوق كل عقل....
إلى السلام الذى يعطيه يسوع وليس كما يعطى العالم...

نعود للدرس الذى نستخلصه من قصة هذه المرأة لأنه معدود من التعاليم الرئيسية التى أعلنها يسوع وهو أن الرياء البارد الملئ بالأثرة مكروه فى عينى الله مثل الخطية الفاضحة، وأن حياة خاطئة غير تائبة ظاهرها الاحترام ليست أقل موتاً أو خطراً من حياة بادية العار.



١ - (عدد ٥٠) لا يعنى فقط اذهبى فى سلام ولكن اذهبى إلى سلام أو لأجل السلام.

الفصل الثاني والعشرون

يسوع كما عاش في الجليل

هذه هي الفترة فى بدء كرازة السيد التى ذخرت برحلات التبشير، والتجول فى مدن وقرى الجليل معلما وواعظاً وصانعاً أعمال رحمة. وقد أشارت إليها كثيرا البشائر الثلاث الأولى وعلى الأخص بشارة لوقا، إذ وردت بتفصيل أكثر: " وكان يسوع يطوف فى كل الجليل" [1]. كانت هذه الفترة ألمع وأوفق وأنشط فترة فى حياته. ولعل هذا الموضع أنسب ما يكون لذكر حقيقة أو إثنتين عن حياته على الأرض.

هيئته؟ هو رجل متوسط، حوالى الثلاثين من العمر، على وجهه كمال الطهارة وجمال الشباب مع رزانة ووقار الرجولة. وشعره الذى يشبهه التقليد بلون النبيذ مفروق من الوسط ومسترسل على عنقه، ووجهه أنقى وتقاطيعه أقرب للشكل الأغريقى من وجوه تلاميذه، صيادى السمك، التى لوحتها الشمس وجعلتها فى لون النحاس أو الزيتون. ومع أنه واضح أن تقاطيعه قد غيرها الحزن، وأن هاتين العينين الطاهرتين ونظراتهما الثاقبة التى لا توصف والتى تقرأ أسرار القلوب قد ومضتا مرارا بين الدموع فلا يوجد انسان - إلا من ابتلعت الخطية والأنانية نفسه تماما - يمكنه أن ينظر إلى هذه الطلعة الالهية التى لمحياه الهادئ الصبور دون أن يعتريه تأثر وتغشاه رهبة. هذا هو الذى تحدث عنه موسى والأنبياء يسوع الناصرى، ابن مريم وابن داود، ابن الانسان وابن الله. وقد رأت عيوننا الملك فى جماله، ورأينا مجده مجد الابن الوحيد الذى للآب ملآنا نعمة وحقا. وإذ رأيناه يمكننا أن نفهم جليا كيف أنه وهو يتكلم رفعت امرأة من الجمع صوتها وقالت " طوبى للبطن الذى حملك وللثديين اللذين رضعتها"، أما هو فأجاب بكلمات مملوءة بسر عميق عذب " بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه".

ومن المستحب أن نورد هنا بعض الحقائق عن حياته على الأرض:

أولاً: أنها كانت حينئذ حياة فقر.

لقد أنذرت احدى النبوات الموسوية التى لم يفهمها اليهود عامة إلا فهما قليلا أنه سيتواضع باختياره

---

١ - (مت٤: ٢٣) و (٩: ٣٥) و (مر١: ٣٩) و (لو٤: ١٥، ٤٤) و (يو٧: ١) والكلمة معناها «يعلم وهو سائر». فى هذا الجزء أتبع ترتيب لوقا واتركه فقط اذا وجد سبب يدعو لذلك.

إلى حياة فقيرة. إنه وهو الغنى قد افتقر لأجلنا. ولد فى مغارة وأضجع فى مذود. وقربت أمه لأجل تطهيرها اليمام الذى هو تقدمة الفقراء. ولاشك أن الهرب إلى مصر صحبته متاعب جمة. وعندما عاد عاش كنجار وابن نجار فى القرية المحتقرة الريفية. ثم جال متنقلاً فى الأرض كمعلم فقير. ولقد ابتدأ عظة الجبل بهذه الكلمات " طوبى للمساكين بالروح". وجعل أهم علامة لافتتاح قانونه الكنسى " إن المساكين يبشرون". وإنها لملاحظة موفقة على فقره أنه بعد السنوات الثلاث القصيرة التى لكرازته العلنية قد بيع من أحد تلاميذه بثلاثين شاقلاً، وهو ثمن أقل العبيد.

ثانياً: وبساطة حياته تتناسب مع فقر مظهره.

فلم يمتلك طول حياته سقفاً يمكن أن يقول إنه له. فالبيت الوضيع الذى فى الناصرة شاركه فيه عديد من الأخوة والأخوات. وحتى المنزل الذى فى كفر ناحوم، والذى طالما تردد عليه لم يكن يمتلكه، بل كان لأحد تلاميذه. لم يمتلك عرض شبر من الأرض التى أتى ليخلصها وكان طعامه من أبسط نوع. كان حقيقة مستعدا أن يشارك فى المسرات العائلية البريئة فى منزل سمعان، أو لاوى أو مرثا، أو وليمة عرس قانا، ولكن غذاءه العادى كان بسيطاً مثل الذى لأحقر فلاح، خبز من أخشن صنف[1]، وسمك مصاد من البحيرة يشوى على الشاطئ، وأحيانا قطعة من قرص عسل النحل غالباً من الصنف البرى الذى كان يكثر إذ ذاك فى فلسطين.

ثالثاً: وكانت حياته كما رأينا حياة كد.

كد منذ الصبا في دكان النجار ليساعد فى كسب قوته وقوت عائلته بأمانة ونبل، ثم كد بعد ذلك ليخلص العالم. وقد رأيناه " يجول يصنع خيراً ". وقد كان هذا شعار حياته العامة ومحورها. وما عرفناه سالفا وما سنعرفه أيضاً عن الكيفية التى قضى بها أيامه يظهر لنا المقدار الوفير من الخير الذى نشط فى عمله وتكدس فى ساعات النور القليلة. كان فى أية لحظة مستعدا لتلبية أية دعوة سواء جاءت من متسائل يرغب فى التعليم، أو مريض له إيمان أن يشفى. ولقد شغل التعليم، والوعظ، والسفر، وصنع أعمال الرحمة، والاحتمال بصبر للرعونة المغيظة للغلاظ الرقاب والجهلة، والتحمل دون دمدمة لازدحام الجماهير المتواصل والأنانى، شغل كل هذا وأمثاله وقته وجهوده حتى لقد خبرنا مراراً أنه لم يترك له وقت حتى للأكل. ما كان يحتفظ لنفسه بغير ساعات الليل الهادئة الساكنة التى كان كثيراً ما ينفرد فيها

---

١ – نستخلص هذا من أرغفة الشعير (يو٦: ٩) وخبز الشعير ردئ الطعم حتى أنه كان يعطى عقاباً للعسكر الذين يرتكبون ما يخل بالشرف.

ليصلى لأبيه السماوى وسط وحدة الجبال التى أحبها حبا جما.

رابعاً: كان رجل أوجاع ومختبر الحزن

لقد دعى بحق «مختبر الحزن» ولكنا نظن أيضاً أنه يوجد مجال لاحتمال الخطأ فى تفهم هذا المعنى. لا يجب أن يغرب عن الذهن أن «الحزن» و «الفرح» نسبيان. ونحن متأكدون أنه إن كان هناك حزن طاحن، حزن مشاركة المتألمين والعطف عليهم[١] حزن الرفض من الذين أحبهم، حزن البغضة من الذين أتى ليخلصهم، حزن من وضع عليه آثام العالم، حزن العذاب الطويل الأخير على الصليب عندما ظهر كما لو أن أباه قد تركه، فلقد كان هناك أيضاً فرح شامل. لأن أنحس أنواع الحزن وأشد أنواع البؤس - الذى هو الشعور بالبعد عن الله والاحساس بالعار والخطية والفساد الداخلى وعذاب دنس النفس الذى يعمل كسياط من نار ويؤدى بالروح البعيدة عن الله إلى اليأس والقنوط - هذا النوع كان أبعد ما يكون عن يسوع ليس فقط فى مداه البعيد ولكن حتى ولا فى أبسط مظهر له ولو وقتياً، ولكن من جهه أخرى فرح الضمير غير المبكت. فرح الحياة غير المدنسة. فرح الروح البعيدة عن أى ظل للإنحطاط أو تصور للإثم، فرح التخصص لخدمة الله ومحبة البشر، هذا الفرح كان يسوع دائم الإلتصاق به على أتم الوجوه.

ومع أنه لم يذكر قط أنه ضحك بينما قد ذكر أنه بكى مرتين[٢]، وأنه تنهد مرة، وأنه أضطرب من مرة، فإن ذاك الذى لم يبعث ظلاً من الكآبة على الإجتماعات العامة أو الولائم البريئة لا يمكن أن يكون قد خلا من السعادة الداخلية التى أحياناً ما أرتسمت على محياه والتى كثيراً ما تلمسها فى بعض كلماته الرقيقة أو التى فيها رقة أو تورية. ولقد قيل لنا فى أحد مواقف حياته "تهلل يسوع بالروح" [٣] فهل يمكن أن نعتقد أن هذا التهلل حدث مرة واحدة؟.



١ - (مت٩: ٣٦) و (١٤: ١٤) و (١٥: ٣٢) و (٢٠: ٣٤) و (مر١: ٤١) و (لو٧: ١٣) و (مر٣: ٥) و (٧: ٣٤) و (يو١١: ٣٣، ٣٥) و (لو١١:٤١).

٢ - (لو ١٩: ٤١) والكلمة الواردة فى (يو١١: ٣٤) تعنى أنه «ذرف الدموع».

٣ - (لو١٠: ٢١).

الفصل الثالث والعشرون

يوم عظيم في حياة يسوع

ترتيب الحوادث التى سنشرع فى سردها الآن واحد تقريباً فى البشائر الثلاث الأولى، ودون أن أهمل أى إشارات زمنية صريحة للبشارة الرابعة سأتبع الترتيب مسترشداً بما جاء فى بشارة القديس لوقا، إذ يظهر أن الترتيب فى بشارتى متى ومرقس يتبع وحدة الموضوعات، فتجمع الحوادث المتحدة فى التعليم الخلقى أو الدينى معاً. أما القديس لوقا فواضح أنه عنى أكثر بالترتيب التاريخى ولو أنه بعض الأحيان قد جعل وحدة الموضوع تطغى على ترتيب الزمن.

بعد إنتهاء الرحلة التبشيرية السالفة يضيف لوقا أن يسوع لما رأى نفسه محوطاً بجمع كثير من كل مدينة «قال بمثل» [1]، ويذكر البشيرون الآخرون الخبر الطريف وهو أن هذه كانت المرة الأولى التى علم فيها بأمثال، وأن هذه الأمثال قيلت للجمع الحاشد على الشاطئ بينما كان السيد جالساً على منبره المحبب لديه وهو السفينة التى كانت تحجز له على البحيرة[2].

ويستنتج من مرقس أن هذا التعليم ربما قيل فى عصر اليوم الذى شفى فيه المفلوج[3]، وكل ما نراه أن يسوع إتخذ هذا النوع من التعليم إذ أصبح ضرورياً نظراً للحالة العقلية التى كان عليها بعض سامعيه من الجمع. والكلمة التأكيدية المفردة (إسمعوا) التى بدأ بها خطابه هيأتهم لسماع شئ غير عادى كان على وشك النطق به (مر٤:٣) يجب دوام تذكره.

ولا شك أن جزءاً كبيراً من الجمع فى ذلك الوقت كان على علم بالقواعد العامة للبشارة التى كرز بها يسوع، فكان الأمر فى حاجة أن يمتحنوا ذواتهم، وأن يمحصوا بإخلاص نفوسهم ليعلموا إن كانوا حقيقة جادين فى رغبتهم أن ينتفعوا من كلماته. (فأنظروا كيف تسمعون) كان هذا هو الدرس العظيم الذى أراد أن يودعه أذهانهم. فأراد أن يعلمهم بمثل أن مقدار إستفادة السامع تتوقف غالباً على مقدار أمانته.

---

١ – (لو٨:٤) تعبير (مت١٣:١) «وفى ذلك اليوم» قد يظهر أنه توقيت جازم ولكن الحوادث التى ذكر بعد ذلك انها حدثت «فى ذلك اليوم» لا يمكن أن تكون قد حدثت مع الحوادث التى ذكرها فى الإصحاح السابق. هذا التعبير يستعمل على غير التخصيص راجع (أع ٨:١).

٢ – (مت١٣:٢).

٣ – قارن (مر٢:١٣) و (٤:١).

ولكى يريهم أن الثمر الحقيقى للتعليم الجيد هو تقديس الروح، وأنه توجد أخطار متعددة تمنع نضجه قال لهم مثله الأول، مثل الزارع. وكعادته إستوحى خيال المثل من الأمور الحسية الواقعه تحت بصره من الحقول المزروعه فى جنيسارت، والقمح النابت فيها، والسكك المطروقة التى تخترقها والتى لا يمكن أن تنمو عليها الحنطة، والطيور المتعددة التى تحوم فوقها لإلتقاط البذار، والجهاد الضعيف للحياة الذابلة على الأماكن المتحجرة، والنمو البليغ للأشواك الخانقة فى الأركان المهملة، ثم الأرض الجيدة العميقة التربة وقد ظهرت عليها السنابل الذهبية سمينة قوية تتماوج تحت الرياح الهادئة وتبشر بثمار ثلاثين وستين ومائة. والمعنى بالنسبة لنا نحن الذين طالعنا منذ الطفولة هذا المثل وإلى جانبه تفسير يسوع غريب فى بساطته وسهولته ونرى فيه أحلى تشبيه للخطر المحيق بالشخص البارد غير المهتم، والإنسان السريع التأثر القليل العمق، والدنيوى الطماع المتشاغل المترفه، وهم يسمعون كلمة الله. ولكنه لم يكن سهلاً لهذه الدرجة عند الذين سمعوه[١]، وحتى الرسل قصروا عن معرفة معناه الكامل ولو أنهم إحتفظوا بطلب تفسيره إلى أن صاروا منفردين مع معلمهم. ومن الجلى أن أمثلة واضحة جداً لنا كانت صعبة جداً لأولئك المستمعين البسطاء وأثارت فى عقولهم أفكاراً مستحدثة لم يتعودوها من قبل[٢].

وظاهر أن السيد لم يقل فى هذه الفرصة كل الأمثلة السبعة: مثل الزارع، ومثل زوان الحقل، وحبة الخردل، والخميرة، والكنز المخبوء، واللؤلؤة، والشبكة -التى لبعض وجوه الشبه فى موضوعها وتسلسل التعاليم فيها قد جمعها متى البشير سوياً[٣]. فسبعة أمثال[٤] تضرب دفعة واحدة وتقال دون تفسير لجمع مختلف المدارك يتحدث إليه لأول مرة بهذا الإسلوب من التعليم لا تثمر إلا الدهشة والتيه. بل يبدو جلياً من تعبير البشير مرقس "وبأمثال كثيرة كهذه كان يخاطبهم بالكلمة حسبما كانوا يستطيعون أن يسمعوا" إن تعليمه كان تدريجياً غير متصل لئلا يفقد قيمته لو أعطى منه للسامعين بقدر أزيد مما يستطيعون أن يتذكروا أو يفهموا. ومن مقارنة بشارتى مرقس ولوقا يظهر أن تعليم هذا المساء إقتصر على هذا المثل وماهو شبيه به كمثل حبة الخردل، والبذار فالسنبل وإمتلاء ما فى السنبل، أى الأمثلة التى

١ - مما يدل على أولية تعليم المسيح الذى يسمو به عن كل ما إعتاده الناس من التعبير أن البذرة التى زرعت واحدة فى كل الأماكن. (مر٤:١٦) و (مت١٣:٢٠) «وهكذا أيضاً الذين زرعوا على الأماكن المحجرة».

٢ - (مت١٣: ١ -٢٣) و (مر٤: ١ -٢٥) و (لو٨: ٤ -١٨).

٣ - فمكان التعليم قد تغير على الأقل فى (مت١٣: ٣٤ -٣٦).

٤ - (مت١٣: ٢٤ -٣٠) و (مر٤: ٢٦ -٣٤) و (لو٨: ١٨ -٢١) ولو أضفنا (مر٤: ٢٦ -٢٩) لصار عددها ثمانية. وهى تمثل الإختلاف فى قبول البشارة (الزارع) والنتيجة (الزوان والحنطة) والثمن الغالى (الكنز واللؤلؤة) والإمتداد التدريجى البطئ للإنجيل والملكوت (حبة الخردل والخميرة والقمح).

تشجع على الصبر أولئك الذين كانوا يتعجلون سرعة إعلان ملكوت الله فى حياتهم وللعالم، وربما أيضاً على مثل السراج ليحذرهم حتى لا يطفئوا النور الذى نالوه ولكن ليذكروا النور العظيم الذى يوماً ما سيظهر كل الأشياء وليجعلوا نورهم يسطع ليضئ من جهة طريقهم فى سبل الحياة ومن جهة أخرى ليضئ نفوس كل الذين حولهم.

وهذه الطريقة في التعليم نادرة وباعثة على النشاط ومثيرة للإهتمام، طريقة لا تدانى فى جمالها وإتقانها، طريقة فريدة فى تاريط أحاديث البشر. كان من شأنها أن تزيد بلا شك عدد الجموع التى تزاحمت لتسمعه وإستمر يعلم طيلة عصر ذلك اليوم الحار، وبالكاد قدر أن يصرفهم عندما حل المساء[١].

فملاحظة بسيطة –حفظت لنا بقلم البشير مرقس التصويرى كالعادة ـ تظهر أنه كان هناك حماس وإسراع غير عاديين فى إنصرافه كما لو أن تعبه وإجهاد الفكر الناشئ من الإحتكاك المتعب مع الجماعات جعلاه لا يعود إلى كفر ناحوم بل يغير فجأة خط سيره فبعد أن إنصرف الجمع (أخذوه هو معهم فى السفينة) كان راغباً فى السكون والوحدة على الشاطئ الشرقى.

ولكن قبل أن تدفع السفينة حدث عائق هام[٢] فثلاثة على التوالى من سامعيه –ربما قد أخذوا بقوة وعمق هذه الطريقة من التعليم وربما أيضاً قد إستهواهم علو وإمتداد شهرته ـ رغبوا أو خيل لهم أن عندهم الرغبة فى ملازمته دائماً كتلاميذ له. كان أولهم كاتباً ظن بلاشك أن وظيفته الرسميه تجعله مقبولاً فصرح بوثوق: "يا معلم أتبعك حيثما تذهب" ولكن رغماً عن مكانة الرجل العالية، ورغماً عن وعوده المتألقة، فذاك الذى لم يهتم مثقال ذرة «بخدمة الشفتين» رفض هذه التلمذة. وذاك الذى دعا العشار البغيض لم يقبل هذا الكاتب الشهير. لم يرذل الخدمة المقدمة ولكنه لم يقبلها. ربما رأى فى حماس الرجل المتقد دخان الغرور الأنانى فأظهر له أن خدمته ليست للغنى ولا للكرامة ولا للراحة ولا أمل فيها لطامع فى الربح العالمى ولذلك قال له "إن للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار[٣] وأما إبن الإنسان[٤] فليس له مكان يسند فيه رأسه".

---

١ – (مر٤: ٣٥).

٢ – (مت٨: ١٩ –٢٢) و (لو٩: ٥٧ –٦٢).

٣ – الكلمة الأصلية تعنى «ملجأ» لا عش لأن أغلب الطيور لا تعيش فى أوكار.

٤ – هذا هو اللقب الذى يثير أقل عداوة وفى الوقت ذاته يفهم أنه يطلق على المسيا (قارن دا ٧: ١٣) و (يو٧: ٣٤).

أما الثانى فنصف تلميذ فقد إشتهى أن يصير بكليته للمسيح ولكنه أتى شرطاً أن يذهب أولاً ويدفن أباه. وكان جواب يسوع رهيباً " إتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم"، أى أترك العالم وكل ما فى العالم فإنه يهتم بذاته، والذى يريد أن يتبع يسوع يجب أن لا يحب حتى أبيه وأمه نسبياً، بل يدع موتى الروح يهتمون بموتى الجسد.

والجواب للطالب الثالث لا يختلف كثيراً عما تقدم إذ طلب هو أيضاً التأجيل، ولم يرغب أن يتبع يسوع فى رحلته هذه، بل أراد أن يذهب أولاً ليودع أهل بيته، ولذا أجابه يسوع بما قد ذهب مثلاً كل الأجيال "ما من أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى خلف يكون مستقيماً فى ملكوت الله" قال القديس أوغسطينوس مع حلاوة فى التمثيل [إن الشروق المقبل كان يناديه، فيجب أن يبتعد عن الغروب المدبر ولا يلبيه]

أخيراً إنتهت هذه المعطلات وتمكنت السفينة الصغيرة أن تبسط شرائعها للإبحار. ولكن يظهر أن بعض الجموع تبعته حتى فى هذا الوقت لأن مرقس يخبرنا أنه " كانت معه سفن أخرى" غير أنه فى الغالب - إذ لم نخبر أنها وصلت إلى العبر أى الشاطئ الآخر - قد تفرقت سراعاً أو قفلت راجعة خشية العاصفة المتجمعة. على أى حال فى سفينة وبين تلاميذه الأمناء إستطاع يسوع أن يستريح بدون مقاطعة. وقبل أن يبتعد كثيراً عن الشاطئ وضع رأسه المتعب على وسادة الربان الجلدية ونام نوماً عميقاً، نوم التعوب المضنى، نوم الذين فى سلام الله.

وحتى هذا النوم الذى كان فى حاجة قصوى إليه سرعان ما تعرض لمقاطعة شديدة، لأن زوبعة غاضبة - يمتاز هذا المنخفض العميق عن سطح الأرض بكثرة حدوث أمثالها - قد إكتسحت بقسوة شديدة أمواج البحيرة. وفجأة إمتلأ الجو بالأنواء، وهاج البحر من الزوبعة[١]، وأصبح الخطر شديداً وكانت السفينة كأنها تدفن المرة تلو الأخرى فى زبد الموج الغاضب الذى كان يعلو فوقها. ومع أنه - بلاشك - قد ناله رذاذها الصاخب وهو نائم على ظهر السفينة المكشوف عند المؤخرة، فقد ظل نائماً كان تعبه شديداً فلم يقلق من العاصفة، ولم يجرأ أحد أن يوقظه، ولكن الآن قد غشيت الأمواج السفينة فعلاً حتى بدأت أن تمتلئ وتغرق. ففاجأه التلاميذ بصرخات كسيرة من الخوف والفزع وأيقظوه قائلين "يارب نجنا فإننا سنهلك" "يا معلم نكاد نهلك" [٢]

---

١ - التعبير الذى إستعمله البشيرون يدل على قسوة العاصفة "فنزل فى البحيرة ريح شديد" (لو٨:٢٣) "وإذا إضطراب عظيم حدث فى البحر" (مت٨:٢٤).

٢ - (مت٨:٢٥) و (لو٨:٢٤).

هذه العاصفة التى أرجفت أولئك الصيادين المتقشفين المجربين فهزت شجاعتهم ومهارتهم لم تهز ولا لحظة واحدة السلام الداخلى العميق لابن الإنسان، بل بدون أية علامة ارتباك ولا أية رعدة خوف اتكأ يسوع على مرفقه إذ هو نائم عند مؤخر السفينة التى توشك أن تغرق، وبدون حركة أخرى[١] هدأ عاصفة أرواحهم بهذه الكلمات الهادئة "لماذا أنتم مرتاعون يا قليلى الإيمان". وحينئذ قام ووقف بكل سكون وبعظمة طبيعية على مؤخر السفينة العالى حيث عبثت الأنواء إلى لحظة بثيابه الفضفاضة وشعره المسترسل، ونظر أمامه فى الظلمة وسمع صوته وسط صخب العناصر المضطربة قائلاً " أسكت...! أبكم...!" [٢] وفى الحال سكنت الريح وصار هدوء عظيم. ولما شاهد التلاميذ والبحارة (مت٨: ٢٧) ايضاً ضياء النجوم المنعكس على المياه التى صارت الآن ساكنة تعجبوا وتهامسوا قائلين: " أى إنسان هذا".

لم يجد يسوع راحة حتى ولا على الشاطئ الآخر بل على العكس إذ ماعتم أن وصل إلى جزء البرية الذى دعاه متى البشير «بقعة الجرجسيين» [٣] حتى قوبل بعاصفة من الهياج الإنسانى والجنون والإنحطاط أفظع وأشد وأنكى من عاصفة البحر الهادر. ماكاد ينزل من السفينة حتى أندفع من بين القبور الصخرية التى لوادى السماق إنسان أزعجه أشد أنواع الجنون الغاضب الذى كان ناجماً من إمتلاك الشيطان له. وهذا الرجل الذى أصيب منذ زمن طويل ما كانت السيطرة عليه مستطاعة بأى حال. فقد حاولوا تقييده، ولكن فى نوبات جنونه كان يظهر تلك القوة غير العادية التى هى إحدى مظاهر ذلك النوع من المرض العقلى[٤]، فكان ينجح فى حل ربطه وكسر سلاسله وأخيراً تركوه بين التلال المنفردة والموحشات النجسة التى رن فيها صدى صرخاته ليلاً ونهاراً وهو يرتادها موقعاً الأخطار بذاته وبالآخرين، شارداً، يجرح نفسه بالحجارة.

هذا الشخص المخيف العارى المجنون الذى له ميل للإنتحار قد جرى من بعد إلى يسوع ووقع أمامه

---

١ – هذا ظاهر من (مت٨: ٢٦) «وحينئذ» بعد ان تكلم مع الذين أيقظوه.

٢ – هنا قوة فى الكلمة الآمرة لا تظهر فى الترجمة. (مر٤ : ٣٩) وتدل على إن النتيجة يجب أن تظهر فى الحال. قارن (١كو٩:٩).

٣ – (مت٨: ٢٨ –٣٤) و (مر٥: ١ –١٩) و (لو٨: ٢٦ –٣٩). تدعى فى الثلاث بشائر جداراً وجراساً وجرجسة. وبعد إكتشافات الدكتور طومسون لم يبق شك أن جرجسة (وهو الأسم الذى ذكره لوقا) كانت مدينة صغيرة قبالة كفر ناحوم لازال مكانها الخرب يسميه البدو كرزه أو جرزة.

٤ – (مر٥: ٤). والبشيران مرقس ولوقا يدونان التفصيلات الدقيقة فى مشاعر مشاهدى الحادثة. أما متى فلا يذكر ظروفها وغالباً لم يكن حينذاك مع السيد بل كان يستعد فى إنهاء كل أشغاله التى ختمها بتلك الوليمة التى أعدها ليسوع ربما فى عصر ذلك اليوم بعينه.

ساجداً، خالطاً شخصيته غير المتزنة مع عديد الأرواح النجسة التى كانت تملك نفسه وتضرع إلى السيد فى نبرات عالية مرتعبة ألا يعذبه قبل الأوان.

من المشاهد المعروف أنك إذا أثرت انتباه أى مجنون ليذكر اسمه، أو أيقظت ذاكرته، أو مسست مشاعره بالإشارة إلى ماضيه فقد يؤول هذا إلى فترة هدوء.

ربما يكون هذا هو سبب سؤال يسوع للرجل «ما إسمك». ولكن هذا السؤال كان نصيبه تلك الإجابة الوحشية «إسمى لجيون لأننا كثيرون»، كأن الرجل قد نسى إسمه، أو محته القسوة الهائلة لهذا الجمع من الشياطين التى فنيت فيها شخصيته. وإذ كان الأمر مختلطاً عليه بتخيلاته توسل كما لو كانت آلاف الأرواح النجسة تتكلم بفمه ألا يرسلهم إلى الهاوية ولكن يدعهم يدخلون الخنازير.

"وكان هناك قطيع خنازير كثيرة[1] ترعى عند الجبل فسألوه أن يدعهم يدخلونها فتركهم ولما خرجت الشياطين من الرجل ودخلت الخنازير ترامى قطيع الخنازير من الجرف إلى البحيرة فاختنق".

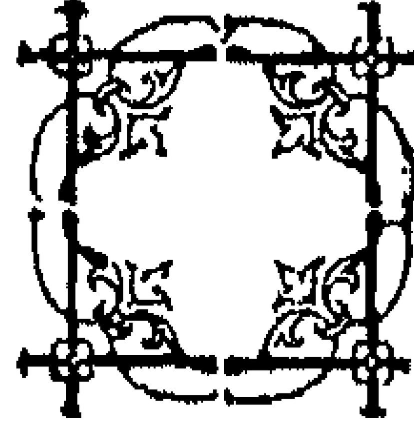
ويبدو أن الحادث كان مرعباً وفجائياً وذلك من القول "فهرب الذين كانوا يرعونها وأخبروا فى المدينة وفى الحقل". فتقاطر أهل جرجسة والجدريين والجراسيين من كل الكورة المحيطة وهرعوا ليروا «الغريب العظيم» الذى زار شاطئهم. وأى برهان حى قوى الوقع في النفوس على عظمته وقدرته من المنظر الذى رأته عيونهم؟ فالمجنون القذر الذى كان رعباً لتخومهم، ساكن القبور، الزائغ البصر، الهادر بصرخات الغضب، الوحشى غير الأليف حتى ليقطع الأغلال، أصبح هادئاً كطفل، وقد خلعت عليه يد رحيمة عباءة فكان "لابساً عاقلاً" جالساً عند قدمى يسوع.

(فخافوا) من حضرته القدسية أكثر من خوفهم من هياج من كان مجنوناً. حقاً لقد شفى الرجل ولكن أين هذا من أن بعضاً من الألفى حيوان النجسة قد هلك! إن الخنازير الثمينة كانت فى خطر! بل إن طمع كل يهودى غير متدين أو أممى دنىء كان فى المكان الأول من الخطر لو قبلوا شخصاً مثل يسوع. فبعداوة معجلة ولطف مفقود طلبوا إليه "أن ينصرف عن تخومهم".

لقد أحبوا خطاياهم وخنازيرهم، وباصرار كامل وعزم فضلوا كل ما هو خسيء دنيء ورفضوا هذه النعم وطلبوا إليه أن ينصرف. ففارقهم سريعاً ولكن بحزن. لم تكن جرجسة موضعاً له.

١ – مرقس كعادته فى التخصيص يقول «نحو ألفين».

على أنه لم يتركهم فى غضب. إن عملا من أعمال الرحمة قد صنع هناك. إن خلخئاً قد خلص. أخرج الأرواح النجسة من نفس واحدة، أن جماعة الجدريين متحدة قد طلبت ذهابه عنهم، ولكن [طلب إليه الذى كان مجنونا أن يقيم معه]، وتوسل ألا يتركه فيما بعد. ولكن يسوع لم يغفل أن يترك فرصة أخيرة للذين طردوه. قد طلب إلى آخرين ممن صنع لأجلهم معجزاته ألا يقولوا لأحد، وأما لهذا الرجل - إذ كان هو ذاته تاركا المكان - فقد طلب وحتم عليه الاعلان، إذ أمره " اذهب إلى بيتك وإلى ذويك وحدثهم بما صنع الرب بك ورحمك". وهكذا صار مجنون جرجسة أول مبشر لكورة ديكابوليس حاملا فى ذاته برهان كلماته.



الفصل الرابع والعشرون

يوم وليمة متى

ظاهر أن الحوادث التى سبقت قد حدثت فى الصباح الباكر. وربما كان الوقت ظهراً عندما وصل السيد مرة أخرى إلى سهل جنيسارت وعرف الناس شراع مركبه العائد، فقبل أن يصل إلى الشاطئ (لو٨: ٤٠) بزمن طويل اجتمعوا واحتشدوا وترقبوا عودته وقبلوه بفرح.

وإذا اتبعنا ترتيب الحوادث كما ورد فى متى[١] لرأينا أن هذا اليوم كان يوماً خالداً فلقد ذهب يسوع أولا إلى كفر ناحوم التى أصبحت تعتبر «مدينته»، ودخل توا إلى البيت ـ غالبا بيت بطرس الرسول ـ الذى كان يأوى إليه مدة إقامته فى كفر ناحوم، فاكتظت الجموع بعدد متزايد حتى ملأوا البيت والفناء الذى حوله حتى تعذر عليه شق طريقه إلى الباب[٢]. وكان هناك مريض متألم مسكين، طريح الفراش، مفلوج، صمم هو ورفاقه أن يصلوا إلى يسوع. كان أحد أولئك الغاصبين الذين يحوزون ملكوت السموات بقوة. وإذ رأى الأربعة الذين كانوا يحملونه أنهم لن يقدروا أن يصلوا إليه بسبب الزحام اعتلوا السطح ربما من على الدرج الخارجى المعتاد[٣]، ونقبوا السقف بإزالة بعض الآجر[٤] وأنزلوا المفلوج على سريره الوضيع[٥] إلى المكان الذى كان يسوع جالساً أمامه. وكان الرجل صامتاً. ربما أسكته الخوف والحياء من الطريقة التى تطفل بها للوصول إلى حضرة السيد. ولكن يسوع قد سر من قوة وثبات وجرأة الإيمان الذى ظهر فيمن فعلوا هذا الأمر، ففى الحال منح المفلوج نعمة أثمن مما طلب قائلاً له بلطف مثل ما قال للمرأة التى كانت خاطئة «ثق يا بنى[٦] مغفورة لك خطاياك» سبق أن لاحظ السيد التأثير السيئ الذى تحدثه هذه الكلمات المثيرة للدهشة فى الحضور، ولاحظه أيضاً هذه المرة

---

١ - (مت٩: ١).

٢ - (مت٩: ٢ -٨) و (مر٢: ١ -١٢) و (لو٥: ١٧ -٢٦).

٣ - المنازل الشرقية غير عالية وليس أسهل من الوصول إلى سطحها سيما إن كانت مبنية على مرتفعات. راجع (مت٢٤:١٧) بخصوص الدرج الخارجى.

٤ - (لو٥:١٩) «من بين الآجر» أما فى مرقس "كشفوا سقف البيت" وهذا قد يجعلنا نظن أنهم عملوا فتحة فى طبقته الطينية، أو ربما قد وسعوا فتحة كانت فى السقف.

٥ - (لو٥: ١٩) الكلمة تعنى «سريراً صغيراً» و (مر٢: ٤) الكلمة تعنى «فراشاً».

٦ - (لو٥:٢٠) «أيها الإنسان» ، (مر٢:٥) «يابنى» ، (مت٩:٢) «ثق يا بنى» وإذ هو التعبير الأكثر حنانا فالأغلب أنه التعبير الذى إستعمله يسوع.

إذ تبادل الكتبة الموجودين النظرات وتجلت علامات عدم الموافقة الغاضبة على وجوههم[1]. ولكنه هذه المرة لم يسكت كما فعل فى المرة السالفة بل على العكس تحدى إنتباههم لكلماته وزكاها بمعجزة. فإذ قرأ أفكارهم وبط ضغينتهم القاتلة المكتومة التى إمتلأت بها قلوبهم ووجه إليهم سؤالاً صريحاً قائلاً " أيما أيسر أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك أم أن يقال قم وإحمل سريرك وإمش" أما يمكن أن يقول أى شخص القول الأول دون أن يستطيع أن يعرف أحد إن كانت الخطايا قد غفرت أم لا؟ ولكن من يقدر أن يقول القول الثانى ويتم كلامه إن لم يكن له سلطان من فوق؟ إن كنت بكلمة أشفى هذا المفلوج ألا يكون واضحاً جلياً أن لى سلطاناً على الأرض أن أغفر الخطايا؟ وهذا السؤال الذى لم يجيبوا عليه بل قوبل بصمت العناد الذى لا يتقهقر، فالتفت للمفلوج وقال له " قم فاحمل سريرك وامش". وللوقت أعيدت القوة للأعضاء المشلولة، وأعيد السلام للنفس المريضة. شفى الرجل وحمل ما كان مضجعاً عليه وأفسحت الجموع له طريقاً فمضى إلى بيته ممجداً الله. وبينما كانت الجموع تتفرق تبادلوا كلمات التعجب الممزوجة بالخوف واعترت الجميع حيرة وقالوا " إنا قد رأينا اليوم عجائب" " لم نرى أحداً مثل هذا قط".

ثم خرج يسوع الى شاطئة المحبوب(مر٢: ١٣) ربما ليفسح مكانا للسامعين المتزايدين، وبعد برهة تعليم قصيرة قصد منزل متى حيث صنع هذا العشار الذى صار تلميذا وليمة وداع لكل أصدقائه. وإذ كان هو عشارا فلا غرو إن كان بينهم "كثيرون من العشارين والخطاة"، حثالة المجتمع، وموضع بغض الناس واحتقارهم أيضا. ولكن يسوع وتلاميذه بدون ذرة من الهزء أو الترفع جلسوا معهم متكئين فى الوليمة «لأنهم كانوا كثيرون هناك». وهذا التفضل السخى قد أثار تذمرا عميقا لسببين ومن شيعتين قويتين وهما الفريسيون وتلاميذ يوحنا. أما الأولون فلأنهم يعتقدون أن مجرد الاختلاط برجال مثل هؤلاء، ذوى حياة مفرطة شريرة، تكسر كل تقاليد وسوستهم المتعجرفة. وأما الآخرون فلأن قبول مثل هذه الدعوات لحفلات الولائم يزرى بتمسكهم بضرورة تصوفهم السنى. ولكن من البعيد أن تكون هذة التذمرات قد قدمت فى وقت الوليمة التى ربما يكون قد شاهدها بعض من الفريسيين أو تلاميذ يوحنا فمالوا ونظروا لمجرد حب الاستطلاع، ولم يشاركوا فيها لئلا يقعوا فى نفس اللوم الذى وجهوه إلى السيد. والغالب أن يسوع سمع تذمرهم قبل انتهاء الوليمة. وكانت طريقة نقدهم له فريدة. مازال الفريسيون فى شك فى المسيح وحقيقة رسالته، وكانوا يخشون عظمته فلم يجرأوا حتى ذلك الوقت أن يعادوه علانية فتجرأوا فقط على أن يبكتوا تلاميذه قائلين لهم "لماذا يأكل معلمكم مع العشارين

١ – أصح القراءات لـ (مر٢:٧) تعنى «لماذا يتكلم هذا الإنسان هكذا أنه يجدف».

والخطاة" وربما لم يستطع تلاميذه البسطاء أن يجاوبوهم، ولكن يسوع واجه المعارضة فى الحال وجاوب هذه الشخصيات المحترمة الغاضبة معلنا أنه لم يأت لأصحاب البر الذاتى بل للخطاة الشاعرين بخطاياهم [١]. إنه لم يأت للأغنام السالمة بل للخراف الضالة، ليكرز بالانجيل للمساكين، ويوسع الرحمة للضالين. وهذا هو السبب الرئيسى أنه سكن بين الناس. ولم تكن مشيئته أن يفرض نعمته فرضاً على أولئك الذين من البداءة قد أغلقوا قلوبهم بعناد ضدها، ولكن أن يمنحها بحنان لأولئك الذين يحتاجونها ويشعرون أنهم يحتاجونها. ولهذا كان تعليمه «كالطل على الكلأ وكالوابل على العشب». ثم أحال هؤلاء الغاضبين على اقتباسات مشهورة من العهد القديم (هوشع٦:٦)[٢] حتى فى أيامهم قد لخصت أن مسرة الله فى الرحمة والمحبة. وبعدئذ استعار نفس جملة حاخاميهم وأمرهم. هم معلمى الناموس الذين يدعون فائق العلم ـ قائلاً " فاذهبوا وتعلموا [٣] ماهو[٤]. أنى أريد رحمة لا ذبيحة". ربما لم يخطر قط على عقولهم المندهشة والمثقلة بطبقة كثيفة من التقاليد والفرائض أن المحبة التى بها تنازل أن يخالط الخطاة ليربح نفوسهم تسر الله أكثر من آلاف الحملان وآلاف أنهار زيت.

أما جواب السؤال المخاصم نوعا ما الذى قدمه تلاميذ يوحنا [٥] فقد كان أقل قساوة فى نبراته. لاشك أنه رأف بالمرارة التى حاقت بعقولهم والتى نجمت من أن معلمهم العظيم الذى قد اعتادوا حتى ذلك الوقت أن ينظروا إليه وحده قد ألقى فى غياهب سجن ماكيروس فى بؤس مقيم. كان يمكن أن يجيبهم بأن الصوم على أحسن وجه عمل للتطهير نافع حقا وواجب ولاسيما إذا شعر أى انسان أنه يساعده على إماتة أى شيء ردئ فى طبيعته. ولكن إن كان للافتخار الروحى، أو إن أدى الى احتقار الآخرين فهو عديم النفع اطلاقا. وكان يمكن أن يجيبهم بأنهم قد خصصوا يومين فى الأسبوع للصوم مع أن هذا فرض تقليدى لم يأمر به ناموس موسى، أو كان يمكن أن يجيبهم بإحالتهم على كلام أنبيائهم

---

١ – (مت ٩ : ١٢) و (مر٢ : ١٥) و (لو ٥ : ٢٩). ويتضح منها أن متى قد ضحى تضحيات مادية زمنية كبيرة جدا ليتبع يسوع.

٢ – الاقتباس من العبرانى. قارن (مت ١٢ :٧) و (اصم ١٥: ٢٣) و (تث١٠: ١٢) و (أم ٢١: ٣) و (خر١٢: ١٣) و (هو٦:٦) و (ميخا٦: ٨) وهى آيات كانت تظهر لليهود لو أنهم فتشوا الكتب حقا لاتضح لهم كذب وهراء كل ترتيبات الفريسيين ومذهبهم.

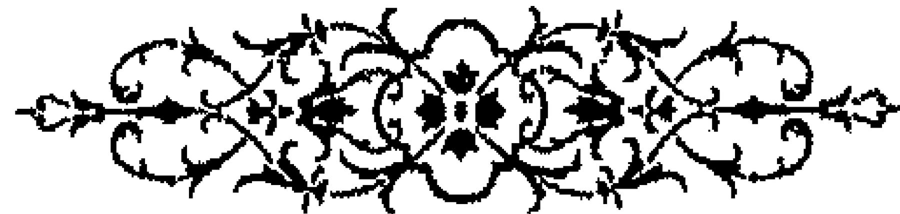
٣ – (مت ٩: ١٣).

٤ – «ماهو» أى «ماهو معنى».

٥ – (مت٩: ١٤ – ١٧) و (مر٢: ١٨ –٢٠) و (لو٥ :٣٤ –٩). وظاهر ان الفريسيين فى حماسهم لينتهزوا أى فرصة وكل فرصة ليقاموه فرحوا بالإتحاد غير الإعتيادى مع تلاميذ يوحنا فى سؤالهم (مر٢:١٩).

الذى يعلن أن الصوم الحقيقى فى نظر الله ليس مجرد الإمتناع عن الطعام بينما يظل المرء «يرعى فى الآثام»، ولكنه محبة الرحمة وصنع العدل وإطلاق المأسورين[1]. ولكن يسوع بدلاً من توجيههم لكل هذه الدروس التى ربما - فى حالتهم الراهنة - قد تزيد حزازاتهم، أجابهم بلطف وجادلهم برفق وعاد بأذهانهم إلى نفس التشبيه الذى قاله معلمهم المحترم والمحبوب عندما مثل يسوع بالعريس واكتفى بسؤالهم " هل يستطيع بنوا العرس[2] أن ينوحوا ما دام العريس معهم" ثم نظر بهدوء لما سيجىء عليه ونطق بكلام ربما لم يفهمه أحد حينذاك، وربما كان التنبؤ الأول الذى صرح به[3] عن النهاية المريعة التى تنتظرة معلنا: "ولكن تأتى أيام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون فى تلك الأيام". وعاد فأخبرهم بكلمات أعمق أهمية، وإن كانت كعادته معلنة فى تشبيهات منزلية عادية، أن ديانته ثوب جديد، وليست رقعة جديدة فى ثوب قديم تجعل الخرق أسوأ، وأنها ليست خمرا جديدة قوية مختمرة توضع فى زقاق عتيق مشقق الجلد فتنشق الزقاق وتراق الخمر، ولكن ديانته خمر جديدة فى زقاق جديدة، وأن الروح الجديدة يجب أن تختزن فى آنية مجددة تماما. إن الحرية الجديدة لن تفسدها تحديدات صماء مطولة لا معنى لها. إن التعليم الروحى يجب أن يفصل للأبد عن مجرد المظاهر الخارجية الدقيقة.

ولقد حفظ لنا لوقا البشير الإضافة الرحيمة المهمة " وما من أحد يشرب عتيقة ويريد جديدة لأنه يقول إن العتيق أفضل".



١ - راجع كلمات الأنبياء السامية فى هذا (ميخا٦: ٦ -٨) و (هو٦:٦) و (١٢:٦) و (عا٥: ٢١ -٢٤) و (أش١: ١٠ -٢٠) و (أش٥٨: ٣ -١٣).

٢ - (يو٣:٢٩) حيث تستعمل كلمة «ينوحون» بدل يصومون وهذا يعطى قوة للإجابة. لأن الصوم علامة للحزن ولكن ملكوت الله ملكوت فرح وإعلان إقتراب الملكوت الذى شبهه معلمهم بالعرس كان وقت فرح لا نوح. والتلاميذ هم «بنو العرس» أو «بنو هاهشوناه» وهو تعبير عبرانى يقصد به ألصق أصدقاءه العروسين.

٣ - تلميح خفى سبق وقيل فى محادثة نيقوديموس (يو٣: ١٤) «يرفع» تدل على النهاية القاسية (مت٩: ١٥) (مرقس٢: ٢٠).

الفصل الخامس والعشرون

يوم وليمة متى أيضا

لم تكد تنتهى الوليمة فى بيت متى[1] ويسوع مازال يتابع حديثه وتعليمه الحنون الذى أثاره سؤال تلاميذ يوحنا، حتى بوغت الجميع بحادث آخر أدى إلى صنعه ثلاث عجائب من أعظم معجزات حياته على الأرض[2]

رئيس المجمع، روش ها كنيست، أو العظيم فى رؤساء الجماعة الذى ينظر إليه اليهود باحترام كبير، جاء إلى يسوع باضطراب عظيم. وليس بعيداً أن يكون هذا الرئيس أحد الرسل الذين سبق فأتوه ليشفعوا فى قائد المائة الذى بنى لهم المجمع. فان كان كذلك فهو يعلم عن تجربة قوة من إليه يلجأ الآن. وخر عند قدميه وسجد له، وبكلمات كسيرة[3] - تظهر فى الأصل غير متماسكة بل متقطعة لما تخللها من نوبات بكاء - أخبره أن ابنته الوحيدة تحتضر وتموت. ولكن إن أتى ووضع يده عليها فستحيا. فقام يسوع فى الحال من على المائدة[4] بحنان لا يمكن أن يتصامم عن صرخة المحزون وذهب معه مصحوباً ليس بتلاميذه فقط بل أيضا بجمع مترقب شهد ماحدث. وأثناء مسيره أحاط به الجمع وأزدحموا فى حماس حوله.

وسط هذه الجموع التى بلا شك شملت بعض الفريسيين وتلاميذ يوحنا الذين كان يتحدث إليهم وأيضا بعض العشارين والخطاة الذين جلسوا معه فى الوليمة - كانت نفس لم يجتذبها حب استطلاع لمشاهدة ماسوف يعمل يسوع لرئيس المجمع، إمرأة منذ أثنتى عشرة سنة تتألم من مرض مضن جعلها غير صالحة لكافة مرافق الحياة ومؤثر على وجه خاص لأنه كان يعتبر عند الناس أنه النتيجة المباشرة للعادات الخاطئة. وقد انفقت كل مالها[5] على أطباء مختلفين ولم تستفد شيئا بل صارت الى حال أسوأ.

---

١ - إشارة التوقيت فى (مت٩ :١٨) «وفيما هو يكلمهم بهذا» بينة واضحة. ولاشك أن متى قد لاحظ الترتيب الزمنى فى يوم عظيم فى حياته كهذا، أى يوم وداعه لحياته الغابرة كعشار جليلى.

٢ - (مت٩ :١٨ -٢٦) و (مر٥: ٢٢ - ٤٣) و (لو٨: ٤١ - ٥٦).

٣ - (مر٥ :٢٣). إذا تذكرنا مركز يايروس فان هذة الحادثة ترينا المقام الارفع الذى حازه يسوع فى ذلك الوقت حتى بين علية القوم.

٤ - (مت٩: ١٩).

٥ - (مر٥ :٣٦) والبشير الطبيب لوقا يخبرنا أنها فى سبيل ذلك انفقت "كل معيشتها" (٨ :٤٣).

وهى تتلمس منهم الشفاء سدى والآن ستجرب كوسيلة نهائية أن تنال ما يمكن نواله بدون مال ولا ثمن من الطبيب العظيم. وربما عن جهل ولم يعد لها ما تكافئه به، أو ربما عن حياء نسائى تخشى الافصاح عن المرض الذى منه تئن، قررت فى نفسها أن تسرق النعمة التى اليها تتوق دون أن يكشف أحد أمرها ولذلك فبقوة وإلحاف اليأس شقت طريقها وسط هذا الجمع المكتظ حتى اقتربت إلى حيث تقدر أن تلمسه، وحينئذ استجمعت قوة من توتر أعصابها وأمسكت الهدب الأبيض لثوبه.

كان على كل يهودى أن يلبس حسب ناموس موسى فى كل زاوية من الطاليث هدبا أى «شرابة» معلقة بخيط أزرق رمزى ليذكر أنه قدس للرب[1]، وكان فى الغالب يتدلى اثنان منها أسفل الثوب واثنان يعلقان عند الكتف حيث يلتف الثوب حول لابسه. وربما تكون المرأة قد لمست أحد هذين الأخيرين مرتعدة فى خفاء وسرعة، وللحال شعرت أنها نالت بغيتها وأنها شفيت فتراجعت بين الجمع غير ملحوظة من أحد ولكن ليست غير ملحوظة من المسيح لأنه علم أن قوة شفاء خرجت منه وميز لمسة الايمان الصامت حتى وسط ازدحام الجمع فوقف وسأل «من الذى لمسنى». كان هناك شىء يقرب من الصبر الذاهب فى جواب بطرس الذى ظهر أنه من غير الفطنة أن يوجه سؤال مثل هذا وسط ازدحام الجمع، ولكن يسوع وعيناه تفحصان الوجوه العديدة أخبره أنه يوجد فرق بين تدافع الازدحام ولمسة الايمان. وأخيراً استقر بصره على المرأة المسكينة التى إذ شعرت بأنها أخطأت فى استلاب نعمة يمنحها مجانا وبسخاء جاءت مرتعدة وخرت عند قدميه واعترفت له بالحق كله تاركة خوفها واستخذائها فى رغبتها أن تكفر عن خطأها هذا. بلا شك خشيت غضبه لأن الناموس يأمر صراحة أن لمسة من مصابة مثلها توجب نجاسة طقسية إلى المساء[2]. ولكن لمسته قد أبرأتها. ولمستها لم تنجسه. وأبعد مايكون عن الغضب وقال لها «يا ابنتى» ونطق هذه الكلمة الكريمة قد سجل غفرانه لها " ايمانك قد خلصك أذهبى[3] بسلام" «وكونى معافاة من دائك». ولابد أن هذه الحادثة قد أوجبت تأخيراً قليلاً وكما رأينا كل لحظة كانت لها قيمتها عند يايرس الملهوف، ولكنه لم يكن البائس الوحيد الذى له دالة وطمع فى رحمة السيد. واذ لم ينطق باحتجاج فواضح أن الحزن لم يصيره أنانيا. وفى تلك اللحظة جاءه رسول بهذه الرسالة القصيرة: " ابنتك قد ماتت" وأضاف بلهجة ظاهر بها بعض الكره

---

١ - (عدد١٥: ٣٧ - ٤٠) و (تث٢٢: ١٢).

٢ - (لا١٥: ١٩). لازال الفريسيون كما كانوا يتجنبون لمسة المرأة.

٣ - كما سلف (لو٧ : ٥٠) هذا التعبير يهودى ومعناه الحرفى «الى سلام» لم يخاطب السيد أى إمرأة أخرى بقوله «ياابنتى».

والتهكم "فلماذا تتعب[1] المعلم بعد".

والرسالة لم توجه إلى يسوع ولكنه استمع إليها وأراد بعطف أن يوفر على الوالد آلاما لا داعى لها فقال له هذه الكلمات الخالدة " لا تخف. آمن فقط". وسرعان ماوصلوا إلى منزله فوجدوه محتلا بالندابات المأجورات والزمارين الذين يقرعون صدورهم بشدة مفتعلة طلباً لزيادة الأجر، فيتعدون على صمت الحزن الحقيقى وسكون جلال الموت. وكان هذا النواح المصطنع مكروهاً لدى المسيح فوقف لحظة عند الباب ليمنع الجمع من أن يتبعه ودخل المنزل هو وثلاثة فقط من أقرب رسله. ثم كان أول همه أن أسكت هذا الضجيج الباطل. وعندما قابلوا بسخرية اعلانه الرحيم: " لم تمت الصبية[2] بل هى نائمة" نحاهم وأبعدهم. وعندما أعاد السكينة المفقودة أخذ أمها وأباها وتلاميذه الثلاثة ودخل بوقار الى الغرفة المغمورة بهدوء الموت ورهبته، وأمسك اليد الصغيرة المائتة الباردة ونطق بهاتين الكلمتين المثيرتين: «طاليثا قومى» «ياصبية قومى» [3] فللوقت قامت الصبية ومشت. فبهت والدها، أما هو فأمر بهدوء أن يعطوها لتأكل. وإن كان قد أوصاهما ألا يقولا لأحد عما جرى فلم يقصد أن تظل هذه الحادثة مكتومة لأن هذا مستحيل وقد شهد ظروفها جمع كثير، وإنما لأن أولئك الذين ينالون من الله رحمة بالغة ونعمة واسعة يزداد احترامهم لها وشكرهم بتعبدهم له من أجلها عندما تخبأ فى كنز القلب الداخلى.

حوادث هذا الليل الطويل واليوم النبيل كانت متتابعة مزدحمة مدهشة، ولكن متى البشير يذكر أيضا أنها قد ختمت بحادث آخر جديد عجيب من عمل القوة. ففيما هو منصرف من هناك تبعه أعميان يصرخان بصيحة لم تسمع قبل هذا: " ارحمنا ياابن داود". وكان يسوع كأنما بدأ يحد من معجزاته. لقد صنع أزيد مما يكفى لجعلهم أن يؤمنوا بقوته وإرساليته، ووجب أن ينتبه الناس لتعاليمه الآزلية أكثر من أهتمامهم بحوادث الشفاء الزمنية. ثم لم يكن حتى ذلك الوقت قد أجاز استعمال هذا اللقب - الذى ربما أيضا قد ناديا به دون تبصر - اللقب الذى له صلة بالرجاء المسياوى، والذى إن كان قد قبله علانية فربما عطل أغراضه المقدسة، إذ قد يصل الأمر الى ثورة مفاجئة ضد الحكم الرومانى. لذلك - دون أن يعير الرجلين أو صراخهما التفاتا - ذهب الى البيت فى كفر ناحوم حيث كان يقيم. ولكنهما تبعاه أيضا بالحاح الى داخل المنزل، وحينئذ فقط بدأ يمتحن إيمانهما فسألهما قائلا " أتؤمنان

---

١ – الكلمة الاصلية ترادف الكلمة العامية «تخوت» أو «تدوش» أى تتعب بلا فائدة استعملت فى هذا الموضع وهذا الموضع فقط فى بشارتى مرقس ولوقا باستثناء (لو٧ :٦).

٢ – (مر٥ :٣٩). "كانت فى الثانية عشرة من عمرها".

٣ – لاشك ان بطرس وقد حضر هذه الواقعة وأخبر مرقس نص الكلمات التى نطق بها يسوع. وقد دلتنا على اللغة التى كان المسيح يتكلم بها فى الغالب.

أنى قادر ان أفعل هذا". قالا "نعم يارب" فلمس أعينهما قائلا " ليكن لكما حسب ايمانكما" [(١)] فانفتحت أعينهما، ثم حذرهما ألا يعلما أحدا بذلك ولكنهما مثل كثيرين من الذين شفاهم أغفلا أمره. لقد امتدح البعض عدم طاعتهم هذه وعزوها لحماس الدهشة وعرفان الجميل.

ولكن كم من هذه الجموع الغفيرة التى شفاها قد صاروا له أتباعاً حقيقيين.

ألم تكن الطاعة أفضل من الذبيحة والاستماع أفضل من دهن الكباش؟ نعم إنه من السهل أن نغش أنفسنا ومن السهل أن نقدم ليسوع مايظهر أنه خدمة وهو يتعارض تماما وأوامره الصريحة وتعاليمه الحقة. خير، وخير ألف مرة، أن نخدمه بعمل الأشياء التى أوصى بها فيتمجد إسمه أكثر من التبجح بحماس ظاهرى غالباً مايكون كاذبا بقدر ماهو سمج.



١ - (مت٩: ٢٧ ـ ٣١).

الفصل السادس والعشرون

زيارة لأورشليم

من يدرس البشائر جنباً إلى جنب بعناية وتكرار لكى يغترف معرفة واضحة على قدر الإمكان عن حياة المسيح على الأرض لا يمكن أن تفوته حقيقتان أو ثلاث عن ترتيب تواريط حوادث كرازته العلنية.

أولاً: إن الحماس البرىء والترحاب المفرح اللذين كان يقابل بهما يسوع وكلامه وأعماله فى البداية فى شمال الجليل قد حلت محلهما رويداً رويداً ولكن فى زمن قليل الريبة والكراهية بل العداوة عند شيع قوية وطوائف كبيرة.

ثانياً: إن المظاهر الخارجية للكرازة وكذلك الأماكن التى بشر فيها السيد قد تغيرت كثيراً بعد قتل يوحنا المعمدان.

ثالثاً: أخبار هذا القتل وازدياد المقاومة ومداومة حضور الكتبة والفريسيين من اليهودية ليراقبوا أعماله ويتجسسوا على حركاته عاصرت زيارة لأورشليم لم يدونها البشيرون الثلاثة وحدثت فى العيد الذى لم يذكر إسمه الوارد فى (يو٥: ١٠).

رابعاً: إن هذا العيد غير المسمى قد وقع فى الجزء من كرازته الذى قد وصلنا إليه الآن.

وسنرى فى ختام هذا الفصل أى عيد كان هذا وإنه قد سبقه إرسالية الإثنى عشر.

عند ختام رحلات التبشير التى حدثت فيها الوقائع التى وصفنا بعضها فى الفصول السابقة إمتلأ يسوع حناناً عندما رأى الجموع[١] كخراف غنمها الأعداء، مهملة سائمة فى الحقول لأنه لا راعى لها[٢] وتمثلت لديه أيضاً كحصاد قد إبيض ولكنه لم يجمع لعدم وجود العاملين. فأمر تلاميذه أن يطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعله إلى حصاده. وإذ كان هو قد طاف الجليل أرسلهم إثنين إثنين ليثبتوا

---

١ - (مت٩: ٣٥ - ٣٨).

٢ - عدد ٣٦ «مهملين» . «مطروحين».

تعليمه ويصنعوا أعمال رحمة باسمه(١)

وكان طبيعياً أنه زودهم قبل أن يرسلهم بالتعليمات التى يهتدون بها فى سلوكهم فأمرهم أن يقصروا جهودهم فى ذلك الحين على خراف إسرائيل الضالة فلا يذهبوا إلى مدن السامرة أو الأمميين، وأن يكون محور رسالتهم إقتراب ملكوت الله، وإن يدعموها بكثير من أعمال القوة والشفاء، وألا يأخذوا معهم مزوداً للطعام ولا كيساً للنقود ولا ملابس غير التى عليهم ولا حذاء للسفر بدل صنادلهم العادية المصنوعة نعالها من ضفير النخيل ولا عصا للطريق إن لم يكن قد إمتلكوا عرضاً واحدة قبل ذلك.

فإذا دخلوا مدينة فليتوجهوا إلى بيت يتوسمون قبولهم فيه ويبتدرونهم بتلك التحية القيمة الخالدة «شالوم لاكيم» (٢) أى «السلام لكم» فإن كان هناك أولاد السلام ستفعل فيهم هذه البركة وإلا فستعود وتستقر على رؤوسهم وإن رفضوهم فلينفضوا غبار أرجلهم شهادة عليهم بأنهم كلموهم بأمانة وكأنهم بذلك يخلون ذواتهم من مسؤلية الدينونة التى تقع على الذين يكرهون النور عنوه وعناداً أزيد بكثير من غير المؤمنين اللذين لم يشع على بلادهم النور أو التى ومض فيها يسيراً.

بهذا قد علمهم السيد أن الايمان المتكل، واللطف الرقيق، البساطة المنكرة للذات، هى أساس نجاح التبشير، ثم أخد يحصنهم ضد التجارب التى لابد منها والإضطهادات التى سوف تصيبهم فى عمل الكرازة.

إنهم يحتاجون ويجب أن يمارسوا حكمة الحيات لا أقل من بساطة الحمام لأنه سوف يرسلهم كحملان وسط ذئاب.

ربما لم تقدم لهم هذه الأحاديث بالشكل المتصل الذى نطالعه، لأن السيد كان فى كل وقت مستعداً أن يشجع أسئلة السامعين المتواضعين المخلصين. ويقول تقليد قديم إن بطرس -كما نعهد فيه دائماً كسامع متحمس متوقد الذهن - قاطع سيده متسائلاً: لكن ماذا لو مزقت الذئاب الخراف؟ فأجابه يسوع وهو يبتسم ربما من عقلية الرسول الحرفية الساذجة قائلاً «لا تخاف الحملان إذا ماتت، فلا تخافوا ممن يقتل جسدكم ولا يستطيع بعد ذلك شيئا، ولكن خافوا ممن يقدر بعد موتكم أن يهلك النفس والجسد فى جهنم» وبعد ذلك عاد يسوع فتابع حديثه وحذرهم صراحة إنهم فى ذلك الوقت وفيما بعد

١ - (مت١٠: ١ - ٤٠) و (مر٦: ٧ - ١٣) و (لو٩: ١ - ٦).

٢ - قارن (تك٤٣: ٢٣). وهذه التحية كانوا يعتقدون انها تشمل كل البركات.

سيسلمون إلى مجالس الحكم ويجلدون فى المحافل[١] ويقفون أمام ملوك فلا يجب أن يساورهم الهم فى التفكير[٢] لأن الروح سيعلمهم مايقولون، وسوف يرفض الأشرار تحية السلام وتغيرها أهواؤهم الفاسدة إلى صرخة عداء وغضب وكره ويطردونهم بل سيضطرون للهرب من وجه أعدائهم من مدينة إلى مدينة، ولكن يجب أن يصبروا إلى المنتهى لأنهم لا يطوفون مدن إسرائيل حتى يأتى إبن الإنسان.

وختاماً حذرهم وعزاهم بتذكيره إياهم بما إحتمله هو وكيف عارضوه فلا يجب أن يخافوا لأن الله الذى يعتنى حتى بالعصافير الصغيرة إن سقطت على الأرض، الله الذى ذات شعور رؤوسهم محصاة لديه، الله الذى بيده ليس فقط مخارج الحياة والموت بل أيضاً الحياة الأبدية والموت الأبدى والذى يجب أن يخافوه أكثر من ذئاب الناس. كان معهم، وسيعترف بمن يعترف بهم إبنه وينكر من ينكرهم. سيرسلون إلى عالم من الخصام يزداد حلكة لأنه رفض السلام. وربما ظاهر العالم ضدهم أقرب الناس إليهم وأحبهم عندهم. ولكن أتباعه الحقيقيين يجب لأجله أن يتركوا الكل بل يجب أن يحملوا صليبهم ويتبعوه ولكى يعزيهم أخبرهم أنهم سيكونون مثله فى العالم، وأن من يقبلهم يقبله ومن يهلك نفسه من أجله يجدها، ومن يعطى كأس ماء بارد لأصغر وأحقر أحد من الأطفال الذين له فلن يضيع أجره.

هذا مجمل للتعليمات العظمية الوداعية كما أوردها متى البشير، ويجب أن يكتبها كل مرسل وكل خادم تقى بحروف من ذهب.

واضح أن يسوع لم يفض بكل هذه التعليمات فى هذه الفرصة بل أن بعضاً منها قيل فى ظروف مختلفة[٣] تالية، وأن أجزاء أخرى قيلت قبل ارساليات تبشيرية غير هذه مستقبلة[٤]. ولكنا مدينون لمتى البشير الذى كعادته فى الاعتناء دائماً بوحدة الموضوعات، قد جمع لنا فى صعيد واحد كل أنوار التعاليم التى ربما قيلت فى فرص تالية، مثل ما قيل عند ارسال السبعين تلميذا أو حتى بعض الكلمات الوداعية للمسيح القائم من الأموات[٥]

كان اليهود معتادين طريقة إرسال السفراء ذوى السلطة. وهذا هو الوضع الذى بعث يسوع به

---

١ – (تث١٦: ١٨) كان لجند المجامع سلطان الجلد. راجع (أع٥: ٤٠) و (٢كو١١ :٢٤).

٢ – الكلمة الأصلية لا تعنى «لا تفتكروا» ولكن: «لا تنزعجوا أزيد من اللازم».

٣ – بعض التعبيرات فى عدد ٨ و ٢٣ و ٢٥ و٣٨

٤ – مثل اعداد ١٨ –٢٣

٥ – قارن (مر١٦ :١٥ –١٨) و (لو١٠ :٢) و (٢٤ : ٤٧).

تلاميذه وكانت منه عناية رحيمة حكيمة أن أرسلهم اثنين اثنين كان الاثنان يتحدثان مع بعضهما عذب الأحاديث ويصلح كل واحد من أخطاء الآخر.

والغالب أنه روعى إزدواج الأصدقاء أو الأخوة، بطرس النارى مع اندراوس المفكر، وابنا الرعد أحدهما ذو سطوة وهيبة والآخر ذو عطف وبلاغة، فيلبس المؤمن وبرثلماوس الذى لا غش فيه، توما البطيء المخلص مع متى المتعبد المتعقل، يعقوب مع أخيه يهوذا، سمعان الغيور ليلهب ويحرق بحماسه ظلمة وتردد ويأس روح الخائن يهوذا.

وإستمر يسوع فى عمله وحده أثناء غيبتهم[١]، ربما وهو يسير متئداً إلى أوروشليم، لأنه إن ساغ لنا أن نتكلم عما يحتمل وسط الكثير من غير المحقق فى ترتيب حوادث الكرازة فانه من أشد الإحتمالات أن هذه الفترة هى ما ينطبق عليها القول: "وبعد هذا كان عيد لليهود فصعد يسوع إلى أوروشليم".[٢]

ولكن كيف حدث أن يسوع صعد إلى أوروشليم لعيد مثل هذا؟ من المرجح أنه عيد البوريم، عيد المرح عند اليهود، عيد لم يأمر به الله، عيد نبت أصله من حبهم لمقاطعة الأمم أو معاداتها، ولا يحتفل به فى الهيكل ولا حتى فى المجامع ولكن فى المنازل.

الجواب أنه وإن كان يسوع فى أورشليم فى هذا العيد، وإن كان قد صعد إلى أوروشليم فى وقت الإحتفال به، فإن كلمات يوحنا البشير لا تعنى بالضرورة أنه صعد خاصة ليكون هناك فى هذا العيد. فإن عيد الفصح كان بعد ذلك بشهر واحد، فربما يكون قد صعد إلى أوروشليم بالأكثر لحضور الفصح وأعطى نفسه فرصة البقاء فى اليهودية وأوروشليم لشهر قبله لكى يبشر مرة أخرى فى هذه الأماكن، وأيضاً لكى يتفادى العلانية والخطر أن هو صعد مع قافلة الحجاج من الجليل. وفرصة مثل هذه قد سنحت طبيعياً من غياب الرسل فى رحلتهم التبشيرية.

بقى سؤال واحد. كان الفصح يقترب، وحضوره لهذا العيد العظيم كان من كل وجه مرتقب. فلماذا تغيب عنه؟ ولماذا عاد إلى الجليل بدلا من البقاء فى أوروشليم؟

الحوادث التى سنذكرها بعد ذلك تعطينا الإجابة الوافية عن هذا السؤال.

---

١ – (مت١١ : ١).

٢ – (يو٥ : ١) أما باقى البشيرين فلم يدونوا شيئا عن هذا بل تابعوا كرازة الجليل حتى قرب النهاية.

الفصل السابع والعشرون

معجزة بيت صيدا

كانت فى أوروشليم قرب باب الضأن بركة لها خصائص عظيمة للشفاء، ولهذا كان لها إسم آخر غير اسمها المعتاد إذ أطلقوا عليها بالعبرانية «بيت صيدا» أو «بيت حسدا» أو «بيت الرحمة»[1] لأن الأروقة الخمسة المحيطة بها كانت غاصة بجموع من المرضى البؤساء من عمى وعرج ومفلوجين، ينتظرون فوران المياه وظهور فقاقيعها حيث تكون إذ ذاك خصائصها على أشدها.

جاء فى بشارة يوحنا: "وكان ملاك ينزل كل أوان فى البركة ويحرك الماء وكل من ينزل أولاً بعد تحريك الماء يبرأ من كل ما مرض به" (يو٥: ٤).

كان بين أؤلئك رجل فقير له نحو ثمان وثلاثين سنة مطروحاً بفالج فى أروقة هذه البركة بدون جدوى لأنه ترك هناك بلا مساعدة من أحد. فعند حركة الماء فى أوقات مختلفة إستطاع غيره ممن هم أقل ضعفاً وأسعد حظاً أن يسبقوه فتضيع منه الفرص المناسبة.

نظر يسوع إلى هذا الرجل بشفقة قلبية ولا شك أن إرادة هذا المخلوق المنبوذ قد شلت كأعضائه بل أن حياته كلها صارت يأساً مستديماً. وأراد أن يساعد متألماً لم يعتن به أحد أو لم يتنازل أحد لمساعدته من قبل، فقال له: "أتريد أن تبرأ؟"

دب فيه بصيص من الأمل الوقتى وظن أن المتحدث أحد الأغراب قد حركت الشفقة قلبه ليساعده على النزول إلى الماء متى تحرك ثانية فأجابه شاكياً بؤسه وإنتظاره الطويل على غير جدوى. وكان يسوع قد إعتزم تقديم مساعدة أجدى فأسرع وقال له: " **قم إحمل سريرك وأمش**".

قال هذا بنبرات يستحيل أن لا يطيعها أحد. وسرى منظر المتكلم وصوته وأمره كشرارة الكهرباء فى الأعضاء اليابسة والكيان المحطم الذى أفسدته حياة المرض والخطية[2] وبعد ثمان وثلاثين سنة من الضعف برىء الإنسان فى الحال وحمل سريره وإبتدأ يمشى. وفى دهشة فرحه إلتفت حوله ليرى ويشكر

---

١ – (يو٥: ٢).

٢ – راجع عدد ١٤.

المحسن إليه المجهول، ولكن الزحام كان شديداً، وقد أراد يسوع أن يتفادى الحماس غير الروحانى من جموع كانت ستنظر إليه كصانع عجائب فقط فذهب بسكون غير ملحوظ من أحد[1].

ورغماً عن هذا فعيون كثيرة ناقدة حاسدة كانت عليه، لأنه على نسبة موت قوة روح الديانة فى الداخل تكون غالباً نسبة التمسك بشكلها الظاهرى. والتمسك بالشكليات، وعدم التدقيق، والتظاهر المتحذلق، هذه كلها وعدم الإيمان صنوان ينميان جنباً إلى جنب. وكان هذا حال اليهودية فى زمن المسيح.

فحفظ السبت الذى كان المقصود منه ضمان الراحة المليئة بالحب والرحمة للمتعبين أصبح مجرد رمز طقسى وعادة عقيمة سيجوا حولها بأشد الحدود المزرية العديمة القيمة.

فالذى شفى من الشلل أحيط سريعاً بعدد من السائلين نظروا إليه بدهش وحنق وقالوا له: " أنه سبت لا يحل لك أن تحمل سريرك".

هنا مخالفة مريعة للناموس. ألم يرجم ابن شلوميت مع أن أباه مصرى الى أن مات لأنه جمع حطباً فى السبت[2]. ألم يقل أرميا النبى بوضوح كامل "تحفظوا بأنفسكم ولا تحملوا حملاً يوم السبت" [3]. نعم! ولكن ما السبب؟ لأن السبت كان قانوناً للرحمة يحمى الأصاغر والمسخرين من حياة الكد المتواصل. كان واجباً حماية الأجراء والعمال من زيادة العمل الذى كان يفرض عليهم من أمة مضروبة بخطية الطمع الشنيعة، ولأن فرز يوم من السبعة للراحة المقدسة كان ذا أهمية عظمى لحياة الجميع الروحية.

هذا هو معنى الوصية الرابعة. فمن أى ناحية قد كسرت هذه الوصية إذا ماشفى إنسان بمعجزة وأراد أن يحمل إلى منزله ذات سريره الذى ربما كان الشىء الوحيد الذى يمتلكه؟ ما خالف الرجل وصية الله ولا ناموس موسى.

أجابهم الرجل "إن الذى أبرأنى هو الذى قال إحمل سريرك وإمش"!

وقبلوا هذا الإعتذار من جهة الرجل. فانه مدين بالطاعة للصوت ذى القوة القاهرة الذى شفى شلل عمر طويل بكلمة. فمن جهته هو لا لوم عليه ولا تثريب.

١ – الكلمة الاصلية معناها «عام بين امواج الجموع».

٢ – (لا٢٤ : ١٠ –١٢) مع (عدد١٥: ٣٢ –٣٦).

٣ – (ارميا١٧: ٢١).

لقد كانوا مدفوعين وبالغرض مساقين، وكانوا يبتغون صيداً أعظم من هذا المسكين البائس ورأوا أنهم لن يكسبوا شيئاً من إضجاره.

فسألوه «من هو». ونلاحظ هنا خبث رؤساء اليهود فلم يسألوه من هو الذى أبرأك إذ لا توجد هرطقة فى إستخدام قوة معجزية ولكن سألوه من الذى قال له «إحمل سريرك وأمش»؟

وربما حتى ذلك الوقت لم يكن شخص يسوع معروفاً للجميع فى نواحى أوروشليم، أو ربما كان إنتباه الرجل قليلاً أو إحساسه بليداً قبل الشفاء حتى أنه حقاً لم يعرف المحسن إليه. ولكنه عرفه بعد قليل. ونلمس شيئاً من التقوى فى ذهابه إلى الهيكل إذ ربما يكون هذا ليقدم الشكر لله من أجل هذا التغير العجيب والتجديد الفجائى لحياته الذابلة. وهناك رآه يسوع أيضاً وخاطبه بهذا التحذير الوحيد الخالد "ها قد برئت فلا تخطىء بعد لئلا يكون لك شراً أكثر".

يوجد ما يستفز الشعور لأول وهلة عندما نقرأ: "فذهب الإنسان وقال لليهود إن يسوع هو الذى أبرأنى". من الجائز أن يكون الرجل قد أراد أن يمجد إسم من صنع معه هذا الفعل العظيم. ولكن إذ قد علم بالتأكيد إحساس اليهود الغضوب ضد يسوع، ولأنه لم يذع كلمة شكر أو تعبد ولم يبد دهشة أو تعظيماً لله. فإنا نعتقد أن الدافع الأول فى تصرف هذا الرجل هو تطوع إختيارى لا إضطرار فيه، جزء من حماية النفس زرى على حساب المحسن إليه، وواضح من هذا أن تحذير يسوع كان لازماً تماماً.

ولأن النتائج كانت سريعة خطيرة إذ غيرت فى الحقيقة مجرى البقية من حياة السيد، لم يحرك اليهود هذا العطف السامى ولم يحركهم عمل القوة العجائبية بل شهروا أسلحتهم ليحاربوا عن هذا الجزء من تقليدهم "فمن أجل هذا كان اليهود يضطهدون يسوع لأنه كان يصنع هذا فى السبت".

ورداً على هذه التهمة أفاض السيد بالحديث الإلهى العالى المحفوظ لنا فى الإصحاح الخامس من بشارة يوحنا. ولا يمكن القول إن كان قد أفاض به فى الهيكل أو أمام لجنة من السنهدرين، ولكن المحقق إن الحاخامين العظام ورؤساء الكهنة الذين إستدعوه ربما ليوبخوه أو يعاقبوه لكسره السبت دهشوا وخافوا بل ربما أيضاً إغتاظوا بمرارة وإرتباك من الكلمات التى سمعوها. قد دعوه أمامهم ليحذروه ولكن التحذيرات وقعت عليهم.

ها هم يرتعشون ويصرون على أسنانهم، ولم يجرأوا أن يعملوا شيئاً بينما بكلمات مثل لهيب النار يمزق المفاصل والمخاخ، بكلمات ملآى بالحكمة والعظمة أكثر من الكلمات التى أتت وسط الرعود فى

سيناء، قد إستمسك بالكرامة الرهيبة التى لإبن الله.

إبتدأ كلماته بإظهاره جهلهم وتوبيخهم لحرفيتهم. لقد ظنوا فى غباوة عن السبت كأن الله توقف عن العمل فيه لأنه تعب، فأوضح لهم أن هذه الراحة القدسية إنما هى حركة محسنة. وأخبرهم أن أباه ما زال يعمل، وأنه يعرف الآب، وأنه محبوب منه، فهو يعمل معه، وأنه سيعمل أعمالاً أعظم مما سبق. هو الآن يقيم موتى الأرواح، وسيأتى يوم يسمع كل من فى القبور صوته. هو الآن يمنح الحياة الأبدية للذين يؤمنون به، وفى ذلك اليوم سيسمع صوته فى دينونة الأحياء والأموات إذ قد أعطاه الآب هذا السلطان.

ثم هل كان يشهد لنفسه؟ كلا. كان هناك ثلاث شهود شهدوا ويشهدوا له: يوحنا الذى تهللوا به زماناً ورفضوه، وموسى الذى يفخرون باتباعه وإن كانوا لا يفهمونه، والآب الذى يدعون أنهم يعبدونه بينما هم لم يعرفوه ولا أبصروه.

لقد أرسلوا ليوحنا ليسمعوا شهادته. ما كان ليقبل شهادة من إنسان ولكنه يذكر هذا فقط من أجلهم لأنهم إلى حين إرتضوا أن يتهللوا بهذا السراج النبوى العظيم الذى أضاءه الله[1]. كانت له شهادة أعظم من شهادة يوحنا، شهادة قوته المعجزة، والآيات التى كان يصنعها ليس كالأنبياء باسم الله ولكن باسمه هو إذ قد دفع الآب هذا السلطان إلى يديه. ولأنهم لا يعرفون الآب تركوا نوره وأحبوا الظلمة. رفضوا كلمته وتمسكوا بأكاذيبهم وأضاليلهم. رفضوا من أرسله. فان كانوا لا يعرفون الآب فإنهم يعرفون أو على الأقل يظنون أنهم يعرفون الكتب، فإن الكتب كانت فى أيديهم بل قد عدوا حروفها، ومع ذلك فهم يرفضون من شهدت له الكتب. أليس واضحاً أن محبة الله ليست فيهم لأنهم وهم - كما يدعون - الأبرار الأتقياء، المحاذرون، المترفعون، الكهنة، رؤساء الدين، قد رفضوا من أرسله، كلمته، إبنه.

وأى عنصر من المرارة فى داخلهم أورثهم هذا الثمر المر؟ أليس هو الكبرياء؟ وكيف يمكن أن يؤمنوا وهم يقبلون مجداً بعضهم من بعض ولم يطلبوا مجد الإله الواحد. هذا هو سبب رفضهم من أتى بإسم أبيه.

ومع كل هذا لن يشكوهم إلى الآب. يوجد من يشكوهم وهو موسى الذى إياه يترجون. نعم موسى الذى يعلنون أنهم يتمسكون بأقل كلماته. موسى، الذى وضعوا فوق أقل تعليم فى ناموسه أكواماً وأحمالاً ثقيلة من التقاليد والتفاسير، إذ كانوا لا يؤمنون به ولا يطيعونه فلو كانوا قد آمنوا بموسى لآمنوا بالذى يخاطبهم لأن موسى كتب عنه. ولكن إن كانوا قد رفضوا المعنى الحقيقى للكلمات

---

١ - (يو٥: ٣٥) قارن (مت٥: ١٥) و (لو١٢: ٤٠) «المصباح الموقد» . وليس النور - اى المضاء من غيره.

المكتوبة والتى يقولون أنهم يحبونها ويعبدونها فكيف يؤمنون بكلماته وأحاديثه التى كانوا ينصتون إليها بغضب وكره.[1]

نحن نعلم بأى شعور مميت قد قوبلت هذه الإعلانات العالية. لم يتكلم المسيح قبل هذا بمثل هذا الإفصاح. يظهر أنه أراد أن يعلن ذاته فى الجليل رويداً رويداً مثل انبلاج الفجر المتألق المشرق لأرواح وأذهان الذين سمعوا تعليمه ورأوا أعماله، ولكن فى أورشليم حيث كانت كرازته أقصر وأتباعه أقل وأعداؤه أقوى وأعماله العظمى أندر إعتزم أن يترك رؤساء الشعب وقواده بلا عذر بأن يعلن لهم فى الحال طبيعة شخصيته بوضوح ما عليه مزيد. قد دعوه أمامهم ليجاوب عن كسر السبت فبدلاً من أن يبرر العمل ذاته كما فعل مراراً فى الجليل مبيناً أن القانون الأعلى والأسمى الذى للمحبة يجب أن يعلو ويبيد القانون الأدنى الذى للطاعة الحرفية التقليدية، وبدلاً من أن يريهم أنه عمل بنفس الروح التى إلتزمها رجال الله القديسون وعلّم بها أعاظم الأنبياء قبله، قد وضع ذاته أعلى وأعظم من السبت لأنه رب السبت أيضا. نعم.....

كإبن من صنع السبت وكلمته لا زال يعمل فى كل قوى الطبيعة والعناية بها.

هنا تهمتان قاتلتان فى متناول اليد ضد نبى الناصرة هذا. الأولى أنه كاسر للسبت والثانية إنه مجدف على إلههم. والجريمة الأولى كافية لمقاومته وإضطهاده. والثانية كافية لحفز جهودهم الفعلية المتواصلة ليذيقوه الموت.

ولكن فى الوقت الحاضر لم يستطيعوا عمل شيء سوى الغيظ والحنق اللذين لا طائل تحتهما. لم يستطيعوا إلا أن يصروا على أسنانهم ويذوبوا. مهما كان السبب فالواقع أنهم لم يجسروا على عمل أى شيء الآن. لقد منعتهم قوة أعظم من قوتهم. لم تأت بعد ساعة إنتصارهم. ولكن من هذة اللحظة كان مبيّتاً له فى قلوب الكهنة والحاخاميين والفريسيين حكم الموت العنيف الذى لا مرد له ولا نقض.

تحت هذه الظروف كان من العبث وأقل من العبث أن يبقى السيد فى اليهودية حيث كان كل يوم محوطاً بالخطر من أولئك المتآمرين الأقوياء. لم يرد البقاء لحضور الفصح المقترب بل أصبحت عودته إلى الجليل محتمة. عاد بيقين واضح عن النهاية المميتة، ومعرفة تامة أن ساعات النور التى سيظل يعمل فيها قد بدأت تنساب إلى الغسق، وإن كمال عمله سيتم مع شعور داخلى بأن الموت معلق على رأسه الطاهر.

---

١ – (يو ١: ٤٥) "ان الذى كتب عنه موسى فى الناموس والانبياء قد وجدناه".

الفصل الثامن والعشرون

قتل يوحنا المعمدان

بقلب مملوء من الحزن والانقباض عاد المخلص إلى الجليل. لقد سبق أن رفض بغلظة في موطنه المنزوي بالناصرة وها هو الآن يرفض بقسوة في أوروشليم من قادة رؤساء أمته. وها هو يعود إلى جو سبق فتلبدت سماؤه بضباب كثيف من مقاومات متجمعة عاصفة. لم يكد يعود حتى سرى في هذا الجو القاتم خبر إستشهاد مريع. فالمصباح اللامع المنير الموقد من السماء قد أطفئ فجأة بسفك دمائه. إذ أن السابق العظيم - الأعظم في مواليد النساء - النبي العظيم - والأعظم من نبي - قد قتل غيلة.

بعد موت هيرودس الكبير صار ربع الجليل من نصيب أنتيباس أضعف وأخس أمير ولي عرش مملكة بائسة. كان ماكراً خادعاً شهوانياً مثل أبيه.

كانت سياسة عديد من الأمراء الذين دانوا للسلطة الرومانية أن يزوروا روما ليقدموا خضوعهم للإمبراطور. وفي إحدى هذه الزيارات ربما ليعزي طيباريوس في وفاة إبنه دروسوس أو أمه ليفيا نزل انتيباس مدة اقامته في رومية ضيفاً على أخيه هيرودس فيلبس ليس رئيس الربع الذي يحمل ذات الإسم، بل إبن هيرودس الكبير من ماريمنة إبنة سمعان البويثوس الذي حرمه أبوه من الميراث فكان يعيش في رومية كشخص عادي. هناك وقع في شباك هيروديا زوجة أخيه فيلبس وكافأ الضيافة التي وسعته بأن أغواها على الهرب معه. ومن كل النواحي كان عمله هذا كريها، تجلت فيه الخيانة ونكران الجميل.

وأنتيباس ذاته كان متزوجاً من زمن بعيد إبنة الحارث الأمير العربي، فلم يكن كلاهما في سن صغير ليتمسحا كعذر واهن بالشهوة الشبابية.

أصبحت هيروديا منذ البداءة هي المهيمنة الشريرة على منزله، فأهاجت عليه الشعب وأغضبته ومررت علاقاته العائلية. وقد أعتصم ذلك الظالم الفاسق في إحدى السرايات الفخمة التي كان الهيرودسيون يفاخرون ببنائها، وفي إحدى قاعاتها البهجة المذهبة قدر أن يصم أذنيه عن أنين الكراهية العميقة المنبعث من شعبه، ولكن صوتاً واحداً وصل إليه فأوقع الإضطراب في ضميره ولم يستطع أن يخفته أو يسكته. كان هذا هو صوت المعمدان العظيم، ولا ندري ماهي الظروف التي جمعت بينهما. ربما كان ذلك عقب أن سجنه متذرعاً بالحجة السياسية أن تعليمه وأحتشاد القوم حواليه مما يهدد الأمن

العام ويجعله فى خطر[١].

كان الاعلان الصريح للنبى الطاهر (لايحل لك أن تتخذ أمرأة أخيك). ومع تأكده أن إعلانه هذا يضرم ضده عداوة لا عفو معها ويزيد مدة حبسه فى الخلية المنفردة فلم يتردد ابداً أن يواجه هيرودس بتوبيخه (لايحل لك) ولم يتردد فى توبيخه عن كل فعل شرير آخر صنعه[٢] أو جهل ارتكبه. ان الملك وهو بين رجال بلاطه اللامعين وعزوة قواده المدججين قد جبن وعذبه ضميره أمام هذا السجين المكبل.

وإلى الآن قام جبن ومخاوف ووسوسة هيرودس أنتيباس حائلاً بين يوحنا ـ من جهة حياته على الأقل ـ وبين السم الزعاف الذى لكره الزانية[٣]. ولكن أخيراً ما قصرت عن إدراكه بالتأثير العاطفى نالته بالخداع الماكر. كانت تعلم أن صوت المعمدان حتى وهو فى السجن قد يقوى على كل مغريات جمالها الآخذ فى الذبول. وقد ينجح أخيراً أن يخلع عن هامتها التاج، فكانت تنتظر الفرصة المناسبة، ولم يدم إنتظارها طويلاً لادراك مقصدها[٤].

كان الأمراء الهيروديون يقلدون رؤساءهم العظام أباطرة الرومان ويقيمون الولائم الذاخرة والأعياد الفاخرة، فاحتذوا حذوهم أيضاً فى إقامة حفلات عيد الميلاد[٥]. لذلك أقام أنتيباس يوم ميلاده، وليمة لرجال البلاط وقواد الجيش ونبلاء الجليل. والدلائل متوفرة على أنها كانت «وليمة عيد تجلى فيها الصخب والنهم» وزادت هيروديا بأن خبات للملك مسرة مثيرة غير منتظرة يبعث مرآها بلاشك المرح فى ضيوف كضيوفه. كان فى ذلك الزمان طلب الراقصين والراقصات عزيزاً، والشهوة لرؤية أمثالهم وهم من الخليعين غير المؤدبين قد سلكت طريقها إلى ذلك البلاط الصدوقى نصف الوثنى للمغتصبين الأدوميين. ولاشك أن هيرودس أتبع عادات زمانه. ولكنه ماكان يحلم أنه سيسر ضيوفه بالمتعة النادرة بأن يروا أميرة، هى أبنة أخيه وحفيدة هيرودس الكبير، تكرمهم بأنزال نفسها مكانة الراقصة المبتذلة. ومع هذا فعندما انتهت المائدة وأمتلأ الأضياف وأكتظوا من اللحم وفاضوا من السلافة قامت سالومى

---

١ – (لا٢٠: ٢١).

٢ – (لو٣: ١٩).

٣ – كانت هيروديا تحنق عليه بكراهية شديدة (لو١١: ٥٣) وتروم قتله «ولم تستطع لأن هيرودس كان يخشى يوحنا عالماً أنه رجل بار قديس وكان يحافظ عليه ويسمع منه ويطيعه فى أمور كثير. وكان حزين القلب وبانبساط يصغى إليه» (مر٦: ١٩، ٢٠).

٤ – (مر٥: ٢١) الكلمة الأصلية تدل على ترتيب سابق لهذه الايزابل الهيرودية.

٥ – (تك١١: ٢٠).

ورقصت وأرضت هيرودس والمتكئين معه (مت١٤: ٦). وأثناء سكره وخماره حلف لهذه الفتاة المستهترة فى وجود الأضياف أن يعطيها ما تطلب حتى نصف مملكته.

وأسرعت الفتاة إلى أمها تسألها ماتطلب، وكان هذا عين ماتوقعت هيروديا. وقد نتخيل بأى حقد جنونى قد همست بأجابتها غير المترددة «أعطنى رأس يوحنا المعمدان». فدخلت للوقت وبسرعة وطلبت قائلة: «أريد أن تعطينى هنا وفى الحال رأس يوحنا المعمدان فى طبق».

غرق رئيس الربع فى غم[1] عميق من جراء طلبها الذى محا سرورا قد أثاره رقصها الخليع، وكان ختاماً سيئاً ومراً لوليمة عيد ميلاده. وجعله الخوف والسياسة والندم والخزعبلات، يتريث ويتردد فى إجابة الطلب سريعاً. ولاشك أنه شعر بأنه قد غلب على أمره بالمكر السئ الذى لعشيقته العنيدة. ولو أنه قد بقيت فيه ذرة من الرجولة لرفض هذا الطلب الذى لا يدخل ضمن - لا حرفية ولا روح - القسم الذى حلفه لأن نفس أى إنسان لا يمكن أن تكون هبة تهدى لآخر، أو كان قد أعلن فى الحال بشجاعة أنه مادام هذا هو طلبها فإن الحنث بقسمه يشرفه أكثر من التمسك به. ولكن كبرياء وضيعة وخوفاً من الناس طغياً على كل حواسه الطيبة، وإذ خشى إنتقاد أضيافه أكثر من عذاب ماتبقى فيه من ضمير أرسل سيافاً إلى السجن الذى لم يكن بعيداً، وهكذا بأمر أمرأة مستهترة ضرب عنق أنبل الأنبياء.

وفى الحال وضعه على طبق من المائدة الملوكية، وتسلمته الصبية. والآن بخوف دفعت العبء الرهيب لأمها.

ولا نعلم ماحدث بعد ذلك لهذا الأثر الكريم. غير أن تلاميذ يوحنا - وربما كان بينهم مناين أخو هيرودس أنتيباس فى الرضاعة - أتوا وحملوا الجسد ودفنوه. وكان همهم التالى أن يذهبوا ويخبروا يسوع بقلوب كسيرة مريرة أن صديقه ونذيره - وأول من شهد له والذى حباه هو بتقريظ عظيم - قد مات.

وحوالى ذلك الوقت رجع التلاميذ من إرساليتهم وأخبروه بكل ماعملوا وعلّموا، وأنهم بشروا بالتوبة، واخرجوا شياطين، ودهنوا بزيت المرضى فشفوهم[2]. ولكن تقرير جولتهم كان قصيراً وليس مفرحاً، ورغماً عن نجاح جزئى فقد يظهر أن إيمانهم غير المدرب لم يكن كافياً للواجب الملقى عليهم.

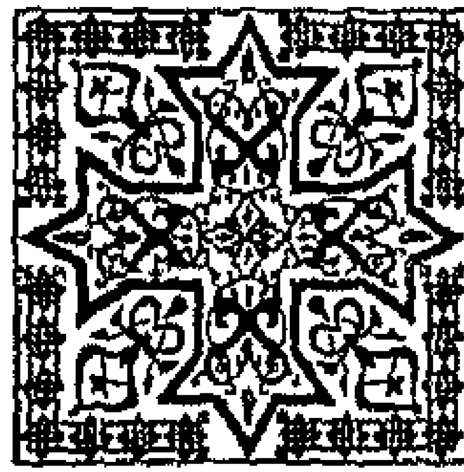
بعد قليل وصل نبأ أخر. وهو أن رئيس الربع السفاك كان يسأل عن يسوع. إنه يريد أن يراه. ربما

---

١ – الكلمة الأصلية فى (مر٦: ٢٦) تعنى أنه «رمى فى غم مفاجئ».

٢ – قارن (يع٥: ١٤).

سيرسل فى طلبه عند عودته إلى قصره الجديد الذهبى فى عاصمته الجديدة طبرية، لن إرسالية الأثنى عشر قد أذاعت أسمه بين الناس (مر٦: ١٤) وراج سوق التخيلات عنه، وأقر الجميع عظمة مهمته، إلا أن بعضهم ظن أنه إيليا، وآخرين قالوا أنه أرميا أو واحد من الأنبياء، أما هيرودس فكان له أغرب حل لهذا الأشكال فبضمير مثقل ساورته مخاوف الخزعبلات وإبتدأ يوسوس بخوف لأخصائه قائلاً: «هذا هو يوحنا المعمدان الذى ضربت أنا عنقه قد قام من الأموات ولذلك تعمل به القوات»[1] هل عاد يوحنا إلى الحياة لينتقم انتقاماً ذريعاً؟!



١ - (مت ١٤: ٢) و (مر٦: ١٦).

الفصل التاسع والعشرون

إشباع الخمسة آلاف والمشي على البحر

إشباع الخمسة آلاف إحدى المعجزات القليلة فى كرازة المسيح التى دونها البشيرون الأربعة[1]. وإذ أن يوحنا قد أوردها عقب العيد غير المسمي وقبل عيد الفصح، وذكرها باقى البشيرين عقب رجوع الاثنى عشر مباشرة وبعد قتل المعمدان فغالباً لن نخطئ إذا أثبتناها فى هذا الموضع من تاريخ المسيح.

تجول الرسل الأخير، وإضطهاد اليهود للمسيح، وثقل الخبر المزعج الذى وصل إليه، وضغط الجموع القادمة والذاهبة شغل كل وقتهم، اضطر تلك الجماعة مرة أخرى أن تحتاج إلى فترة من الوحدة والراحة لإعادة النشاط وتقوية الروح، فقال لهم يسوع "تعالوا أنتم وحدكم إلى موضع قفر واستريحوا قليلاً".

على القمة الشمالية الشرقية للبحيرة قرب ملتقى نهر الأردن بها قامت مدينة تدعى بيت صيدا أيضاً[2]، أى بيت السمك. وهى - مثل سميتها الغربية - قرية صغيرة عمد إلى تكبيرها وتنسيقها حديثاً فيلبس رئيس ربع أيتورية، ودعاها ليميزها عن الأخرى بيت صيدا جولياس. فى جنوبها كان هناك منفرج ضيق أخضر يسمى سهل البطيحة، خال من السكان مثل التلال التى تحيطه، غير مأهول لا فى ذلك الزمان وحتى الآن. وإلى هذا المكان صوبت السفينة الصغيرة سيرها حاملة القلوب المتعبة الحزينة التى تتطلب الراحة. ومع أن سفرهم هذا كان خاصاً إلا أنه لم يبق غير معروف[3] فعندما وصلوا إلى المكان الذى يرغبونه كان القصد الذى أراده السيد لتلاميذه قد ضاع هباء. فقد سبق جزء من الجموع وإزدحموا عند المرفأ قبل أن يرسو مقدم السفينة على الشاطئ ذى الحصا. كذلك رؤيت عن بعد جماعات صاخبة من الحجاج أغرتهم شهرة النبى الجديد[4] أن يخالفوا خطة سيرهم. فتحنن يسوع عليهم لأنهم كانوا كخراف لا راعى لها. ومن بشارة يوحنا نستنتج أنه عندما وصل إلى الشاطئ صعد هو وتلاميذه إلى الجبل وظلوا هناك حتى إجتمعت الجماهير وحينئذ نزل فى وسطهم وبدأ يعلمهم كثيراً وشفى

---

١ - (مت١٤: ١٣ - ٣٣) و (مر٦: ٣٠ -٥٢) و (لو٩: ١٠ - ١٧) و (يو٦: ١ -٢١).

٢ - نفس الإشتقاق أخذت منه مدينة صيدا إسمها.

٣ - (مر٦: ٣٣) و (لو٩: ١١) و (مت١٤: ١٣).

٤ - (مر٦: ٣٣) و (يو٦: ٢، ٤).

مرضاهم[١].

ومال النهار وانحدرت الشمس لتغيب وراء الجبال الغربية[٢]. ومع ذلك بقيت الجماهير مجتمعة، فقد سحرها ذلك الصوت الشافى وتلك الكلمات المقدسة. وبدأ التلاميذ يضطربون خشية أن ينتهى اليوم بكارثة محزنة تكون سلاحاً جديداً لأعداء السيد الألداء. ولكن رأفته سبقت فأعدت ما يوفر عليهم مخاوفهم الحقة. بل سبق فأوحت بها إلى عقل فيلبس وحدثت بينهم مداولة قصيرة أنتهت إلى أنه لا تكفيهم مائتا دينارثمن خبز ليأخذ الواحد شيئاً يسيراً وحتى لو كان هذا المبلغ موجوداً فى الصندوق المشترك فليس هناك وقت لشراء مايلزم وهنا قال أندراوس إن صبياً معه خمس خبزات من الشعير وسمكتان صغيرتان، ولكنه قال هذا بنغمة اليائس وليظهر فقط عدم فائدة الفكرة الوحيدة التى خطرت له وكانت إجابة يسوع قصيرة "ليتكئ الناس".

وأمر الرسل وهم فى إندهاش وترقب أن يتكئ الجموع وقسموهم فرقاً خمسين ومائة. وحينئذ وقف يسوع فى وسط مدعويه مبتهج القلب، عارفاً بما كان مزمعاً أن يفعل من الرحمة، ورفع عينيه إلى السماء وشكر[٣]، وبارك الأرغفة[٤]، وكسرها وأعطى التلاميذ[٥] وهم أعطوهم للجموع. وكذلك قسم السمكتين عليهم جميعاً. كانت وليمة بسيطة لكن كافية بل شهية للقوم الجياع. وعندما شبع الجميع تماماً فيسوع - ليس فقط ليرى تلاميذه حقيقة وعظمة مافعل، ولكن ليعلمهم أيضاً أن الإسراف حتى فى القوة المعجزة يتنافى والقصد الإلهى - أمرهم أن يجمعوا الكسر التى بقيت لكى لايضيع شئ منها. وأظهر الترتيب المنسق للجماعات أنهم كانوا أزيد من خمسة آلاف رجل عدا النساء والأولاد ومع ذلك فقد أمتلات أثنتا عشرة قفة مما فضل عنهم بعدما شبعوا.

أحدثت هذه المعجزة أثرا عميقاً. كانت تتلائم تماماً مع ما كان ينتظر العموم. فابتدأ الناس

---

١ - الإصحاح السادس من يوحنا ملئ بالعجائب إذ يخبرنا عن معجزة عظيمة، وحمية عظيمة، وعاصفة عظيمة وعظة عظيمة، وديانة عظيمة، ومحبة عظيمة لإيمان وإخلاص الأثنى عشر.

٢ - كلمة «المساء» فى (مت١٤: ١٥) تعنى بعد الظهر وفى (عدد ٢٣) تعنى بعد الغروب أى بعد الساعة السادسة بتوقيتنا.

٣ - (يو٦: ١١).

٤ - (لو٩: ١٦).

٥ - (مر٦: ٤١) «وأعطى» تعنى «وابتدأ يعطى» والكلمة الأصلية. تفيد الحال الناقص والمستقبل المستمر. أى دوام الفعل. وهى المفتاح الوحيد الذى أعطى لنا لنفهم كيف تمت هذه الأعجوبة إذ تدل ان التكاثر قد حدث فى يدى السيد بين التقطيع والتوزيع.

يتهامسون فيما بينهم قائلين "في الحقيقة هذا هو النبى الآتى إلى العالم"، ولاحظ يسوع إعجابهم الظاهر. ورأى أيضاً أن تلاميذه قد شاطروا هذه الحماس الدنيوى الخطر، فهذا هو وقت العمل السريع، فاستعمل سلطانه المباشر وألزم تلاميذه أن يركبوا السفينة ويسبقوه عبر البحيرة فى اتجاه كفرناحوم أو بيت صيدا الغربية[١].

ولما صار المساء نجح فى صرف[٢] الجموع برفق ورويدا رويدا وحملهم على تركه وحده وعندما انصرف الكل ـ عدا أشدهم حماساً ـ قافلين إلى أماكنهم جماعات جماعات ترك الباقين وذهب إلى الجبل ليصلى.

هنا على قمة الجبل المهجور وفى هذه الليلة العاصفة يستطيع ان يحصل على قوة وسلام وفرح لاينطق به لأنه كان وحده مع أبيه. وها قد حل الظلام وهبت الرياح الشديده[٣] عليه وهو منحن فوق الجبل فى صلاة أنفرادية وعلى تلاميذه التعابى فى السفينة على تلك البحيرة المضطربة.

مرت الساعة تلو الساعة وأقبل الهزيع الرابع من الليل[٤] ولم تقطع السفينة سوى نصف المسافة التى يجب أن تجتازها لأن الظلام كان شديداً والريح مضاداً والأمواج صاخبة وكانوا معذبين فى الجذف[٥] وأخيراً عندما وصلت تعاستهم إلى الحد الأقصى رأوا قبساً فى الظلام وشبحاً أخافهم وثوباً مهفهفاً مقترباً منهم يخطو على أمواج المياه[٦] وظهر أنه يريد أن يتجاوزهم فلما رأوه ماشياً على البحر ظنوه خيالاً[٧] وصرخوا مرتعبين وفى العاصفة والظلام – وقد ظهر لهم كما يظهر لنا فى وسط قتام الحياة ان المحيط كبير وقواربنا الصغيرة ضئيلة جداً – دوى صوت السلام القائل "أنا هو لا تخافوا".

هذا الصوت هدأ مخاوفهم. والمؤقت كانوا يريدون أن يحملوه معهم فى السفينة[٨] ولكن بطرس فى

١ – قارن (مر٦: ٤٥) و (يو٦: ١٧).

٢ – قارن (مر٦: ٤٥) «يصرف» = «إبتدأ يصرف» مع «أصرف» = فى الحال (مر٦: ٣٦).

٣ – (يو٦: ١٧، ١٨).

٤ – أى بين الثالثة والسادسة صباحاً. فى ذلك الوقت كان اليهود قد تركوا التقسيم اليهودى لليل إلى ثلاثة أهزعة واتبعوا التقسيم الرومانى إلى أربعة أهزعة بين الساعة السادسة مساء والسادسة صباحاً جدفوا خمس وعشرين غلوة بينما كان عرض البحيرة نحو أربعين.

٥ – (مر٦: ٤٨).

٦ – (يو٩: ٨).

٧ – (مر٦: ٤٩) و (لو٢٤: ٣٧).

٨ – (يو٦: ٢١) "وكانوا يريدون أن يحملوه معهم" أى أرادوا وقد فعلوا قارن (يو ٨: ٤٤).

محبته المتسرعة وشوقه الكبير، بطرس الذى قال مرة فى معرفته نقص نفسه «أبعد عنى» ـ لم يشأ أن يصطبر حتى يقترب فصرخ بعاطفة قوية:

ـ "يارب إن كنت أنت هو فمرنى أن آتى إليك على المياه".

ـ "تعال".

فقفز من على جانب السفينة إلى الامواج المضطربة. وطالما كان مثبتاً عينيه على شخص السيد فمع أن الرياح عبثت بشعره والرذاذ تناثر على ثيابه إلا أن كل شئ كان حسناً جداً. ولكن عندما حول نظره بإيمان متردد من السيد إلى الأمواج الغاضبة وإلى الظلام السحيق من تحتها إبتدأ يغرق وبنبرة يائسة أبعد ما يكون عن ثقته الأولى صرخ بضعف قائلاً: "يارب نجنى" ولم يقصر يسوع عن هذا فللوقت وبابتسامة حنونة مد يده وأمسك يد تلميذه الغارق وقال له بتوبيط رقيق "لماذا شككت يا قليل الإيمان" ولما صعد السيد إلى السفينة وتلميذه المخزى الذى غمرته المحبة ووبخت اسرافه فى إعتداده بنفسه سكنت الرياح وعلى أمواج هادئة وقمر ساطع وصلوا إلى العبر وأرسوا ودهش كل من فى السفينة بحارة وتلاميذ وتقدموا وسجدوا له وخاطبوه باللقب الذى إنفرد نثنائيل باستعماله قبلاً وقالوا له "حقاً أنك أنت إبن الله".

وهكذا نحن أيضاً مثل بطرس إن ثبتنا عيوننا على يسوع فاننا نمشى منتصرين على أمواج عدم الإيمان المتلاطمة ودون خوف بين أنواء الشكوك المتعالية. ولكن ان حولنا نظرنا عمن به قد آمنا ـ كما هو سهل جداً أن نفعل وكما نجرب دائماً أن نفعل ـ فانا ننظر إلى قوة وغضب هذه العناصر المخربة بدلاً عن ذاك الذى يقدر أن يساعد ويخلص وحينئذ نحن أيضاً سنغرق بالتأكيد. آه لو كنا نشعر دائماً أبداً أن مياه الطوفان تهددنا بالغرق وأن العمق فاغر فاه ليبتلع كنيستنا وإيماننا لكنا نسأل الله دائماً أبداً أن يسمعنا وسط عواصف الظلام وضجيج الحروب والمخاطر هاتين الآيتين الأكثر حلاوة بين كلمات المخلص.

ـ "لا تخف آمن فقط".

ـ "تشجعوا. أنا هو. لاتخافوا".



الفصل الثلاثون

حديث كفرناحوم

أنبثق فجر هذا اليوم عن إحدى الحوادث المحزنة فى حياة السيد. كان يوم مجمع كفر ناحوم الذى اعتزم فيه بيقين أن يبدد غيوم أفراح الشهرة الشعبية غيرالمرغوب فيها والتى تجمعت حول شخصه وعمله بعد أعجوبة أرغفة الخبز وهذا الحادث كان أمتحاناً ليس فقط لبعض الملتفين حوله بل حتى لبعض تلاميذه الأقربين، أمتحاناً لمحبتهم له، خابوا فيه تماماً. وهذا الحديث فى المجمع سبب أزمة هامة شديدة فى حياته. تبعها اظهار لكراهية سحيقة كانت كنذير لتلك العاصفة من البغض التى بدأت من الآن فصاعدا تنصب على هامته.

سبق فرأينا أن بعض الجموع ملأهم استغراب غير جلى ومحبة للإستطلاع لاتطفأ نارها فتلكأوا فى السهل الصغير المجاور لبيت صيدا جولياس ليتتبعوا حركات يسوع ويشاركوا فى النعم التى يمنحها والملك الذى ارتقبوا أن يكون قريب الظهور. رأوه وهو يصرف تلاميذه وربما لحوه وهو يصعد التل وحده وقد لاحظوا أن الريح كانت مضادة وانه لا مركب خلاف التى للرسل قد أقلعت من الشاطئ ولذلك تأكدوا أنهم سيجدونه فى أى مكان بين التلال فوق السهل. ولكن عندما أشرق الفجر لم يقفوا له على أثر لا فى التل ولا فى السهل. وفى الوقت ذاته وجدوا سفنا - ربما قد ساقتها ذات الريح التى عطلت مسير الرسل إلى الجهة المقابلة - جاءت من طبرية - فأخذوها وعبروا فيها إلى كفر ناحوم وهناك فى الصباح الباكر وجدوه جالساً هادئاً يعلم بسكون.

فدهشوا وسألوه "يامعلم متى جئت هنا" ولكنه قابل هذا السؤال بالصمت التام. كانت أعجوبة المشى على البحر للضرورة والرحمة ولم تكن لتعنيهم من اى وجه ولم تكن مقصودة لهم بأى حال. والأهم والأكثر أن يسوع لم يرد أن يكون أرتباط قلوبهم به أو اقناع عقولهم عنه عن طريق النظر إليه كصانع عجائب. وإذ قرأ قلوبهم وعلم أنهم يطلبونه بالروح التى يبغضها فقد رفع بهدوء ستار الرياء الذى ربما لايشعرون بوجوده فيهم والذى يخفى خبيئة نفوسهم حتى عن أنفسهم. ووبخهم لأنهم يطلبونه فقط لما عسى أن يحصلوا عليه منه قائلاً " أنكم لا تطلبوننى لأنكم رأيتم الآيات بل لأنكم أكلتم من الخبز وشبعتم". وذالك الذى لم يرفض قط صراخ البائسين أو أجابة سؤال المخلصين - ذاك الذى لم يقصف قصبة مرضوضة أو يطفىء فتيلة مدخنة - رفض فى الحال الخدمة التى تنضح أنانية وحب إستطلاع دنىء. ولكن رحمة بهم نطق بالتعليم الخالد " أعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقى للحياة

الأبدية الذى يعطيكم إبن الإنسان لأن هذا قد ختمه الله الآب".

وظاهر أنهم فى الأول تأثروا وخجلوا. لقد قرأ دخيلة قلوبهم على حقيقتها فسألوه:
- "ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟".
- "هذا هو عمل الله أن تومنوا به".
- "أية آية تصنعها أنت لنرى ونؤمن بك".

آباؤهم قد أكلوا المن فى البرية الذى قال عنه داود (مز٧٨: ٢٤) انه خبز من السماء. وماقصدوا إليه من هذا القول ظاهر. لقد أعطاهم موسى المن من السماء ليأكلوا أما يسوع للآن فلم يعطهم سوى أرغفة شعير من الأرض. إن كان هو المسيا حقيقة فحسب كل تقاليد أمتهم يجب أن يغنيهم ويتوجهم ويطعمهم رمانا من جنة عدن ويسقيهم خمراً من نبيذ أحمر، أما علمهم داود صراحة فى نفس المزمور أن منحهم مثل هذه العطية انما جعلهم يسألون بجشع ماهو أزيد. وإن كان الله قد أعطاهم أزيد فما ذلك سوى "لأنهم لم يؤمنوا بالله ولم يتكلوا على خلاصه" ولكن وشهوة "طعامهم بعد فى أفواههم. فصعد عليهم غضب الله وقتل من أسمنهم. وصرع مختارى إسرائيل". أما أوضح داود أنه رغما عن هذه العطية الغاضبة - بل وماقبل ذلك وما بعد ذلك - التى أشبعت إلى الملء شهوة قلوبهم لم يؤمنوا بالله ويخضعوا له بل أخطأوا إليه وأغاظوه أكثر كثيراً.

ولكن يسوع أخبرهم انه ليس موسى هو الذى أعطاهم المن بل الله. وأن المن أنما سمى خبزاً من السماء تشبيها شعرياً. ولكن أباه المعطى الحقيقى يعطيهم الخبز الحقيقى من السماء - بل "خبز الله هو الذى ينزل من السماء ويهب الحياة للعالم".(١)

كانت عقولهم متعلقة بالأشياء الأرضية وآمالهم معقودة بالمصالح الزمنية فطلبوا الخبز الذى من السماء بنفس الروح التى طلبت بها المرأة السامرية الماء الطبيعى الذى يطفئ العطش الجسدى "وقالوا له يارب أعطنا هذا الخبز فى كل حين".

"قال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة من يقبل إلىّ فلن يجوع ومن يؤمن بى فلن يعطش إلى الأبد". وابتدأ يوضح لهم أنه أتى ليعمل مشيئة أبيه، ومشيئته أن كل من يؤمن بابنه تكون له حياة أبدية.

وحينئذ أنفجرت همسات الحنق القديمة ثانية، لكن هذه المرة ليست من الجموع الغليظة العقول بل

١ - (يو ٦: ٤١، ٥٢).

من مقاوميه رؤساء اليهود " فكيف يقول هذا أنى نزلت من السماء" كيف يقول أنه " هو الخبز النازل من السماء" أليس هو يسوع بن يوسف نجار الناصرة؟

ولكنه قابل تذمرهم كما كان يفعل دائماً بإعلان أوضح وأقوى عن الحق الذى رفضوه. عندما ذكرهم يسوع أن المن لم يمنح الحياة الدائمة لأن آباءهم أكلوا منه وماتوا وأنه هو خبز الحياة الذى يأكل منه يحيا إلى الأبد وعندما كلمهم بلغة أكثر غرابة أن هذا الخبز هو جسده الذى سيبذله عن حياة العالم فبدلاً من أن يطلبوا المعنى الحقيقى لهذا الإعلان العميق جعلوه موضع نقد كلامى حرفى وخاصموا[١] بعضهم بعضاً قائلين: "كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكله".

كانت عقولهم جسدانية وإن كان العقل جسدانياً فهناك الموت. لم يطلبوا الحق فكان يبعد عنهم أزيد فأزيد. كان عندهم قليل أو معدوم فأخذ منهم. بلغة أكثر تأكيداً وكناية أشد بعثاً على الدهشة قال لهم يسوع **" إن لم تأكلوا جسد إبن الإنسان وتشربوا دمه فليست لكم حياة فى أنفسكم"** ولزيادة التأكيد والتوسع فى ذات الحقائق قال **"من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية"**.

لاشك أن هذا الكلام صعب وبلاشك أيضاً أن آلام وموت المسيح مخلصنا وسر التناول المقدس الذى فيه نأكل ونشرب جسده ودمه قد ساعدانا على فهم معنى كلامه بوضوح ومع ذلك فقد كان فى ذات الكلام الذى إستعمله الكفاية وفوق الكفاية ليوضح لكل سامع منتبه الحق الأسمى المعروف لديهم من نفس ناموسهم وهو " ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله" والحق الأسمى الثانى أن الحياة الأبدية حياة الروح إنما هى فى الإتصال الوثيق العميق مع حياة وتعليم ذلك المتكلم.

وإذ كان الحديث بادى الوضوح - إذ أن يسوع قد أبعد كل تحايل يهودى - فإن عدم قدرتهم على فهمه نجم ليس عن عدم إستطاعتهم لفهمه بل عن عدم إرادتهم لفهمه. قال أوغسطينوس: [هذا الكلام صعب ولكن لقساة القلوب، وغير مفهوم ولكن لغير المؤمنين] لأنه كما أن «الخبز» أصل لقوام الجسد فكذلك «الخبز السماوى» قوام الروح وسبيل وطعام الحياة الأبدية فما أراد أن يعلمهم إياه هو أن الحياة الأبدية هى فى إبن الله. والذين يريدون حياة الأبد يجب أن يأكلوا من الخبز النازل من السماء، أو بتعبير

١ — (يو٦: ٥٢) معناها «تقاتلوا» تمسك اليهود بالحرفية مدهش إذ الأقوال الحاخامية ذاخرة بالتشابيه. قارن (مز١٩: ١٠) و (١١٩: ٣) و (أش٣: ١) و (أم٩: ٥) و (حز٢: ٨، ٩).

أعمق يجب أن يأكلوا جسد إبن الإنسان[١] ويشربوا دمه. كان لهم أن يقبلوا أو يرفضوا هذا الحق الذى أعلنه وليست لهم حجة فى إدعائهم عدم فهم ما يعنيه.

توجد إعلانات لا يقصد منها التعليم فقط بل أيضاً التمحيص. والغرض منها ليس فقط الأخبار بل أيضاً الإختبار. وكان ذلك أيضاً مقصد هذا الحديث الخالد إذ إستدعى فهمه ليس فقط أعمال الفكر بل إخضاع الإرادة، بلى أن كثيرين من تلاميذه لما سمعوها إستصعبوها ولم يطيقوها. لم يعلنوا ذلك ولكن يسوع عرف عدم إرتياحهم لها. وعندما ترك الجمع خاطبهم على إنفراد بأكثر رقة. فلهم تنبأ عن صعوده المقبل[٢] الذى سيبرهن لهم حقاً أنه نزل من السماء. وبفيض العطف على ضعفائهم أعلن لهم ما تنطوى عليه التعبيرات الصعبة والتى أخفى وراءها كلماته عن معارضيه الذين طمست عيونهم الأنانية المرة والحقد المقيم. وفى جملة واحدة تعتبر المفتاح لحل الصعوبات، قال لهم " الروح هو الذى يحيى أما الجسد فلا يفيد شيئاً والكلام الذى قلته أنا[٣] لكم هو روح وحياة" وأخبرهم أن سبب صعوبة هذا الكلام هو لأن قوماً منهم لا يؤمنون. وأيضاً كما أخبر اليهود من قبل، لأن روح الإيمان عطية ونعمة من الله. وهذه النعمة يرفضها هؤلاء المتذمرون بل يحاربونها إلى الآن.

من ذلك الوقت تركه، كثيرون من الذين كانوا يطلبونه، كثيرون ممن لم يكونوا بعيدين عن ملكوت السموات. ومن ذلك الوقت ستكون حياته وحيدة حتى وهو فى وسط الجموع لأن قليلين هم من يعرفونه ويحبونه. فبحزن قلب عميق وجه هذا السؤال المؤثر للرسل " أتريدون أنتم أيضاً أن تمضوا؟" كان سمعان بطرس الحار القلب والسريع فى الكلام قد فهم ذلك الحديث الذى عثر فيه كثيرون. فأجاب عن الجميع قائلاً "يارب إلى من نذهب فإن كلام الحياة الأبدية عندك ونحن قد علمنا وآمنا إنك أنت هو المسيح قدوس الله".

كان جواباً نبيلاً ولكن فى تلك اللحظة المريرة كان قلب يسوع مثقلاً جداً ولهذا لم يقل لهم سوى "أنا إخترتكم أيها الإثنى عشر وواحد منكم هو إبليس".[٤]

---

١ – قال أوغسطينوس: [آمن وحينئذ تكون قد أكلت] المعرب: واضح جداً أن المسيح هنا كان يتحدث بلاشك عن سر التناول الذى كان مزمعاً أن يؤسسه.

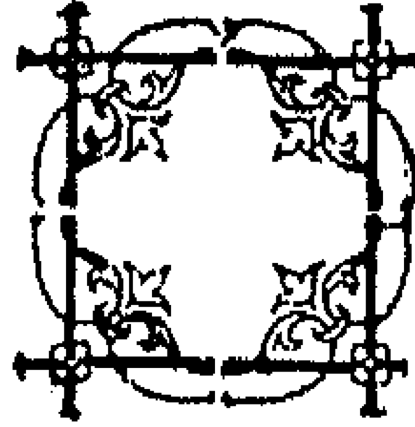
٢ – الأعداد ٢٦ –٤٠ قيلت للجموع.. ٤٣ – ٥٨ لرؤساء اليهود.. ٦١ – ٦٥ للتلاميذ..

٣ – «الذى أقوله» وردت فى بعض النسخ.

٤ – هذه الكلمة إبليس «ذيابولوس» غير الكلمة شيطان كما ترد مثلاً «به شيطان» وقد فسر يوثاميوس إبليس هنا بمعنى «خادم الشيطان» أو متآمر والمعنى الأخير هو الأقرب. كما نلاحظ أن كلمة شيطان بمعنى «مشتكى» قد وردت كثيراً فى العهد الجديد.

ومع أنه قد عرف بعد ذلك أن هذا التوبيط كان موجهاً ليهوذا فمن المختلف عليه إن كان أحد في ذلك الحين قد عرف ذلك إلا الخائن وحده.

ألا يمكن أن تكون هذه الكلمات قد قيلت رأفة منه ورحمة لتهيء فرصة لنفس الإسخريوطي القاسية الدنسة ليتركه هو ايضاً قبل أن يتردى -دون رجعة - في جريمته؟ إن كان هذا كذلك فقد رفض حتى هذا التحذير أيضاً وبخطية قاتلة ضد ضميره بقي ليذخر لنفسه غضباً في يوم الغضب وإستعلان دينونة الله العادلة.



الفصل الحادي والثلاثون

تجمع المقاومة

مع أن الحديث الذى ذكر آنفاً كان واحداً من الحدود الفاصلة فى تاريخ كرازة السيد، ومع أنه من ذلك الوقت قد تجهمت الغيوم أزيد فأزيد فى طريقه إلا أنه لا يجب أن يظن أن هذه كانت المرة الأولى حتى فى الجليل التى فيها حاربوا شخصه وتعاليمه علانية.

١ ـ إبتدأ الشك وظهرت بوادر عدم الرضى عندما إستعمل فى ظروف متعددة التعبير "مغفورة لك خطاياك" قاله عندما خاطب المرأة التى كانت خاطئة والرجل الذى به شلل. وفى كلتا المرتين أثار الدهشة وعدم الرضى. أما فى بيت سمعان حيث لم تتخذ المقاومة الشكل العلنى وحيث لم يعمل يسوع معجزة فقد أبدل هذا التعبير بلطف بتعبير آخر[1]. لم يكن الأمر هكذا عند شفاء المفلوج فقد إرتفعت إحتجاجات علنية من الكتبة والفريسيين فأعلن يسوع بوضوح أزيد عن عظمته ودلل بقدرته على صنع العجائب على حقه لغفران الخطايا[2]. لكنهم لم يفهموا كيف يمكن أن شفاء أو غفراناً يأتى عن هذه الطرق غير المألوفة وبغير عديد الذبائح وبغير ممارسة الطقوس. ولكن مهما ظهرت هذه الطرق غير مرضية لعقولهم المرتبة على سنن درجوا عليها فالحقيقة الواقعه أن الشفاء كان يحدث فعلاً ويشهد به مئات من الأحياء. لذلك شعروا أن هذا مجال للمعاداة غير مجد، فبمهارة أهملوا هذا الميدان إذ لو تشددوا أن هنا «تجاديف» فى كلامه لأذاعوا بإيقان أن هنا «معجزات» فى أفعاله.

٢ ـ ويظهر أيضاً أنهم لم يتمسكوا بتهمة ـ أبقاها لنا إقتباس السيد لها ـ وهى أنه " أكول وشريب خمر" [3] فهذه التهمة كانت واضحة الكذب، بادية الخبث، ظاهرة التحامل، ضد من لم يعش فى تصوف صارم مثل يوحنا ولكنه عاش تأكيداً فى أشد البساطة وهذه الفرية قوضها يسوع إلى الأساس عندما أظهر أن رجال هذا الجيل ماثلوا الأطفال المدللين فى السوق، لا يسرهم أمر ولا يرضيهم شئ. يتهمون يسوع بالنهم لأنه لم يرفض الدعوة إلى وليمة بريئة ثم يتهمون يوحنا بأن به شيطاناً لأنه رفض مفاسد الجماعات.

---

١ – (لو٧: ٤٨ – ٥٠).

٢ – (مت٩:٦) و (مر٢:١٠) و (لو٥:٢٤).

٣ – (مت١١: ١٩).

٣ ـ ولم يفلحوا أيضاً فى توجيه تهمة عدم الصوم[1] ضده. لأنهم عندما قدموها كانوا يتوقعون مساعدة قيمة ومناصرة قوية من تلاميذ يوحنا. ولكن هؤلاء إذ تيقنوا من كلمات نبيهم أن شكايتهم هذه كانت دون تعقل أو جدوى لم يجد الفريسيون نفعاً من التمسك بتهمة إهمال عمل لم يحتمه ناموس موسى. فعدم جعل يسوع تلاميذه يصومون لن يفقده العطف العام ولن يقيم ضده الحجة حتى أمام المجمع أو أمام السنهدرين.

٤ ـ مخالفة صارخة ثابتة أثارت مقاومة قاتلة إجترمها فى نظرهم يسوع بإختياره متى كرسول، وعدم إمتناعه عن مصاحبة العشارين والخطاة[2]، كان كل يهودى يعتبر نفسه أنه وارث لعائلة الملوك وواحد من النسل الممتاز، فينظر إلى الأممى والوثنى بإحتقار ملكى وبترفع أسس على عادات لازمته آلاف السنين. لذلك كانت شيعة البر الذاتى تنظر إلى غير المبالين أو الخاطئين من الشعب نظرة أحسن قليلاً ـ أو غير حسنة مطلقاً ـ من نظرتهم إلى الوثنيين[3]. وهوذا هنا من يخالطهم بحرية وعدم كلفة، ويختلط بدون ذرة من البغضة أو العجرفة بالعشارين المكروهين أو الخطاة الظاهرين. بل وأكثر من هذا أنه سمح لنساء أخرج منهن سبعة شياطين أن يتبعنه فى رحلاته، وللزانيات أن يغسلن بدموعهن قدميه! أى إختلاف هذا عن الفريسيين الذين كانوا يعتقدون أن من يلمس أحد الطالحين فهو نجس، والذين وضعوا قاعدة صارمة تحرم إستضافة من يظن أنه خاطئ.

فى أول الكرازة تهكم عليهم يسوع بحنو إلهى شفوق وقابل هذه التهمة بإحالتهم على الإقتباس المحبب لديه من كتبهم، ذلك القول العميق للنبى هوشع " إذهبوا وتعلموا (ما معنى) إنى أريد رحمة لا ذبيحة" كذلك سبق ووبط قسوتهم وإعتدادهم ببرهم الذاتى بقوله المثلى " لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى" ولكن هذه التهمة لم تقف عند حد، وهذا الإعتراض لم يسقط. ففى أواخر أيامه وهو صاعد إلى أوروشليم لم يهدأ أعداؤه الثابتون بل رفعوا تهمتهم الغاضبة المحقرة متذمرين " إن هذا يقبل الخطاة ويأكل معهم" وحينئذ أجابهم يسوع مبرراً سلوكه وأظهر بوضوح وحب عما فعل من قبل مبيناً قصد محبة الله للخطاة التائبين بهذه الأمثلة الثلاث الخالدة البديعة: مثل الخروف الضال، ومثل الدرهم المفقود، وفوق الكل مثل الإبن الضال. هذه الأمثلة المستقاه من المشاهدات البسيطة للحياة اليومية تمثل وستظل إلى الأبد تمثل ـ ولا سيما الأخير ـ فى حنو متزايد فائق أعمق أسرار عطف الله وفرح السماء

---

١ – (مت١١: ١٦، ١٧).

٢ – (مت٩: ١١) و (مت١١: ١٩) و (لو٥: ٣٠) و (٧: ٣٤) و (١٩: ٧).

٣ – عندما قال السيد "فليكن عندك كوثنى وعشار" (مت١٨: ١٧) إنما ذكر قولاً دارجاً.

بخاطئ واحد يتوب[1]. فأين فى كافة الكتابات أو الأدبيات البشرية، مقدسة أو غير مقدسة، ماهو محكم وواضح وملئ بالشفقة اللانهائية، ما هو صادق وأمين فى الصورة التى يرسمها لنتائج الخطية، وفى الوقت ذاته كامل الرحمة فى الرجاء الموضوع للرجوع والتوبة مثل هذه القصة الصغيرة ؟ كيف تلخص تعزيات الدين وأثقال الحياة؟ وتتضمن فى كلمات قليلة مختصرة مدلولات الخطية والعقاب والتوبة والمغفرة. لقد صورت فى بضع سطور قليلة من أرحم وأصدق يد فى مثل ذلك الإبن الطائش. فهو يطلب ما يخصه قبل الأوان من ميراث أبيه، ويسافر إلى كورة بعيدة، ويبدد ماله عائشاً فى خلاعة، ويحتاج فى مجاعة عظيمة، ويضطر للخضوع لتلك المهنة القذرة الصيت فيرعى الخنازير ويشتهى أن يملأ بطنه من الخرنوب لكن لم يكن أحد يعطيه. وماذا بعد ذلك... العودة إلى رشده، وتذكر أجراء أبيه الذين يفضل عنهم الخبز، والرجوع إلى موطنه، والإعتراف المؤلم، والتوسل المتواضع غير المباشر الكسير القلب، والنهاية التى لا يمكن أن تبارى والتى هى كصوت حلو من السماء قد أثر على ملايين القلوب وقادها إلى التوبة والدموع:

" فقام وجاء إلى أبيه وإذ كان لا زال بعيداً رآه أبوه فتحنن وأسرع ووقع على عنقه وقبله. فقال له إبنه يا أبت أخطأت إلى السماء وقدامك ولست بمستحق بعد أن أدعى لك إبناً. فقال أبوه لعبيده أسرعوا وأخرجوا الحلة الأولى وألبسوه وأعطوه خاتماً ليده وحذاء لرجله وقدموا العجل المعلوف فنأكل ونفرح لأن ابنى هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجدناه".

وإذ لا يمكن أن وتراً يعطى صوتاً أعلى أو أحلى أو أحن من هذا ـ إذ لا توجد بعد هذا تعزية للخاطئ ـ فقد يظهر لنا أنه كان يجب أن يكون هذا هو الختام السامى للمثل كما تختم الموسيقى بألحان أوتار الملائكة. وبالتأكيد كان المثل سيقف عند هذا الحد لو أن حقد وحنق وخفايا أسرار قلوب الناس كانت خلاف ماهى عليه. لذلك كان للمثل ملحق ينص مباشرة على التنديد بالظرف الذى إستدعى قوله. إن التذمرات الغضوبة للفريسيين فى برودة قسوتهم وموات كبريائهم أظهرت مدى جهلهم بأن دمعة واحدة لخاطئ واحد تائب حقاً هى فى نظر الله أعظم بما لا يقاس من ألف تقليد طقسى، قليل الحب، عديم الثمر، لألف فريسى. لم يظنوا أو يتخيلوا أبداً أن التوبة تقرب الخاطئ والعشار بل حتى الزانية إلى الله أكثر من ألف مرائى بارد أو منافق تافه لا روح له متظاهر بالإحترام. لذلك أضاف يسوع للمثل كيف أن الإبن الأكبر أتى وحزن لصوت الطرب، وغضب لهذه المغفرة السريعة، ووبط قلب أبيه

١ – فى مثل الخروف الضال نجد الخاطئ المفتون الثقيل الفهم، وفى مثل الدرهم نجد الخاطئ الموسوم بعلامة الله ولكنه مرمى مفقود عديم النفع جاهل قيمته، وفى مثل الإبن الضال نجد الخاطئ العالم بخطيئته الفاعل لها بإرادته.

الرؤوف، وأخرج خطيئات أخيه فى اسوأ مظاهرها بعد أن غفرت له. ولم يرد أن يذكر صلة الأخوة، بل أظهر ضيق الصدر وخبث القلب غير المتسامح. ولم يميز بين الصلاح الظاهرى وبين الحب المقدس[١]. هذا الحقد الناشئ من إعتبار البر الذاتى.

هكذا فسر يسوع علاقته بالعشارين والخطاة وأظهر الإختلاف البعيد بين روحه وبين التظاهر بالدين المنتفط الذى هو فقط مجرد صورة بائسة فارغة للدين الحقيقى.

٥ - (١) واضح أنه مع الفرق الشاسع بين روح المسيح وروح الفريسيين إذ كانا على طرفى نقيض لا يلتقيان، لم يستطع أعداؤه حتى ذلك الوقت أن يوقفوا عمله أو يفسدوا تأثيره. فغفرانه الخطايا، وفى الوقت ذاته شفاؤه الأمراض التى كانوا يعتقدون أنها جميعاً ناجمة عن الخطايا، وإشتراكه فى الولائم العامة، وحبه للعشارين والخطاة، لا يمكن تحويرها إلى مخالفات للناموس. ولكن هنا تهمة ثقيلة، جريمة يعاود إقترافها مراراً، ثم هى مخالفة صريحة لنص ناموس موسى، وهى عدم حفظ السبت. هذه التهمة هى التى أثارت دهشة وثورة وجنوناً وحب إنتقام دموى صحبه حتى الصليب. كان السبت ترتيباً موسوياً قديماً، وأصبح الأمر الأهم والأشد مراعاه عن باقى الوصايا التى ينفرد بها اليهود ويعززهم عن باقى الأمم كشعب خاص. كان رمز إمتيازهم ومحور تقاليدهم الجوفاء. أما كان الأمر بعدم إتيان أى عمل يوم السبت أمراً نافذاً صارماً أكيداً؟ ألم يأمر موسى وكل الجماعة برجم إبن الشولومية حتى مات لأنه جمع حطباً فى يوم السبت؟

وهو ذا هنا من يقول عن نفسه أنه نبى بل وأعظم من نبى وهو مع ذلك يتعدى حسب رأيهم تقاليد يوم الأيام، ويفعل ذلك عن قصد! ومن يطالع البشائر بإنتباه يدهش للمقدار الهائل من العداوة القاتلة الذى أثير ضد السيد، ليس فى أوروشليم فقط بل أيضاً فى الجليل والبرية لهذا السبب وحده[٢].

أول إثارة مضادة فى الجليل وقعت بلا شك عقب الحوادث التى أوردناها فى الفصل السابق.

---

١ - توجد فى اللغة الأصلية ما لا يمكن أن تظهره الترجمة، وما يبين العلم العميق لقلب الإنسان الغضوب فى شدة الحسد والبغض. فكلمة «ها» التى يبدأ بها الإبن الأكبر إحتجاجاته وعدم تفرقته بين حرية القيام بالواجب وعبودية الخدمة «كم من سنين وأنا عبد لك» والضمير المتكرر "وجدياً لم تعطنى «أنا» لأتنعم «أنا» مع أصدقائى «أنا»" ثم قوله «إبنك هذا» بدل «أخى» ووصفه سيرته بأشنع قول: "الذى أكل معيشتك (أو معيشته) مع الزناة" وهذه القسوة المشينة الخالية من الرحمة فى التشنيع بخطية تاب عنها هى أحط صورة فى ثنايا هذا القلب الغضوب.

٢ - (مت١٢: ١) و (مر٢: ٢٣ - ٢٨) و (مر٣: ١ -٦) و (لو٦: ١ -١١) و (١٣: ١٤ -١٧) و (١٤: ١ -٦) و (يو٥: ١٠ - الخ) و (٧: ٢٣) و (٩: ١٤ - الخ).

وحقا نراه من الآن فصاعدا فى كل مكان وزمان من باقى حياته فى حقول الحنطة،فى المجامع، فى الولائم، فى التجولات فى كفر ناحوم أو مجدل أو البرية أو بيت عنيا نراه مقتفى الأثر، مراقباً، معارضاً، مجرباً، مشتوماً، متآمراً عليه من هؤلاء المبعوثين الممثلين لرؤساء أمته والذين نقرأ مراراً أنهم ليسوا من مواطنيه بل «الذين أتوا من أوروشليم»[1]

(١) أول هجوم ضد السيد فى الجليل حدث من أنه وهو سائر يوم السبت فى الحقول قطف تلاميذه وقد أضناهم الجوع بعض سنابل الحنطة وفركوها بأيديهم ونفخوا عنها أغلفتها وأكلوها. كان هذا بلا شك جريمة وجريمة كبرى فى نظر الشرعيين نصت إحدى «الابهوث» (المحرمات) على أن الحصاد والدراس كانا بلا ريب ممنوعين ولكن الحاخاميين عدوا قطف السنابل حصاداً وإعتبروا فركها فى راحة اليد دراسا بلى أنهم حرموا المشي على العشب كى لا يكون هذا نوعاً من الدراس، وأوجبوا عدم قطف ثمرة من على شجرة والأمور الأخيرة محرمات من الدرجة الثانية «تلدوث». وربما قد تتبع هؤلاء الفرسيين يسوع فى هذا السبت ليراقبوه إن كان سوف يتعدى ما أوصوا ألا يتجاوزه المسافر يوم السبت وهو مالا يزيد عن ألفى ياردة وما أسموه «تخوم السبت». ولكن حسن طالعهم أوقفهم على تعد أفظع وجرم صارخ ظاهر. لقد عمل التلاميذ ما يجعلهم حسب القانون عرضة للموت رجماً. حقيقة إن يسوع نفسه لم يشترك فى هذا التعدى إذ كما جاء فى بشارة مرقس الرسول إذ "فيما هو سائر...... بين الزرع" أى فى الممر العادى محتملاً الجوع كان تلاميذه يشقون طريقهم وسط الحقل ويقطفون السنابل. لم يكن هناك أى ضرر بالمرة فى قطف السنابل. ولم يكن هذا جائزاً عرفاً فقط ولكنه كان أيضاً مباحاً فى ناموس موسى. ولكن الأمر المريع أنهم فعلوا ذلك «فى السبت». ففى الحال أحاط الفريسيون بالسيد وأشاروا بحنق إلى تلاميذه وسألوه بغضب قائلين " أنظر... لماذا يفعلون فى السبوت مالا يحل فعله".

بتلك السرعة الإلهيه وبثاقب الرأى وسمو المعرفة التى كانت تمتاز بها إجاباته حتى فى أحرج الأوقات عندما يظنون أنهم قد أخذوه على غرة حمى يسوع تلاميذه فى الحال بموافقتة الصريحة ومناصرته الشخصية.

فمع أنه أعلن أنه رب السبت أيضاً إلا أنه إقتبس أولاً من «كتبهم» ثم من «ناموسهم» سابقة وقانوناً

---

١ – (مت١٥ :١) و (مر٣: ٢٢) و (٧: ١). أما الذين أتى ذكرهم قبل ذلك فلم يكونوا جواسيس معادين مثل هؤلاء. ونرى من (أع١٤: ١٩) و (١٧: ١٣) و (غلا٢: ١٢) كيف أنه كان ذائعا بين اليهود الروح الوضيع الهادم للاخلاق وهو التجسس لاصطياد من يتوهمون انهم مارقون.

يعفيان التلاميذ من كل لوم. سألهم ربما بشيء من السخرية الرقيقة كما فعل في مواضع أخرى "أما قرأتم قط" - وهي لازمة محببة لدى حاخاميهم - كيف أن داود لم يدخل إلى بيت الله فقط يوم ولكنه أيضاً "أكل خبز التقدمة الذى لا يحل أكله إلا للكهنة فقط". فإن كان داود، شجاعهم ومحبوبهم وقديسهم، قد كسر علانية وبعنف حرفية الناموس مرتكناً على سبب وحيد وهو أن إحتياج الجوع أعظم من مراعاة الطقوس التقليدية، فلماذا يؤاخذون تلاميذه إن أسكتوا جوعهم بعمل لا ضرر فيه؟ ثم إن كان الربيون قد وضعوا قاعدة «لا سبت فى الهيكل» فيكسر الكهنة الخشب فى السبت، ويوقدون النار، ويضعون خبز الوجوه ساخناً جديداً على المائدة، ويقدمون ذبائح مضاعفة، ويختنون الأطفال - أفلا يعفى التلاميذ من هو أعظم من الهيكل "إن ههنا أعظم[٢] من الهيكل" ومرة أخرى ذكرهم أنه يريد رحمة لا ذبيحة. إن السبت قد رسم من أجل الرحمة فليست تحل فيه فقط كل أعمال الرحمة بل أيضاً بمثل هذه الأعمال يسر الله أكثر من كل التدقيقات والحذلقات التى لا معنى لها والتى أبدلت غنى بركة الله إلى أثقال وإشراك. إن السبت قد جعل للإنسان لا الإنسان للسبت "لأن رب السبت هو إبن الإنسان" [٣].

(٢) ويظهر أنه فى نفس اليوم[٤] الذى حدثت فيه هذه المصادمة المرة قد عاد السيد ودخل المجمع عند الغروب. وكان فى المجمع رجل - يقول التقليد أنه كان بناء أصابه حادث، تضرع هذا إلى يسوع لكى يشفيه فلا يضطر أن يستعطى. مجرد وجوده والغرض من وجوده كان ظاهراً للجميع. وجلس على الكراسى الأولى الكتبة والفريسيون والهيرودسيون وقد ثبتوا نظراتهم الحسودة الخبيثة على يسوع ليروا ما سوف يعمل ليجدوا شكاية عليه. لم يتركهم فى ترقبهم طويلاً إذ سرعان ما أمر الرجل اليابسة يده أن يقف فى الوسط، وحينئذ رفع إلى محكمة ضمائرهم السؤال الذى كان يخطر فى قلوبهم ووضعه فى القالب الذى يظهر حقيقة الأمر إذ قال لهم «أيحل فعل الخير فى السبوت أم فعل الشر؟ أن تخلص نفس - كما أفعل الآن - أم أن تقتل - كما تتمنون فى قلوبكم أن تفعلوا؟». لا يوجد سوى جواب واحد لهذا السؤال، ولكنهم ما كانوا هنا ليفتشوا عن الحق أو ليقولوا الحق. كان كل غرضهم أن يراقبوا ما سيفعله

١ - (١صم٢١: ٦) قارن (لا٢٤: ٨، ٩).

٢ - الكلمة الاصلية وردت فى الاصل مجردة من «ال» (مت١٢: ٦) وليس كما فى الانجليزية. المعرب: وفى النسخة القبطية وردت مجردة أيضا.

٣ - (مر٢: ٢٧ - ٢٨) يوجد قول شبيه بهذا فى التلمود (بلاشك قد استعير من هذا واستعير دون نفع) وهو [لقد أعطيت السبت ولم تعط أنت للسبت].

٤ - راجع (مت١٢: ٩، ١٠) و (مر٣: ١).

ليقدموا التهمة ضده أمام السنهدرين أو على الأقل ليدمغوه من الآن فصاعداً بالعار العلني ككاسر للسبت. لذلك قابلوا السؤال بصمت غليظ عقيم. ولكنه لم يدعهم يهربون من حكم أنفسهم العادل ضد أنفسهم. ولذلك برر نفسه بجنوحهم إلى الصمت وبما يفعلونه هم. وسألهم أيضاً "أى إنسان يكون له خروف، ـ واحد ـ فإن سقط هذا فى السبت فى حفرة أفلا يمسكه ويقيمه. فكم يكون الإنسان أفضل من الخروف!". كانت حجته مفحمة، وعملهم أن وقعوا فى مثل هذا الظرف غير منكور. ولهذا ظلوا على صمتهم الغشوم "فنظر إليهم بغيظ حزيناً". إشتعل فى قلبه حنق مقدس أضاء وجهه وهو يتفحص بنظرة ثاقبة وجوههم الجامدة المتعالية وقال للرجل برفق "مد يدك". ألم تكن اليد يابسة؟ كيف يستطيع أن يمدها؟ كلمة المسيح قد مدتها بالقوة لإتمام ما أمر. "فمدها فصحت يده كالأخرى".

على هذا النحو إندحر أعداؤه، وغلبوا على أمرهم فى المحاجاة، وفشلوا فى إجتهادهم أن يمسكوا عليه ما يصلح لإتهامه. لأنه حتى فى صنعه الشفاء لم يعمل شيئاً مطلقاً يمكن أن يحوره بغضهم الشنيع إلى نقد لناموس السبت.

ولكن هذا زاد فى إشتعال غيظهم "فإمتلأوا حمقاً وكانوا يخاطبون بعضهم بعضاً ماذا يصنعون بيسوع" (لو٦ :١١). حتى ذلك الوقت كان الفريسيون مخاصمين للهيروديين. إعتبروهم يهودا نصف مرتدين، لأنهم قبلوا حكم الرومان، وتشبهوا بأعمال الوثنيين، وإعتنقوا مبادىء الصدوقيين، وأمعنوا فى ممالأتهم للعائلة المالكة، وجروا فى ذلك شوطاً بعيداً، حتى أنهم إجتهدوا مجدفين أن يعتبروا هيرودس الكبير كأنه المسيا المنتظر! ولكن الآن تناسوا عداوتهم القديمة وتصالحوا فى غضبهم الجنونى ليحاربوا عدواً مشتركاً.

وإذ أن الجليل كان الحقل المختار والمهم فى كرازة المسيح فقد رحب فريسيو أوروشليم بأية مساعدة تصدر من رئيس ربع الجليل أو من أتباعه. لذلك تشاوروا معهم لكى يهلكوا بالعنف ذلك النبى الذى لم يستطيعوا التغلب عليه بإقامة الحجة ضده، أو بمخاتلته وإيقاعه تحت الناموس.

لكن إلى ذلك الوقت لم تبعد عداوة الرؤساء الجموع عن المسيح، ولكنها جعلته رغم هذا يتوق للذهاب إلى مكان آخر[1] لأنه كان يريد ألا "يخاصم ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته". ولم تكن الساعة قد أتت بعد «ليخرج الحكم إلى النصره».

---

١ – (مت١٢: ١٥) و (أش٤٢ :٢) لا تعنى بالضرورة أنه ترك الجليل.

غير أنه قبل رحيله حدثت أمور أشد غلظة، وإنفجرت ضده مراجل من الغضب أبعد أهمية وأكبر خطراً.

٦- كان أول رفض صريح من المسيح للتعاليم الفريسية والتى هى صميم أساس طريقتهم ناجماً عن إجتهادهم هم وكتبة أوروشليم أن يحقروا مكانة تلاميذه[1].

فى إحدى المرات رأوا التلاميذ قد جلسوا ليأكلوا قبل أن يغتلسوا. وقد قرر القانون الشفوى وحتم بتشديد هذه الغسلات. لذلك أتى الفريسيون جماعة كعادتهم إلى يسوع وسألوه منتفخين لشعورهم بأهمية وأحقية إنتقادهم وقالوا "لماذا يتعدى تلاميذك سنن الشيوخ لأنهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزاً"؟

وقبل أن يذكر مرقس البشير إجابة يسوع توقف ليخبرنا أن التقاليد الخاصة بالغسل التى كان يرعاها الفريسيون وكل رؤساء اليهود متعددة دقيقة. فقبل كل أكل وعند كل عودة من السوق كانوا يغسلون أيديهم مراراً [2]. فإن لم يوجد ماء فليفتشوا عليه إلى أربعة اميال. وفضلاً عن هذا كانت هناك قواعد صريحة لغسل الكؤوس والآنية[3] والموائد وقدور النحاس.

وكالعادة إتخذ السيد جانب تلاميذه وناصرهم فى أحقية ما فعلوا، ولم يتركهم وحدهم مع ماهم عليه من البساطة والجهالة لئلا تخيفهم حملة هؤلاء النقاد العظماء المدعين للقدسية.

أجاب سؤالهم بأن وجه هو إليهم سؤالا أشد أهمية: "ولماذا أنتم أيضاً تتعدون وصية الله من أجل سنتكم؟"، لأن وصية الله هى «أكرم أباك وأمك». ولكن تقليدكم هو أن الرجل بدل أن يعطى المال اللازم لإعالة أبيه وأمه يضعه فى الخزانة ويقول «أنه قربان» فيتخلص من كل واجب تجاه إعالتهما. وأشياء كثيرة تشبه هذه تفعلونها... أيها المراؤون! - وكانت هذه هى أول مرة وبخهم فيها السيد بشدة على هذا النحو - قد أبطلتم كلام الله من أجل سنتكم... حسنا تنبأ عنكم أشعياء النبى قائلاً "هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فبعيد عنى فهم يعبدوننى باطلاً إذ هم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس".

---

١ - (مت١٥: ١ _ ٢٠) و (مر٧: ١ _ ٢٣).

٢ - الكلمة تعنى التنظيف الجيد لكل يد بغسلها بقبضة اليد.

٣ - الآنية (اى اكواب تسع حوالي ثلث لتر). اما آنية الفخار ان تنجست فلا تغسل بل تكسر (لا١٥: ١٢) وكانوا يهتمون بالغسل جدا حتى انهم مرة غسلوا شمعدانات الذهب فسخر منهم الصدوقيون وقالوا انهم عما قريب سيغسلون الشمس.

لم يكن هذا دفاعاً فقط عن التلاميذ ـ لأنهم أهملوا جملة من التقاليد المخالفة فى ذاتها لما نص عليه الناموس المقدس، ولكن كان أيضاً توبيخاً علنياً ممن إتخذ لنفسه سلطاناً علوياً غير هياب. وكان مضادة صريحة لترتيب تحكم فى أعمال الحاخاميين وكان معتبراً أفضل من الأسفار الخمسة ذاتها.

ولم يكن هذا كل شئ. لم يكتف بهدم أساسات عبادتهم الظاهرية، بل علّم الجماهير مبادىء تطيح بكامل سلطانهم، وكان سموه فى عدم موافقتهم على نسبة غلوهم فى إعتدادهم بذواتهم وتبجحهم الذى لا حد له. وتحول يسوع عنهم كما لو أن لا فائدة ترجى منهم، ودعا إليه الجموع التى كانت تنظر إليهم كآلهه مصغرة، وتحدث إليهم بكلمات قليلة ثمينة "وقال لهم إسمعوا لى وإفهموا... ليس ما يدخل فم الإنسان ينجسه بل ما يخرج من الفم هو الذى ينجس الإنسان".

ولقد أوذى الفريسيون تماماً من هذا الحديث الذى شجب الإحترام السائد العام لكل ما هو مجرد تظاهر. ولم يتوان التلاميذ فى إخباره عن الحنق الذى أثارته كلماته عند الفريسين لأنهم غالباً هم أيضاً شاركوا فى إحترام ومهابة هذة الشيعة المحبة للرئاسة. ولكن إجابة يسوع كانت إعلاناً هادئاً لعدم إكتراثه لما يحكم به العالم ولتفضيله لما يحكم به الله كما يظهره فى مستقبل الأيام "كل غرس لم يغرسه أبى الذى فى السموات يقلع من أصوله. دعوهم هم عميان قادة عميان وإذا كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما فى حفرة".

وبعد قليل عندما صاروا فى المنزل جرأ بطرس أن يطلب إيضاحاً للكلمات التى خاطب بها الجموع بلهجة التأكيد. فوبط يسوع بلطف تلاميذه لعدم فهمهم، وأراهم بتعليم فائق أن ما يأكله الإنسان إنما يؤثر على كيانه الجسدى ولا يدخل إلى قلبه أو يمس جوهره الحقيقى. "لأنه من الداخل من قلوب الناس تصدر الأفكار الشريرة. الزنا السرقة القتل الفسق الإغتصاب الشر الغش العهارة عين شريرة تجديف كبرياء جهل".

"هذه هى التى تنجس الإنسان وأما الأكل بأيد غير مغسولة فلا ينجس الإنسان" (١).

١ – توجد صعوبة شهيرة فى (مر٧: ١٩) «وذلك يطهر كل الاطعمة». قارن (اع١١: ٥-٩). والتفسير الوحيد لهذه الآية هو ماقالة القديس يوحنا فم الذهب [وذلك اى ماقاله يسوع ينقى جميع الاطعمة] وبذلك تصبح هذه الآية فريدة فى البشائر إذ هى قانون المسيحى تجاه الناموس الموسوى.

الفصل الثاني والثلاثون

إزدياد المقاومة

توجد أيام قليلة من حياة المسيح على الأرض وقعت له فيها من الحوادث والمقاومات ما يضطرب لها القلب مثل اليوم الذى سنصفه فيما يلى:

كان يسوع يصلى منفرداً فى الفجر الباكر فى إحدى المدن التى كانت مسرحاً هاماً لكرازته فى الجليل ورآه تلاميذه واقفاً وعيناه شاخصتان إلى السماء.

ومكث التلاميذ مبتعدين إحتراماً له، ولكن عندما فرغ تقدموا إليه بالطلب الطبيعى ليعلمهم أن يصلوا كما علم يوحنا تلاميذه. ففى الحال إستجاب لسؤالهم وعلمهم هذه الصلاة الكاملة القصيرة التى صارت منذ الحين الذخر المشتهى والإرث الأسمى فى كل صلاة مسيحية، والمثال الذى تبنى عليه أحسن الإبتهالات وأقربها منالاً.

صلاة جمعت كل ما وجده قلب الإنسان المتعلم من الله. وهى فريدة فى مزيج الحب والإحترام الذى ترشدنا إليه عند إقترابنا من أبينا الذى فى السموات، فريدة فى الروحانية التى تعلمنا أن نطلب أولاً ملكوت الله وبره، فريدة فى روح المحبة العامة والتسامح الذى تغرسه، فريدة فى صيغة الجمع التى تسودها من الأول للآخر والتى ترينا أن محبة الذات يجب أن تنتفى بتاتاً ودائما من تضرعاتنا، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتى إلى الله كأبيه بدون أن يعترف أن ألد أعدائه هم أبناء الله أيضاً، وفريدة أنه من السبع طلبات التى تحتوى عليها توجد طلبة واحدة، وواحدة فقط، لطلب البركات الأرضية. وهذه الصلاة ينطبق عليها ما قاله الآباء عنها بأنها «إنجيل مختصر» وأنها «درة الصلوات».

والكلمات القليلة الأمينة التى أردفها لم تكن لتقل عنها سمواً إذ علَّمت الرسل أنه ينبغى أن يصلى الناس فى كل حين ولا يملوا. لأنه إن كانت اللجاجة تتغلب على أنانية الإنسان وتنفع معها فيجب أن يكون الإلحاح كاملاً فى طلب بر الله. ثم ثبت يسوع فيهم الدرس القيم وهو إن كنا نركن ونطمئن إلى أن محبة الناس لا تمنح سوى العطايا النافعة الشفوقة فيجب أن نؤمن أن محبة الأب العظيم الذى يحبنا جميعاً يمنحنا بالأولى وبكل تأكيد أحسن وأثمن العطايا حتى الروح القدس لمن يطلبونه.

وبأى دقة ولكن أيضاً بأى رأفة ولطف قد طبع هذه الدروس العظيمة فى أذهانهم. لقد حملها فى

سياق قصة صغيرة عن الأشياء العادية من الحياة اليومية المملوءة بساطة وفقراً. مسافر يسرى فى الليل ليتجنب القيظ المحرق ويصل إلى منزل صديقه. وصاحب البيت فقير ليس له ما يقدمه له ولكن لكى لا يهمل واجبات الضيافة حتى فى هذه الساعة المتأخرة يقوم ويمضى إلى منزل صديق آخر ليفترض منه ثلاثة أرغفة. ولكن هذا الصديق الآخر فى مرقده وأولاده معه وبيته مغلق وبابه مقفل بالمزلاج ويجيب الطلب الرقيق المحب بخشونة[١]. وغضب من الداخل ويقول "لا تتعبنى". ولكن الصديق يعلم أنه قد أتى فى رسالة صالحة وضرورية فيستمر يقرع الباب. وفى النهاية، ليس من أجل عواطف شفوقة، ولكن من أجل اللجاجة[٢]، يقوم الرجل ويعطيه كل ما يطلب.

وهنا لاحظ بعضهم بحلاوة «أن هذا ما يحدث عندما يعود القلب الذى كان بعيداً فى سياحة ويرجع إلينا فجأة فى نصف الليل ـ الوقت الأشد حلكاً وضيقاً ـ أى عندما يرجع إلى نفسه ويستشعر جوعاً وليس عنده شئ يشبعه فإن الله يطلب منا إيماناً جريئاً لجوجاً». لأنه إن كانت هذه اللجاجة قد تغلبت على تلكؤ إنسان غير كريم، فأى شئ تفعل مع من يحبنا أكثر مما نحب ذواتنا بل من هو مستعد أن يستجيب صلواتنا أكثر مما نطلب ونسأل!

هذا اليوم الذى إبتدأ بتعليمهم الصلاة الربية، صلاة الإيمان والرجاء والمحبة، لم يكن مقدراً له أن ينقضى بسلام. أيام قلائل فى حياة السيد قد أعفيت من إحتكاكه وإيلامه بخطايا الناس وأحزان البشرية. ولكن المشهد الذى ظهر اليوم أمامه كان من أنكرها وأقساها. فقد أحضروا إليه إنساناً أعمى وأخرس ومجنوناً، متأثراً بإنفعالات خفية من إمتلاك الشيطان. ولم يتركه يسوع فريسة ضعيفة لقوات الشر، فبنظرة وبكلمة منه أطلق المتألم المسكين من هذا الظلم الصارخ فشفى وبرئ "حتى أن الأخرس تكلم وأبصر".

فك هذه القوة القاهرة التى ربطت هذا الرجل، والمقدرة على سكب الضياء إلى تلك العين المظلمة، وإرجاع النطق إلى هذا اللسان المشلول، والعقل إلى تلك النفس الشاردة، شئ لم يشاهد مثله الناس قط. أثارت هذه الأعجوبة عاصفة من الدهشة وفجرت إعجاباً ظاهراً. ولأول مرة جاهرت الجموع علناً إن كان هذا الذى له تلك القوة ليس سوى مخلصهم المنتظر "وقالوا أليس[٣] هذا هو إبن داود؟"

---

١ – انه لايرد التحية التى إبتدره بها بقوله «ياصديق». ثم كلمة «لاتتعبنى» تدل على عدم الإصطبار. وفى الأصل كلمة «أغلقت بابى» تدل على إغلاقه إلى الصباح وكلمة «فلست أقدر» معناها لا أريد.

٢ – الكلمة الأصلية معناها «عدم الأستحياء» «الألحاح لذى لا يحمر خجلاً».

٣ – (مت٩: ٣٢) و (١٢: ٢٣) و (لو١١: ١٥) الكلمة الأصلية تدل على التردد. قارن (يو٨: ٢٨) حيث تدل الكلمة الأصلية على التأكيد.

ولم يقدر أعداؤه أن ينكروا أن معجزة عظيمة قد حدثت. وإذ أنها لم تغيرهم فقد قست قلوبهم وحمقتهم. ولكن كيف يمكنهم أن يبددوا الأثر العميق الذى إنطبع فى عقول الناظرين المتحيرين؟ كان الكتبة الذين أتوا من أورشليم أكثر حذقاً ومكراً وأسرع بديهة وتفكيراً من إخوانهم الجليليين البسطاء. ففى الحال إخترعوا حيلة يجابهون بها هذا المأزق، حلاً وقحاً مدهشاً إذ قالوا: "إن معه بعلزبول وبرئيس الشياطين يخرج الشياطين".

لكن يسوع بكلمات هادئة قليلة بدد هذه السفسطة المريعة وذراها هباء، وأراهم السخافة الواضحة فى ظنهم أن الشيطان يعادى نفسه، ثم أظهر لهم أن القوة التى إستخدمها يجب أن تكون أعظم من الشيطان وضد الشيطان. وعلى ذلك فهى روحية إلهية، ولهذا حذرهم من خطيتهم هذه المخيفة الخطرة لأنها تجترم ضد روح الله وتقرب من تلك الخطية التى لا تغفر لا فى هذا الدهر ولا فى الدهر الآتى، ألا وهى التجديف على الروح القدس. وبعد هذه التحذيرات الخفية الغامضة تكلم معهم بلغة أشد وضوحاً وأراهم كيف أنه من الكنز الشرير المخفى عميقاً فى الظلام الدامس الذى أطفئ منه مصدر الضوء يمكن أن تخرج هذه الأفكار المظلمة التى لعداوتهم الملتوية (مت١٢:٣٤) وأخيراً، وبنغمة تحذير لا زالت تتماوج وتتردد أبد الدهر، حذرهم بقوله الصادق إن «كلام» الإنسان يظهر حقيقة معدن القلب الذى فى الداخل، وأنهم على هذه الكلمات، وعلى كل الكلمات الباطلة أو الكاذبه التى للخبث الكسول، سوف يعطون حساباً فى اليوم الأخير. ويظهر أن قوة وسلطان كلمات يسوع وشدة الإنذار الذى حملته قد أسكتت الفريسيين إلى حين وأوقفت تكرار هذا التجديف الغريب السخيف.

وفى السكون الحادث صاحت إمرأة من الجمع فى حماسة إعجاب لا تضبط، معتادة حقاً على إحترام الفريسيين ذوى الثياب الطويلة والأهداب والثنيات العريضة، ولكن شعرت من أعماق قلبها بالعلو الشاهق الذى سما به هذا المتكلم عنهم ـ صاحت رافعة صوتها كي يسمعها الجميع وقالت:

ـ "طوبى للبطن الذى حملك وللثديين اللذين رضعتهما".

ـ "أما هو فقال لها بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه".

أعلنت المرأة بكل عمق العطف على جنسها كم تكون مباركة تلك الأم التى لها مثل هذا الإبن! وحقاً كانت الطوبى لتلك الأم المباركة، المباركة ثمرة بطنها، المباركة بين النساء، والمباركة لأنها آمنت (لو١: ٤٢ ـ٤٥) لكن ليست هذه البركة قاصرة عليها إذ توجد بركة أخرى وهى بركة إطاعة كلام الله. يقول القديس فم الذهب [كم من النساء باركن العذراء ووددن لو يكن أماً مثلها! ماذا يؤخرهن؟ لقد أعد يسوع طريقاً معبداً لهذه السعادة، ليس للنساء فقط، ولكن للرجال أيضاً، هو طريق الطاعة الذى

يمكن أن يسير فيه الجميع. فليست آلام الولادة فقط بل الطاعة أيضاً تخلق أمثال هذه الأم المباركة].

ومع أن الفريسيين إندحروا إلى لحظة إلا أنهم لم يشاءوا أن يتركوا يسوع فى راحة مدة طويلة. لقد تحدث بلغة كلها تحذير صارم بل كلها توبيط قاس إليهم وهم القادة ورؤساء الدين فى زمانه ووطنه. كيف تجرأ أن يخاطبهم هكذا؟ فليرهم على الأقل آية، آية من السماء، لا مجرد طرد أرواح أو أعمال شفاء، ولكن آية عظيمة قاطعة لا تحتمل جدلاً وتدل على سلطانه.

"يا معلم نريد أن نرى منك آية".

كان هذا نفس السؤال القديم الذى حاربوه به فى أول كرازته عندما قالوا له: "أية آية ترينا حتى تصنع هذا" (يو٢:١٨).

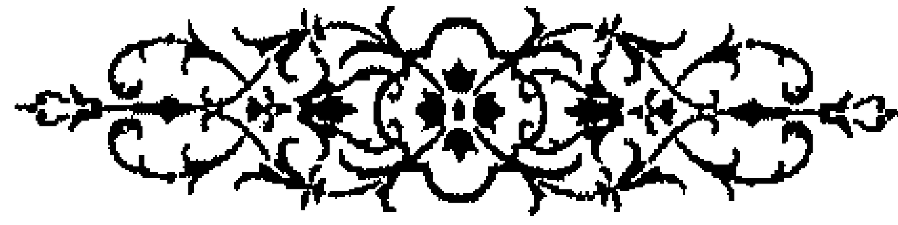
لمثل هذه الطلبات التى قدمت فقط للتشهير به، وإمتحانه من رجال لم يقتنعوا ولم يلينوا وقد رأوا للتو آية عظيمة وفى الحال عزوها دون خجل لقوة الشيطان، طلبات ليست من قلوب مؤمنة ولكن لمجرد حب الإستطلاع والكره والجحود، لمثل هذه الطلبات كان يسوع يعطى أذناً غير صاغية. لا يتنازل الله فيظهر قوته إطاعة لإحراج النقاد، ولا يوافق حكمته أن يجدد نفوس الناس بمجرد إندهاشهم من صنع الآيات. ولو أن يسوع أعطاهم آية من السماء فهل كانت تحدث أى أثر فى أخلاق ورثة أولئك الذين وسمهم ذات أنبيائهم بأنهم عبدوا مولوك ونجم الإله رمفاق بعد أن قادهم عمود النار وشربوا من الصخرة المتفجرة؟ لقد رأوا آيات وعجائب كثيرة، ورأوا أعظم آية وهى حياة يسوع التى بلا عيب، ولكنهم زادوا حنقاً وتجديفاً. لذلك لا تعطى لهم آية تحت ستار النبوات التى لم يفهموها، فقال للجموع الحاشدة "إن الجيل الشرير الفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبى" فكما كان يونان ثلاثة أيام وثلاث ليال فى بطن الحوت، فى ظلمة البحر الهائج آية لأهل نينوى، كذلك يكون إبن الإنسان فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال. مت١٢: ٤ رجال نينوى الذين تابوا بإنذار يونان، وملكة سبأ التى جاءت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان، سيقومون فى الدين مع هذا الجيل ويدينونه لأنهم حقروا ورفضوا من هو أعظم من يونان ومن سليمان. إن المنزل القديم قد رش وكنس، ولكن للأسف لم يدع روحاً طيباً ليتربع على العرش، فعاد إليه الروح النجس القديم ومعه سبعة أرواح أخرى أشر منه، فصارت أواخرهم أشر من أوائلهم.

عند ذلك الحد توقف حديثه بمقاطعة مفاجئة (مت ١٢: ٤٦). ترامت الأخبار إلى أسرته أنه كان وسط جمع غفير، وأنه يتكلم بكلمات أغرب وأشد مما سبق ان نطق بمثلها من قبل، وأكثر من هذا انه

قد وبط بهزء علني وفضح بغضب كريم المعلمين العظام الذين أرسلوا من أوروشليم خاصة ليتجسسوا على كلماته، فتملك الخوف أسرته.

ولم يستطيعوا أن يصلوا إليه بسبب الزحام، ولكن أمكنهم أن يجدوا من نبهه إلى حضورهم. ففجأة قاطعه واحد من الجمع قائلاً "هوذا أمك وأخوتك خارجاً يطلبونك".

وآسفاه... أنهم لم يفهموا أن الساعة قد أتت ليتخلص من صلات أقربائه حسب الجسد ويتحرر تماماً من رقابتهم عليه. هل لابد له أن يصدم مرة أخرى تدخلهم الجرئ هذا؟ نعم.. ولكن هذه الصدمة يجب أن تكون غاية فى الرقة، وأن تمنح عزاء أبدياً للآخرين. فأجاب وقال: "من هى أمى ومن هم أخوتى؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال هؤلاء هم أمى وأخوتى لأن كل من يضع إرادة أبى الذى فى السموات فهو أخى وأختى وأمى".



الفصل الثالث والثلاثون

يوم التصادم

كانت حوادث هذا اليوم العظيم حتى الآن مليئة بالاضطراب الكافى، ولكن لم تقف عند هذا الحد بل تبعتها ظروف أشد إيلاماً وأمعن استفزازاً.

حان وقت تناول الغذاء فسأله فريسى أن يأتى ويأكل فى بيته. وكانت الدعوة خالية من الترحيب، معدومة الكرم تقريبا إن لم تكن قد سيقت بكراهية صميمة وسوء نية، وكما نعلم حدث هذا فى دعوات فريسية أخرى. وعلى أحسن الفروض كان الدافع لها حب الاستطلاع ليرى المعلم الجديد عن كثب أو حب الغرور ليظهر كالمعضد لهذا الضيف الكبير.

وأتم الكتبة والفريسيون والصدوقيون - هؤلاء الأضياف العظماء - غسلاتهم الفنية بترفع وحذلقة. وأسرع كل واحد منهم بحسب مركزه على المائدة. أما يسوع فبدون واحدة من هذه المظاهر الخيالية دخل، وللحال اتكأ على المائدة.

وللوقت ظهرت علائم الدهشة على وجه مضيفه. كذلك، بلاشك، أظهر اولئك الأضياف غير السموحين بحواجبهم المرتفعة واشاراتهم السمجة أكثر ما تجرأوا أن يظهروه من عدم الرضى والاحتقار. لقد نسوا تماما من هو وما قد صنع. كانوا من أول الأمر جواسيس ومفترين. لذلك ابتدأوا أن يحطوا من شأن ضيافتهم المفتعلة، وينتهزوا فرصة جديدة ليتآمروا عليه ويخونوه. لذا حان الوقت لاستعمال لغة أوضح واعلان غضب أشد، فلم يبخل يسوع عليهم بذلك. لم يتحدث اليهم بأمثال أو كلمات يجوز الخطأ فى فهم مرماها، وأبان لهم مدى ريائهم وأن نظافتهم الخارجية انما هى ستار شفاف يغطى جشعهم وخبثهم. وفضح تدقيقهم الفارغ الحقير فى تعشير النعنع والسذاب، واهمالهم الذريع للفضائل الضرورية. فضح الزندقة والطمع والرياء والمباهاة والفريسية الظاهرة، بينما قلوبهم فى الداخل ملآنة فساداً وموتاً. لقد كانوا مثل القبور غير الظاهرة والناس الذين يمشون عليها لا يعلمون وانما يتنجسون.

وحينئذ تجرأ واحد من الموجودين، ناموسى، معلم متقدم، متمسك، تجرأ أن يقاطع سيل توبيخه القاهر.وربما ظن أن مقاطعته هذه قد توقف العاصفة الثائرة لغضبه المستيقظ. قال محتجا: "يا معلم إن تقول هذا تشتمنا نحن ايضا"!

نعم هو وبخهم أيضا لأنهم يضعون على أكتاف الآخرين أحمالاً يرفضون هم أن يحملوها. وهم أيضا قد بنوا قبور الأنبياء الذين قتلوا من جراء خطاياهم. وهم أيضا قد أغلقوا أبواب الحكمة وأداروا لها ظهورهم وأخذوا مفتاحها حتى لا يدخل أحد.

لذلك سيقع عليهم أيضاً مع كل ذلك الجيل الشرير دم جميع الأنبياء من دم هابيل الى دم زكريا الذى هلك بين المذبح والبيت[1].

لقد عاد يسوع فأدلى بهذا الكلام بأجلى وأشد بيان فى هيكل أوروشليم فى الأسبوع الأخير العظيم من حياته على الأرض أما فى هذه الفرصة فقد أنزل عليهم من سماء تفوقه الأخلاقى أول البروق الكاسحة للقلوب التى أمطرها غضبه فى الويلات السبع. لقد ظنوا أنه ربما تخدعه نعومتهم الغاشة وضيافتهم المرائية، ولكنه علم أنهم بغير اخلاص قلب منحوه أبسط مرافق اللياقة والترحيب. لقد أستضافوه وحده فكان فريدا بينهم. بخيانة أحاطوه، فألهب رؤوسهم بتحذيرات الدينونة وأعلنهم بأنه أن لم يتوبوا فسيلقيهم إلى الأرض. لم يستطيعوا أن يغشوه لحظة. لقد حان الوقت الذى يظهر لأولئك المرائين انه يعلم جيدا قلبهم الغاش ويكره من الأعماق خبث حياتهم.

شعروا أنه أعلن الحرب عليهم فانفضت الدعوة (لو١١: ٥٣) فى ضوضاء. وخلع الكتبة والفريسيون القناع وتبدلوا فجأة من مدعى الصداقة ومن متسائلين مهتمين الى مخبرهم الحقيقى كأعداء ألداء. فأحاطوا به كما لو كانوا يتهددونه، ورموه بجارف من الأسئلة الماكرة ليمتحنوه ويحفزوه أن يتحرج فينطق بكلمات خبيثة، مثل الصيادين الماهرين يحفزون الفريسة الى الخروج من مكمنها. واجتهدوا ان يقعوا على قول خطأ، أو إعتراف ينم عن جهل، أو بالأكثر على كلام فيه ظل من التجديف حتى يستطيعوا أن يقدموا ضده تهمة قانونية يوردونه بسببها إلى التهلكة وشيكا. (لو ١١ : ٥٣).

وخرج يسوع من هذا المأزق الضيق سالماً. أما كيف فعل هذا، وكيف تجنب نيران العداوة هذه، فلم يذكر لنا. ربما كان كافيا أن ينحى أعداءه جانباً آمرا إياهم أن يتركوه حراً، مرة أخرى، إذ أن الجموع فى هذه الأثناء قد خامرها الشك أو تسربت إليها أخبار ما يحدث داخلاً. وللوقت "إجتمع ربوات جموع حتى داس بعضهم بعضاً" [2] فى سرعتهم وحماسهم. وبلغت همساتهم الغضوبة الثائرة

---

١ – (أى٢٤: ٢٠، ٢١).

٢ – هذا يظهر من (لوقا١٢: ١) حيث يفهم من النص الأصلى ان تجمع الجماهير كان فجأة.

مسامع الفريسيين فحذرتهم أنه من الخطر أن يستمروا أكثر فى مؤامرتهم. وخرج يسوع للجموع ولا زالت تلتهب روحه بالغضب الشديد العادل الذى كان قد تملك عليها. وفى الحال خاطب تلاميذه وآلاف السامعين معهم، وإنفجر فى هذا التحذير القدسى العنيف: "تحرزوا لنفوسكم من خمير الفريسيين الذى هو رياؤهم". وأعلن لهم أنه ما من خفى إلا وهو مكشوف أمام عين الله التى تسطع ألف مرة أكثر من الشمس. ثم أوصاهم ألا يخافوا من الناس ـ وربما كان ساورهم بعض الخوف من جراء الحوادث المقلقة التى حدثت فى الأيام الأخيرة ـ بل أن يخافوا فقط من الذى بعدما يقتل الجسد له سلطان أن يلقى الجسد والروح كليهما فى جهنم[1] النار. أن الله الذى يحبهم سيعتنى بهم، والإبن الذى سيعترف أمام الآب والملائكة بأولئك الذين يعترفون به أمام الناس.

وبينما كان يسوع يخاطبهم هكذا فوجئ بمقاطعة لحديثه لم يكن هذا محلها. حقيقة لم تكن هذه المرة مقاطعة العداء أو التدخل فى غير مناسبة، أو أعجاب لا يستطاع كتمانه، لكنها كانت مقاطعة الحكمة العالمية والأنانية. شخص من الجمع ـ وكان محباً لذاته، إذ رأى الجموع الصاغية، وسمع كلمات السلطان والقوة، صمم على إستخدام هذه الفرصة المواتية للوصول إلى مآربه الدنيونة. وظن أنه سيتمكن من أن يضرب ضربة مالية رابحة. فبدون إعتبار وبغير مناسبة قاطع يسوع قائلاً: "يامعلم قل لأخى أن يقاسمنى الميراث".

وكان توبيط السيد له يقرب أن يكون صارماً لانحصار تفكيره فى ذاته. يظهر أنه كان أحد أولئك الناس غير القليلين الذين لا محط لأنظارهم فى العالم جميعه إلا على أنفسهم. ويظهر أنه ظن أن الغرض الأهم من مجئ المسيا هو أن يصون له حصته فى الميراث، ويوقف أخاه العاصى عند حده. ففى الحال بدد يسوع كل آماله الدنيوية البائسة، وحذره وكل الذين سمعوه من أن يطغى على رجائهم المرتقب، الأفق الضيق الذى للمتع الأرضية. وما أقصر ـ لكن ما أغنى فى الوصول إلى المقصود ـ المثل الذى ضربه لهم عن الغنى الأحمق الذى جعلته محبته لذاته – المحبة الشنيعة الطامعة الناسية الله ـ أن يفعل هذا وذاك، والذى ـ كأنما ليس هناك شئ اسمه الموت ـ كأنما النفس تحيا بالخبز ـ ظن أن: «ثمارى» و «خيراتى» و «أهرائى» و «كلى وأشربى وأفرحى» قادرة أن تصون ما تبقى فيه من نسمة حياة لسنين عديدة، والذى كان صدى كلماته هذه صوت من السماء يهز القلوب وتلذع سخريته قائلاً: "ياجاهل فى هذه

١ – جهنم هو تحريف الكلمة العبرانية «جى هنوم» اى وادى هنوم خارج اورشليم الذى تدنس أولا بعبادة مولوك ثم برمى الجثث فيه. ولكى يطهر من العفونة والأوبئة اضرمت فيه نيران عظيمة. فاصبح إسمه علماً على كل مكروه ذريع.

الليلة"(١).

وحينئذ توسع السيد لتمكين هذا الدرس، فعلمهم أن النفس أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس، وذكرهم ثانية أن الله يكسو الزنابق التى لا تتعب بأمجد مما قد لبس سليمان، ويقيت الغربان التى لا تهتم. وذكرهم أيضاً أن الطعام واللباس ومختلف الممتلكات ليست هى الحياة بل لهم أشياء أفضل يطلبونها ويتطلعون إليها. فليحذروا من التأرجح فوق البحر المضطرب الذى للإهتمامات القليلة الإيمان(٢).

فلتكن حياتهم حياة الرجاء غير الخائف والإحسان غير المحدود، حياة الأحقاء المشدودة والسرج المضيئة، حياة العبيد الأمناء الذين ينتظرون عودة سيدهم فى ساعة لا يعرفونها.

هذه الكلمات قيلت لتلاميذه خاصة ولكن سمعها الجمع الذى وجهت إليه. ولكن حب إستطلاع بطرس تغلب عليه فسأله أن كان هذا المثل قد قيل لهم وحدهم أم للجميع أيضاً.

لم يجب يسوع على هذا السؤال، وكان صمته خير إجابة. وإنما طلب أن يكون كل إنسان عبداً أميناً حكيماً، وحينئذ طوبى له. ولكن الويل كل الويل بنسبة مامنح من معرفة وإمتيازات لذلك العبد النهم، شريب الخمر، غير الأمين، الذى يأتى سيده فيجده غارقاً فى مخالفته.

وعندما ذكر يسوع تلك المحاكمة المخيفة للعبد غير الأمين سرى ألم قدسى فى روح السيد. إذ تذكر السلام المرفوض الذى سوف ينتهى بأكبر مظلمة عاتيه (وهى الصلب)، وتذكر البيوت المنقسمة على ذاتها، والأصدقاء المتفرقين، وأن له صبغة سوف يصطبغ بها، وأنه متضايق حتى تكمل، وأنه قد جاء ليلقى نيراناً على الأرض، وقد بدأت واضطرمت هذه النيران التى هى بمثابة معمودية روحية، نيراناً ممحصة تهدى أو تعمى، تنير أو تدمر، تحرق الطين أو تصفى الذهب.

ثم ترك هذه الأفكار المحزنة وعاد ثانية فاهتم بإحتياجات الجماهير الماسة. فسألهم أن كانوا يميزون

---

١ - "فى هذه الليلة تؤخذ روحك منك" (لو١٢: ١٦ -٢١). لا يستدل ان غناه قد جمع عن طريق غير صائب انما خطأه أنه نسى المعطى، ونسى أنه وكيل عليه فقط، ونسى أن الموت قد يخليها سريعاً من قبضة يده. وواضح أن نابال وأنانيته وحماقته وموته البائس يشابه هذا كما هو ظاهر من تكرار ياء الملكية (قارن ١صم٢٥: ١١). وهذا المثل يشابه ماجاء فى إبن سيراخ (١١: ١٨ - ١٩).

٢ - (لو١٢: ٢٩) «لا تقلقوا» فى الاصل تعنى: «لاتكونوا مثل مركب تتمايل فى الزوبعة بعيدة عن مدخل الميناء».

من السماء المحمرة بعبوسة، ومن السحب الآتية من المغرب، ومن الريح الهابة من الجنوب، أن المطر سينزل أو أن الحر سيشتد. فلماذا إذن لا يميزون علامات الأزمنة؟ لماذا يتطلبون آيات من السماء وأفقها البعيد، والهواء الذى يستنشقونه والأرض التى يمشون عليها مليئة بالآيات. بلى، لو فتشوا حسناً لرأوا أن فى نفوسهم آيات. من يروم رؤية النجم الذى يهدى طريقه ويقرر مصيره يجب ألا يفتش عنه فى السماء المتقلبة الظواهر، ولكن فى أعماق قلبه[1]. وناشدهم أن ينتهزوا الفرصة السانحة ويتصالحوا مع الله لئلا يدركهم «فوات الأوان» الذى يندبه الأفراد وكذلك الشعوب فى أواخر الزمان.

والظاهر أنه ختم حديثه عند هذا الحد. وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى يسمعون فيها كلامه أياماً عديدة. لأنه إذ رأى أنه محوط بأعداء أقوياء قد إستفزهم بحدة، وأنه مبغض من المقربين إلى الملك الذى يعيش فى دائرته، وأنه مقتفى الأثر بكره علنى ومؤامرات سرية من جواسيس تعلَّم وتعود الشعب أحترامهم، وإذ شعر ان الناس لم يفهموه وأن حكم الموت قد تقرر عليه فى عقول الرؤساء والمعلمين. ترك أرض موطنه إلى حين وذهب ليبحث فى البلاد الوثنية والمدن المسالمة عن الراحة والإطمئنان اللذين حرمهما وطنه عليه.



١ – قارن (مت١٦ : ٢،٣) و (لو١٢: ٥٤ – ٥٧).

الفصل الرابع والثلاثون

بين عبدة الأوثان

" ثم خرج يسوع من هناك ومضى إلى نواحى صور صيدون". هذه هى الملاحظة القصيرة التى كتبت كمقدمة لما دون باختصار عن فترة من حياته وعمله كان يلذ لنا لو أنها أعلنت بايضاح أزيد. وقد نتخيل أنه قد حصل بالتأكيد فى هذا المكان البعيد على الاطمئنان والراحة ولكن الواقع أن الأمر لم يكن كذلك. لأنه كما سبق أن ذكرنا قد سرت شهرة معجزاته إلى تلك المدن الفنيقية القديمة فسرعان ما وصل إلى نواحيها حتى ظهر جليا أنه من المستحيل أن يستتر إذ أن امرأة طلبته وتبعت الجماعة القليلة السائرة معه وهى تتوسل قلبياً "وكانت تصرخ قائلة إرحمنى يارب يا ابن داود. ابنتى معذبة إذ بها شيطان".

وكان يخطر لنا أن السيد سيجيب فى الحال مثل هذه الصلاة بقبول ورضى شفوق سيما أن فى إجابة ملتمسها رمزاً لإمتداد ملكوته فى الأقسام الثلاثة العظيمة لدنيا عبادة الأوثان. لأن هذه المرأة كانت كنعانية سورية فينيقية مولدا، وكانت رومانية بالرعوية ويونانية باللغة والثقافة. فطلبها الرحمة من مسيا الشعب المختار هو الباكورة لحصاد زرع جيد سينبت فيما بعد فى صور وصيدا وقرطاجنة واليونان وروما. ولكن السيد صمت " فلم يجبها بكلمة".

لم يذكر لنا فى أى مكان آخر مثيل لهذا الإغضاء الظاهرى من جهة يسوع. كما لم يذكر لنا هنا عن الأسباب التى دعت إليه. إنما نستنتج سببين. وربما أراد أن يمتحن شعور تلاميذه الذين فى روح يهوديتهم الضيق ربما يكونون غير مستعدين أن يروه يمنح بركته ليس فقط لأممية ولكن أيضاً كنعانية سليلة أمة ملعونة. حقيقة أنه شفى ابن قائد المائة. ولكن ربما كان هذا رومانياً، وبالتأكيد كان محسنا لليهود، وعلى الأرجح جدا إنه كان على باب الهداية. وربما - ونحن نعلم ما حدث بعدئذ - أراد أيضاً أن يمتحن ايمان المرأة لكى يكلل إيمانها بمكافأة تامة ولكى تعلم عنه أكثر من اللقب اليهودى الذى ربما تكون قد عرفته مصادفة[1] ولكن إذ أن كل معجزة غنية فى مغزاها الروحى ربما رمى إلى تشجيعنا فى صلواتنا وآمالنا فى كل الأزمان وإلى تعليمنا المثابرة حتى لو ظهر أنه يشيح وجهه ويصم أذنه عنا.

---

١ - نخبر صراحة فى (مر٣: ٨) و (لو٦: ١٧) إن الذين من تخوم صور وصيدا كانوا بين سامعيه ومشاهدى معجزاته وأنه على الأقل فى مناسبتين مختلفتين قد رحب به ولقب بابن داود (مت٩: ٢٧) و (١٢: ٢٣).

أما التلاميذ فلتعبهم من صراخها وإلحاحها سألوه أن يصرفها ولكن كما لو كانت وساطتهم غير مجدية أجابهم قائلاً "لم أرسل لأحد إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة".

حينئذ جاءت المرأة ووقعت عند قدميه وسجدت له قائلة "يارب أعنى" هل يمكن أن يبقى غير متأثر بهذا البؤس والحزن؟ هل يمكن أن يرفض هذا الطلب؟ هل يمكن أن يتركها لتعانى حياة طويلة من الألم وهى تشاهد نوبات إبنتها المجنونة؟ ولكن بهدوء وجفاء إنفرجت تلكما الشفتان اللتان لم تنطقا إلا بالرحمة لكل صلاة تضرعية عن هذه الجملة "ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ليعطى للكلاب".

جواب مثل هذا كفيل بإثارة عاصفة من الثلج داخل روحها. ولكن بالتأكيد ما كان يجيبها هكذا لو لم يعرف بسابق علمه أن روحها كنز نادر يرى الشفقة والقبول فى ثنايا رفضه الظاهرى. لذلك ما كان كل ثلج وطنها لبنان قادراً أن يطفئ نار الحب المستعرة على مذبح قلبها. فبسرعة رجع الصدى، رددت تلك الإجابة المجيدة الخالدة:

"نعم يارب فإن الكلاب أيضاً تأكل من الفتات الساقط من مائدة أربابها".

لقد إنتصرت، وإنتصرت إلى أقصى حد، فلم يزد السيد دقيقة فى برهة الإنتظار وألم الترقب، فأسرع بقوله لها "يا إمرأة عظيم إيمانك. ليكن لك ما تريدين" وختم مرقس البشير هذا الحديث بتعبيراته البسيطة الجميلة التصويرية المعتادة بهذه الكلمات المؤثرة "فذهبت إلى بيتها ووجدت الصبية على السرير وقد خرج منها الشيطان".

ولا ندرى مقدار الزمن الذى صرفه يسوع فى تلك التخوم ولا فى أى مكان بالذات قد مكث. لذلك إنتقل يسوع من هناك. لقد نظر بشعور من الحزن ممتزج بالإهتمام إلى صور وعظمتها التجارية وتاريخها القديم ومعابدها الوثنية النجسة الفخمة وصلتها بتاريخ ونبوات وطنه، وإلى صرفة وتذكارات هروب إيليا ومعجزاته، وإلى صيدا وشهرة أرجوانها ومقابر ملوكها الغابرين، لم يكن هنا مجال عمله ولذلك إنتقل من هذه الجهات. وإنتحى شرقاً إلى جهات ديكابوليس.

وديكابوليس إسم أطلق على المنطقة التى فى شرقى الأردن وكانت إتحاداً لعشر مدن حرة لم يتمكن اليهود عند عودتهم من النفى أن يسترجعوها، ولذلك إستمرت محتلة من الأمم، وظلت جزءاً منفصلاً من المقاطعة الرومانية. ويظهر أن يسوع قد قوبل بترحاب فى هذا الإقليم نصف الوثنى.

فى إحدى هذه المدن قدموا إليه رجلاً أصم وأخرس ليشفيه (مر٧: ٣٢ -٣٧) كان شفاؤه مستطاعاً

بكلمة منه، ولكن من الواضح أنه كانت هناك ظروف خاصة فى هذه الحالة بالذات إستدعت تفضيل الشفاء التدريجى، وأن يظهره بعلامات محسوسة. ولذلك أخذه من بين الجمع على حدة، ووضع أصابعه فى أذنيه، وتفل ولمس لسانه. وهنا يحفظ لنا مرقس البشير أنه تنهد ونظر إلى فوق عندما نطق بهذه الكلمة الواحدة «افثأ» أى إنفتح. وهنا أيضاً لم تعلن لنا العوامل المحيطة التى أحزنت روحه. ربما يكون قد تنهد شفقة على الرجل، وربما يكون قد تنهد شفقة على جنسه، وربما يكون قد تنهد من أجل الخطايا التى تنزل بالناس إلى الدرك السفلى والآلام التى توقع بهم العذاب. ولكن من المؤكد أنه تنهد بروح شفقة عميقة وعطف. ولاشك أن هذا التنهد قد صعد كصلاة قوية إلى أذن أبيه السموى.

وإذ أن جمهور هذه الجهة البعيدة القاصية غير معتاد على معجزاته، فقد دهشوا جداً وخالفوا كالعادة أمره بألا يقولوا لأحد، فإنتهى بذلك كل أمل فى الهدوء والتستر. والغالب أن حادثة الشفاء هذه كانت بالقرب من الشاطئ الشرقى لبحر الجليل فتبع جمع كثير يسوع إلى قمة التل الذى يشرف على البحيرة، وأحضروا إليه عرجاً وعمياناً وصماً وعسماً وطرحوهم عند قدمى الطبيب الصالح فشفاهم، فإمتلأوا بهجة وتعجباً، ولم يرتضوا أن ينصرفوا من حضرته. ومع أنهم أنصاف وثنيين فقد "مجدوا إله إسرائيل" (١)

مكثوا معه ثلاثة أيام، وإذ أن كثيرين منهم أتوا من أماكن بعيدة فقد فرغ طعامهم. فتحنن عليهم يسوع إذ رأى إيمانهم، ولم يرد أن يخوروا فى الطريق. فمرة أخرى مد لشعبه مائدة فى البرية. فأجلس التلاميذ الجموع وفرقوا عليهم الطعام المتكاثر معجزياً من الأرغفة السبعة والأسماك الصغيرة القليلة. وفى هذه المرة دون أن يأمرهم جمعوا الكسر التى فضلت عنهم فملأت سبع سلال كبيرة. وكان الذين شبعوا أربعة آلاف عدا النساء والأولاد. وبعدئذ بهدوء وسلام وبدون إظهار للحماس الزائد عن الحد الذى صحب المعجزة التى شابهتها سالفاً إشترك يسوع مع تلاميذه فى صرف الجمع الفرح الشكور.



١ - (مت١٥: ٢٠ - ٢٩) و (مر٨: ١ - ٩).

الفصل الخامس والثلاثون

الإعتراف العظيم

كانت مقابلة يسوع على الشاطئ الآخر مختلفة جد الإختلاف. رحب به الوثنيون المساكين فى ديكابوليس بحماس إحترامى، أما فريسيو أوروشليم المتعجرفون فجابهوه بكره تهكمى. ربما بعد الغيبة الطويلة قد إشتاق للمكان الوحيد الذى يجد فيه راحة والذى يمكن أن يدعوه موطنه، فدخل السفينة الصغيرة وعبر البحيرة إلى مجدلة[1]. ولكن يظهر أن الفريسيين كانوا مترقبين حضوره، وكأنهم كانوا واضعين عيونا لهم فى برج مجدلة ليلاحظوا شراع مركبه العائد. فإنه بمجرد أن وضع قدميه على الشاطئ أتوا إليه. ولم يكونوا وحدهم بل كانوا مصحوبين هذه المرة - وأى إتحاد مشئوم! - بمناظريهم وأعدائهم الصدوقيين، هذه الطائفة المتعصبة، نصف الدينية، نصف السياسية، والتى كان ينتمى إليها فى ذلك الحين رئيساً للكهنة وبعض أفراد الأسرة المالكة. ولقد تألبت عليه كل الطوائف الحاكمة - الفريسيون بمركزهم القوى وإحترامهم العظيم الدينى لدى الشعب، والصدوقيون القليليون فى عددهم المعتزون بأموالهم ومقامهم، والهيروديون الممثلون لسلطة الرومان وصنائعهم رؤساء الربع، والكتبة أعلام المعرفة ورمز السلطة الرجعية - هؤلاء جميعاً إتحدوا فى جبهة قوية متآمرة ضده، مصممين قبل كل شئ على منعه من الكرازة وفصم عرى المحبة بينه وبين القوم الذين صنع فى وسطهم معظم قواته.

لقد وجدوا بالإختبار أن أمضى سلاح فعال لإنقاص قيمة إرساليته وتقويض تأثيره هو أن يطلبوا منه آية، وآية من السماء. لو كان هو المسيا فلم لا يعطيهم خبزاً من السماء كما يظنون أن موسى هو الذى أعطاهم؟ أين رعود صموئيل ونيران إيليا؟

وكانوا يعلمون أنه لن يمنحهم آية مثل هذه، وأنه قد أعلن لهم الأسباب القوية لرفضه المثلث أن يجيب هذا الطلب غير الروحانى لأنه لا يمكن ان يتغير قلب قاس أو يزول كفر عنيد بالآيات والعجائب، وإنما بالإتضاع الداخلى ونعمة الله التى تنسكب مثل ندى السماء بسكون وبدون أن ترى. فلو أنه أتاهم آية لعزاها ناظروها المعاندون إلى قوة الشياطين، ولفسرها الذين سمعوا خبرها كما تشاء لهم الأهواء، ولأنكرها جيل مقبل ونظر إليها كأنها إختراع أو أضافها إلى سجل الأساطير.

---

١ – يقول مرقس البشير "نواحى دلمانوثه" (مر٨: ١٠).

ولكن رغماً عن كل هذا فقد شعر الفريسيون والصدوقيون أن رفضه فى هذا الوقت أن يعطيهم آية هو سلاح له أثره فى إضعاف إعجاب الناس به. غير أنه لم يتردد لحظة فى رفض تجربتهم. لن يعمل أعجوبة علوية بناء على أمرهم، كما لم يعمل بناء على أمر المجرب. فأخبرهم فى الحال كما أخبرهم فيما مضى أنهم لن يعطوا إلا آية يونان النبى، ثم أشار إلى السماء غرباً وقد صارت قانية من وهج الألوان الداكنة عند غروب الشمس "**وقال لهم إذا جاء المساء تقولون أن السماء صحو إذ أنها محمرة وفى الصباح تقولون أن اليوم شتاء لإحمرار السماء بعبوسه يا مراؤون تعرفون أن تميزوا السماء وأما علامة هذا الزمان فلا تعرفونها**". [1]

وعندما كان يتكلم تنهد بروحه (مر٨:١٢) لقد كان غائباً منذ زمان عن موطنه. فى صور وصيدا فتشوا عنه بإيمان وثقة، وفى ديكابوليس قوبل بترحاب وشكر، أما هنا فى موطنه فقد جابهوه بعداء قاهر متفاخر تحت ستار الغيرة الريائية.

ما كان ليفرض مراحمه قسراً على الذين رفضوها. وكما فى زمن مقبل فضلت أمتهم اللص القاتل على رب الحياة. هكذا الجليليون أيضاً الآن فضلوا أن يحتفظوا بفريسييهم ويخسروا مسيحهم، فتركهم كما ترك الجدريين. وإذ رفضوه، ولم يسمحوا له حتى بالراحة فى موطنه، فبقلب مثقل وحزن رزين تركهم. تركهم بلا عودة علنية مرة أخرى، وإن كان فيما بعد قد زار التخوم المجاورة ولكنه لم يعمل فيها معجزة ولم يعظ أو يعلم[2].

وفى غروب ذلك اليوم وكان الوقت خريفاً عاد إلى السفينة ثانية وأمر التلاميذ أن يبحروا شطر بيت صيدا جولياس فى الطرف الشمالى للبحيرة. ولا شك أنهم فى طريقهم مروا تجاه الشاطئ الناصع الرمال قرب بيت صيدا الغربية حيث صرف بطرس وأندراوس وإبنا زبدى زمان حداثتهم، هل فى تلك اللحظة التى يترك فيها الجليل عالماً تمام العلم أن عمله هناك قد إنتهى وأنه يبحر منها تحت نير الحرم الجزئى وما يقرب من النفى والموت المحق، هل فى تلك اللحظة الرهيبة قد نطق بتلك الويلات الشعرية التى محق بها المدن غير التائبة التى صنع فيها أغلب قواته.؟

"**الويل لك يا كورزين. الويل لك يابيت صيدا لأنه لو حدثت فى صور وصيدون القوات التى حدثت فيكما لتابتا قديماً فى المسوح والرماد**".

---

١ – (مت١٦: ١ – ٤) و (مر٨: ١٠ – ١٣).

٢ – يوجد شئ يؤكد ذلك فى (مت١٤: ٤١) و (مر٨:١٣).

"لكنى أقول لكم إن صور وصيدون سيرأف بهما فى يوم الدين أكثر منكما".
"وأنت يا كفر ناحوم هل ترتفعين إلى السماء فسيهبط بك إلى الهاوية لأنه لو حدثت فى سدوم القوات التى حدثت فيك لبقيت إلى اليوم".
"ولكنى أقول لكم إن أرض سدوم سيرأف بها يوم الدين أكثر منك".

ولا ندرى إن كانت هذه الكلمات المؤثرة قد قيلت فى هذه الفرصة كوداع صارم محزن لخدمته العلنية فى البلاد التى أحبها أم قيلت فى موضع آخر[١]. ولكننا نعلم بالتأكيد أن نفسه كانت مفعمة بالحزن لعدم إيمان أولئك القوم الذين لم يمكنوه من وضع قدمه فى أرض موطنه، ولقساوة قلوبهم وظلمة عقولهم وفساد أفئدتهم. لذلك قال لتلاميذه " أنظروا وتحرزوا من خمير الفريسيين وخمير هيرودس".[٢]

لم يزد شيئاً، فقلبت بساطة التلاميذ الغريبة المعنى الذى أراده وفسرت كلماته بجهالة. كانوا كثيراً ما يأخذون تعابيره التمثيلية حرفياً وتعابيره الحرفية تمثيلياً. عندما قال "لى طعام لستم تعرفونه" قالوا هل أتاه أحد بطعام. وعندما قال "لعازر حبيبنا قد نام" أجابوا "يا سيد إن كان قد نام سيشفى". وهنا، مع أن الخمير كان رمزاً للخطية المخفاة أو الخطية غير الظاهرة فانهم بعد أن تشاوروا مع بعضهم قالوا أنه ربما يحذرهم من شراء خميرة الفريسيين والصدوقيين، أو ربما كان يوبخهم بطريق غير مباشر لأنهم فى حزنهم وعجلتهم وسفرهم المفاجئ لم يحضروا معهم إلا رغيفاً واحداً! وحزن يسوع لعدم فهمهم ولحرفيتهم الجهولة هذه. كيف يفتكرون أن ذلك الذى بكلمة منه قد تباركت وتكاثرت الأرغفة والأسماك حتى أنهم جمعوا بعد أن أشبع الخمسة آلاف اثنتى عشرة قفة، وبعد أن أشبع الأربعة آلاف جمعوا سبع سلال من الكسر الباقية كيف يفتكرون بعد هذا أن هناك أى خطر عليه أو عليهم من ألم الجوع؟ لذلك كان هناك شئ من الغضب فى الأسئلة السريعة التى أظهر بها خطأهم دون أن يصحح ظنهم إذ قال لهم "مابالكم تفكرون أن ليس عندكم خبز؟ أحتى الآن لا تعلمون ولا تفهمون؟ أقلوبكم عمياء؟ لكم عيون ولا تبصرون ! لكم آذان ولا تسمعون! ولاتذكرون". وبعد أن ذكرهم بالأعجوبتين السالفتين قال لهم أيضاً: "كيف لا تفهمون" ؟ لم يجرأوا أن يسألوه تفسيراً. كان هناك شئ يثير الخوف ويعلى من شخصيته السامية تغلب على حبهم الشديد له. أسكتهم جارف من الإحترام

١ – هذه الويلات الفريدة الكاملة قد دونها (مت١١: ٢٠ – ٢٤) و (لو١٠: ١٢ – ١٥) وسجلها الأول مع أحاديث وليمة سمعان الفريسى والثانى مع إرسالية السبعين.

٢ – أو «خمير الصدوقيين» لأن أغلب الهيروديين كانوا منهم.

القاهر. ثم بدأ يشرق عليهم أن شيئاً آخر هو المقصود، وأنه ما كان يحذرهم من خمير الخبز ولكن من تعليم الفريسيين والصدوقيين.

وفى بيت صيدا جولياس ـ غالباً فى اليوم التالى ـ قدموا إليه أعمى لكى يشفيه. وقد أتم له الشفاء بطريقة مشابهة جداً للتى شفى بها الرجل الأصم والأخرس الذى من ديكابوليس. لم تكن فيها السرعة أو الإستجابة العاجلة التى لمعجزاته الأولى. ثم هى تخالف بقية معجزاته المكتوبة. فقد أمسك يسوع بيد الرجل وأخرجه خارج القرية، وتفل فى عينيه، ووضع يديه عليهما، وسأله ماذا يبصر. وتطلع الرجل بعيداً، وإذ لم يكن قد شفى تماماً بعد قال " انى أرى الناس كأشجار يمشون". ولم يبصر الرجل جيداً إلا بعد أن وضع يسوع يديه مرة ثانية عليه، فرأى جلياً. وأرسله إلى بيته الذى لم يكن فى بيت صيدا، لأنه منعه بتأكيد وتكرار ألا يدخل المدينة، وألا يخبر أحداً فيها.

ثم ترك يسوع بيت جولياس وتوجه شطر قيصرية فيلبس. وقد نص صراحة على أنه لم يدخل المدينة نفسها ولكنه زار نواحيها والقرى المحيطة بها[١].

لكن حدث أثناء ارتحاله شمالاً ما يصح أن يقال عنه بأنه الذروة فى كرازته على الأرض[٢]. فالجموع التى كانت تتجمهر حوله فى المدن الآهلة كانت هنا تتبعه من بعيد. تلاميذه وحدهم كانوا قريبين منه وهو واقف فى صلاة انفرادية. وعندما إنتهت صلاته أومأ إلى تلاميذه ان يقتربوا إليه وهو يتابع إرتحاله وسألهم السؤالين الأعظمين اللذين يترتب على إجابتهيما مستقبل عمله كله على الأرض.

سألهم أولاً "عما يقول الناس من هو إبن الإنسان".

كانت الإجابة مفجعة إذ أعلنوا الصدق الكاسر للقلوب بأن الدنيا لم تعرف المسيا الذى أتى لخلاصها، ولم يقدروا إلا أن يكرروا الظنون الكسولة التى تلوكها ألسنة الناس. فقالوا إن قوماً ـ يرددون صدى ضمير انتيباس المثقل بجرمه ـ يقولون أنه يوحنا المعمدان. وآخرون ممن سمعوا توبيخاته القاسية التى لحزنه المثار رأوا فى هذه الأقوال القوية نبرات صوت الرعود فقالوا انه إيليا جديد. أخرون ممن أصغوا إلى أحاديث الحنان وكلمات المحبة العامة رأوا فيه روح الرثاء التى لأرميا وقالوا أنه عاد ثانية ربما ليرد إليهم الأوريم الضائع والتابوت المفقود. وآخرون وهم الغالبية المطلقة قالوا أنه واحد من الانبياء.

"فقال لهم وأنتم من تقولون إنى أنا؟".

---

١ – (مت١٦: ٢٣) و (مر٨: ٢٧).
٢ – (مت١٦: ١٣ – ٢٨) و (مر٨: ٢٧ – ٩: ١) و (لو ٩: ١٨ – ٢٧).

أن مُعظم عمل المسيح على الأرض كان بين تلاميذه. هو زرع البذار وهم حصدوا الثمار. هو جددهم وهم جددوا العالم. لم يعلن للآن صراحة أنه المسيا. حقيقة إن يوحنا شهد له، وحقيقة قد أوضح بكلامه وعمله للذين قدروا أن يقبلوه انه ابن الله، ولكن بإشارة غير مباشرة إذ كان يرغب أن يضيء نور هذا الإعلان شيئاً فشيئاً على عقول بنيه، وأن ينير عليهم من الحقائق التى يتكلم بها، ومن الحياة التى يحياها، وليس من العجائب التى صنعها.

ولكن كانت الإجابة ـ لأنه قد كتب منذ البدء فى سفر الدهور أن تكون هكذا ـ وكان لبطرس، الحار القلب، مرنم جوقة الرسل، الشرف الخالد ان يكون البوق الذى نطق بها:

" أنت هو المسيح إبن الله الحى".

وبعظمة رهيبة وافق المخلص على هذا الإعتراف العظيم. "فأجاب يسوع وقال له طوبى لك سمعان بن يونا[١] أن لحماً ودماً لم يعلن لك هذا لكن أبى[٢] الذى فى السموات. أما أنا فأقول لك أنت بطرس (بترس) وعلى هذه الصخرة (بترا) سأبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات وماتحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات".[٣]

كانت هذه شهاداته هو عن نفسه، كانت الاعلان للبشر طراً أنه ليس بالمعرفة الأرضية، ولكن بالنعمة الإلهية، يمكن أن تقبل هذه الحقيقة. كانت بمثابة وضع حجر الزاوية فى كنيسة المسيح[٤]. كانت الوعد أن هذه الكنيسة المؤسسة على صخر هذا الإعتراف الموحى به ستبقى ولا تقوى عليها قوات الجحيم. وكانت كلمات السيد الإنعام على هذه الكنيسة فى شخص ممثليها بسلطان الحل والربط، والغلق والفتح، والوعد بأنه إذا استعلمت هذه القوة بأمانة على الأرض يوافق عليها فى النهاية فى السماء.

أما كنيسة المسيح فقد بقيت وكان الرسل فيها حجراً حياً وأساساً قوياً، وقوات الجحيم لم تقو عليها، ولازال لها السلطان أن تفتح على وسعها أبواب ملكوت الله.

---

١ – بمثل هذا خاطبه يسوع فى مناسبات أخرى عظيمة (يو٢١: ١٥ – ١٧).

٢ – ليست الكلمة اليهودية المعتادة «ابينو» أى «أبانا» ولكن «أبى».

٣ – كثير من المفسرين العظماء من الأجيال الأولى إلى يوحنا هذا قد قرروا أن «هذه الصخرة» تعنى إما اعتراف بطرس او تعنى المسيح.

٤ – من المهم أن نلاحظ ان كلمة كنيسة لم ترد فى البشائر إلا مرة ثانية غير هذه فى (مت١٨: ١٧).

ولقد تم هذا الوعد العظيم لبطرس بسخاء عظيم لأنه هو الذى غير فى يوم الخمسين (البندكوستى) الجماعة الأولى الغفيرة من اليهود الذين قبلوا الإيمان المسيحى، ولأنه هو الذى قبل الأممى الأول[1] وأدخله إلى كامل النعم المسيحية. كان اعترافه العظيم مثل الصخرة بنى عليها إيمان كثيرين. قد تتألب قوات الجحيم فتهزهم ولكن لن تقوى عليهم.

يمكن أن يقال إن المخلص من هذا الحين قد أكمل جزءاً عظيماً من عمله على الأرض لأن رسله قد تيقنوا سر شخصيته. ولقد وضعت الأساسات ويسوع نفسه حجر الزاوية الكريم الكريم الذى سيقام عليه البناء العظيم.

ولكنه أمرهم ألا يذيعوا هذه الحقيقة الآن، فان وقت التبشير بها لم يحن بعد. وكانوا يجهلون بالتأكيد الطريق الأمثل لأظهارها، إذ لم يكونوا قد تثبتوا تماماً فى الإيمان لدرجة أن يقفوا معه فى ساعة الشدة. إلى الآن سيعرف فقط أنه المسيح أولئك الذين تراه مباشرة بصيرتهم الروحية فى حياته وأعماله أنه هو. أنه هو الذى " لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته" [2] ولكن بعد أن يثبت إيمانهم بقوة قيامته دون أى ارتياب او زعزعة، وبعد أن تمتلىء قلوبهم من جدة روح قدس الله فحينئذ ـ وليس قبل ذلك. تأتى الساعة التى يعلمون فيها الشعوب أن يسوع هو حقاً إبن الله الحى.

ومع أنهم قد عرفوا الآن من هو إلا أنهم لم يعرفوا شيئاً عن الطريق الذى سيتم به مقاصده الألهية. إذن قد حان الوقت ليزداد استعدادهم. لقد جاء الوقت ليعلموا أنه وإن يكن ملكاً قاهراً فإن مملكته ليست من هذا العالم. لقد حان الوقت ليطفىء فيهم إلى الأبد كل الآمال الأرضية الباطلة للمجد والعظمة والرقى فى مملكة المسيا، بل يجب أن يفهموا أن ملكوت الله ليس أكلاً أو شرباً، بل براً وسلاماً وفرحاً فى الإيمان.

وعلى ذلك فقد بدأ بسكون وإيقان أن يتحدث لهم عن زيارته العتيدة لأوروشليم، ورفضه من رؤساء أمته، والاهانات والآلام التى تنتظره، وموته العنيف، وقيامته فى اليوم الثالث. كان قد سبق فتنبأ لهم باعلانات بعيدة وبايعازات مختلفة[3] عن آلامه القادمة، ولكن الآن يتحدث لهم علانية وبكامل حرية

١ – قد ألمح بطرس نفسه إلى أن هذه الحقيقة هى كمال وعد المسيح (اع١٥: ٧).

٢ – (مت١٢: ١٩) و (أش٤٢: ١).

٣ – (مت١٠: ٣٨) و (يو٣: ١٤) "إبتدأ.... أن يخبر" (مت١٦: ٢١). تدرج فى الإعلان ووضوح فى التنبؤ يلاحظ كلما قرب الوقت (مت١٦: ٢١) و (١٧ :٢٢) و (٢٠ :١٨) و (٢٦: ٢).

الحديث[1] فأعلمهم انه سيُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، أى من كل ذوى السلطة والكرامة والمهابة فى أمته، ولكنه لم يقل أنه سيسلم إلى الأمم. وأخبرهم أنه ينبغى أن يموت، ولكنه أبقى الحقيقة المخيفة أنه سوف يصلب إلى زمان رحلته الأخيرة لأوروشليم[2]. كان يكشف لهم غيب المستقبل بالدرجة التى يحسنون احتمالها، ومع ذلك، لكى يقلل حزنهم ويقوى إيمانهم، قال لهم بوضوح تام أنه سيقوم ثانية فى اليوم الثالث.

ولكن العقل البشرى له ميزة غريبة فى رفض كل ما لا يستطيع أن يفهمه، وفى تجاهل ونسيان كل ما لا يقع فى دائرة إختباراته السالفة. والتلاميذ، الأمناء دائماً، البسطاء دائماً فى شهاداتهم، لم يخفوا عنا جمود بصيرتهم الروحية ولا طغيان الأفكار اليهودية على عقولهم[3]. لقد سمعوا إعلانه هذا ولم يفهموه "أما هم فكانوا غافلين عن هذا الكلام ـ وكان مستوراً عنهم" [4] وهنا كما فى مواضع أخرى متعددة كان يقع خوف إلهى عليهم "وخافوا أن يسألوه" [5] كان التنبؤ عن موته بعيداً جداً عن كافة ما تعودوه وعن منحى أفكارهم حتى أنهم تغافلوه كأمر غير مفهوم غير جدير بالتقدير. كان سراً لم يستطيعوا إماطة اللثام عنه. أما عن القيامة، فحتى عندما تنبأ ثانية لأكثرهم روحانية، فإنهم إقتصروا على التساؤل فيما بينهم عما هو القيام من الأموات[6].

لكن بطرس فى تسرعه وإندفاعه ظن أنه قد فهم، وظن أنه قادر على المنع، فقاطع هذه الأحاديث الرهيبة بغيرته الجهولة العابثة، فأمسك يسوع[7] من يده أو ثوبه وإقتاده خطوة أو إثنتين بعيداً عن باقى الرسل وإبتدأ ينصح ويأمر وينتهر سيده ويقول له: "حاشاك يا رب. أن يحدث لك هذا" [8] وللحال

---

١ – (مر٨: ٣٢) إعلانات أسبق ولكن أقل وضوحاً في (يو٢: ١٩) "اهدموا هذا الهيكل" و (٣: ١٤) "يرفع إبن الإنسان" (يو٦: ٥١) "... جسدى الذى سأبذله عن حياة العالم" (مت٩: ١٥) "... يرفع العريس من بينهم" (مت١٦: ٤) "آية يونان النبى".

٢ – (مت١٦: ٢١) و (٢٠ :١٩). وعلى أى حال فأن طريقة موته قد أوضحت فى تمثيل "يحمل صليبه.. ويتبعنى" الذى قيل بعد ذلك مباشرة (مت١٦: ٢٤).

٣ – (مت١٥: ١٧) و (١٦: ٧) و (يو٤: ٣٢) و (١١: ١١، ١٢، ١٦).

٤ – (لو٩: ٤٥).

٥ – (مر٩: ٣٢) و (لو١٢: ٥٠) و (١٨: ٣٤).

٦ – (مر٩: ٩).

٧ – (مت١٦: ٢٢) وقارن (مر٨: ٣١، ٣٢).

٨ – معنى الكلمة الأصلية «لا قدر الله»، «لا سمح الله»، «منع الله هذا» ومعناها الحرفى «ليرحمك الله».

بلهب سريع من غضب مفاجئ وبخه السيد لدنيويته وجسارته، وأشاح عنه وثبت عينه على باقى الرسل وتكلم فى مسامعهم لأنه جيد أن الذين سمعوا كلمات الوعد الوسيع يسمعون أيضاً التوبيط المريع. وقال له: "تخلف عنى يا شيطان! أنت عثرة لى لأنك لا تفكر فى ما لله بل فى ما للناس" فكرك هذا البشرى الجسدانى، جهدك هذا لتبعدنى عن صبغة الموت، هو خطية ضد المقاصد الأزلية[١].

"إذهب خلفى يا شيطان" [٢] هى نفس الكلمات التى قالها للمجرب فى البريه كان التوبيط صارماً، ولكن ربما يحمل لآذاننا معنى أكثر شدة مما للآذان التى سمعته، كلمة "شيطان" لا تعنى أكثر من "عدو" وفى كثير مما جاء فى العهد القديم لا تعنى العدو الأكبر لجنس البشر[٣]. وأطلقت أيضاً على الملائكة المعاندين، أما إستعمالها فى هذا الحادث ففد كان لأن بطرس قد إتخذ طريق الجدل الذى إستعمله إبليس فى البرية. وأما تسمية بطرس (عثرة) فقد كان فيها إشارة إلى إسمه إذ شبهه بالصخر الملقى فى الطريق يعثر المارين. ولاشك أن هذا التعبير قد نقش فى ذهن الرسول عميقاً حتى أنه قال أن (حجر الزاوية) يصير للذين لا يؤمنون "حجر صدمة وصخرة عثرة" (١بط٢:٨).

وبعد أن وبط هذه المحبة المجهولة وحذر رسوله الجرئ من هذا التخاذل غير الروحى إنتهز فرصة هذه الحادثة وأدلى ببعض تعاليمه العميقة الخالدة التى خاطب بها ليس تلاميذه فقط بل الجموع أيضاً[٤] فقد ذكر عرضاً فى بشارة مرقس أنه حتى فى تلك الأماكن[٥] القاصية كانت تتبعه جموع تسير على مسافة قليلة وراءه هو وتلاميذه، فلهم أيضاً قد تحدث بالكلمات التى علمتنا وتعلمنا إلى الأبد أن روح الواجب ومعنى الحياة الحقة، وكذلك خدمة الله المقبولة مذخرة فى قانون تضحية النفس، ففى هذه الفرصة تحدث بالكلمات القليلة التى كان لها تأثير لا يمحى فى عقول الناس: " فإنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه أو ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه".

---

١ – أخطر الناس علينا هم أولئك الذين يودون لنا الخير إن كانت أفكارهم دنيوية فقط. وآسفاه.. أشد أعداء الإنسان الحقيقيين هم أهل بيته، أصدقاؤه، أكثر الناس حباً له، إذ فى، دنيويتهم يصبحون ألد الأعداء. إذ يجرونه من علو وسمو تضحية النفس إلى ماهو مادى وعادى ومريح ودنئ.

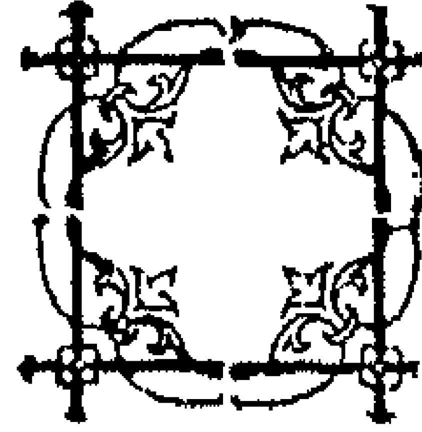
٢ – (مت١٦:٢٢) و (مر٨:٣٣).

٣ – مثال ذلك فى (عدد٢٢: ٢٢ – ٣٢) حيث نفس الكلمة قد وردت مرتين عن الملاك الذى أرسل لإيقاف بلعام، (١مل١١:١٤) قيلت عن هود و٢٣ عن رازون. (١صم٢٩:٤) إستعملها الفلسطينيون عن داود. راجع أيضاً (مز١٠٩:٦) وهامشه.

٤ – (لو٩:٢٣).

٥ – قارن (مر٨:٣٤) و (٧:٢٤).

وبعد أن حذرهم وتنبأ لهم أنه سيحاكم، عزاهم من صدمة هذا الإعلان غير المنتظر بتأكيده أن بعضاً من القيام لن يذوقوا الموت حتى يروا إبن الإنسان آتياً فى ملكوته. وإذا فسرنا ملكوت إبن الإنسان روحياً كما هو ظاهر فى البشائر فلا توجد صعوبة فى تفسير هذه النبوة، إذ يكون معناها أنه قبل أن يموتوا جميعاً تكون أساسات ملكوته قد ثبتت إلى الأبد وزال العتيق وشيد الجديد. ثم أن ثلاثة منهم قد رأوه عقب ذلك مباشرة متجلياً، وإن جميعهم خلا واحداً سيرونه قائماً من الأموات، وأن واحداً على الأقل ـ التلميذ الحبيب ـ كان سيبقى حياً إلى سقوط أورشليم وخراب الهيكل الذى يجعل إتمام ناموس موسى حرفياً مستحيلاً. وربما تكون لهذه النبوة معان أعمق وأحق لأنها أكثر روحانية[1].



١ – يظهر أن مترجمى الإنجيل الأقدمين فهموا أن أول إتمام لهذه النبوة هو التجلى. فألحقوا عدداً من مرقس ٩ للإصحاح الثامن. قارن أيضاً (٢بط١: ١٦) «معاينين عظمته» بمعنى التجلى وإليه عزى قوة مجئ المسيح راجع أيضاً (١يو١: ١) و (٤: ١٤).

التجلي

لم يخبرنا أحد من البشيرين عن الأسبوع الذى تلا الحادث السالف الخالد. ولكنهم يذكرون فقط أنه "بعد ستة أيام" [١] قد أخذ الثلاثة الأعزاء من تلاميذه "وصعد بهم" وهذا التعبير فى اللغة الأصلية يشعر بالأهمية وبتوقع حدث خاص[٢] - إلى جبل عال أو كما أسماه لوقا البشير (الجبل) بالتعريف.

ولقد تغلغل فى تقاليد الكنيسة المسيحية أن الجبل المذكور هو جبل طابور، حتى أنه على هذا الإعتقاد قد بنيت هناك ثلاثة كنائس ودير قبل الجيل السادس.

كان الوقت مساء[٣] عندما صعد إلى الجبل. قد صعد ليستعد للموت فأخذ معه تلاميذه الذين إذ يرون مجد الإبن الوحيد للآب المملوء نعمة وحقاً قد تتحصن قلوبهم ويتقوى إيمانهم فلا يتزعزعون عندما يرون الخزى المشين والتحقير الذى لا يعبر عنه الذين للصليب.

هناك إذن ركع وصلى فإرتفع فوق متاعب وبؤس العالم الذى رفضه. وقد تغيرت هيئته أمامهم، وأضاء وجهه كالشمس، وإبيضت ملابسه كحقول الثلوج وأحاطته هالة من المجد المتألق اللامع، وإنبعث من وجوده ضياء إلهى حتى أن الثلج والنور والبرق[٤] كانت الأمور الوحيدة التى وصف بها البشير ذلك البهاء السماوى. وإذا بشخصين يحفان به![٥]

أما الأول فأتى من المدفن تحت عباريم الذى ختمته يداه من زمن بعيد، وأما الثانى فأتى من مكان

---

١ - (مت١٧: ١ - ١٣) و (مر٩: ٢ - ١٣) و (لو٩: ٢٨ -٣٦) "بنحو ثمانية ايام".

٢ - قارن (لو٢٤: ٥١).

٣ - هذا واضح من (لو٩ :٣٢، ٣٧) سيما اذا قورن مع (لو٦ :١٢).

٤ - (مت١٧ :٢) و (مر٩ :٣) و (لو٩ :٢٩) ومن الملذ أن نلاحظ أن لوقا إذ كان يكتب لليونان والرومان إبتعد عن كلمة «تجلى» التى إستعملها باقى البشيرين وكتب بدلاً منها «تبدل» لئلا يقرن قراءة الكلمة مع الأفكار السائدة فى كتابات نيكاندر وأنطونيوس ليباراليس وأوفيد الوثنية.

٥ - كلمة «وإذا» فى (مت١٧: ٣) تظهر أى تأثير بليغ قد أنطبع فى مخيلة الذين رأوا المنظر. (والشخصان اللذان ظهرا كانا نائبين عن الناموس والأنبياء. وكلاهما فارقا العالم بطريقة غريبة.... ومثل محدثهما العظيم قد إحتملا الصوم الخارق مدى ٤٠ يوماً وليلة. وهما أيضاً كانا على الجبل المقدس فى حضرة الله. وقد أتيا الآن بإحترام ورهبة ليضما فى يديه إلى الأبد بمظهر رمزى مجيد قوتهما الممنوحة والمنتهية).

الراحة الذى دخله بدون أن يرى فساداً. هنا وقف إلى جانبيه موسى وإيليا وتكلما عن موته. وعندما ختمت الصلاة، وإرتضى مصيره العتيد، وكما فى البداية وقف النجم على بيت لحم، حل عليه الآن مجد عظيم من السماء، وجاءت الشهادة على نبوته الدائمة وقوتة الثابتة إلى الأبد: "له إسمعوا".

ظاهر من خبر لوقا البشير الأكثر إفاضه أن التلاميذ الثلاثة لم يشاهدوا بدء هذا التجلى العجيب. والتلاميذ كما فعلوا بعدئذ فى جثسيمانى ناموا الآن. كانوا تعابى " فكانوا قد تثقلوا بالنوم".وفجأة[١] صحوا فى كامل يقظة الروح فرأوا وسمعوا.

فى ظلام الليل لمع شخص سيدهم الممجد وأرسل ضوءاً فائقاً على أعشاب الجبل. وإلى جانبه فى ذات المجد الذهبى[٢] كانت هيئتان كريمتان علموا أو سمعوا أنهما موسى وإيليا. وفى ذلك السكون الشامل تحدث الثلاثة عن الموت الوشيك فى أوروشليم الذى كان قد أنبا المسيح تلاميذه به.

وعندما بدأ هذا المنظر[٣] أن يزول، عندما أزمع الزائران العظيمان أن يفارقا إلههما، فبطرس - فى رغبته الحارة أن يعيقهما، متحيراً، مبهوتاً، مأخوذاً، غير عالم ما يقوله، طفق يقول "يارب حسن لنا أن نكون ههنا[٤]. أتشاء أن نصنع هنا ثلاث مظال واحدة لك وواحدة لموسى وواحدة لإيليا"

لم يجاوب يسوع على كلمات بطرس الغريبة الحالمة، إذ بينما هو يتكلم ظللتهم سحابة. ليست سحابة مظلمة كما فى سيناء، ولكن سحابة نيرة، "شكيناه" مضيئة، وصوت منها يقول "هذا هو إبنى الحبيب.... له إسمعوا"، فخافوا جداً وسقطوا على وجوههم فوق الأعشاب. ولما رجعوا إلى نفوسهم من صدمة هذا الصوت الرهيب وهذا الضوء العجيب، ورفعوا أعينهم ونظروا فيما حولهم[٥] فوجدوا أن كل شىء إنتهى. فالسحابة المضيئة قد إختفت، واللمعان الشبيه بالبرق للوجوه النيرة والثياب التى لا تقوى العين على النظر إليها قد مضت. وأصبحوا وحيدين مع يسوع والنجوم ترمى ضياءها الهادىء على جنبات الجبل.

١ – هذا ما أراه ترجمة لما ورد فى (لو٩ :٣٢) «تيقظوا فجأة».

٢ – (لو٩ : ٣١).

٣ – استعملت هنا الكلمة «المنظر» فى (مت١٧ :٩) وهذه الكلمة لم ترد فى العهد الجديد الا هنا وفى احد عشر موضعا فى سفر الاعمال للاحلام (اع ١٦ :١٠)، (١٨ :٩) وللرؤى (اع١١ :٥) ولأى مؤثر على الروح واضح مثل أى مؤثر على الحواس (اع ٧ :٣١).

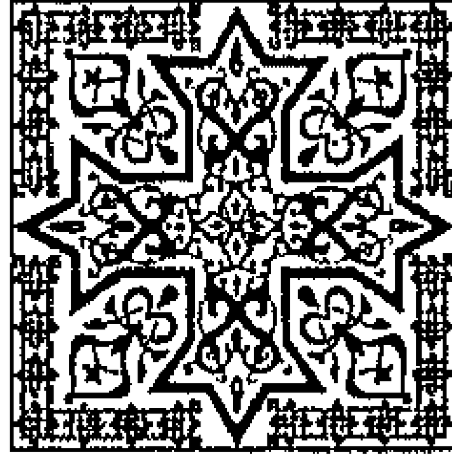
٤ –كلمة جيد فى العهد الجديد احيانا يكون لها معنى التفضيل فتكون بمعنى «أفضل» أو «أحسن».

٥ – (مر٩: ٨) قارن (مت١٧ : ٨) دليل على الصدق والبساطة.

وكانوا خائفين أن يقوموا أو يتحركوا، ولكن يسوع سيدهم - كما رأوه قبلاً راكعاً يصلي - جاء إليهم ولمسهم وقال "قوموا ولا تخافوا".

ونزلوا من على الجبل. وفيما هم نازلون أمرهم ألا يقولوا لأحد حتى يقوم من الأموات. أن المنظر كان لهم. فكان عليهم أن يتفكروا به في أعماق قلوبهم في تكتم مليء بإنكار الذات.

حفظوا أمر يسوع، ولكنهم لم يفهموا معنى ما قاله. وما وسعهم إلا أن يفكروا في نفوسهم أو يسائلوا بعضهم بعضاً عما هي هذه القيامة من الأموات. ثم أن سؤالاً آخر هاماً أشكل عليهم وثقل على قلوبهم. لقد رأوا إيليا، ولقد تأكدوا حقاً ويقيناً أن سيدهم هو المسيح، فلماذا يقول الكتبة ويدعمهم في هذا ملاخي النبي[1] إن إيليا هو الذي يأتي أولا ويرد لهم كل الأشياء؟ وحينئذ إقتادهم السيد بلطف وأراهم أن إيليا قد جاء وأنهم لم يعرفوه وقد ناله من أمته نفس النهاية التي ستصيب من شهد له. وحينئذ فهموا أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان.[2]



١ - (ملا ٤ :٥).

٢ - (لو ١: ١٧) بروح وقوة إيليا. قارن (مت ١١: ١٠) إنتظار اليهود لمجيء إيليا معروف «إلى مجيء إيليا» الذي سوف يرد لهم قدر المن وعصا هرون..إلخ. وبالإختصار يكون زمانه وقت إفتقاد قارن (أع ٣: ٢١)

الفصل السابع والثلاثون

الصبي المجنون

إن كل من طالع البشائر يرعى إنتباهه التباين بين السلام والمجد والاتصال السماوى فى أعالى الجبل، وبين التشويش والسخط وعدم الإيمان والألم، الأمور التى ميزت أول منظر وقعت عليه عيون يسوع وتلاميذه عند نزولهم إلى الأوساط البشرية الدنيا.

فى غيابهم حدث ما ملأ باقى الرسل إضطراباً وخوفاً، لأن جموعاً حاشدة، بينها كثير من الكتبة، ضيقوا الخناق بشدة بالجدل والغمز المقتدر على الباقين من أصدقاء يسوع المختارين(١).

وفى هذا المأزق لمحت الجموع يسوع فجأة، وكان فى منظره شيء من السلطان غير العادى والسرور البادى، فإمتلأوا دهشة وركضوا يسلمون عليه(٢). فسأل الكتبة بشده عما كانوا يتشاجرون بسببه هم والتلاميذ، فلم يتقدم أحد بالجواب، لأن الكتبة قد غمرهم الخزى، ولأن التلاميذ قد عرفوا ما فى نفوسهم من ضعف إيمان وعجز، وحينئذ زاحم الجموع رجل أتى وركع أمام يسوع، وصرخ بصوت عال(٣)، وقال إنه والد لإبن وحيد، إمتلاك الشيطان له يظهر فى صرع شديد بكل مضاعفاته الخطيرة مع خرس وشلل وميل جنونى للإنتحار. وقد أحضر المعذب المسكين إلى تلاميذه ليخرجوا منه الروح الشرير فعجزوا، فأثار هذا تعنيف الكتبة لهم ومشاجرتهم معهم.

وقد أحزن المنظر كله يسوع قلبياً "فأجاب وقال لهم أيها الجيل غير المؤمن إلى متى أكون معكم. حتى متى أحتملكم" ويظهر أنه عنى بصرخة الغضب هذه كل الموجودين ـ الجمع المستولى عليه الدهشة، والكتبة وتلاميذه المترددين ـ ثم قال: "قدموه إلىّ".

فأحضروا الصبى المنكود. وما كادت تقع عيناه على يسوع حتى أمسكته نوبة أخرى شديدة من مرضه فوقع على الأرض فى تشنج مريع، وصار يتمرغ والزبد يخرج من شفتيه. كان هذا أشد وأقتل نوع من الصرع الشيطانى مما جعل السيد أن يرأف بصاحبه(٤).

---

١ – (مر٩ : ١٤).
٢ – (مت١٧ : ١٤) و (لو٩: ٣٨).
٣ – (مت١٧ : ١٥).
٤ – (مت١٧ : ١٥).

وتريث قبل أن يعمل. أراد أن يجعل هذا المنظر بكل مخاوفه يؤثر على الجموع الصاخبة لكى يفهموا أن العجز لم يكن منه. وأراد فى الوقت ذاته أن يولد وينمى ويثبت إيمان الوالد الملتجىء المتألم.

"كم من الزمان مذ أصابه هذا"؟
"منذ صباه. ومراراً كثيرة يلقيه فى النار وفى الماء ليهلكه لكن أعنا ما استطعت وتحنن علينا"
فأجابه يسوع وقد رد إليه نفس كلمته "إن إستطعت أنت أن تؤمن فكل شيء مستطاع للمؤمن" [١].

وللوقت صاح الوالد المسكين الضعيف بدموع تلك الصيحة التى رددتها الملايين منذ ذلك الحين، والتى هى جد مناسبة للجيل الذى نعيش فيه الذى وصف بحق «أنه خال من الإيمان ولكن يرتجف هلعاً من الكفران»، صاح الوالد قائلاً: " أؤمن يارب فأعن ضعف إيمانى".

أثناء هذة المحادثة القصيرة تزايدت الجموع أكثر فأكثر، وإستدار يسوع للمتألم " قائلاً له: أيها الروح الأبكم الأصم. أنا آمرك أخرج منه. ولا تدخله بعد".

فصرخ الصبى صرخة أشد ما تكون قسوة، وتشنج بأشد ما يكون هولاً، ثم إنطرح على الأرض غير مرغ ولا مزبد بل ساكناً كالموت "حتى أن كثيرين قالوا أنه مات". ولكن يسوع أمسك بيده وأنهضه بين دهشة الجموع المتحيرة المبهوتة وسلمه إلى أبيه هادئاً معافى.

سبق أن أعطى يسوع تلاميذه موهبة إخراج الشياطين، بل قد إستعمل هذه القوة باسمه بعض من ليسوا من تلاميذه الأصليين[٢]. ولم يعجز الرسل أبداً قبل هذه المرة. وعلى ذلك كان طبيعياً أن ينتهزوا أول فرصة ينفردون فيها معه ليسألوه عن سبب خيبتهم. فأخبرهم صراحة أن السبب فى ذلك كان عدم إيمانهم. وإتخذ يسوع هذه الفرصة ليعلمهم درسين عظيمين. الأول أنه توجد أنواع من الشرور الروحية والجسدية والعقلية شديدة، من الصعب أو من المستحيل الإقلاع عنها حتى أنها لا تطرد إلا بالصلاة وضبط النفس وإنكارها، والصوم فى هذا هو أشد الأمور فاعلية وأقواها أثر[٣]. والدرس الثانى أن كل شيء مستطاع مع الإيمان الكامل ولو كان مثل حبة الخردل فإنه يأمر حتى الجبل[٤] أن ينتقل ويطرح

١ - (مر٩: ٢٣).
٢ - (مر٩: ٣٨).
٣ - (مر٩: ٢٩) و (لو٩: ٢١).
٤ - «نقل الجبال» كان مجازا شائعا عند اليهود يفيد التغلب على المصاعب الجسام. وكانوا يطلقون على المعلم الماهر «مقتلع الجبال».

وسط أمواج البحر العظيم فيطيع.

كان يسوع قد وصل الآن فى تجوله إلى أقصى حدود الأراضى المقدسة الشمالية، فابتدأ يعود موجهاً خطواته شطر موطنه. ونرى من بشارة مرقس إنه رتب أن تكون عودته سرية مخفاه، ربما ليس بالطرق العامة المعتادة، ولكن بين التلال والأودية التى فى شمال الجليل، إلى أن جاء إلى التخوم غرب الأردن. لم يكن قصده بعد الآن تعليم الجموع التى قد أغويت لرفضه، والتى لم يعد يستطيع أن يظهر بينها بأمان.

ولكنه توفر على متابعة ذلك الجزء الآخر والأهم فى عمله وهو تهذيب وتدريب تلاميذه، وصار أهم موضوع تردد فى تعليمه هو قرب تسليمه وموته وقيامته. ولكنه تكلم إلى قلوب ثقيلة الفهم أعماها التعصب المغروس عميقاً، فتجاهل التلاميذ تحذيراته البينة، وأخافهم الجبن غير المؤمن، فلم يطلبوا أو يسألوا إيضاحات أزيد. ونحن لا يمكننا أن نرى ونتبين التغيير الكبير الذى أحدثته فيهم القيامة إلا بملاحظة أنهم قد دونوا بصدق وصراحة مدى وتأصل عدم فهمهم لأقواله فى هذه الأيام الثمينة التى كان السيد موجوداً فيها بينهم.

والشيء الوحيد الذى يظهر أكيد أنهم تحققوه أن أمراً غريباً هاماً خالداً سيكتنف حياة السيد، وأنه سيصحب ذلك إزدهار عظيم فى مملكة المسيا. وهذا للأسف قد أثر فيهم التأثير الوحيد الذى ما كان يجب أن يكون. فبدلاً من أن يكون داعية لزيادة وتقوية إنكارهم لذواتهم فقد أيقظ طمعهم وطموحهم، وبدلاً من تدعيم محبتهم ووداعتهم أثار حسدهم وكبرياءهم. فتناقشوا فى الطريق بعضهم مع بعض. وتساءلوا " **أيهم العظيم بينهم**" ؟

ولم يعر السيد هذا الشجار إلتفاتاً للتو، بل تركهم برهة لحكم ضمائرهم، حتى إذا وصلوا كفر ناحوم ودخل البيت "**سألهم فيم كنتم تفكرون فى الطريق**" [١].

"فصمتوا" فى خزى عميق وكان الصمت أبلغ إعتراف بمطامعهم الخاطئة. حينئذ جلس وعلمهم ثانية كما سبق أن فعل مراراً أن من يريد أن يكون أولا يجب أن يكون آخر الكل وخادماً للجميع، فطريق الرفعة هو الإتضاع. وإذ أراد أن يثبت هذا الدرس بمثال فريد فى رقته وجماله دعا صبياً صغيراً وأقامه فى الوسط، ثم أخذه بين ذراعيه، وحذرهم بأنهم إن لم يتضعوا ويصيروا مثل ذلك الصبى الصغير لا يدخلون ملكوت السموات. يجب أن يكونوا فى العالم كأطفال. وعلمهم أن من يقبل أحد هؤلاء

---

١ - راجع ما يأتى (مت ١٨ :١ - ٣٥) و (مر٩ :٣٣ - ٥٠) و (لو٩ :٤٦ - ٥٠) التى اعتقد انها حديث واحد متصل لنفس الحادثة كتبه بايضاحات مختلفة البشيرون الثلاثة.

الأصاغر بإسمه فقد قبل المسيح والآب الذى أرسله.

ويظهر أن كلمة «باسمى» أوحت إلى يوحنا البشير سؤالاً مفاجئاً قطع به كلام السيد. لقد رأوا رجلاً يخرج الشياطين باسم المسيح لكنه ليس منهم فمنعوه، فهل كانوا على صواب؟

فأجاب يسوع " لا تمنعوه". من يعمل أعمال رحمة باسم المسيح لا يستطيع أن يتقول شراً على هذا الاسم. من ليس ضدهم فهو معهم.

وعاد يسوع بلطف إلى حديثه، والطفل مازال بين ذراعيه، يشير إليه فى ملاحظاته. فحذرهم من الإجرام المريع والخطر الشنيع فى إساءة أو تضليل أو تجربة أو غواية أحد هؤلاء الصغار عن طريق الطهارة والحق، أو تعليمهم أى أمر ردىء، أو الإيحاء لهم بأى فكر شرير، لأن ملائكتهم يرون وجه الآب فى السماء. أما أولئك الأشرار المعثرين، أولئك الناس الذين يتمون عمل الشيطان، فإن آخرة مريعة تنتظرهم، وخير لهم لو علق فى أعناقهم أثقل حجر رحى ويطرحون فى البحر[١]. وكانت لغة كلماته هذه أشد مرارة وأعظم أهمية مما سبق أن تحدث به.

وإستمر فى تحذيره لهم مبيناً أن أية تضحية مهما عظمت يجب أن تهون إذا ساعدتهم على الهروب من أية تجربة تقيم حجر عثرة فى طريق نفوسهم أو نفوس الآخرين. فان أعثرتك يدك اليمنى فاقطعها، فخير أن تدخل السماء أعسم، وأفصل الرجل اليمنى وأقطعها، فخير أن تدخل السماء أعرج، وأقلع العين اليمنى، فخير أن تدخل السماء أعور، من أن تبقى على اليد أو الرجل أو العين عمالاً للاثم فطعاماً للدود الذى لا يموت ووقوداً للنار التى لا تطفأ. خير أن يغرق المرء بحجر الرحى المعنوى، أى التجارب التى لا يقاومها والتى تغرق الروح المجرمة فى بحيرة النار والعذاب واليأس. وكما أن الملح يرش على الذبيحة لتطهيرها، يجب أن تمتحن كل نفس بالملح، أو تمحص بالنار، أو بكليهما، بملح صدق الله تفحص النفس بواسطة التعقل والضمير، وإلا فانها ستمحص بنيران حكم الله العادل، النيران الممحصه التى تعفى من النيران المهلكة.

فليكن لهم هذا الملح المنقى المطهر، الفاحص للنفس، القاسى على النفس. وليتبصروا حتى لا يفسد هذا الملح أو يفقد ملوحته، وإلا احتاج الأمر لنيران الله المؤلمه الشديدة[٢]. " فليكن فيكم ملح وسالموا

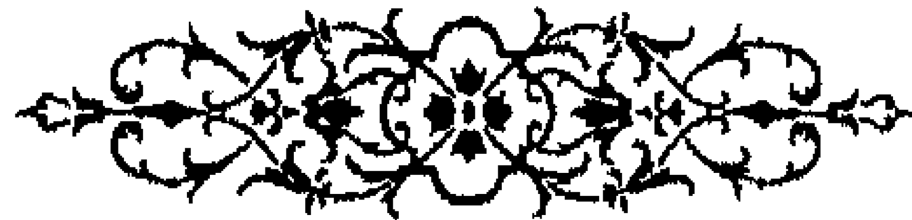
١ - «حجر الرحى» (مت١٨ :٦) و (لو١٧: ٢) أى حجر الرحى الأعلى الثقيل جداً، لدرجة انه يستعان على ادارته بحمار.

٢ - (اش٣٣: ١٤، ١٥).

بعضكم بعضاً".

ولكى يثبت فيهم وجوب السلام المتبادل الذى كسروه، وأنه مهما كان غضب الله ضد الذين يعثرون الآخرين، فانه لا يجب عليهم أبداً أن يكنوا أية بغضه حتى لأولئك الذين يسيئون إليهم ويضرونهم، بل يجب أن يصالحوا. أولاً بالإستعطافات الخاصة، وإلا فبالالتجاء العلنى. بكل لطف وحزم ـ كل أخ يخطىء إليهم.

وبطرس، بروح يهودية حقة ميالة للتقييد، أراد أن يحدد عدداً معيناً للمرات التى يوهب فيها التسامح[1]، فعلمهم يسوع أن مرات التسامح لا نهاية لها. وقد أوضح ذلك بمثل جميل عن الخادم الذى سامحه الملك فى دين عشرة آلاف درهم، والذى للوقت أمسك بعنق خادم رفيقه ولم يشأ أن يسامحه فى دين بسيط حقير لا يتجاوز المائة سحتوت، وهو مقدار لا يتجاوز واحد فى المليون مما سومح هو فيه. وربما يكون قد فهم الصبى وهو بين ذراعى يسوع هذا المثل، ولكن أى عمق لا يقدر يجب أن يكون معناه لنا ـ نحن الذين تعلمنا منذ الحداثة حبه الكفارى ـ معنى يفوق عما كان فى الوقت الذى قيل فيه حتى لبطرس أو يوحنا.



١ – القاعدة الحاخامية تسمح بالغفران الى ثلاث مرات. قارن (عاموس١ : ٣) و (أى٣٣: ٢٩).

راحة قصيرة في كفرناحوم

حادث آخر وقع أثناء إقامة يسوع القصيرة فى كفر ناحوم دونه متى البشير وحده[1].

منذ القدم كانت العادة جمع النقود الفينة بعد الفينة للهيكل. وكان هذا يحدث على الأقل عقب كل تعداد، فتجمع الضرائب، نصف شاقل عن كل يهودى بلغ العشرين من العمر فدية عن روحه للرب[2]. وكانت هذه النقود تخصص لخدمة الهيكل ويصرف منها فى شراء التقدمات مثل التيوس والوعول الحمر والبخور وخبز التقدمة وباقى لوازم خدمة الهيكل. وبعد الرجوع من السبى تضاءل نصف الشاقل هذا إلى ثلث شاقل[3]، وصار دفعه إختيارياً. ولكن بعد ذلك رجعت الضريبة إلى قيمتها الأصلية، وتحتم أن يدفعها كل يهودى فى أى بقعة من الأرض، غنياً كان أم فقيراً. وإذ أن تشريعها قد سن أولاً لإظهار مساواة النفوس جميعاً عند الله فقد أمر أن " الغنى لا يكثر والفقير لا يقلل". وبهذه الوسيلة كان يجمع قدر عظيم من المال يحمله إلى أوروشليم رسل شرفاء.

كانت هذه الضريبة إجبارية. وتطلب فى أول آذار بهدوء وأدب فإن لم تدفع إلى اليوم الخامس والعشرين كان جامعوا الضريبة «طوبهين شيقليم» يأخذون رهناً كضمان من المتأخرين.

وعلى ذلك فبمجرد عودة السيد إلى كفر ناحوم تقدم أولئك «الطوبهيين شيقليم» بمنتهى الأدب حسب تعاليم الحاخامين إلى بطرس الرسول "وقالوا له أما يوفى معلمكم الدرهمين" [4].

وسؤالهم لبطرس بدلاً من يسوع أحد الدلائل المتعددة على الرهبة التى كانت تملأ قلوب ألد أعدائه لا سيما وأن هذا الطلب على الأغلب قد كان رغبة منهم فى إغاظته وتجاهل مقامه. وبطرس بإندفاعه العجول كعادته بدون أن ينتظر ليستشير سيده كما كان يجب أن يفعل، أجابهم وقال "بلى".

---

١ - (مت١٧: ٢٤ - ٢٧).

٢ - (خروج٣٠: ١١ - ١٦).

٣ - (نحميا١٠: ٣٢).

٤ - كان الدرهمان عملة يونانية توازى نصف الشاقل تماماً. أما الإستار أو العملة الفضية لأربعة دراهم فكانت توازى الشاقل.

ولو أنه تريث برهة، أو لو أنه علم أكثر، أو لو أنه تذكر إعترافه العظيم الذى فاه به منذ قليل، لما أجاب بهذه السرعة. لأن هذه النقود كانت تجبى فى الأصل فدية عن نفس كل إنسان[١]. فكيف يدفع الفادى ـ الذى فدى كل النفوس بفدية نفسه ـ كيف يدفع فدية نقدية عن نفسه؟ وكانت هذه النقود تجبى لخدمات الهيكل فكيف يحق إذن دفعها من ذاك الذى هو رب الهيكل الذى كان سيدخل إلى حجاب قدس الأقداس بفدية دمه، ولكنه دفع مالم يكن به مديناً لكى يخلصنا من الدين الذى علينا، والذى ما كنا نستطيع وفاءه أبداً.[٢]

وعندما دخل بطرس إلى المنزل ـ ربما عارفاً فى ذلك الوقت أن إجابته كانت سابقة للأوان، وربما أيضاً متذكراً فى هذه اللحظة أن صندوقهم الصغير لا يحتمل هذا الطلب القليل ـ وقبل أن يعلن حيرته "سبقه يسوع قائلاً ماذا تظن يا سمعانِ ممن يأخذ ملوك الأرض الجزية أو الجباية أمن البنين أم من الأجانب"؟

لم يكن هناك إلا جواب واحد: "من الأجانب".

"أجابه يسوع إذن البنون أحرار". وأنا ابن الملك الأعظم، وأنت أيضاً إبن له على وجه آخر، فنحن غير ملزمين بدفع الجزية. وإن دفعناها فلن يكون هذا إجبارياً كما قرر الفريسيون أخيراً، ولكن ندفعها عن إختيار ونعطيها بسرور.

وقال بهدوء: "ولكن لئلا نشككهم.." أى لئلا نقيم الصعاب أو نضع حجر عثرة أمامهم "أمض إلى البحر وألق صنارتك وأول سمكة تطلع خذها وإذا فتحت فاها تجد إستاراً فخذه وأعطهم عنى وعنك[٣]".

دفع الجزية لئلا يجرح إحساسات أى إنسان، وأيضاً لأن تلميذه وعد بها نيابة عنه. ولكنه لم يدفعها بطريق عادى، وإلا إتخذ هذا دليلاً على قبول المبدأ. وفى إطاعته لقوانين الوداعة والإحسان أطاع أيضاً قوانين الكرامة والحق.

---

١ – (خروج ٣٠: ١١، ١٢).

٢ – قارن (مز ٦٩: ٥) وعظات اوغسطينوس.

٣ – «عنى وعنك» أى «بدلاً» لأنها كانت نقود فدية ولم يقل «عنا» لأنها دفعت لسببين مختلفين بإختلافهما.

الفصل التاسع والثلاثون

يسوع في عيد المظال

حل الخريف، وكان كل الجليل على قدم وساق إستعداداً لما يسبق بدء الرحلات السنوية إحتفاء بعيد من الأعياد الثلاثة الكبار، عيد المظال[1]. وهذا العيد، عيد الحصاد، كان يقصد به ذكرى إرتحال الإسرائيليين فى البرية.

وكان يحتفل به سبعة أيام متتالية من الخامس عشر إلى الحادى والعشرين من شهر تشرين ويختم فى اليوم الثامن بخدمة دينية.

فى أمسية السفر لهذا العيد تقدم بعض الأقارب من عائلة يسوع، وهم من يدعوهم الإنجيل مراراً «أخوته» أتوا إليه بلغة النقد وعدم الرضى، بل بما يقرب من الشكاية والتوبيط، متسائلين عن الغرض من هذه السرية غير المفهومة، غير المتعقلة. وكأنهم يقولون: (أنها تضاد ما تعلنه، إنها تضعف شجاعة أتباعك. إن لك تلاميذاً فى اليهودية فإذهب إلى هناك ودعهم يرون أعمالك التى تعملها). **"إن كنت تعمل هذه فاظهر نفسك للعالم"**.

وإذ كانت هذه هى اللغة التى إستعملوها مع سيدهم وربهم، وإذ كانوا يطالبون بإظهار قوته بالبرهان، فمن الجلى أن معرفتهم له كانت قاصرة محصورة. استحقت تلك الجملة التفسيرية التى كتبها التلميذ المحبوب: " لأنه ولا أخوته أيضاً كانوا يؤمنون به". كان أجنبياً عند أخوته[2].

كان فرض أوامرهم عليه ـ وهو الثمر المر للكبرياء العجولة والجهالة غير الروحية ـ يستحق اللوم الشديد. ولكن السيد أجابهم بهدوء ولطف وكرامة: « إن وقتى» لأعلن ذاتى للعالم الذى هو عالمكم أنتم أيضاً، والذى لا يستطيع لذلك أن يبغضكم كما يبغضنى «لم يحن بعد» **" فأصعدوا أنتم إلى العيد أما أنا فلست أصعد إلى هذا العيد لأن وقتى لم يكمل بعد[3] ولما قال هذا مكث هو فى الجليل"**.

---

١ – راجع تفصيلات هذا العيد فى (عدد٢٩ :١٢ – ٣٨) و (نح٨: ١٥) و (٢مكا١: ٦ – ٧) و (خر٢٣: ١٦) و (لا٢٨: ٣٤ – الخ) و (تث١٦: ١٣ – ١٥).

٢ – (مز٦٩: ٨) و (يو٧: ١ – ٩).

٣ – الكلمة الأصلية المترجمة «لست» تحمل معنى الحاضر فيكون المعنى الحرفى «لست الآن أصعد» أى «لست أريد الآن أن أصعد».

"أما أنا فلست أصعد إلى هذا العيد". هذه الكلمات يزيدها إيضاحاً ما هو وارد فى اللغة الأصلية مما يجعل المعنى الحقيقى «أما أنا فلست أصعد إلى هذا العيد بعد»

وحتى لو كانت كلمة «بعد» ليست واردة هنا فى اللغة الأصلية فإن كلمة بعد الواردة فى تكملة الآية "لأن وقتى لم يكمل بعد" تدل بوضوح على أن هذا الوقت آت. ولا يريد أن يعلم أخوته الذين ظهر للأسف إفتقارهم التام للعطف والإحترام متى يكون ذلك الوقت. وكان هناك سبب لهذا. كان ضرورياً لأمان حياته التى ما كانت تنتهى قبل ستة شهور من الآن، كان ضرورياً لإتمام مقاصده الإلهية التى إرتبطت وحوادث الأيام القليلة المقبلة، أن لا يعلم أخوته شيئاً عن خططه. ولهذا تركهم يصعدون إلى العيد وهم فى أتم شك إن كان مزمعاً أو غير مزمع أن يتبعهم. كان من المحقق أن تسألهم الجموع إن كان آتياً إلى العيد. وكان من الضرورى أن يجيبوا بصدق كامل أنهم يعلمون أكيداً أنه ليس آتيا معهم، أما إن كان سيأتى أو لا يأتى قبل إنتهاء العيد فلا يعلمون. أما أن هذا قد حدث وأن هذا كان جوابهم فواضح من السؤال الذى تردد وطن من أذن لأخرى فى تلك الشوارع المزدحمة البهيجة "أين ذاك" (يو٧:١١). هل جاء؟ هل سيأتى؟ وإذ أنه لم يظهر فقد بدأت الجموع تتحدث عن شخصيته وعن كرازته. كانت كلمات الإعجاب به «أنه صالح» قليلة وجبانة أما كلمات الحكم ضده «كلا، بل أضل الجميع» فكانت مرة وأكيدة. إنه مسيح كذاب. "ومع ذلك لم يتكلم أحد عنه جهاراً" لأن كل واحد كان يخشى جاره والجميع خافوا أن يزجوا بأنفسهم فى موضوع لم يعلن (اليهود) أى رؤساء الكهنة والفريسيون رأيهم النهائى فيه.

وفجأة وسط هذه الهمسات والمجادلات، عند إنتصاف العيد، غير مصحوب بأتباعه، غير ممهد لحضوره من أقربائه، ظهر يسوع فى الهيكل "وكان يعلم".

ومكثوا برهة ينصتون وقد ملكتهم الرهبة فى سكون ولكن سرعان ما عاودتهم وساوسهم أنه ليس نبياً رسمياً ولا ينتمى إلى مدرسة رسمية "كيف هذا يعرف الكتاب ولم يتعلم"؟

وقد فهم يسوع نظراتهم وترجم همساتهم وقال لهم إن تعليمه من أبيه السماوى. وأنهم هم أيضاً لو علموا مشيئة الله لتعلموا وفهموا هذه الدروس العالية.

لذلك قال يسوع لسامعيه إنهم فى ذات الوقت الذى يعلمون فيه الناموس الذى أعطاه موسى، يجهلونه إلى حد كبير، ولا يستطيعون فهم مبادئه، لأنهم لم يكونوا أمناء فى العمل بالناموس[1]. وحينئذ

١ - قارن (يو١٤: ١٥) و (يو١٤: ١٦، ١٧، ٢٠، ٢١) و (أيوب٢٨: ٢٨).

سألهم علانية "لماذا تطلبون أن تقتلونى"؟

نية قتله كانت معلومة بالتأكيد لديه ومعلومه لبعض من الذين سمعوه ولكنها كانت سراً مجرماً مخفى عن أغلبية الجموع. وهؤلاء هم الذين أجابوا بينما إستمسك الآخرون بسكوتهم الآثم "أجاب الجمع[1] وقالوا بك شيطان. من يطلب أن يقتلك"

ولم يعر يسوع وقاحتهم الثقيلة انتباها بل ذكرهم بمعجزة الشفاء التى صنعها فى السبت، والتى ما زالوا مندهشين مبهوتين منها.

ويسوع الذى كان دائماً يكرز بدرس المحبة لا بعبادة الحرف، وأن فى هذا وحده إتمام الناموس، أوضح لهم أنه حتى على قياس مبادئهم اللاوية والطقسية لم يكن فى كلمات الشفاء التى نطق بها كسر للسبت من أى وجه.

فحتى موسى أسس أو على الأصح أعاد أساس وجوب الختان فى اليوم الثامن. فإن صادف أن يكون اليوم الثامن سبتً كانوا يضحون بهذه الوصية فى سبيل إتمام الختان ويعملونه يوم السبت رغماً عن الجهد الذى يستنزفه. فإن كان قانون الختان تغلب على قانون السبت فلماذا لا يتغلب قانون الرحمة؟ إن كان صواباً أتيان بعض أعمال متتابعة فى عمل هذا الجرح فهل كان خطأ بكلمة واحدة منح الشفاء التام؟ إن كان الختان الذى هو على أحسن تقدير رمزاً للخلاص لا يمكن تأجيله ولو يوماً واحداً حتى ولو كسر السبت فلماذا يعتبرونه إجراماً عدم تأجيل خلاص حقيقى كامل؟ وحينئذ أجمل دفاعه عن نفسه بكلمة فريدة هادئة "لا تحكموا بحسب الوجوه بل أحكموا حكماً عادلاً" [2] أى بدل إقتناعكم بهذه الطريقة السطحية للنقد تعالوا ولو مرة واحدة لتقرير قاعدة عادلة للحكم.

ولقد تحير سامعوه وبهتوا وقالوا " أليس هذا هو الذين يطلبون قتله؟... ألعل... هذا هو المسيح؟" لا يمكن أن يكون لأننا نعلم من أين أتى هذا "أما المسيح فمتى جاء فلا يعلم أحد من أين هو".

كان هناك بعض التهكم فى جواب يسوع. قال لهم أنهم يعلمون من أين أتى ويعلمون كل شيء عنه، ولكن فى الحقيقة يجهلون إنه لم يأت من نفسه بل أتى ممن لا يعرفونه. هذه الكلمات أهاجت جنون بعض سامعيه فأرادوا أن يلقوا عليه الأيدى ولكنهم خافوا أن يمسكوه سيما لأن بعضاً قد أقنعتهم هذه

---

١ – (يو٧: ٢) «أجاب الجمع» لا اليهود.

٢ – (يو٧: ٢٤) «بل أحكموا» معناها الأصلى «بل أحكموا مرة واحدة».

الكلمات ووجدوا في أعاجيب السيد المتعددة براهين لا تدحض على صدق إعلاناته. أما أعضاء السنهدرين فكانوا مجتمعين في جلسات متتابعة في الإيوان الصخرى في الحرم القريب من الهيكل يطلعهم جواسيسهم على كل ما يفعل أو يقول. وكانوا بدون أن يظهروا بمظهر المراقبين له، يلاحقون كل حركاته بعيون خبيثة حاسدة. فرأوا في التهامس بهذه المجادلات الحسنة في حقه وفي الخوف منه، وفي الإيمان به الذى يتزايد رغم سلطانهم وتحت بصرهم، تحقيراً لهم وخطراً عليهم. لذلك قرروا خطة للعمل أجرأ. فأرسلوا خداماً ليقبضوا عليه خفية في أول فرصة تسنح. ولم يعتر يسوع خوف. كان سيبقى معهم زماناً يسيراً أيضاً، وبعد نهاية هذا الزمان - وليس قبل نهاية هذا الزمان - سيمضى الى الذى أرسله[1]. وحينئذ سيطلبونه - سيطلبونه ليس بمقاصد عدائية كما يفعلون الآن بل بكل آلام الندامة والخزى السحيقة - ولكنهم لن يجدوه بل يطلبونه بدون جدوى. ولم يفهم أعداؤه بتاتاً ما رمى إليه. ولكنهم سيفهمون ذلك جيداً وبمرارة قاسية في الأيام المضطربة الشنيعة الآتية. وقنعوا بما صورته لهم أفكارهم الهازئة أنه ربما قد إعتزم أن يذهب ويعلم بين الأمم[2].

وهكذا مضى هذا اليوم الخالد. وفي اليوم الأخير من العيد وقف يسوع في الهيكل. في كل من الأيام السبعة وربما أيضاً في اليوم الثامن كانت تقام حفلة خاصة وخدمة مفرحة.

إنتهز يسوع تعطش جموع المعيدين في الهيكل - كما عمل مع المرأة السامرية عند البئر المنعزل - فأظهر لهم الحق الجديد الذى يكمل المعنى الروحى (اش ١٢ :٣)، والمعنى التاريخى (١كو١٠:٢٤) للمنظر الذى رأوه، فوقف **"وصاح قائلاً من يعطش فليقبل إلى ليشرب. ومن يؤمن بى كما قال الكتاب تجرى من بطنه أنهار ماء الحياة"** [3]. وشعر أفضل من في الجمع داخلهم. إنهم في أشد الحاجة لعزاء وخلاص حلول الروح القدس، وإن الذى يتكلم معهم هو وحده الذى يستطيع أن يمنحهم إياه. وبدأوا يتحدثون عنه ويعلنون أنه النبى والمسيح، ولكن هذا أهاج حفيظة الآخرين. لقد خلقوا لأنفسهم صعوبة مؤسسة على جهلهم التام للحقائق لم يستطع ذهنهم الضيق المتعصب أن يتغلب عليها. "قالوا هل يأتى المسيح من الجليل"؟ " ألم يقل الكتاب[4] أنه من نسل داود يأتى المسيح من بيت لحم"؟

---

١ - قارن (يو٨: ٢١).

٢ - «الأمم» معناها «شتات اليونانيين» (يو٧: ٣٥).

٣ - قارن (أش٤٣: ٢٠) و (١١:٥٨) و (١:٥٥) و (٣:١٢) و (يو١٤: ١٤) و (٣٥:٦) و (رؤ٢٢: ١٧).

٤ - (ميخا٥: ١٢) و (اش١١: ٥٠) و (ارميا٢٣: ٥ - الخ).

أثناء هذا الإختلاف فى الرأى بين الجموع عاد الخدام الذين أرسلهم الفريسيون ليلقوا القبض على يسوع بدون أن يجتهدوا حتى فى تنفيذ خطتهم.

إذ وقعت على آذانهم بعض الكلمات الإلهية التى فاضت من بين شفتيه. وإذ سمعوا لم يستطيعوا أن يتموا مأموريتهم. وقع عليهم تأثير مقدس لم يتمكنوا من مقاومته، ذلك لأن الإستماع ليسوع لم يكن فقط يرغم على التخاذل فى عمل أى مقصد ضده بل أن خوفاً ورهبة كانا يبدلان ألد الأعداء إلى شبه تلاميذ له. وكانت الحجة التى لم يستطيعوا تقديم سواها أنه "لم يتكلم قط إنسان هكذا". ولا شك أن جرأتهم فى عدم إطاعتهم للأوامر الصريحة جعلتهم يخشون على أنفسهم وأن يخافوا النتائج المترتبة على مخالفتهم. ولكن الطاعة للأوامر كانت تتطلب جرأة أزيد بكثير مما لهم. ناهيك بالجرح الناتئ الذى يوخز به صاحب ضمير مستيقظ إذا حاول إرتكاب جريمة، أما الفريسيون فقابلوهم بتعنيفات حانقة "قائلين ألعلكم أنتم أيضاً قد ضللتم"؟

أتريدون أنتم أيضاً إن تتبعوا نبى الجهلاء المحبوب من الملعونين والجموع الخاسئة المنكودة؟ وحينئذ تشجع نيقوديموس وأدلى بكلمة عن وجوب الإستماع إلى يسوع أولاً قبل أن يحكم عليه. لكن لم يكن لديهم جواب لعدالة هذه القاعدة فرجعوا إلى توبيخاتهم " ألنت أيضاً من الجليل" ؟ وعادوا إلى التعصب الجاهل القديم قائلين "إبحث وأنظر. إنه لا يقوم نبى من الجليل".

ليس هناك جهل أشنع من الجهل الذى يرفض التعليم، ولا عمى أقل نجاحاً فى الشفاء من العمى الذى يصر صاحبه على عدم الإبصار.

بهذه الروح التى تجاهلت سنة العدالة التى قدمها نيقوديموس وتجاهلت الأثر الغريب الذى أثر به يسوع على خدامهم المعادين له، إنفض مجلس السنهدرين بدون قرار، وذهب كل عضو منه إلى منزله.



الفصل الأربعون

المرأة التى أمسكت فى زنا

من الصعب أن نصل إلى نتيجة حاسمة عن زمان الحادثة الشهيرة التي نتحدث عنها، وعن مكانها الحقيقي في ترتيب الحوادث[1] مع ما يكتنفها من صعوبات.

عند إنتهاء اليوم المذكور في الفصل السالف مضى يسوع إلى جبل الزيتون. ولأنه ليس له أين يسند رأسه. نام ببساطة على طريقة الشرقيين فوق الأعشاب الخضراء تحت أشجار الزيتون العتيقة.

وعند الفجر دبر أعداؤه مؤامرة جديدة ضده، ظروفها جعلت مكرهم أشد إيلاماً له أكثر مما قصدوا أن يكون خطراً عليه.

ويبدو أن المرح وترك الحبل على الغارب في عيد المظال، كانا يؤدى أحياناً إلى أعمال طائشة، مبتذلة، إباحية، أتاحتها الفرص المتعددة الناجمة عن التبدل الكلى في كيفية المعيشة وسكنى الناس جميعهم في المظال. وعمل من هذه قد كشف في الليلة السالفة ووقعت المرأة الآثمة في أيدى الكتبة[2] والفريسيين.

إن الروح التى كانت تحرك هؤلاء الكتبة والفريسيين لم تكن بأى حال من الأحوال روح الإخلاص التى للطهارة المستتارة. فلقد تفشى الفساد تماماً في أخلاق الشعب تبعاً لانحطاط الحياة العامة، ومن المعاشرة اليومية مع الوثنيين ومخالطة فسادهم، ومن الإنحراف التدريجى من التمسك بالعبادة القلبية إلى التشبث بالتقاليد اللاوية.

ولذلك أبطل نظام مياه الغيرة[3] وانمحى منذ زمن بعيد وترك عقاب خطية الزنا بالرجم من عهد طويل بل نسى من عدم العمل به. ولم يكن لدى الكتبة والفريسيين ـ مع تظاهرهم الخارجى بالتمسك بالدين ـ أدنى اشمئزاز حقيقى من هذه النجاسة التى كثيراً ما لطخت حياتهم. فلم يروا فى هذه الحادثة

---

١ – (يو٨: ١٥، ١٧، ٢٤، ٤٦).

٢ – من الملاحظ أنه لا يوجد في موضع آخر غير هذا فى بشارة يوحنا ذكر فيه الكتبة ضمن أعداء المسيح (ولو أن البشيرين الثلاثة كثيراً ماذكروهم على هذا النحو).

٣ – (عدد٥: ١٤ –٢٢).

التى وضعت المرأة الآثمة تحت سلطانهم سوى فرصة لاغاظة وإيقاع ذلك النبى الجليلى - الذى سبق فاعتبروه ألد أعدائهم - فى مكيدة وربما فى خطر.

كانت عادة اليهود ان يستفتوا الحاخاميين العظام فيما صعب من الأمور أو فيما اكتنفه الشك. ولم تكن هنا لا صعوبة ولا ريبة. لقد مضى زمن طويل على ابطال ناموس موسى بخصوص إماتة الزانية، فلم يعمل به ولم يطبق بالقوة. وإن لم يكن قد أبطل فالقانون الرومانى السارى كان يمنع إتمامه. وما كانت حالة هذه المرأة تختلف عن حالة أية أمرأة أخرى أخطأت مثلها. ولو أنهم أرادوا بإخلاص أن يعرفوا رأى يسوع فما كان هناك أى داع لتعريض المرأة لهذا الرعب البالغ الحد وهذه العلنية الفاضحة، وجرها من مكان التلبس فى الحال إلى المكان المقدس، غير حُجبة الوجه أو مرجلة الشعر، بلا نصير، وقد ملكها الخوف من حب استطلاع بارد شهوانى لحشد خبيث، واتخاذها دون أعتبار قط لآلامها الشخصية أداة ووسيلة مسخرة لأذكاء حقدهم ضد يسوع.

على هذه الصورة جروها إليه وأوقفوها فى الوسط وكما لو كانت قلوبهم خالية من الغل الدفين له ابتدأوا بمرح وسخرية متسترة بدثار الإهتمام أن يقدموا قضيتها أمامه "وقالوا له يامعلم هذه المرأة وجدناها فى زنى وناموس موسى يأمر أن ترجم[1] فماذا تقول أنت؟"

ظنوا أنهم أوقعوه فى مأزق حرج. كانوا يعلمون شفقته الألهية الفياضة، التى تحب بينما يكره الآخرون، وتمتدح بينما يهزأ الآخرون، وتشجع بينما يحطم الآخرون.

كانوا يعلمون أن بين تلاميذه عشاراً، وأنه جلس على المائدة مع خطاة، وأن امرأة خاطئة لم ينتهرها غسلت قدميه وأصغت إلى حديثه. فهل سيترك هذه المرأة ايضاً فيكون عرضة لتهمة الكفر إذ يضع ذاته فى مخالفة صريحة لناموس موسى المقدس النارى؟ أو هل سيخون شفقته ويقسو ويحكم؟ إن فعل، أفلا يغضب الجماهير التى جذبها عطفه ويثيرهم فيعرض نفسه لدى الحكام الرسميين لتهمة إذكاء الفتنة؟ كيف يمكن بأية وسيلة ان يخرج من هذا المأزق؟ فأمامه إذن إما الكفر أو الخيانة، إما محاكمته أمام السنهدرين أو تسليمه للحاكم. فأى فرصة سعيدة موفقة قد أتاحتها لهم هذه المرأة المسكينة الآثمة!؟

فانقبضت نفسه حزناً على أمته وجنسه، وتألم ليس من أجل الخطاط المتهمة التعسة التى كساها الخجل، ولكن من أجل جريمة متهميها الذين قد تعروا من الخجل! وحمى غضبه جداً لأن عداوتهم التى

١ - «ترجم مثل هذه» وفيها مافيها من الازدراء. ولكن أين شريك الجريمة؟ لقد أمر موسى أن يقتل هو ايضاً (لا ٢٠: ١٠). وكان الرجم هو العقوبة المقررة للزنى (تث٢٢: ٢٢ - ٢٤).

لا رجاء فى محوها قد تسفلت فاستعملت هذه الأسلحة الدنيئة فى محاربته. ولأن الأمور التى يجب أن تبقى فى دائرة الخفاء النبيل قد استبيحت علنا بمكر وهزء أمامه، فأطرق بوجهه وهو جالس كما لو كان لم يسمعهم، أو لم يرد أن يسمعهم وانحنى يكتب بأصبعه على الأرض.

كان هذا الفعل كافيا لأناس غيرهم أن يفهموا أن عمله هذا دليل الغفران - **لأن كتابته على التراب رمز للمحو والنسيان**[١]. ولكنهم لم يفهموا شيئاً، ولم يدركوا شيئاً ووقفوا دون حياء يؤيدون سؤالهم المخزى وهم قابضون على المرأة، يشيرون إليها، ويهزأون بها من غير شفقة فى نظراتهم الماكرة وبدون حنان فى قلوبهم الصلبة الحديدية.

وما كان لهذا المنظر أن يطول أكثر من هذا، فاستقام من انحنائه، وواجههم القدير على قراءة قلوبهم بهدوء، وأمضى عليهم الحكم المحزن الذى ضمنه فى هذه الكلمات الخالدة:

"من منكم بلا خطية فليرجمها اولاً بحجر[٢]".

لم يكن هذا الحكم نقضاً لناموس موسى بل قبولاً لعدالته. ولاشك أنه كان ثقيلاً على قلب المرأة كأنه إمضاء شهادة الوفاة. ولكن هذا الحكم أتى بنتيجة لم تكن منتظرة بتاتاً.

قد يضطر القاضى أحياناً أن يحكم على مجرم أحضر أمامه من أجل أمور هو نفسه قد اجترم مثيلات لها. ولكن هذا يختلف كلية عمن يقيم ذاته قاضياً ويتصيد بحماس اتهاماً لغيره دون أن يكون مضطراً لهذا. لذلك كان حكمهم عليها معناه الحكم على ذواتهم دون رحمة أمام الله، وأن من يرميها أولاً بحجر إنما كان يطحن نفسه.

نظر إليهم يسوع لحيظة. ولكن النظرة استشفت طيات نفوسهم. وتكلم إليهم بكلمات هادئة قليلة، ولكن هذه الكلمات الرزينة الخافتة مثل الصوت الذى سمعه إيليا فى حوريب - كانت لهم أشد من الزلازل، والرياح القاصفة، ووقعت مثل شرارة النار على رمضاء قلوبهم، فأضرمتها وأشعلتها وأذكت فيها روح الخجل والحياء. فوقف الكتبة والفريسيون صامتين مرتعبين، وارتخت أيديهم التى كانت قابضة على المرأة، وارتدت بخزى إلى الأرض نظراتهم المتحدية المفعمة بالغش والمكر واللؤم. أولئك الذين جلبوا عاراً غير عادل شعروا الآن بألم لا يوصف من عار لا يحد. وقعت على ضمائرهم المذنبة كأصوات بروق

١ – قارن (أر١٧: ١٣).

٢ – قارن (تث١٧: ٧).

ورعود متتالية أفكار مثل هذه: " لذلك أنت بلا عذر أيها الانسان كل من يدين. لأنك فى ما تدين غيرك تحكم على نفسك. لأنك أنت الذى تدين تفعل تلك الأمور بعينها. ونحن نعلم أن دينونة الله هى حسب الحق على الذين يفعلون مثل هذه. أفتظن هذا أيها الانسان الذى تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها انك تنجو من دينونة الله. أم تستهين بغنى لطفه وامهاله وطول أناته غير عالم أن لطف الله انما يقتادك إلى التوبة. ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضباً فى يوم الغضب وإستعلان دينونة الله العادلة، الذى سيجازى كل واحد حسب أعماله". وهم كانوا مثل المرأة التى يدينونها فلم يجسروا أن يقفوا.

بوجوه محمرة وقلوب كسيرة، من أكبرهم إلى أصغرهم، واحدا بعد الآخر، ذابوا من أمامه بسكون، ولم يرد أن يزيد فى خجلهم وعارهم وخزى وجوهم بمراقبتهم. ولم يرغب أن يظهر معرفته لأسرار نفوسهم الدنسة. لذلك انحنى مرة أخرى وكتب على الأرض.

وعندما رفع رأسه ثانية كان قد هرب كل متهميها، ولم يبق سوى المرأة منكمشة أمامه. كان جائزاً أن تذهب هى أيضا دون أن يعوقها شئ. بل كان طبيعياً أن تهرب إلى أى مكان لتأمن الخطر ولتخفى عارها وخطيتها. ولكن الندم وربما أيضاً عرفان بالجميل عظيم اختلط فيه الرجاء باليأس سمراها وأبقياها أمام قاضيها. ونظرته التى لا يمكن أن تجابه ـ تلك النظرة الوحيدة التى صوبتها اليها نفس ذات سلطان لا يدانى لحياة طاهرة لا تشوبها شائبة ـ كانت فى ذات الوقت نظرة اشفاق وغفران. كان بقاؤها دليل توبتها، وتوبتها سبيل غفرانها. ودعونا نثق أن غفرانها قدكفل مستقبلها.

سألها "يا امرأة أين الذين حكموا عليك. أما يحكم عليك أحد؟"

وكانت الاجابة التى استطاعت أن تنفرج عنها شفتاها:

[لست أرى أحدا يارب]. وحينئذ نالت اذن الانصراف المملوء عطفاً ولكن فحصا للقلوب [ولا أنا أحكم عليك. اذهبى ومن الآن لا تعودى تخطئين].

مهما كان هذا المنظر مؤلما لقلب يسوع الطاهر القدوس فقد خفف وقعه ذلك الخلاص المملوء عطفاً، الخلاص الذى نثق أنه بقى أبد الدهر، الذى أنعم به على نفس واحدة خاطئة. ولكن الحوادث التى أعقبته كانت بالغة الحد فى سوء التفاهم المستمر والتأثيرات المتباينة والتهم المريرة، حتى أنها جعلت هذا العيد الكبير والاحتفال البهيج ينتهيان بانفجار مفاجئ من الحقد ومحاولة صاخبة من رؤساء اليهود كى يضعوا حدا لحياته ليس بمحاكمة علنية ولكن بالقوة والعنف والخديعة.

لأنه فى ذات اليوم "اليوم الثامن للعيد أو اليوم التالى بعد العيد" استمر يسوع يدلى بأحاديث متقطعة أراد منها غالباً للمرة الأخيرة إعلان حقيقته الأهية بوضوح للأمة اليهودية.

كان فى هذه اللحظة جالساً فى الخزانة[١] وهى إما بناء خاص فى الهيكل سمى هكذا، وإما جزء من رواق النساء الذى يحوى الثلاثة عشر صندوقاً ذات الفتحات الشبيهة بفتحات البوق والتى يضع الناس سيما الفريسيون عطاياهم فيها. وكان فى هذا المكان قريباً من يسوع سراجان عظيمان مموهان بالذهب، ارتفاع الواحد منهم خمسون ذراعاً[٢] وفى أعلاه مصابيح تضاء طول ليالى عيد المظال فترمى ضوءها اللطيف على المدينة. وبمناسبة هذه المصابيح التى ربما لظرف خاص قد استرعت انتباه السامعين، كلمهم يسوع أيضاً قائلاً: «**أنا هو نور العالم**».

كانت هذه عادته فى حديثه، يتخذ أمثلة من الأمور المحيطة فيثير أشد الانتباه، وينقش الكلمات أعمق ما يكون فى أذهان سامعيه. فالفريسيون الذين سمعوه اتهموه بمدح النفس الباطل. فأظهر لهم أن الآب أيضاً يشهد له، وأن النور يرى ويظهر بمجرد وجوده، وبدونه لا يرى لا هو ولا الأشياء المحيطة فسألوه " أين أبوك؟" فأجابهم بأنه إذ لم يعرفوه هو لا يقدرون أن يعرفوا أباه. وحينئذ أنذرهم بحزن أنه سيمضى وسيطلبونه ولا يقدرون أن يأتوا إليه. وكانت اجابتهم الوحيدة سؤالاً ذميماً، إن كان مزمعاً أن ينتحر فيزج نفسه فى غياهب القبر؟ ولكنه افهمهم أنهم هم - وليس هو - من أسفل، أنهم هم - وليس هو - إن استمروا فى عدم ايمانهم بوجوده الأزلى - هم الذين سيقضى عليهم بهذه النهاية المظلمة. فسألوه مرة ثانية بحنق وحيرة جاحدة " من أنت؟" فأجابهم بهدوء: "من البدء كلمتكم مرارا". أرادوه أن يعلن أنه المسيا فيتخذوه مخلصاً زمنياً، ولكنه أراد أن يعلن لهم حقائق أعظم وأبقى، أنه كان النور والحياة والماء الحى، وإنه أتى من عند الآب، وأنهم سيعلمون من هو ومن أين أتى عندما يرفعونه على الصليب. كانوا يطلبون فقط مسيا اليهود أما هو فأراد أن يعرفوه كفادى العالم ومخلص نفوسهم.

ولما سمعوه يتكلم آمن به كثيرون من ألد أعدائه هؤلاء، ولكنه كان إيمانامتقلباً، إيماناً كاذباً، نصف إيمان ليس فيه ذرة من القوة الخلاصية، ولا يمكن أن يثق به يسوع. وقد قدمه إلى امتحان عاجل أظهر به أنه إيمان فارغ تبدل إلى كره جنونى. أخبرهم أن الايمان والطاعة هما دليل التلمذة الصادقة وعماد الحرية الحقة. فكانت كلمة الحرية حجر المحك الذى أظهر إيمانهم المزيف الظاهرى. ما كانوا يعرفون حرية سوى

---

١ – قارن (لو٢١: ١) و (مر١٢: ٤١).

٢ – الذراع مقياس للقدماء من المرفق إلى منتهى الوسطى ومقداره ١٨ بوصة.

تلك الحرية السياسية التى كانوا يتمسكون بها كذباً. رفضوا وعد الحرية الروحية المستقبلة على حساب الحصول على الحرية الوطنية الحاضرة. فأوضح لهم يسوع أنهم ما زالوا عبيداً للخطية فعلاً، أما اسما فقط فأولادا لابراهيم وأولادا لله. لقد كان اليهود يتيهون افتخارا بنقاوة أصلهم وتميزهم بدم واحد نقى. وها هو يظهر لهم أنهم فى الحقيقة باستعبادهم الروحى وباختلاط دمهم بالقسوة والكذب أولاد من كان منذ البدء كاذبا وقتالا للناس، أولاد للشيطان. وهذا التوبيط القارص ألهب حنقهم فقابلوه بقولهم: "أنك سامرى وبك شيطان" [1] والسيد بكل لطف تغاضى عن هذا القدح وعاد مرة ثانية فأكد لهم الوعد الذى أنعم به بأنهم إن حفظوا كلامه فانهم لن يموتوا فى خطاياهم فحسب بل لن يروا الموت أبداً. ولكن قلوبهم العمياء الغبية لم تفهم حتى كلماته هذه معنى روحياً، فاتهموه بعناد جنونى وسوء التقدير لجعله نفسه أعظم من ابراهيم والأنبياء الذين فى اعتبارهم وحسب أفكارهم كانوا أمواتاً [2]. أما يسوع فأخبرهم أن ابراهيم ليس بميت بل حى فى العالم الآخر، وانه ببصيرة النبوة وروح العلم قد رأى يومه وفرح. وهذا القول ظهر لهم إما أن يكون لا معنى له وإما أن يكون كفرا، وقالوا له: "ليس لك خمسون سنة بعد"، وابراهيم قد مات منذ سبعة عشر قرنا، فكيف يمكن ان نفهم كلاماً مثل هذا. وحينئذ، بكل لطف ولكن أيضا برزانة وعظمة مقدسة وبتلك اللازمة التى ما كان يستعملها إلا عندما يوضح حقيقة مؤكدة، أظهر لهم المخلص أزليته ووجوده الألهى الكائن قبل أن يظهر فى الجسد وقال لهم:

"الحق الحق أقول لكم قبل ان يكون إبراهيم أنا كائن" [3] وحينئذ بانفجار غضب ساخط، وفى إحدى تلك النوبات الفجائية التى لا تضبط من الغيظ التعصبى التى كانت هذه الأمة فى كل الأجيال عرضه لها إذا ما صدمت فى معتقداتها الدينية، أخذوا حجارة ليرجموه[4] ولكن نفس العمى الناجم من اشتعال غضبهم سهل أن يتجنبوه. لم تحن ساعته بعد، وبهدوء كامل خرج من الهيكل دون أن يمسه أحد.

١ – (يو٨: ٤٨) أنت سامرى. تظهر أى بغض طائفى تنفثه هذه الكلمات.

٢ – (لو١٦: ٢٢) و (مت٢٢: ٣٢).

٣ – (يو٨: ٥٨) هذا برهان واضح لتأكيد ألوهيته.

٤ – حالة مبانى الهيكل غير المكتملة جعلت حجارة كبيرة فى متناول أيديهم.

الفصل الحادي والأربعون

المولود أعمى

أثناء عودته من الهيكل بعد محاولة رجمه، أو فى السبت الذى تلاه مر يسوع برجل أعمى منذ ولادته يصرخ معلناً عن بؤس حاله وهو جالس يستعطى بجانب الطريق عند باب الهيكل.

كان اليهود ينظرون إلى الآلام الخاصة كأنها النتيجة السريعة للخطايا الخاصة. وربما ظن التلاميذ أن كلمات السيد للمفلوج الذى شفاه عند بركة بيت صيدا، وكذلك للمصاب بالشلل فى كفر ناحوم، تبرر هذا الاعتقاد[1]. لذلك سألوا كيف ولد هذا الرجل الأعمى؟ هل يمكن أن يكون هذا نتيجة خطايا أبويه؟ فان لم يكن، فهل يجوز الظن أن هذا نتيجة خطاياه هو على أى سبيل؟ والظن الأول قاس والثانى مستحيل. لذلك أخذتهم الحيرة.

رفض السيد أن يجاريهم فى هذه النواحى غير المجدية من النظريات العميقة وتنحى ـ كما كان دائماً يفعل ـ عن أن يذكر أو يجلس لاستقصاء خطايا الآخرين. فأجابهم بأنه لا خطاياه ولا خطايا أبويه أحدثت تلك العاهة المستديمة طول الحياة، ولكن الآن بوساطتها ستظهر أعمال الله[2]، أنه نور العالم فالى زمان قصير أيضاً سيطرد ظلمة العالم. وتفل على الأرض، وصنع من التفل طينا، وطلى به عينى المولود أعمى، وأمره أن يذهب ويغتسل فى بركة سلوام. فذهب الأعمى واغتسل وأتى بصيراً.

وليس لدينا من المعلومات ما يجعلنا أن نفهم لماذا فضل السيد فى هذه الحالة وحالات أخرى شبيهة بها طرقا بطيئة مركبة لاظهار قوته العلوية الفائقة، بينما كان يشفى كثيرين بكلمة. ولم يعلن لنا قواعد عمله التى بلا شك كان يقررها تبعا لمعرفته بالظروف الخافية وما يراه ببصيرته فى قلوب أولئك الذين كان يمنحهم الشفاء. وربما فى هذه الحالة قد فعل هكذا ليعطى أكثر من درس خالد للأمور التى أعقبت فعله.

وعلى أى حال، فالطريقة التى اتبعها هذه المرة أدت إلى نتائج خطيرة، لأن الرجل كان معروفاً جد المعرفة فى أوروشليم أنه متسول أعمى طول حياته فأثار استعادته لبصره زوبعة من الدهشة. وحتى أولئك

---

١ – (يو٥: ١٤).

٢ – الأصل اليونانى لا يفيد أن الرجل انما ولد أعمى فقط لاظهار مجد الله فى عمل الشفاء.

الذين عرفوه تماما بالكاد صدقوا أنه هو بعينه الأعمى المتسول الذى عاشروه. غمرتهم الدهشة والحيرة فصاروا يلحون عليه أن يقص عليهم أمر شفائه مرارا وتكراراً. ولكن قصته أدخلت إلى دهشتهم عنصراً جديداً من الغضب الفريسى لأن الشفاء قد صنع فى السبت. فان الحاخاميين يمنعون أن يطلى أى رجل ولو عينا واحدة بالتفل فى يوم السبت إلا فى حالة الخطر الذريع. ويسوع لم يطل عينيه الاثنتين بالتفل فقط ولكنه أيضاً مزج الطين بلعابه! كان هذا عمل رحمة يتفق تماما مع ذات السبب الذى أوجب السبت والتعاليم الرئيسية التى جعل السبت شاهدا أبدياً عليها. ولكن روح الحرفية الضيقة، وعبودية التدقيقات الفارغة كانت قد حقرت السبت وأنزلته من أوضاعه الحقيقية وفكرته الأصلية إلى مجرد خزعبلات ضارة. أصبح سبت الحاخاميين بكل عبودياته الفارغة غير سبت ناموس الله الرحيم المقدس.

وهؤلاء اليهود كانوا مشبعين بهذه الصغائر حتى أن أعجوبة فريدة من الرحمة مثل هذه أيقظت فيهم من الدهشة والشكر أقل بكثير مما أشعلت فيهم من الغضب لاهمال خرافاتهم السبتية. ولذلك، فبكل حماس الديانة المتعبدة للحرف أتوا بالرجل إلى مجمع الفريسيين. وبعدئذ توالت المناظر التى رسمها بدقة يوحنا البشير فى الاصحاح التاسع. فنلاحظ أولا سؤالهم المتكرر عن كيف أبصر الأعمى، ثم تأكيدات بعضهم من أن يسوع لا يمكن أن يكون من الله لأنه لا يحفظ السبت، ثم اعتراض البعض الآخر على أن تمسكهم بكسره السبت معناه اقرارهم بصنع المعجزة، وإقرارهم بالمعجزة ينفى عن صانعها الوصف الذى يصمه به الأولون. وإذ اختلط عليهم الأمر من كل ناحية سألوا الرجل الأعمى نفسه عن رأيه هو فيمن شفاه.

وإذ لم يكن داخل دائرة تفكيرهم السيء أجاب دون خوف أو تردد وقال: «إنه نبى».

إلى هذا الحين تحققوا أى نوع كانت طبيعة الرجل الأعمى الذى يتعاملون معه. وإذ كانوا يجتهدون أن يجدوا ولو ثقب إبرة ينكرون به المعجزة أو يهملوها جانباً أرسلوا إلى أبويه ودعوهما وسألوهما قائلين "أهذا ابنكما الذى تقولان إنه ولد أعمى. فكيف يبصر الآن" ؟ ربما أرادوا أن يخيفوا هذين الأبوين لينكرا علاقتهما به أو يقرا أن فى الأمر غشا. ولكن الأبوين أيضاً تمسكا بالصدق. ولكن ببعض الذلة اليهودية والمكر رفضا أن يبديا أى شئ قد يضعهما فى موقف محرج، فقالا: نعلم أن هذا ابننا وأننا ولدناه أعمى أما كيف يبصر الآن فلا نعلم أو من فتح عينيه فلا نعلم. هو كامل السن اسألوه ليتكلم عن نفسه.

وحينئذ ـ ويكاد المرء يشفق على حيرتهم ـ رجعوا ثانية للرجل الذى كان أعمى وقد عرف مثل أبويه أن رؤساء اليهود قد قرروا أن ينطقوا «الشريم» أى بالحرم أو أمر الفرز من المجمع على كل من يجرؤ

أن يعترف أن يسوع هو المسيا. فأمل الفريسيون أنه سيرضخ ويطيع مشورتهم ويعطى مجداً لله[١]، أن ينكر أو يتجاهل المعجزة ويقر رأيهم فى أن يسوع رجل خاطئ.

ولكن الرجل كان من طبيعة أصلب من طبيعة أبويه. وما كان يخشى سلطتهم أو يتأثر بكلماتهم فتنفس بحرية تامة فى جوهم الذى يفاخرون ادعاء بعظمة قدسيته. قالوا له: "نحن نعلم أن هذا الانسان خاطئ". فأجابهم الرجل: "ان كان خاطئاً فلا أعلم إنما أعرف شيئاً واحداً أنى كنت أعمى والآن أبصر" فعادوا ثانية لسؤالهم المتعب غير المثمر: "قالوا له ماذا صنع بك. كيف فتح عينيك؟" وكان الرجل قد استكفى من هذا الكلام، لذلك "أجابهم قد قلت لكم فلم تسمعوا أيضاً. هل تريدون أن تصيروا له تلاميذا". سخرية جريئة لاذعه أن يسأل أعضاء السنهدرين العظماء المتحذلقين الحانقين إن كانوا يريدون حقا أن يعتقد أنهم متحمسون باخلاص لكى يؤمنوا بهذا النبى الناصرى! وضح أنهم أمام رجل لا يمكن أن يرهبوا أمانته الحقة أو يفسدوها. وإذ لم ينفع معه لا سلطانهم ولا وعدهم أو وعيدهم ركنوا إلى الشتيمة "قائلين أنت تلميذ ذاك وأما نحن فانا تلاميذ موسى... وأما هذا فما نعلم من أين هو". أجاب الرجل وقال لهم إن هذا أيضاً لعجيب أنكم لا تعرفون من أين هو وقد صنع آية لم يصنع مثلها موسى. ونحن نعلم أنه لا هو ولا غيره يستطيع أن يصنعها ما لم يكن من الله[٢] كيف يتجاسر مجرد متسول أعمى، مهرطق، جهول بالطبيعة، بجملته مولود فى الخطية، أن يعلمهم، ولم يقدروا بعد هذا أن يضبطوا معين غضبهم فطردوه من حضرتهم وأخرجوه خارج المجمع.

ولكن يسوع لم يهمل من اعترف به فى شجاعة. وجد يسوع الرجل وسأله "أتؤمن بابن الله"، فأجاب "وقال من هو يا سيد لأومن به".

"قال له يسوع أنك تراه وهو الذى يكلمك".[٣]

"فقال أومن يا سيد وسجد له".

لا شك أنه عقب ذلك بقليل. أوضح السيد التأثير المختلف الذى يقع على سامعيه: «يبصر العميان ويعمى المبصرون» وكان الفريسيون يحومون حوله فى عدم رضى أو ارتياح. وفى محبتهم الذاتية المريضة

١ – كما لو كانوا يريدون أن يجعلوه أن يحلف أن يقول الصدق الصريح. والجملة استحلاف أن يقول الحق.

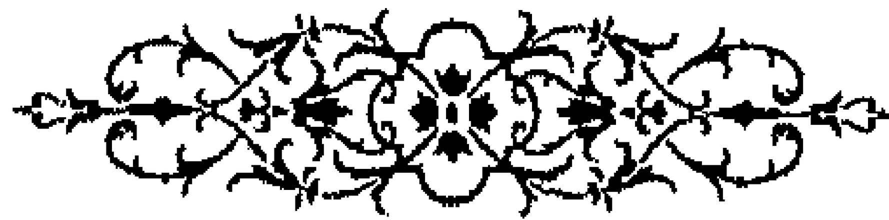
٢ – ليس فى العهد القديم أو فى سفر الأعمال تفتيح عينى الأعمى.

٣ – إنها حقيقة مدهشة أنه لا يوجد مثال لهذا الاعلان المفاجئ لمنبوذ المجمع الا الاعلان المماثل (يو ٤: ٢٦) للمنبوذة من الأمة.

كانوا يريدون أن يستخلصوا أفكاره عنهم فسألوه: "وقالوا ألعلنا نحن أيضاً عميان" ؟ فاجابهم يسوع أنه لا خطية فى العمى الطبيعى ولكن أولئك الذين يعثرون فى عمى الخطأ، المقصود عمدا، ومع ذلك يدعون الأبصار، فانهم يحكمون على أنفسهم.

وإن كان المتقدمون والمعلمون والمرشدون عميانا فكيف يبصر الشعب ؟

وهذه الفكرة ذكرته بطبيعة المعلمين الصالحين والطالحين. وفصل ذلك بمقطع جميل - نصف مثل ونصف تمثيل - عن الرعاة الحقيقيين والكاذبين. فأخبرهم عن الراعى الصالح الذى يبذل نفسه عن الخراف بينما يهرب الأجير عند الخطر ويخون القطيع. ثم أوضح أنه باب الخراف الذى دخل منه كل سابقيه الحقيقيين بينما دخل الكذبة من أول سارق تسلق حظيرة الله - من طريق آخر. وحينئذ أخبرهم أنه بارادته سيضع حياته عن الخراف - خراف هذا القطيع وكل القطعان التى له،وأنه بسلطانه سيأخذها. ولكن هذه الأسرار الألهية كانت أعلى من أن يفهموها. فأعلن البعض أن هذا خلط من به شيطان، وانه كان مجنونا. ولكن آخرين قالوا أن هذا الكلام لا يشبه حديث من به شيطان، وأن شيطاناً لا يقدر أن يفتح عينى الأعمى. ولذلك فبدون ثمرة لهم سوى الثمرة المرة للحنق والكره انتهت زيارة يسوع فى عيد المظال، وإذ كانت حياته الآن فى خطر ترك أوروشليم مرة أخرى وعاد إلى الجليل فى زيارة قصيرة قبل أن يودع موطنه القديم الوداع الأخير.



الفصل الثاني والأربعون

توديع الجليل

عقب ذكر الحوادث السالفة دون يوحنا البشير حادثة وقعت بعد شهرين في عيد التجديد في الشتاء[1] وإتباعاً لمقصده الأساسي من بشارته، وهو ذكر أعمال المسيح في اليهودية لاسيما في أوروشليم التي تركها باقي البشيرين، لم يدون شيئاً عن زيارة يسوع الأخيرة للجليل أو رحلته النهائية لأوروشليم التي يعطينا باقي البشيرين تفصيلات متعددة عن بعض أجزائها.

أما أن يسوع قد عاد إلى الجليل فظاهر ليس فقط مما دونه الباقون، ولكن من طبيعة الحال، ومن بعض الإشارات العرضية في بشارة يوحنا ذاتها[2].

فلنبحث عن الحوادث التي لا يمكن أن يكون زمانها إلا أثناء هذه الإقامة الأخيرة ليسوع في الجليل عقب عيد المظال - كانت هذه الإقامه المؤقته في الجليل - قصيرة جداً. ويظهر أنه لم يكن الغرض منها سوى إعداد إرسالية السبعين وتدشين الإعلان الأخير عن ملكوت المسيح في كل أنحاء الأرض المقدسة التي كانت أقل عرفاناً بكلامه وأعماله، وقد تضمنت نصائحه للسبعين ووداعه الأخير للجليل، والغالب بإحتمال كبير أن تسليمه هذه الأوامر اتفق وبدء إرتحاله. ولكن يوجد حادثان آخران وردا في الإصحاح الثالث عشر من بشارة لوقا يتعلقان على الأغلب بهذه الإقامة القصيرة، وهما مذبحة الجليليين والتحذير الذى وصله عن تدابير هيرودس ضد حياته.

كان نزول يسوع هذه الأيام القليلة غالباً في بيت كفر ناحوم، مدينته. وبينما هو هناك يستعد للرحيل الرهيب الذى لم تكن بعده عودة جاء إليه قوم يخبرونه عن حادث جديد من تلك الثورات المتعددة التي إمتاز بها حكم بيلاطس البنطي. ولا نعلم شيئاً خاصاً عن الحادث الذى أشاروا إليه، فإن قطع رؤوس بعض المتحمسين الثائرين، تطيحها الحامية الرومانية، كان أمراً عادياً في تلك الأوقات

---

١ - (يو ١٠: ٢٢ -٤٢) كان عيد المظال يقع في أواخر سبتمبر أو اوائل أكتوبر. وعيد التجديد كان يقع في العشرين من ديسمبر.

٢ - راجع (يوحنا ١٠:٢٥) (واضح أنه يعود على حديثه الأخير معهم لشهرين قبل ذلك) وعدد ٤٠ أيضاً. ثم عدد ٢٢: «وكان في ذلك الوقت التجديد في أورشليم» لن يكون لها معنى إلا إذا أشارت إلى زيارة ثانية. وربما قد أضيفت هذه الكلمات خاصة لتدل على أن عيد التجديد كان يجوز حفظه في أى مكان.

المتأججة لا يثير سوى ملاحظة عرضية[١]. وإذ أن الجليليين كانوا أشد اليهود شغباً وإشتعالاً، فقد كانوا أكثرهم تعرضاً للصدام. وواضح أن الأمر الذى إسترعى إهتمام المخبرين ليس ذات المذبحة، ولكن الظرف المريع أن دماء هؤلاء المشاغبين قد اختلطت بالأنهار الحمراء التى فاضت من ضحايا ذبائح تقدمتهم[٢]. والقوم الذين أتوا بهذا الخبر للمسيح كانت رغبتهم فى الشكاية من جرأة الحاكم الرومانى الدامية أقل من إبداء إستغرابهم من التهم المزعومة التى أدت إلى هذا المصير المحزن لأولئك العابدين المذبوحين.

إن سفر أيوب يقوم فى العبرانية كشاهد أبدى على الإستنتاجات العجولة لتفسير المصائب البالغة، وإن روح اليفاز وصوفر وبلدد[٣] ما زالت حية، وقد إنتهز السيد كل فرصة وكل مناسبة ليوقفها ويوبخها. "فأجاب وقال لهم أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا خطاة بين سائر الجليليين إذ كابدوا هذه الآلام. أقول لكم لا. إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون" وحينئذ ذكرهم بحادث قريب العهد لموت فجائى إذ سقط "البرج فى سلوام" فداهم وأمات ثمانية عشر شخصاً تصادف أن كانوا تحته.

وأخبرهم أنه لما كان هؤلاء المساكين (غير مدانين بين سائر الناس الساكنين فى أوروشليم) فإن لم يتوبوا هم أيضاً فجميعهم يهلكون. ولاشك أن الدرس المجيد الذى رغب يسوع أن يعلمه لهم هو أن جميع ظروف الحياة وكل شدائد الناس ليست نتيجة المصادفات العمياء ولا الجزاء المباشر، ولكنها جزء من ترتيب عظيم للعزة الألهية يعطى فرصة للناس أن يتعلموا القانون العام وهو أن ما يسمى "بحوادث الحياة" يحصل للجميع على السواء، وإن كان فى الوقت المناسب سينال كل واحد الجزاء حسب أعماله[٤]. ولكن كان لكلماته أيضاً إتمام حرفى تنبؤى. فلاشك أن بعض سامعيه قد عاشوا ليتذكروها عندما أباد سيف تيطس الأمة اليهودية، وعندما فاض الدم فى شوارع أوروشليم كالطوفان، وإحترق باقى المدافعين عنها بين أنقاض الهيكل الذى تأكله النيران، ولم يستطيعوا فداءه حتى بأرواحهم.

---

١ – (أع٢١: ٣٤) لقد ذبح أرخيلاوس ٣٠٠٠ يهودياً فى هياج حدث فى عيد الفصح لثلاثين عاماً قبل هذا. ومرة أخرى أمر بيلاطس جنوده أن يتخفوا فى زى فلاحين ويعملوا خناجرهم فى الجموع.

٢ – هذه الأمور تكررت فى حصار أورشليم. ولكنه واضح أنه ينقصنا تفصيلات فى هذه الحادثة بالذات لنفهم حقيقتها. إذ حسب المنطق كان يجب أن ينظر إلى جليليين يذبحهم فى الهيكل حاكم رومانى كشهداء لا كمجرمين. غير أن رجال العهد القديم كانوا ينظرون للموت غير الطبيعى كأنه عقوبة.

٣ – (أى٤: ٧) و (٨: ٢٠) و (٢٢: ٥).

٤ – (عا٣: ٦) و (٩: ١).

كانت الكلمات محزنة قاسية ولكن المسيح لم يتكلم بلغة الإنذار والوعيد فقط، بل وضع أمامهم رجاء مباركاً. ولو أن شجرة التين لم تثمر سنة فأخرى، بل "تعطل الأرض أيضاً[١]"، فإن هناك واحداً يشفع فيها، وحتى لو كانت الفأس قد أعدت، بل أمسكت فى الوضع الأخير، فهناك من يمنعها عند هذا الحد فلا تنزل ضربتها الفاصلة، إن عادت الشجرة المعتنى بها تماماً فأثمرت.

لقد قصد أن تكون زيارته لموطنه القديم قصيرة. إلا أن أعداءه كان يسرهم لو حملوه على زيادة تقصيرها. كانوا خائفين من رب الحياة، غير أنهم لم يجرأوا أن يظهروا ما يبطنون، بل جاء إليه فريسيون بتوسلات كاذبه لأجل سلامته يستعطفونه: "إذهب وأخرج من هنا فإن هيرودس يريد أن يقتلك" [٢]

ولكن يسوع إجابته كانت فائقة الهدوء. قال لهم "إمضوا فقولوا لهذا الثعلب[٣] هانذا أخرج شياطين وأتم الشفاء اليوم وغداً وفى الثالث أكمل" [٤] وأضاف بإيقان كامل وطمأنينة تشوبها سخرية مرة وحزن "ولكن ينبغى لى أن أعمل[٥] اليوم وغداً وفى الآتى أذهب فإنه لا يهلك نبى خارجاً عن أورشليم" وربما فى شدة ألمه قد ظهرت عواطفه المكتومة فى شكل تنهد ورثاء محزن على تلك المدينة الخاطئة المذنبة، الحمراء من دماء المرسلين إليها المقتولين فيها، كما فعل عندما بكى وهو مشرف عليها من قمة جبل الزيتون.

وهكذا فشلت تماماً مؤامرة هؤلاء الفريسيين. وسواء كانت حقيقة الأمر أن هيرودس قد وضع فى نفسه نية مترددة أن يرى يسوع ويميته كما قتل قريبه من قبل، أو أن تلك الشائعة كانت مجرد إختراع من الفريسيين، فإن يسوع لم يعر المسألة إلتفاتاً. ومهما كانت ترتيبات هيرودس فإن مشيئة يسوع كانت أن ينهى زيارته القصيرة فى الجليل فى الوقت الذى يريده هو وليس قبل ذلك. بقى عليه يوم أو إثنان يستمر فيهما يكمل أعمال الرحمة لكل من طلبها منه، وبعد ذلك يحين وقت إنطلاقه، فيولى ظهره للمرة الأخيرة لموطن شبابه ويثبت وجهه للذهاب إلى أوروشليم (لو٩:٥١) فيجب أن يخبروا سيدهم هيرودس

---

١ – (لو١٣:٧) توجد هنا إشارة طبيعية للسنوات الثلاثة التى كرز فيها السيد.

٢ – غالباً هذا التأكيد كاذب من جانبهم لأنه يتنافر مع (لو٢٣:٨).

٣ – (لو ٣٢:٨) «هذا الثعلب» كما لو أن هيرودس كان حاضراً معهم بشخصه، وكما كان مماثلاً لهم فى مكره.

٤ – أو «أكمّل» (بتشديد الميم) والمعنى أصل إلى النهاية. (يو١٩:٢٦) و (فيلبى٣:١٢) و (أع٢٠:٢٤).

٥ – «أذهب فى عملى» تعنى «مع أن وقتى الباقى قصير فأنى لن أزيده قصراً» وكلمة «اليوم» هنا تعنى زمناً غير محدد وأن يكن قصيراً.

الماكر، الذى يشبهونه، أنه حتى ذلك الوقت سيكون يسوع فى حصن حريز لا يدانى منه، ولا يمكن أن يتطفل عليه لا مكرهم ولا قسوته.

بعد هذا أكمل يسوع آخر واجباته فى الجليل. فقد دعى أتباعه إليه، وإختار منهم سبعين ليعدوا طريقه. وأن إرساله عدداً عظيماً كهذا، يبعثهم إثنين إثنين قدامه إلى كل مكان كان هو مزمعاً أن يذهب إليه، جعل لهذه الرحلة التى أعلن فيها ذاته علنية عظيمة. والأوامر التى أعطاها لهم تماثل تماماً الأوامر التى أعطاها للإثنى عشر وإن إختلفت فى كونها أقصر لأن عملهم كان وقتياً، وفى حذف النهى غير الضرورى الآن عن زيارة السامريين والأمم، وفى منحهم قوة أقل لصنع العجائب[1] وإختلفت أيضاً بما إنطوت عليه من رنة حزن منشؤها ما إختبره من الرفض المتتالى.

والآن حان الوقت لكى يمضى. ولاشك أنه مضى حزيناً إذ بلاريب قد ترك وراءه قلوباً مخلصة، ولكن ما أقلها! لقد رفضه الجليل كما رفضته اليهودية.

ولكن النفس العلوية التى ليسوع لا يمكن أن تظل طويلاً فريسة لحزن شديد. فكانت تجتهد أن تتخلص من التأثيرات الشائكة التى للمعارضة المستمرة فى عدم الإيمان والخطية إلى طهارة وسلام السماء، ومن الأشياء الوقتية التى ترى إلى الأشياء الباقية التى لا ترى، ومن ظلال فساد البشر إلى ضياء سلام الله. "وفى تلك الساعة تهلل يسوع بالروح!" وأى سرور وأى تهليل لا حد له! إذ لم يفكر فى دينونة الناس ولكن فى الرحمة. قد تهلل وهو يفكر كيف أنه ما قد أخفى عن الحكماء والفهماء قد أعلن للأطفال، وأنه ما أرسل للعظماء والعلماء القليلين ولكن للجهلاء والتعابى الكثيرين، وعندما أخبر تلاميذه أن ليديه المحبيتين قد دفع الآب كل سلطان، وأنهم سيرون فيه ويختبرون روح أبيه، وسيرون ويعلمون ما إشتهاه أنبياء وملوك كثيرون ولكن لم يصلوا إليه. وحينئذ، حتى فى ساعة إفتقادهم، لن يشكوا فى محبته أو محبة الآب لهم. وفى تلك الساعة التى تهلل فيها بفرح عظيم وسرور فائق نطق بتلك الكلمات التى لم تحتو لغة البشر على أرق منها، كرسالة منه ودعوة لكافة أولاده التعابى فى الأسرة البشرية. "تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم... أحملوا نيرى عليكم وتعلموا منى فإنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم"

١ – قارن (مت١٠: ٥ – ٤٢) و (لو١٠: ١ – ١٢) لا فرق كبير بين كلمة «خراف» و «حملان» (لو١٠:٣) و (مت١٠:١٦) عدم التسليم على أحد فى الطريق تعبير مثلى عن سرعة الإرسالية (٢مل٤:٢٩) ونجم عن أن التحيات عند الشرقيين طويلة.

وعلى ذلك فقد تغلب فرح لا نهائى أبدى على حزن وقتى. لقد كتب البعض عن يسوع كأنه رجل أحزان فقط، وظنوا أن حياته كانت آلاماً مستمرة، حياة غير متقطعة من الهموم والوجوم. ولكنا نجد فى الإنجيل، وفى الإنجيل فقط، التوافق الكامل، بل الإتحاد الوثيق بين الفرح والحزن. وملايين من المسيحيين نراهم "مكتئبين فى كل شئ لكن غير متضايقين، متحيرين لكن غير يائسين، مضطهدين لكن غير متروكين" [١] كيف أن رجل الأحزان حتى فى أيام رجولته قد عاش عيشة سعيدة، سعيدة بمعنى السعادة الحقه؟ لأنها حياة قدسية بلا خطية، حياة مخلصة فرحة فى طاعة أبيه السماوى، حياة أسعد مما منح لبنى البشر بقدر ما فاقهم فى هذه كلها. إن النبع العميق الطاهر يفيض فى خريره مسروراً حتى لو أن الغابات الموحشة ظللت جانبيه، وحتى لو أن الشمس بضيائها الوقتى لم تلعب على مياهه.

وإذا كان السرور حقيقياً وسامياً يكون شديداً، طاهراً، محصوراً، غير مختلط. فكم بالحرى يكون ثابتاً غير متقلب سرور الله، سرور إبن الإنسان يسوع المسيح، الذى أتى ليعطى جميع الذين يحبونه من ذلك الحين وإلى الأبد فرحاً لا يستطيع أحد أن ينزعه منهم، فرحاً لا يمكن للعالم أن يعطيه أو يأخذه، أن يمنحه أو يمنعه.



١ - (٢كو٤: ٨ - ٩).

الفصل الثالث والأربعون

حوادث الرحلة

لم نخبر بأى طريق إرتحل يسوع عند مفارقته جنيسارات. ولكن إذ أنه في الغالب تجنب الناصرة بكل تذكاراتها العميقة السرور العميقة الحزن، فالمحتمل أنه عبر البحيرة عند طرفها الجنوبى ووصل إلى سلسلة التلال التى تحد شمال السامرة. وفى أول مرتقى تلك التلال تقع المدينة الصغيرة عين غانم أو «نبع الحدائق»[1]. وهى أول مدن السامرة التى كان سيذهب إليها، فواضح أنه سبق فأرسل تلميذين أمامه ليعدا له وهما يعقوب ويوحنا، إذ هما اللذان شعرا أكثر وبدقة خاصة بمرارة إحتقار رفضه. على أى حال فالسكان الذين حتى إلى يومنا هذا ليسوا مشهورين برقتهم أو ضيافتهم للغرباء رفضوا بتاتاً أن يقبلوه. حقا أثناء إرتحاله شمالاً عبر السامرة قبل ذلك ورحب به السامريون بل تحمسوا وأعاقوه بينهم وإشتاقوا لسماع كلامه، ولكن الآن قد تغيرت الظروف من وجهين. أولاً لأنه ذاهب رسمياً للمدينة التى يكرهونها والهيكل الذى يحتقرونه، وثانياً لأنه كان مصحوباً هذه المرة ليس بتلاميذ قليلين بل بجمع حاشد يعلن أنه النبى والمسيا. ولو أن جرزيم لا أوروشليم كان مقصد إرتحاله لتغير كل شيء. فالمكان الذى يقصده والجموع التى تتبعه ألهبا فى السامريين عداوتهم الوطنية إلى درجة أنهم أبوا على المسافرين التعابى الأمور الذوقية العادية الإنسانية. وإذ كان شعور مدينة عين غانم، هذه المدينة الصغيرة التى على الحدود شعوراً عدائياً لا شك فيه فقد أصبح واضحاً. إن أية محاولة للسفر عرض السامرة أو فى ظل معبدهم هى خطرة إن لم تكن عقيمة. لذلك غير يسوع خط سير الرحلة ويمم ثانية شطر وادى الأردن. لقد رفضه الجليل وطردته السامرة فوجه خطواته إلى طريق البرية.

هذا الخذلان القاسى إمتزج فى ذهن يعقوب ويوحنا بثورة حادة للكرامة كانا مملوئين من رجاء ملكوت المسيا، وظنا أنه قد حان الوقت أخيراً لأن تعلن بقوة. لذلك أراد الأخوان إن يبدآها بانتقام ناموس يثير الدهشة ويعيد الروح المشتعلة إلى نفوس التابعين الذين قد ساورهم الإرتياب من هذا الرفض السريع. " قالا يارب أتريد أن تقول فتنزل من السماء نار فتحرقهم"، كما صنع إيليا، وهذه الجرأة النارية ظهرت لديهما محقة ليس فقط لسابق ما فعله إيليا[2]، ولكن أيضاً لأن ما عمله كان فى أرض السامرة بالذات. أكانت النار ضروريه لحماية النبى شخصياً وحده أكثر من اعلاء شرف المسيح وأتباعه؟

---

١ - (لو٩ :٥١ - ٥٦). لا زالت عين غانم مكاناً جميلاً يستحق إسمه الشعرى الذى تحرف إلى جنين.

٢ - (٢مل١: ١٠ - ١٢).

ولكن يسوع إلتفت إليهما وإنتهرهما لأن سماء الله لها منافع أخرى غير إرسال الرعود. فأخبرهما "قائلاً لستما تعلمان ما روحكما" [١]. لم يتحققا الفرق بين سيناء والكرمل وبين الجلجثة وحرمون. أنه جاء ليحيي لا ليهلك. ومن يسمع كلامه ولا يؤمن به فهو لا يدينه[٢]. لذلك بدون أى كلمة غضب إنصرف إلى قرية أخرى[٣]. ولا شك أن يوحنا الرسول الذى ما كان يعلم فى هذا الوقت أى روح هو، قد تذكر هذه الكلمات التى قالها يسوع عندما جاء هو وبطرس ليثبتا من آمنوا حديثاً من السامريين ويمنحاهم عطية الروح القدس.

ربما فى هذه الفرصة قد إلتفت يسوع للجموع العظيمة المحيطة به وتحدث بالكلام الخالد الذى حذر به من يريد أن يكون له تلميذاً حتى لا ينتظر حباً أرضياً ولا قبولاً حسناً ولكن ليتوقع خصاماً وإضطهاداً وحساباً للنفقة، والذى أمر فيه بقطع أى رباط أرضى لو إحتاج الأمر وبوجوب التحرر التام من كل إهتمامات الحياة[٤] بل ويحمل الصليب واتباع يسوع. وهذه لغة غريبة لم يفهموا كامل مرماها إلا فيما بعد! ألا ينطوى على الخزى ويدل على صغر العقل أن يبنى إنسان برجاً ولا يستطيع إتمامه وأن يدخل ملك حرباً لا نتيجة لها سوى الدمار والخسران. خير لهم ألا يتبعوه بالمرة إلا إذا كانوا على إستعداد أن يتركوا كل شيء على الأرض، على إستعداد أن يضحوا بملذات الزمان الحاضر وإهتماماته ويعيشوا فقط لما هو للأبدية.

أصبحت السامرة مثل الجليل مغلقة أمامه، فكان لابد له أن يسافر عن طريق البرية. وهناك حدثت واقعة مؤلمة للغاية[٥]. من خارج إحدى هذه القرى دوت فى أذنيه صرخة خافتة صاعدة من صميم القلب، وإذ رفع ناظريه أبصر عشرة رجال برص جمعت شملهم رابطة البؤس المميت. وكانوا على بعد، ولا يجترئون على الإقتراب، لأن دنوهم كان نجاسة. لذلك كانوا مضطرين أن يحذروا كل من أتى نحوهم بالصرخة الممزقة للقلوب "تامى! تامى! أى نجس! نجس!"

---

١ – (لو٩ :٥٥).

٢ – (يو٣: ١٧) و (١٢ :٤٧).

٣ – «اخرى» غالبا تدل على انها لم تكن قرية سامرية.

٤ – كلمة «يبغض» فى (لو١٤: ٢٦) قد استعملت مجاراة لعادة السيد فى ذكر الحقائق العظيمة بصفة متناهية حتى تقع محيرة فى آذان سامعيها كى يتعلموا حقيقتها دون انتقاص وتطبع نهائياً فى آذهانهم وكان لابد أن ينطق بها هكذا لتسترعى وتسيطر وتحكم على أذهان البشر الى الأبد.

٥ – (لو١٧ :١١ – ١٩).

وما كاد يسمع صرختهم الباعثة على التحنن: "يا يسوع المعلم إرحمنا" حتى ناداهم للتو بدون أن يترك مجالاً لهم للإقتراب "وقال لهم إمضوا فأروا الكاهن ذواتكم". كانوا يعلمون أهمية هذا الأمر. علموا أنه يأمرهم بسرعة بالذهاب ليتسلموا من الكهنة الإعتراف بشفائهم والشهادة بعودتهم لكل حقوق الإنسان ومنح الحياة(١). وحالما سمعوا هذا الصوت القدير شعروا بتيار الحياة السليمة والقوة المتجددة والدم النقي يدب في عروقهم "وفيما هم منطلقون برئوا".

وقد كان المرء يفكر أنه لن يصيبهم عائق أو مانع لتقديم الشكر القلبي على عطية هي أثمن من الحياة ذاتها. ولا ندرى أية أنانية مطبقة، وأى تعصب يهودى، وأى تدخل خقسى، وأى برص جديد أخسأ من عدم الشكر المخجل ومن الجهل الخرافى قد منعهم! وكل ما نعلمه أن واحداً فقط من العشرة الذين برئوا هو الذى عاد، وكان هذا سامرياً بينما ذهب التسعة اليهود غير شاكرين مما أوجب أشد الأسف، فالسامرى "عاد يمجد الله بصوت عظيم وخر على وجهه عند قدميه شاكراً له". ومع أن قلب يسوع قد تعود جحود الناس إلا أنه سأل بدهشة حزينة "وقال أليس العشرة قد طهروا فأين التسعة الآخرون؟" (٢)، "إنهم لم يوجدوا ليرجعوا ليمجدوا الله ما خلا هذا الغريب الجنس"

فلذلك لن تكون عودة هذا الغريب فارغة، وهذه الفضيلة النادرة -ويا للأسف أية ندرة! - فضيلة الشكر لن ترجع دون مكافاة. ليس جسمه فقط، ولكن روحه العظيمة الثمينة جداً، بقدر عمق أمراضها أيضا، يجب أن تشفى بكلمة من مخلصه.

"قال له قم وأمض. إيمانك قد خلصك".



١ - (لا ١٣: ٢) و (١٤ :٢).

٢ - (لو١٧: ١٧).

الفصل الرابع والأربعون

تعاليم الرحلة

لم يسلم السيد حتى فى هذه الرحلة الأخيرة من الفريسية أى من الفريسيين، ومن هم على شاكلتهم. إحدى هذه المشاحنات السبتية حدثت فى أحد المجامع، ويتضح من سلوك رئيس هذا المجمع أنه كان يكن ليسوع خشية ممزوجة بالحسد والريبة. وفى هذا اليوم جلست بين العابدين إمرأة مسكينة أحناها لثمانى عشرة سنة طويلة "روح مرض.. ولم تقدر أن تستقيم البتة". ولم يستطع قلب يسوع الرحيم أن يخيب إلتجائها الصامت. فدعاها إليه وقال لها "يا إمرأة إنك محلولة من ضعفك" ووضع يديه عليها ففى الحال شعرت بالقوة المعجزة فإستطاعت أن ترفع كيانها المنحنى منذ زمن طويل، وللوقت إبتدأت تسبح بكلمات الحمد لله. ولكن قطع حبل ثنائها الغضب الجهول الذى لرئيس المجمع. فوقف ووبط الجمع البرىء مبينا أن الإبراء فى السبت جرم شنيع لكسر السبت، بينما يمكن الإستشفاء فى أى يوم من الأيام الستة الأخرى. فهذا الخطاب الذى لا حكمة فية بتاتاً قد يعنى أحد أمرين. الأول "أيها المرضى لا يجب أن تأتوا بتاتاً إلى المجمع أيام السبوت فى الظروف التى نحن فيها لئلا تتعرضوا لكسر السبت إذ قد تعمل آيات الشفاء عليكم" أو "أيها المرضى إن أراد أحد أن يبرئكم فى يوم السبت فلا تريدوا وتنحوا" ولم يكن لرئيس المجمع الشجاعة الكافية أن يوجه هذه الملاحظات ليسوع بالذات، أو الجرأة الكافية ليسوقها للمرأة التى شفيت. ولكنه وعظ بها كليهما عن طريق توبيخه الجموع التى لم يكن لها أى دخل فى المسألة سوى أنهم كانوا الشهود العرضيين لها.

لقد جلب عليه الطريق الملتوى الحقير الذى سلكه لإظهار جهالته المثارة هذا اللقب الذى أوجبته كرامة السيد "يا مراءون". كلمة واحدة طاحنة أجاب بها يسوع.

لقد كان دائماً يسوق الحجج والبراهين المختلفة مجتهداً أن يقنع فريسى أمته بأن أفكارهم عن السبت قد أبدلت السبت من عطية إلهيه إلى عبودية ثائرة.

لم يكن فيهم من يعتبر نفسه غير محق فى حل ثوره أو حماره وأخذه إلى حيث المياه ليسقيه فى يوم السبت. وإن كان هذا العمل يحتاج لجهود أزيد بكثير من وضع اليد على إمراة مريضة أو الشفاء بكلمة عجائبية، وإن كان السبت قد تنحى لحاجات الثور والحمار، ألا يجب أن يتنحى من أجل الضرورة القصوى لإبنة إبراهيم؟!

إن كانوا يعملون مثل هذه الجهود فى السبت ليقللوا من ساعات عطش قليلة، ألا يسمح له بعمل ما هو أقل من هذا بكثير لينهى أسراً شيطانياً قاسياً إستمر ثمانية عشر عاماً؟

بمثل هذة الأقوال التى لا تجابه لا عجب إن كان قد أخجل يسوع أعداءه، أما الناس الأكثر بساطة والأقل حذلقة فقد تهللوا من أجل كل أعمال الرحمة المجيدة التى صنعها لأجلهم.

حادثة مثل هذه قد حفظت لنا للمرة السادسة[1] العداوة التى أثيرت من مثل هذا القبيل. وليس ممكناً لنا تفسير محبتهم للمجادلة ودخولهم فى مشاكسة تنتهى دائماً بخذلانهم التام بغير السبتية التى إنحطت إلى جنون خاص. فى سبت معين ـ والسبت كان أهم يوم للإستضافة[2] عند اليهود ـ دعى يسوع إلى منزل (رئيس للفريسيين)، وهذا اللقب يدل على أنه كان رجلاً عالى المقام وربما أحد أعضاء السنهدرين. وهذه الدعوة كانت مماثلة لسالفات لها كثيرات لم يكن أساسها الإحترام أو الإكرام بل كان الدافع لها إما حب الإستطلاع الكسول أو المكر السيء. "وكانوا يراقبونه" طول وقت الطعام بإنتقاد عدائى. كان بين الحضور غير المدعوين رجل مريض بالإستسقاء. وقد يستدل من وقوفه فى مكان ظاهر أمام يسوع ومن مراقبة الفريسيين الدقيقة أنه قد جيء به عمداً ربما ليختبروا إرادة يسوع فى إحترام صغائرهم عن السبت، وربما ليخذلوا قوته المعجزية إذا لم يستطيع شفاء مرض عديم البرء لا تجدى فيه وسائل التطبيب.

أما هو ففى هذه المرة إذ علم ما يضمرونه أوقفهم فى منتصف طريقهم الماكرة التى دبرها أولئك المتعلمون البارزون فسألهم هذا السؤال البسيط: "أيحل الإبراء فى السبت"؟

لا يريدون أن يقولوا «نعم». ولا يجرأون أن يقولوا «لا»

فسكوتهم حسب حكمهم هم يترك يسوع حراً أن يشفى دون لومة لائم. كان صمتهم هذا حسب أرائهم وحسب مبادئهم إحقاقاً كاملاً لما يعمل. كان سؤاله البسيط وعجزهم عن إجابته إقراراً شاملاً لكسبه الحق فى هذه المعارضة. وعليه فقد أمسك الرجل وأبراه وصرفه.

وحينئذ عاد يبرر ما عمله بما يفعلون فقال لهم " من منكم يقع حماره أو ثوره فى بئر ولا يصعده

١ – (لو١٤ :١ – ٦) الخمسة الأخر هى: (١) شفاء بيت صيدا (يو٥ :١٠). (٢) المنظر فى الحقول (مر٢ :٢٣). (٣) ابراء اليد اليابسة (مت١٢ :١٠). (٤) منح البصر لأعمى سلوام (يو٩ :١٤). (٥) شفاء المرأة المشلولة (لو١٣ :١٤).

٢ – (نح ٨ :٩ – ١٢).

حالاً فى يوم السبت؟" علموا أنهم لا يستطيعون إلا الإقرار بالإيجاب، فيكون إقناعه جازماً لا يقاوم، لأن الإنسان أفضل من الحيوان، وتخليص الحيوان يستدعى مجهوداً أشد بكثير من إبراء الإنسان. وعلى ذلك فقد إنتهت مكيدتهم الدنيئة الصغيرة إلى سكوت مكبوت هو دليل خذلان كامل ضاق كرمهم عن أن يعترفوا به.

ما كادت المائدة تعد حتى قامت مخاصمة غير مستحبة بين تلك الصحبة المجيدة عمن هو الأول.

فى ذلك العصر كان اليهود قد إتخذوا عادة المتكآت عن اليونان والرومان وصدور المتكآت كانت الأماكن الوسطى فى المتكأ الأوسط. وإذ رأى السيد تكالب المدعوين فى إتخاذ هذا المتكأ لأنفسهم[1] وضع قاعدة أسمى وأجمل فى واجبات الضيافة العامة، قاعدة تنطوى على درس عميق للوداعة الروحية.

"كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع". فالكبرياء والترفع وتعظيم الذات ليس لها مكان فى ملكوت الله. أما الشيء الوحيد الذى يخول لنا الدخول هناك فهو التواضع.

وإبتدأ يعلمهم درساً آخر إنتقد به عيباً ظاهراً فى الذى قد دعاه[2]، معلناً أن الفخامة والإسراف والأمل برد المثل ليست قواعد الضيافة الصحيحة يوجد جزاء أوفى للعطف إذا منح للفقراء عن مكافأة ولائم الملق التى تقام للأصدقاء والأغنياء. فإذا صنعت وليمة للأصدقاء والأقوياء فلا تنس الضعفاء والبؤساء. فالإحسان الذى تدفع إليه المنفعة ما هو إلا محبة ذات خادعة. وقد تنالون بركة أبدية أعظم لو دعوتم من به الإستسقاء هذا أو لو أنكم إحتسبتم أولئك النظارة المساكين فى عداد الأضياف المدعوين.

عند ذلك قطع الحديث أحد الأضياف ربما لأنه إفتكر أن هذا الدرس غير مناسب أو قاس، وأدلى بملاحظة سخيفة ممسوخة قد يساء فهمها فى هذا الظرف. قد سكب على المياه المضطربة مثلاً عاماً غير شخصي. وبدلاً من أن يستفيد من هذا الدرس الإلهى ظهر أنه إرتضى أن يستمر قانعاً بأرجاء المسألة كسلاً منه إلى المستقبل البعيد.

ولكن السيد حول هذه الملاحظه الكسولة إلى فرصة جديدة لأحد تعاليمه الأكثر خلوداً. تحدث إليهم بمثل أظهر به أن أكل الخبز فى ملكوت السموات يستدعى شروطاً قد يأبى قبولها أولئك الذين يظنون أنهم سيأكلونه على وجه التحقيق. تحدث إليهم عن ملك أرسل الدعوة إلى وليمة عظيمة، ولكن

---

١ – (لو١٤: ٧).

٢ – (لو١٤: ١٢ – ١٤).

عندما حان الوقت قوبلت برفض عام. كان لأحدهم ضيعة يهتم بها وكان مضطراً أن يذهب ويتفقد حقلاً جديداً أضافه إليها. وكان آخر إهتمامه محصور فى البيع والشراء وكل ما تتطلب التجارة. وكان ثالث مشغولاً بأموره المنزلية الراضية حتى أن حضوره صار خارجاً عن الحسبان. وحينئذ رفض الملك فى غضبه هؤلاء الأضياف المتراخين غير المحترمين ودعا للوقت عبيده وأمرهم أن يسرعوا إلى الشوارع والأزقة ويحضروا المساكين والضعفاء والعمى والعرج. وإذ فعلوا هذا وبقى أيضاً مكان أمرهم أن يأتوا أيضاً بمن لا مأوى لهم، المتسكعين فى الطريق وإلى جانب السياجات. كان تطبيق هذا المثل على الحضور واضحاً. فالقلب الدنيوى أن شغله تدبير الممتلكات، أو حيازة الغنى، أو التلذذ بالراحة المنزلية، فهذه الأمور تتعارض والرغبة فى الأكل من الوليمة الحقيقية فى ملكوت السموات. ربما يكون عدد الأميين والعشارين وعاملى الطرق ومتسولى الشوارع أوفر بكثير من عدد الكتبة المتفاخرين بعلمهم والفريسيين بعريض أهدابهم. ثم إنتقل إلى المفرد المتكلم كى يدخل المغزى عميقا إلى قلوبهم وقال "لأنى أقول لكم أنه ولا واحد من أولئك الرجال المدعوين يذوق عشائى". أنه الدرس الذى كثيراً ما علمه. شيء أن تدعى، ولكن قبول الدعوة شيء آخر. "كثيرون يدعون ولكن قليلين ينتخبون"

فى فرصة أخرى كان السيد يعلم تلاميذه فأخبرهم عن مثل وكيل الظلم[١] ليريهم ضرورة الحرص والأمانة والتعقل والفطنة فى إدارة أعمال وممتلكات ومتعلقات هذة الحياة حتى لا يخسروا ميراثهم من الغنى الأبدى. هذا هو الدرس الذى ثبته كثير من أحاديثه. إنه من المستحيل أن تكون دنيوياً وروحياً سوياً، أن تكون خادماً لله وفى الوقت ذاته عبداً للمال.

ومع أن يسوع كان يتحدث مبدئياً إلى تلاميذه فإن بعض الفريسيين الموجودين سمعوه. ونلحظ بالتأكيد أن هذا الكلام أكثر من غيره قد أحفظهم وأشعل فيهم حقداً لم يخفوه فإبتدأوا يعاملونه باحتقار علنى غير مؤدب. ولماذا؟ لأنهم كانوا فريسيين وفى الوقت ذاته محبين للمال[٢]

---

١ – (لو١٦: ١ – ١٣). الأمر الواضح فى مدح وكيل الظلم ليس ظلمه أو تبذيره ولكن نظره البعيد وحكمتة التى تطلع بها للأمام ومقدرته التى اعتزم بها مجابهة الصعاب التى لا ريب آتية. فكونوا أنتم وكلاء أمناء أوفياء وأظهروا نفس الاجتهاد والقصد والحكمة فى التسلط على الحالى والزمنى لكسب المستقبل والخالد. وكما جعل الوكيل أصدقاء له من المدنيين فلما فرغت يده قبلوه فى منازلهم، فأنتم أيضا استعملوا غناكم ووقتكم وفرصتكم لاجل منفعة البشر اخوانكم حتى اذا ما خرجتم من الدنيا مساكين عراة فهؤلاء الاخوان يرحبون بكم الى كنوز لا تفنى.

٢ – (لو١٦ :١٤) الكلمة الاصلية معناها «هزأوا به بسخرية».

ولكى يوضح ما كان يشرحه لهم قال مثل الغنى وليعازر[1] الذى مليء بالمعانى كباقى أمثال السيد، ويمكن تفسيره على أكثر من وجه. ولكنهم على الأقل ما كان يمكنهم أن يخطئوا فهم الغرض الصريح الظاهر منه وهو أن التقدير فى الحياة الأخرى كثيراً ما يعكس الوضع الذى يكون فيه الناس هنا، وأن الله لا يحابى الناس، وأن القلب يجب أن يختار بين تنعمات هذه الحياة وبين تلك التى لا يمكن أن تؤثر عليها مظاهر هذه الحياة. وما يمكن أن يسمى ختام هذا المثل يحتوى أيضاً على درس هام وهو أن الأمور التى تقدمها نعمة الله لكل نفس حية كافية لإنارتها وخلاصها. فإذا أهملت هذه فلن تفلح أعجوبة فى إيقاظ الروح المنغمسة فى أنهما هموم كات الحياة. "إن كانوا لا يسمعون لموسى والأنبياء فإنهم ولا إن قام واحد من الموتى يقتنعون"

الإشارات المتكررة عن هذه الحياة كأنها مكان إختبار وتجربة وإمتحان، وعن الدينونة العظيمة، وعن القاضى الذى ينطق بكلمة واحدة (تعالوا) أو (إذهبوا)، فتحل كل المشاكل وتقر كل المسائل إلى الأبد، قد حولت طبيعياً أذهان مستمعين عديدين لهذه المواضيع العامة. ولكن يوجد فينا جميعاً ميل لتحويل هذه المسائل لغيرنا لا لأنفسنا، ولكن هذه الميول التى كانت تسلب التعاليم الأخلاقية كل قداستها وتقلب تحذيراتها إلى مجرد إعتذارات عن عمل الخير كان يناهضها ويوبخها السيد. وقد سنحت له فرصة طيبة لفعل هذا فى هذه الأيام التى كان فيها "يجتاز فى كل مدينة وقرية يعلم وهو سائر إلى أورشليم" [2] كان يتحدث ـ ربما ليس للمرة الأولى ـ عن البدء اليسير ثم النمو العظيم لملكوت الله فى النفس وفى العالم عندما سأله أحد سامعيه بروح حب إستطلاع غير حكيم إن لم يكن غير طبيعى وقال له "يا رب قليلون هم الذين يخلصون"؟ ولا ندرى الدافع الذى أوحى بهذا السؤال، هل الإعتداد القوى بالنفس أم الشفقة اليائسة؟ ولكن على كلا الحالين قد تضمنت إجابة السيد عدم الرضى عن السؤال ذاته وتضمنت أيضاً الطريق الحقيقى الذى يجب أن تقرب به هذه الأسئلة. (قليلون) و (كثيرون) إنما هى تعبيرات لفظية. فلا تضيعوا فرص الحياة الثمينة فى هذه الأسئلة الكسولة بل (جاهدوا)، فإنه لن يدخل أحد من الباب الضيق ولو كان من نسل إبراهيم دون جهاد بإخلاص. وإذ أن جهود الكثيرين، جهودهم العنيدة وجهودهم الخاطئة ستخيب، وإذ أنه سيأتى يوم يغلق فيه الباب ويكون الوقت قد فات

---

١ – من الغريب ان هذا هو المثل الوحيد الذى ذكرت فيه اسماء. كما ان لعازر وبارتيماوس وملخس فقط هى الاسماء التى ذكرت فى معجزاته. ربما كان هناك الماح للأسماء المنسية على الأرض المكتوبة فى السماء، والتى لها ضجة على الأرض لكن غير مذكورة فى السماء، ولكن اسم لعازر فى هذا المثل موافق تماما. كلمة لعازر معناها «الله ساعدى».

٢ – (لو١٣: ٢٢ – ٣٠) و (مت١٣: ٣١ – ٣٢) و (مر٤: ٣٠، ٣١).

فلا دخول، وإذ أنه حتى الذين فى كبريائهم الروحية ظنوا أنهم يعرفون السيد تماماً سيسمعون الرفض الشنيع "أنى لا أعرفكم" فجاهدوا أنتم حتى تكونوا ضمن الداخلين الذين سيأتون من أربعة أطراف الأرض، وربما ترفض أنت يا إبن إبراهيم. وقد يقع هذا على أذنك غريباً[١] لكن هذا هو الواقع "فها أن آخرين يصيرون أولين وأولين يصيرون آخرين".

وهكذا كان يحول السيد طوال مدة الرحلة كل مقاطعة جهولة، وكل نقد هازئ، وكل سؤال خاطئ، إلى فرصة حسنة لتعليم سامعيه، ومنهم لكافة العالم أجمع. فعل هذا أيضاً عندما قام (ناموسى) ليجربه - لا ليتطلب الهداية وإنما ليجد مجالاً للإعتراض - وسأله السؤال الهام "ماذا أعمل لأرث حياة أبدية" وإذ رأى يسوع الدافع الشرير الذى حدا به إلى هذا السؤال سأله بدوره عن الجواب المعطى فى الناموس الذى أوقف الرجل مدار حياته على تعليمه وتفسيره وأعطى الناموسى ملخصاً حسناً لأحسن تعليم ذائع فى أمته إذ ذاك. وحينئذ أعاد يسوع توكيد إجابته وقال له "إفعل هذا فتحيا" ولكن إذ أراد شيئاً أزيد من هذا، وإذ أراد أن يبرر سؤالاً كان عنده ثانوياً فى الحقيقة وكان يعلم أنه سأله بدافع غير كريم، وإذ أراد أن يغطى تقهقره وخذلانه بسؤال جديد قال ليسوع: "ومن هو قريبى؟" وكان يسوع يعلم أى ضيق وبهتان ستحمل إجابة الناموسى لو أنه سأله رأيه هو فى هذا. ولذلك أجاب على هذا السؤال بنفسه أو بالحرى أعطى الناموسى البيانات اللازمة للإجابة عليه فى مثل من أمتع أمثاله المشهورة.

حدثه كيف أن مسافراً كان يجتاز المنحدر الصخرى من أوروشليم إلى أريحا فوقع بين أيدى اللصوص الذين تركوه مجروحاً، عرياناً، قريباً من الموت، على الطريق. وكان كاهن عائداً إلى مدينة كهنوته قد مر بالطريق ونظره فجاز مقابله وتركه. وأتى لاوى بعدم إكتراث أزيد ورآه وفعل الشئ ذاته ببرود وسكون. ولكن سامرياً مسافراً -شخص ينظر إليه بكراهية طائفية شديدة، شخص يرى فى ذات ظله نجاسة - أتى إليه، وشفق عليه، وإعتنى به، وأركبه على دابته، ومشى إلى جانبه فى ذلك الطريق غير المعبد الحار المترب الخطر، ولم يتركه إلا بعد أن ضمن سلامته وأعد بكرم حاجاته المقبلة. وسأل يسوع الناموسى" فمن من هؤلاء الثلاثة تظنه صار قريباً للذى وقع بين اللصوص؟" ولم يكن الناموسى من الغباوة للدرجة التى يرفض فيها أن يرى. ولكنه علم أيضاً أنه يجب أن يخرج «السامريين» و «الأمميين» من دائرة الأقرباء. فلم تكن له الشجاعة أن يجيب دون تردد «أنه السامرى»، ولكنه إستعمل جملة ملتوية

---

١ - هذا هو المعنى للتعبير الأصلى الوارد فى البشائر وقد ذكر ثلاثة وعشرون مرة فى بشارة متى، وست عشرة مرة فى بشارة لوقا، ولم يرد ولا مرة واحدة فى بشارة مرقس.

وقال "الذى صنع معه الرحمة" "فقال له يسوع إذهب فإصنع أنت أيضاً هكذا". [١]

ولا يتسرب الظن أن يسوع قضى شهري رحلته هذه بجملتها فى تعاليم مهما سمت فقد كان باعثها الظاهري والموحى بها الأخطاء والعداوات التى قابلته فى الطريق، إذ كانت هناك بلاشك ظروف متعددة خلال هذه الأيام أفعمت قلب المخلص بالسرور.

كان من أهمها رجوع السبعين. ولا نخال بالطبع أنهم عادوا جماعة دفعة واحدة، ولكن من حين لآخر عاد إثنان إثنان عند إقتراب السيد من المدن المختلفة والقرى التى أرسلهم إليها. ورجعوا يخبرونه عن نجاحهم الذى ملأ قلوبهم البسيطة بالفرح والإندهاش "قائلين يا رب حتى الشياطين أيضاً تخضع لنا بإسمك" [٢] ومع أنه لم يعطهم سلطاناً خاصاً لإخراج الشياطين، لكنهم إستطاعوا أن يفعلوا ذلك بإسمه. وشاركهم يسوع فى فرحهم إلا أنه حد من شدة سرورهم الفاضة، وحول فرحهم إلى مجرى أنبل وأقدس، وأمرهم أن يتأكدوا تماماً أن الصالح أقوى دائماً أبداً من الطالح، وأن الغلبة على الشيطان - ووقوعه مثل البرق من السماء - قد صارت ويجب أن تظل إلى الأبد. لقد أعطاهم السلطان والنصرة على كل المؤثرات الشريرة. ولكن كان هناك فرح أعمق وأحق وأعظم وأهم وإليه حول أفكارهم. وهذا الفرح الأسمى هو أن أسماءهم قد كتبت ولن تمحى[٣] من سفر الحياة فى السماء.

فضلاً عن هذه المسرة التى ملأت نفس يسوع، إذ علم إيمان تلاميذه الفرح ورجاءهم الكامل، فقد تهلل أيضاً بالروح. لأنه وإن كان الكتبة والفريسيون قد إحتقروه ورفضوه فإن الخطاة والعشارين قد أحبوه وعبدوه. إن المساكين الذين كرز لهم بالإنجيل والعميان الذين فتح عيونهم والمرضى الذين جاء ليشفيهم والضالين الذين كان عمله أن يهديهم ويخلصهم، كل هؤلاء قد تجمعوا بشكر قلبى وشعور حى حول الراعى الصالح والطبيب القادر. ولقد تذمر الكتبة والفريسيون[٤] كعادتهم.

ولكن أية أهمية لتذمرهم لدى أولئك السامعين الفرحين، إذ كان هو يتكلم للتعابى والثقيلى القلوب بكل انواع الرجاء والبركة والتشجيع. فبمثل الأرملة اللجوجة (لو١٨: ١ - ٨) علمهم واجب الإيمان،

---

١ - (لو١٠: ٢٥ - ٣٧).

٢ - (لو١٠: ١٧ - ٢٠).

٣ - (لو١٠: ٢٠) و (رؤ٢٠: ١٢، ١٥).

٤ - (لو١٥: ١ - ٢) هذه هى المرة الثالثة التى وبخ فيها الإعتزال للبر الذاتي. الأولى فى بيت سمعان الفريسى (لو٧: ٣٩) والثانية فى وليمة متى (مت٩: ١١) ومثل هذا قد حدث فى وليمة زكا (لو١٩: ٧).

وأن الإجابة محققة للصلاة المؤمنة الملحة. وبمثل الفريسى المتكبر المتعجرف (لو١٨: ٩ ـ١٤)، البادى الإحترام، الصائم، المتصدق، المتكل على بره الذاتى، المتفاخر على الله فى الهيكل، وعودته إلى منزله غير مبرر، والعشار المسكين الذى لم يستطع أن يتفوه إلا بصرخة واحدة يستدر بها رحمة الله بل وقف بعيداً يضرب صدره مخفوض العينين ـ بهذا المثل علمهم أن الله يحب التواضع الاستغفارى أكثر من مجرد الخدمه الظاهرية وأن القلب المتواضع والروح المنكسرة لا يرذلهما الله.

وليس هذا فقط، بل جعلهم يشعرون أنهم أعزاء لدى الله. وحتى إن أخطأوا فإنهم أولاده على كل حال وهو يحبهم ويقبل توبتهم. وعليه، فلمثلى الخروف الضال والدرهم المفقود أضاف ذلك المثل الذى يتركز فيه كل الإنجيل فى أكمل نعمته، مثل الإبن الضال.

وبالتأكيد لم تجتمع فى لغة البشر كلها ما تجمع فى هذه الكلمات القليلة الخالدة التى حوت دنيا وسيعة من الحب والحكمة والرأفة. كل سطر وكل لمسة من هذه الصورة مليئة بالمعانى الفائقة الجمال الخالدة الأهمية. تطلع الولد البائس لكل ما يمكن أن تهبه الحياة، ترك المنزل القديم، السفر إلى كورة بعيدة، نوبة الملاذ القصيرة هناك، والجوع العظيم فى الأرض، النهاية العاجلة لكل ما يجعل الحياة نبيلة ومحتملة، ما تبع ذلك من الإنحدار والفساد والبؤس المرير، رجوعه إلى نفسه وتذكره كل ما تركه، العودة فى توبة كسيرة القلب عميقة الإتضاع، رؤيا الأب له من بعد، فيضان العطف والرقة على الضال المسكين العائد، الفرح الصاخب لكل أهل البيت من أجل المحبوب المفقود الذى رجع الآن إلى منزله، الحسد غير العادل والشكوى الوضيعة للأخ الأكبر، ثم الختام البديع للمثل كإنتهاء الفاصل الموسيقى "يابنى أنت معى فى كل حين وكل مالى فهو لك لذلك كان ينبغى أن نفرح ونسر لأن أخاك هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد"

كان كل هذا مثلاً إلهياً بالحقيقة عن زيغان الإنسان ومحبة الله بلغة لم تسبق أن وردت فى أى الأدبيات ولم يسبق أن سمعتها أذنا إنسان فى أى مكان.

وهكذا كانت تقترب هذه الرحلة العظيمة رويداً رويداً إلى نهايتها. والسجل الوحيد[1] الذى لحسن حظنا قد حفظها لنا فى بشارة لوقا يمتاز برهبة عظيمة كما لو كان ظل النهاية المحتومة يتخلله. ويظهر أن هذا قد تملك عقول جميع الذين سمعوه فكانوا يترقبون شيئاً عظيماً ـ مخيفاً أو مسراً حسب حالة

١ – أغلب حوادث وأحاديث هذه الرحلة الواردة فى لوقا (٩: ٥١ – ١٨: ١٤) لم يذكرها باقى البشيرين وإنما يتقابل الكل فى (لو١٨: ١٥) و (مت١٩: ١٣) و (مر١٠: ١٣).

ضميرهم - إنتظاراً جديراً، إعلاناً جديداً، أو إظهاراً لما فى أفكار وقلوب الناس. وأخيراً تشجع الفريسيون وسألوه "متى يأتى ملكوت الله؟" (١) كان هناك شئ من الإنتقاص والإستهزاء فى سؤالهم، وكأنهم يقولون "متى ينتهى كل هذا الوعظ والإستعداد ومتى يجئ الوقت المحتوم؟" وأظهرت إجابته أن وجهة نظرهم كانت كالمعتاد خاطئة جداً. إن مجئ ملكوت الله لا يتحقق بترقبهم الضيق المليئ بالدهشة(٢). مسحاء كذبة وربيون مضلون سيقولون "هاهو هناك أو هنا".

ولكن إن كانت لهم الإرادة والفطنة لكى يعرفوا ملكوت الله ويقبلوه فهو فى داخلهم. هذه الإجابة كانت كافية للفريسيين، ولكنه أضاف لتلاميذه كلمات أخرى ليفهموا منها المعنى الأكمل لأنه حتى هم لم يتحققوا تماماً أن ملكوت الله قد أتى، فى ذلك الحين إن قالوا لهم "هاهو هناك... أو هنا" فلا ينخدعوا ولا يضيعون فى قلق أو جدل لا خير فيهما فرص الحياة الذهبية. لأن مجئ إبن الإنسان سيكون لامعاً، فجائياً، مخوفاً، عاماً، لا يقاوم مثل خاطف البرق. ولكن قبل هذا اليوم يجب أن يتألم ويرفض، وفضلاً عن هذا، فإن مجيئه الثانى سيومض فى إنتصاف ليل دنيا حالكة الشهوات غير منتظرة مجيئه كما داهم الطوفان الناس أيام نوح. ومثل مطر النار والكبريت الذى أحرق الفساد البراق الذى لمدن السهل.

لقد إندهش وخاف التلاميذ من كلمات لها هذه المهابة والرهبة فسألوه فى خوف "فى أى مكان يارب" قال لهم "حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور أيضاً" فأرمجدون السرية لا يمكن تحديدها بخطوط عرض وطول. فأينما وجد شر شخصى، وأينما وجد فساد شعبى، وأينما وجد إنحطاط عام، فإلى هناك تسرع نسور العدل للإنتقام الإلهى.

ألم يكن التاريخ كله شاهداً عظيماً لهذه النبوات الخالدة فى مصير الأمم والشعوب. أما حدث أنه كما لو كان يسوع قد أتى مراراً ليخلص أو يدين؟



١ - (لو١٧: ٢٠ - ٣٧).

٢ - (لو١٧: ٢٠) «يترقب» معناها الأصلى «بترقب خاطئ» قارن (١٤: ١).

الفصل الخامس والأربعون

عيد التجديد

لم يقض يسوع ساعات أكثر راحة وهناء فى أى مكان آخر غير ذلك المنزل الهادى عند تلك الأسرة الصغيرة التى فى بيت عنيا التى يخبرنا يوحنا البشير أنه كان يحب جميع أفرادها. وهذه الأسرة مكونة من مرثا ومريم وأخوهما لعازر ونرى من البشائر أن هذه الأسرة كانت على شئ من اليسر ورفعة وكرامة القدر ونباهة الذكر، ليس فقط فى القرية الصغيرة، بل فى أوروشليم أيضاً. وإنا لنجده هناك أمسية عيد التجديد، أى عند نهاية هذه الرحلة العلنية التى قصد بها الإعلان التام والنهائى لملكوته الآتى.

من الطبيعى أن تحدث جلبة فى هذا البيت الصغير عند تشريف ضيف كهذا لذلك أسرعت مرثا المجدة المحبة المضيافة، وقد ركزت فكرها على واجبات الكرم هنا وهناك، تعد له لوازمه اللائقة. وكانت مريم أختها متلهفة أيضاً على استقباله كما يجب[1]، ولكن فكرها من جهة احترامه اختلف عن فكر أختها. كانت تعلم أن مرثا تسر جداً من القيام بكل حاجاته المادية فتركتها وجلست عند قدميه لتسمع كلامه. ولا جناح على مريم فى هذا، لأنه واضح أن أختها كانت مسرورة من العمل الذى اختارته فى اتمام أقصى مايمكن من واجبات الضيافة والكرم، ولأنها كانت قادرة تماماً بدون أية مساعدة على القيام بكل ماهو مطلوب. ولا جناح على مرثا فى خدمتها النشيطة، إنما خطأها الوحيد أنها فى حماس نشاطها الخارجى قد فقدت ميزان سلامها الداخلى. بينما كانت تتعب وترتب أضج سلامها مس من الغيرة عندما رأت أختها هادئة جالسة "كسولة" أو كما ظنتها هى عند قدمى الضيف العظيم تاركة عبء التعب كله يقع على كاهلها. وعلى ذلك لم تتمالك مرثا نفسها عندما تملكتها أول خلجة من الغيظ، نراها تدخل فجأة[2] بما يكاد يقرب من نفاذ الصبر وتسأل يسوع إن كان لم يحفل ومريم جالسة مكتوفة اليدين بينما قد تركتها وحدها منهمكة فى سائر الأمور "فقل لها أن تساعدنى".

إن الروح غير الكاملة التى لاترى ماهو صالح وعظيم وحقيقى، والتى كثيراً ما تخيب فى جهد الحصول عليه، تكون عادة قاسية فى حكمها على تقصيرات الآخرين. ولكن الروح العلوية السامية التى

---

١ - (لو ١٠ : ٣٩).

٢ - هذا هو معنى الكلمة الأصلية فى عدد ٤٠ والتى لا يستعملها تقريباً سوى لوقا البشير (لو ٢٠ : ١) و (٢ : ٣٨) و (اع ٢٣ : ٢٧) قارن (اتس ٥ : ٣).

تقترب إلى مقياس الإنسان الكامل تتخذ حكماً أهدأ وألطف تجاه التقصيرات والضعفات التى لابد أن يقع نظرها عليها كل يوم لأن القلب يكون أكثر إتساعاً، ولذلك فجواب يسوع وإن كان توبيخاً إلا أنه رقيق للغاية، ولا يؤلم القلب الأمين المسكين لربة المنزل المحبة هذه. الذى إذ نسمعه نتخيل الإبتسامة نصف الحزينة ولكن الكاملة الحنان التى أضاءت وجهه وهو يقول "مرثا مرثا انك لمهتمه ومضطربة من أجل أمور كثيرة والحاجة إلى يسير أو واحد. أما مريم فاختارت لها النصيب الصالح الذى لن ينزع منها".

لم يقصد يسوع أن يوبط أى مقدار من العمل يقدم لخدمته ولكن فقط روح الإنهماك والإرتباك والإفتقار إلى الهدوء والسكون، والمغالاة فى الضيافة. ووبط أيضاً الميل إلى مؤاخذة الآخرين والتدخل فى شئونهم، الأمر السائد بين كثير من المسيحيينَ المتحمسين مثل مرثا، والذين ينقصهم تماماً رجاء مريم المقدس وهدوءها الكامل[١].

الغالب أن بيت عنيا كانت مكان راحة يسوع أثناء زياراته لأوروشليم لأن الطريق كان يسيراً مبهجاً على جبل الزيتون إلى أن يجئ إلى الهيكل "وكان شتاء" [٢]. وعيد التجديد كان يحتفل به ووافق فى تلك السنة فى العشرين من ديسمبر. أسسه يهوذا المكابى تخليداً لذكرى تطهير الهيكل سنة ١٦٤ ق. م ومثل عيد الفصح وعيد المظال كان يقام ثمانية أيام بسرور وفرح عظيم[٣] وكان يدعى أيضاً "عيد الأنوار".

كان الرواق الشرقى للهيكل يسمى رواق سليمان. وهنا تحت الأعمدة االلامعة المزينة للعيد بالنفائس البديعة جاء يسوع. وفجأة، كما بحركة سبق تدبيرها، أحاطت[٤] به طائفة الفريسيين وابتدأوا يسألونه بصبر ذاهب "إلى متى تعلق أنفسنا. ان كنت أنت المسيح فقل لنا علانية" قل لنا بإخلاص، وقل لنا الآن، وهنا فى رواق سليمان، فقد أشتاقوا من كل قلوبهم أن يتخذوا من يسوع مسيا زمنيا طائفياً، ولكنهم قاوموه بكره كابن الله ومخلص العالم. لقد أظهر لهم بأحاديثه مراراً وتكراراً أنه كان مسيا بمعنى أعظم وبروح أسمى مما كانوا يحلمون، ولكن مسيا بالمعنى الذى كانوا يطلبون لم يكن، ولم يرد أن يكون. لذلك لم يغشهم بقوله "أنا مسيحكم" بل أحالهم على تعاليمه المتكررة التى تعلن بوضوح عن

---

١ – «مرثا مرثا إنك لمهتمة ومضطربة» كلمة مهتمة فى الاصل تعنى الإنهماك الداخلى ومضطربة تعنى الإرتباك الظاهرى «الحاجة إلى يسير أو واحد».

٢ – (يو ١٠: ٢٢).

٣ – راجع هذه الحوادث فى (امكا٤: ٥٢ – ٥٩) و (٢مكا١٠: ١ – ٨).

٤ – (يو ١٠: ٢٤).

شخصيته، وعلى الأعمال التى تشهد له. لو كانوا من خرافه - وهنا يذكرهم بالحديث العظيم الذى فاه به فى عيد المظال قبل هذا بشهرين - لكانوا سمعوا صوته، ولكان قد أعطاهم حياة أبدية، ولظلوا آمنين فى حفظه، إذ لا يقدر أحد أن يختطفهم من يد أبيه. ثم أضاف برزانه "أنا وأبى واحد نحن".

المعنى الذى أراده لا يمكن أن يلتبس على أحد. لم يكن هو المسيا فقط بل يقول انه الإله. فللوقت انحنوا ليتناولوا[١] بغضب بعضاً من الحجارة الكبيرة المقدسة المبعثرة هناك لأبنيه فى الهيكل لم تتم بعد. ولكن سلطانه غير المضطرب جعلهم يرمون سلاحهم عندما قال لهم "أعمالاً كثيرة أريتكم اياها من عند أبى فمن أجل أى عمل ترجموننى" [٢]. "أجابه اليهود لسنا من أجل أى عمل حسن نرجمك بل لأجل تجديف لأنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً". وكانت إجابة السيد شعاعاً مضيئاً مثل الذى كان كثيراً يضيء به تفسير الكتب. قال "اليس مكتوباً فى ناموسكم أنا قلت أنكم آلهة". "فإن كان قد قال آلهة[٣] (الوهيم) لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن أن ينقض المكتوب فالذى قدسه الآب وأرسله إلى العالم تقولون أنتم إنك تجدف لأنى قلت أنى أنا إبن الله". واستشهد بحياته وأعماله كبراهين لا تدحض على وحدانيته مع الآب. إن كانت عصمته من الخطايا، وإن كانت معجزاته غير كافية لتشهد بأنه لا يمكن أن يكون المدعى المجدف الذى يودون أن يرجموه، فأى براهين أخرى يمكن أن تقدم؟ كانوا يدينون بالوحدانية المحصورة دارجين على أن يفكروا بأن الله بعيد بعداً لا نهائياً عن الإنسان، مع أنه كان واجباً أن يعلموا من الناموس والأنبياء أن الله قريب من فم ومن قلب كل الذين يحبهم، بل أنه يمنحهم حلولاً نورانياً من مجده الأبدى. ألم يكن هذا دليلاً على أن من أتى ليكمل الناموس ويسن بدلاً منه ناموساً أفضل، من شهد له من قبل جميع الأنبياء، من أعد يوحنا الطريق أمامه، من تكلم بما لم يتكلم بمثله إنسان، عمل أعمالاً لم يأت بنظيرها شخص منذ تأسيس العالم، من برر كل أقواله وأعطى قوة لكل أعماله بجمال لا عيب فيه لحياة لا غبار عليها - ألم يكن هذا ديلاً على أنه كان صادقاً عندما قال إنه والآب واحد وانه إبن الله؟

كان دفاعاً لا يقاوم، فلم يجرأوا أن يرجموه. ولكن لأنه كان وحيداً وبلا سلاح، "فطلبوا أيضاً أن يمسكوه" ولكنهم لم يجسروا. مجرد وجوده أخافهم. وكل ما استطاعوه أنهم أفسحوا له طريقاً وألقوا عليه نظرات البغضاء وهو يجتاز بينهم. لم يتبق شك أن أى تعليم بينهم يذهب هباء. ما كان ممكناً أن

---

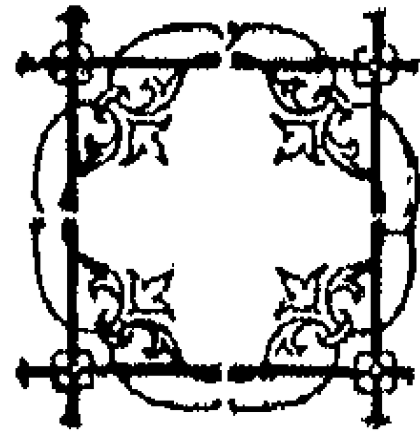
١ - الكلمة الأصلية فى (يو١٠: ٥٩) «تناولوا» وفى (يو٨: ٥٩) «فأخذوا».

٢ - «ترجموننى» الكلمة الأصلية معناها الحرفى «أنتم ترجموننى».

٣ - (مز٨٢: ٦).

ينزل إلى مستوى أفكارهم عن المسيا، كما لم يقدروا أن يسموا بأفكارهم إلى مستواه. فبقاؤه بينهم معناه تعريض حياته للخطر يومياً بدون جدوى. وها قد صارت اليهودية مغلقة أمامه كما كان الجليل مغلقاً أمامه أيضاً، ولم يبق سوى اقيلم واحد فى كل أرض موبخنه مأمون العاقبة. وذلك الإقليم هو البرية عبر الأردن. فولى وجهه شطر بيت عنيا الثانية التى فى عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمد أولاً ومكث هناك.

ولا نعلم كم بقى هناك، ولا الحوادث التى وقعت إذ ذاك. ولكنا نعلم أن بقاءه هناك لم يكن فى خفية لأن يوحنا البشير يخبرنا أن كثيرين أتوا إليه[1] وآمنوا به، وأقروا أن يوحنا الذى كان عندهم مثل نبى مع أنه لم يعمل آية واحدة قد شهد عن يسوع فى نفس هذا المكان وأن "كل ماقاله عنه فهو حق".



١ - (يو ١٠: ٤١، ٤٢). راجع ماكتب عن بيت عنيا سالفاً.

الفصل السادس والأربعون

الزيارة الأخيرة للبرية

أينما كانت كرازة السيد علنية ولو إلى حد ضئيل كنت تجد دائما فريسيين يراقبونه ويتجسسون عليه ويجتهدون أن يمسكوا عليه حكما خاطئا أو قرارا مريبا. ولكن ربما لم يخترع خبثهم سؤالاً تحوط اجابته المصاعب الجمة مثلما أتوا (ليجربوه) قائلين "هل يحل للانسان أن يطلق امرأته لكل ذنب؟" (١)

والسؤال مفعم بالصعوبات من كل ناحية. ولأسباب متعددة لأن أمر موسى فى الموضوع كان معلنا بغموض وإبهام.

كان تشريع موسى أنه: " اذا اتخذ رجل امرأة وتزوج بها فان لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء (باللغة العبرانية «إرفت دابهور» أى «مسألة عرى») وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر" (٢). والآن يتوقف كل شيء فى تفسير هذا القانون على معنى «ارفت دابهور» أو على الأصح على تفسير الكلمة الواحدة إرفت. المعنى الشائع هو وصمة أو دنس أو نجاسة. ولكن هلليل ومدرسته قد فسرها بأن [الرجل يمكنه تطليق امرأته لأى كراهية يشعر بها نحوها].

أما شماى ومدرسته فقد فسرها بعدم جواز الطلاق الا لعلة فضيحة عدم الأمانة. وإذ أن تعدد الزوجات كان قد انتهى عهده فقد توصلوا الى ما يقر به بسهولة ابدالهم زوجة بأخرى.

أما يسوع فى حكمه ماكان يهتم لا بغضب الجموع ولا بسخط الظالم على السواء. بل كان همه الوحيد أن يجيب حتى أمثال هؤلاء السائلين بما يرفعهم الى دوائر النبل والسمو.

ولم يجاوبهم رأسا بل أرشدهم الى النبع الذى يجدون فيه الجواب الحق. وضع أمامهم جنبا الى جنب النظام الأولى وترتيب موسى، وقابل سؤالهم (هل يحق) بسؤاله (أما قرأتم). ذكرهم أن الله من البدء قد خلقهما ذكرا وأنثى، مظهرا أن ارادته هى أن علاقة الزواج أشد العلاقات ارتباطا وعدم فكاك(٣)، وانها

---

١ - (مت١٩ :١ - ١٢) و (مر١٠: ٢ - ١٢).

٢ - (تث٢٤ :١).

٣ - (تك٢: ٢٤).

تتقدم وقد تعلو عن كافة ماسواها.

وإذ أرادوا أن يصطادوه بمخالفة للناموس النارى سألوه "إذا لماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فيطلقن"؟ وهذا السؤال ينطوى على منحى كاذب كثير الذيوع بين الذين يعبدون الحرف. وعلى هذا المنحى الكاذب لهرمهم المقلوب يضعون استنتاجات أشد زورا ونكرا. ففى الحال صحح يسوع خطأهم قائلا "من أجل قساوة قلوبكم أذن موسى أن تطلقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا". ثم أصدر حكما قانونيا فى لغة شديدة "ان من يطلق امرأته بغير علة الزنى يجعلها تزنى ومن يتزوج بمطلقة يزنى" وقد إرتبك الفريسيون واحتاروا وشملهم الخزى كالعاده ووجدوا أنفسهم تجاه حكمة أعلى بما لا يقاس مما لهم وفطنة إلهية أسمى مما عندهم.

ولا شيء يظهر أهمية وجوب تعاليم المسيح هذه أكثر من أنها أدهشت تلاميذه أنفسهم إذ رأى تلاميذ السيد فى تعاليمه الطاهرة أن عدم الزواج ظهر لهم أفضل. وقد أفصحوا عن رأيهم هذا بمجرد ما انفردوا معه فى المنزل.

ولأن جميع كلمات يسوع المسيح كانت كاملة النفع إلهيه الطهارة. لم يعط جوابه للزيجة مقاما أقل يضطرب من جرائه ضمير ملايين ممن قد بورك زواجهم من السماء. رفض أن يمنح العزب تزكية عامة، بل قرر أن عدم الزواج غير موافق لجميع الناس عدا الأقلية النادرة. فالبعض لا يصلحون للمضجع الطاهر لظروف ولادتهم أو بنيتهم[1]، والبعض لا يصلحون لما نالهم من جراء العبودية الظالمة الغشومة التى كانت ذائعة بكل قساوة شناعتها. والبعض أبعدوا ذهنهم عن فكرة الزواج لأسباب دينية أو أغراض أخرى سامية. ان واجب بعض الناس أن يتزوجوا ويخدموا الله وهم فى الزيجة. وواجب غيرهم ألا يتزوجوا ويخدموا الله فى بتوليتهم.

وخير إيضاح لهذا هو ماجاء فى الاصحاحيين السابع[2] والتاسع من الرسالة الأولى الى الكورنثيين. وماعناه السيد هو أنه الى جانب الحالات النادرة التى لا توجد فيها المقدرة الطبيعية على الزواج فانه يوجد قليلون ـ وعلى هؤلاء فقط ينطبق قول الرسول ـ يعتقدون أنه نظرا "لأزمنه خاصة أو ظروف ماسة

---

١ – (مت١٩: ١٠ – ١٢).

٢ – من المؤسف جدا أن أوريجانوس قد تمسك بحرفية هذة الآية وخصى نفسه. بينما تعاليم كثيرة للسيد كانت يجب أن توضح له خطأ تعديه على نظام خليقة الله وأن هذا ليس بالعاصم عن الشهوات الرديئة أو الخطية اللحمية. ولقد عاش هذا الرجل العظيم ليرى ويعترف أنه فى هذا قد أخطأ بنبل لان خطأ العقل كان مقترنا بعوامل غاية فى الحماس، منبعثة من قلب كامل التضحية.

أو لمناسبة واجبات خطيرة هامة بدعوة علوية" فالزواج بحكمة وحق يجب أن ينحى جانبا لأنهم قد منحوا من الله موهبة ونعمة العفة وقوة حياة الطهارة الناجمة من عقل قد تقدس وصار نبيلا لتوفره على خدمة روحية خاصة.

ثم ملاحظة جميلة مؤثرة على أن الزواج مكرم فى كل شىء والمضجع غير دنس فذاك الذى من أوائل أعماله أنه بارك حفلة عرس جعل من أواخر أعماله أن يحتضن الأطفال بين ذراعيه. ويبدو أنه قد عرف فى البرية أن موعد ارتحاله قد حان لذلك أحضر اليه آباء وأمهات وأصدقاء ثمر المضجع الطاهر، أولاداً بل أطفالاً صغاراً لكى يضع يديه عليهم ويباركهم. أرادوا أن يودعوه وداعاً رزينا قبل أن يتركهم نهائياً. أرادوا أن يربحوا وثيقة بركته الخاصة للجيل الآتى. لكن التلاميذ ظنوا أن عملهم هذا جرئ فضولى وعز عليهم أن تأتى عدد من النسوة والأطفال ويحشروا ذواتهم بين أشخاص وأعمال هامة[1]، ولكن ذاك الذى أتى ليكون صديقاً لكل الخطاة ونصيراً لكل المرضى والمتألمين أتى أيضاً ليعلو بالمرأة إلى مركزها اللائق. أتى لكى يكون صديق الطفولة التى لا حول لها والحافظ الأمين للصبوة البريئة حتى أن الصغار الذين لا يعقلون يجب أن يقبلوا فى كنيسته بسر العماد ليصيروا أعضاء له وورثة لملكوته. وأعاد توبيط الرسل اليهم وقال لهم كلمات حفظها لنا البشيرون بكل حنانها الخالد "دعوا الأولاد يأتون إلىّ ولا تمنعوهم من أن يأتوا إلى لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات". وضمهم إليه ووضع يديه عليهم وباركهم وكرر التحذير الذى نحتاج إليه دائماً، ولذا أنذرنا به مراراً "إن لم ترجعوا وتصيروا مثل هذا الصبى فلا تدخلون ملكوت السموات".

عندما انتهى هذا المنظر الجميل التعليمى العميق يخبرنا متى البشير أنه مضى ربما فى رحلته إلى بيت عنيا الثانية كما سيذكر فى الفصل القادم. وفى الطريق حدثت حادثة أخرى أرتسمت عميقاً فى عقول ناظريها ودونها ثلاثة من البشيرين.

شاب غنى جداً وذو مركز عال يبدو أنه قد تملكته فجأة فكرة أنه قد أهمل حتى ذاك الوقت فرصة لا تعوض، وأن الشخص الوحيد الذى فى مقدرته أن يفسر له معنى الحياة الحقيقى وسرها كان مزمعاً أن يفارقهم. فاعتزم ألا يفوته الوقت فأتى مسرعاً متلهفاً متحمساً على صورة أدهشت كل من رآه ورمى نفسه تحت قدمى يسوع وصرخ قائلاً "أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لأرث الحياة الأبدية".

إن كان هناك شئ شيق فى التواضع الممتزج بالحماس لهذا الشاب الحدث الممتاز فقد كان فى

١ – قارن رفض المرأة الشونمية من جيحزى (٢مل٤: ٢٧).

سؤاله الشئ الكبير مما يؤاخذ عليه. لأن فكرته أن يستطيع أن يرث الحياة بصلاح يعمله مبنية على أساس خاطئ من أصله. وإذا مزجنا القراءة الأصلية الواردة فى متى ماجاء فى البشائر الأخرى لظهر أن اجابة السيد كانت هكذا "لماذا تسألنى عن الصلاح[١]. ولماذا تدعونى صالحاً. لأن الصالح واحد وهو الله". لم يقبل لقب "الصالح" كما لم يقبل لقب المسيا عندما أعطى له على غير معناه الحقيقى، لكن يسوع أضاف قائلاً بنفس الروح "ولكن أن كنت تريد أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا".

لم يكن الشاب ينتظر إجابة بسيطة ظاهرة مثل هذه. لم يستطع أن يدرك أن السيد يقول عن الوصايا العشرة ولذا سأله بدهشة قائلاً "وماهى؟" وإذ كان الشاب يريد أن يعمل شيئاً أحاله يسوع على الوصايا المكتوبة فى اللوح الثانى لأنه كما لاحظ بعضهم بجمال "أن يسوع كان يرسل المتكبرين للناموس بينما يدعو المتواضعين للإنجيل". فقال الشاب متعجباً "هذه كلها حفظتها منذ حداثتى" ولاشك أنه يجوز أن يكون قد حفظها حرفياً -كما حفظها ملايين - ولكن واضح أنه كان يعلم قليلاً عن معنى هذه الوصايا كما فسرها يسوع. والسيد إذ رأى إخلاصه نظر إليه وأحبه[٢] وقدم له اختباراً قصيراً يفحص دخيلة نفسه فأعطاه عملاً عظيماً ليعمله وقال له "يعوزك شئ واحد. اذهب وبع مالك وإعطه للفقراء.... وتعال اتبعنى"

كان هذا كثيراً. ومضى الشاب الحاكم مغموماً والإكتئاب يملأ قلبه وسحابة حزن تقطب جبهته[٣] لأنه كان ذا قنية كثيرة. فضل راحة الأرض على كنوز السماء ولم يرد أن يشترى أشياء الأبدية بترك الأشياء الزمنية. سقوط هذا الشاب فى الإمتحان الذى وضعه له يسوع أحزن السيد فنظر إلى تلاميذه وأظهر "كيف أنه يعسر على ذوى الأموال الدخول إلى ملكوت الله".

وقد وقعت الكلمات على آذانهم وقعاً صعباً جداً حتى أرتاعوا وفكروا: ألا يمكن أن يكون الرجل المقبول غنياً، أو يستحيل أن يكون الغنى مقبولاً؟ ولكن يسوع أجابهم وهو يخفف من شدة وألم كلماته باستعمال اللقب المحبب «يا بنى». "يابنى كيف أنه يعسر على ذوى الأموال الدخول إلى ملكوت الله"[٤]. ثم أضاف بنظرة اشفاق للتلاميذ . كما يستخلص من إنجيل متى - "إنه يسهل دخول جمل فى

١ - من المهم ملاحظة أن لقب «المعلم الصالح» غير معروف بالمرة عند اليهود ولم يرد بتاتاً فى التلمود ولذلك كان نشازاً ظاهر فى إستعمال الشاب له.

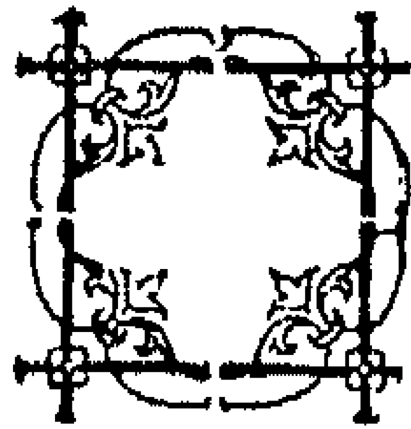
٢ - (مر١٠: ٢١) والكلمة الأصلية معناها «قدره». ولكن تعريف الفعل جعلها تعنى «سر به».

٣ - فى (مت١٩ : ٢٢) «حزينا». وفى (مر١٠: ٢٢) «عبس» قارن ايضاً (مت١٦: ٣) و (لو ١٨: ٢٣).

٤ - فى حالة «متكلين» على أموالهم يكون الأمر مستحيلاً لا عسيراً. حقيقة إن الإتكال على المقتنيات لا إمتلاك المقتنيات هو مايجعل دخول الملكوت عسيراً.

ثقب إبرة من أن يدخل غنى فى ملكوت الله". ولاشك أن الدهشة قد بلغت بهم أقصى حد.

لكن الأشياء المستحيلة فى الطبيعة هينة للنعمة، وما هو غير مستطاع عند الناس مستطاع عند الله. وحينئذ أجاب بطرس "هوذا نحن قد تركنا كل شئ وتبعناك فماذا عسى أن يكون لنا" كانت إجابة يسوع تشجيعاً كاملاً وفى الوقت ذاته تحذيراً رهيباً. أما التشجيع فباعلانه أنه ما من حالة تضحية إلا وتكافأ حتى فى هذا الدهر وحتى فى وسط الإضطهادات بمائة ضعف من البركات الروحية وتعوض فى الدهر الآتى بالحياة الأبدية. وأما التحذير فقد سبق أن سمعوه وهو أن أولين كثيرين سيكونون آخرين وآخرين أولين. ولكى يثبت فى أعماق قلوبهم أن ملكوت السموات ليست مسألة تجارية وأنه يوم الدينونة قد تتقدم الأمم على اليهود والعشارون على الفريسيين وخطاة حديثى الإيمان على رسل قديمى العهد – ضرب لهم مثل رب الحقل وفعلة الكرم الذى يتضمن بين تعاليمه المتعددة الحقيقة الصادقة أنه بينما لا يحرم جميع الذين يخدمون الله من مكافآتهم الحقة الكاملة فأنه لا يوجد فى السماء لا حسد ولا غيرة فى تفاضل الإستحاقات، ولا جهاد وضيع وتقاتل على الأسبقية، ولا إختلافات عمن أدى أعظم الخدم أو من نال أقل النعم.



الفصل السابع والأربعون

إقامة لعازر

هذه المقابلات والتعليمات الوداعية ربما قد وقعت أثناء اليومين اللذين كان فيهما يسوع مقيماً فى بيت عنيا البرية بعد إن وصلته من بيت عنيا الأخرى التى كثيراً ما وجد فيها بيتاً الرسالة المحزنة "ها أن الذى تحبه مريض" [1]. وكان لعازر هو الصديق الشخصى الحميم والوحيد خارج دائرة الرسل. وكانت الرسالة المستعجلة إلتماساً ظاهراً لحضور ذاك الذى فى حضرته -كما نعلم- لم يحدث أن مات أحد.

ولكن يسوع لم يحضر، وإكتفى -وقد شغله عمله المهم- بأن بعث بهذه الإجابة: "هذا المرض ليس هو مرض الموت بل لأجل مجد الله". ثم أقام فى الموضع الذى كان فيه يومين آخرين، وفى نهايتهما قال لتلاميذه "لنذهب إلى اليهودية أيضاً". فذكره تلاميذه كيف أن اليهود قد فتشوا عنه هناك ليرجموه وسألوه كيف يجسر أن يذهب إلى هناك أيضاً. ولكنه أجابهم أنه يمكنه أن يسير فى إطمئنان فى ساعات يوم عمله الإثنتى عشرة لأن نور واجبه الذى هو إرادة أبيه السماوى يحفظه من الخطر. وحينئذ أخبرهم أن لعازر نام وأنه ذاهب ليوقظه.

وإذ فهموا أنه يتكلم عن النوم الطبيعى إضطر أن يفصح لهم أن لعازر قد مات، وأنه يفرح لذلك من أجلهم لأنه سيذهب ليرده إلى الحياة. فقال توما المحب: "لنمض نحن أيضاً لكى نموت معه"، كما لو كان قد قال "أنها مجازفة غير مجدية وخطرة لكن على أى حال لنذهب"

وبدأ يسوع فى الصباح الباكر. ومن السهل قطع المسافة -وهى نحو عشرين ميلاً. قبل غروب الشمس. ولكن عند وصوله مكث خارج القرية الصغيرة. فقربها من أوروشليم - إذ لا تبعد عنها سوى ميلين - ومكانة العائلة وغناها قد إستدعيا عدداً كبيراً من عظماء اليهود ليعزوا الأختين ويشاركوهما الأحزان، بينما كانت مريم -كما هو خلقها الهادىء المفكر- جالسه فى المنزل غير عالمة بمجىء السيد كانت مرثا الأكثر نشاطاً قد أتاها خبر إقترابه وذهبت فى الحال لمقابلته. لقد مات لعازر فى نفس اليوم

---

١ - (يو ١١ : ١ - ٤٦) الكلمة فى عدد ٣ تعنى «الذى تحبه أنت» ولم تستعمل هذه الكلمة الا مرة للتلميذ الذى كان يسوع يحبه، بينما فى عدد ٥ تستعمل الكلمة التى معناها الأصلى «يهتم بهما» قيلت عن الشقيقتين. ونلاحظ أن فى ثلاث مرات من الأربع التى قيل فيها «التلميذ الذى كان يحبه» أستعملت الكلمة «يقدره» وفى المرة التى أستعملت كلمة «يحبه» كتبها البشير عن لسان غيره.

الذى فيه وصلت ليسوع الرسالة أنه مريض. ومضى يومان مكثهما فى البرية وإنقضى الرابع فى الطريق. ولم تستطع مرثا أن تفهم هذا التأخير المحزن فقالت فى رنة توبيخ رقيق "يا سيد لو كنت ههنا ما كان أخى ليموت". وحتى الآن ظهر أنها ترجو أملاً غير واضح يخفف من هذا الحرمان. والكلمات القليلة التالية ذات أهمية عظمى لأنها إعلان من يسوع أفاض العزاء ليس فقط لمرثا ولكن للملايين منذ ذلك الزمان وإلى إنتهاء العالم: "سيقوم أخوك"

وما كانت تحلم مرثا أن أخاها سيوقظ من نوم الموت ولذلك أجابت "أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة فى اليوم الأخير".

"قال لها يسوع أنا هو القيامة والحياة من يؤمن بى ولو مات فهو يحيا. وكل من هو مؤمن بى فلن يموت إلى الأبد. أتؤمنين بهذا؟ ".

لم يكن لروح مثل روح مرثا أن تتفهم هذه الأفكار المتبادلة بين الموت الطبيعى والروحى الذى جاء فى هذا الحديث العميق. ولكن بدون أن تنتظر لتسبرغوره ألجأها حبها وإخلاصها أن تجيب " نعم ياسيد أنا أؤمن أنك أنت المسيح إبن الله الآتى إلى العالم".

وإذ نطقت بهذا الإعتراف العظيم ذهبت لتدعو أختها التى سأل يسوع عنها، وجدت مريم فى المنزل. والخفية التى أدت بها الرسالة والسرعة الصامتة التى قامت بها لمقابلة سيدها تظهران أن الحرص كان مطلوباً وأن زيارة يسوع لم تكن خلوا من الخطر. واليهود الذين كانوا يعزونها والذين تركتهم فجأة هكذا تبعوها إلى القبر ظانين أنها ذهبت لتبكى هناك، ولكن سرعان ماعلموا سبب ذهابها إذ رأوا يسوع خارج القرية محوطاً بأصدقائه، وأبصروا مريم تسرع إليه وترتمى عند قدميه بنفس التوبيخ الأليم الذى إستعملته أختها "يا سيد لو كنت ههنا ما كان أخى ليموت".

إهتياج علخفتها تجلت فى كلماتها القليلة، وإنزعاجها المفرط لم يدعها أن تنطق بأكثر مما قالت. وربما بإتضاع أكمل قد تركت الأمر كله لسيدها.

كل هذه المؤثرات حركت بحنان عطف يسوع الرقيق إلى حد عميق. وإحتاج الأمر جهداً كبيراً لضبط النفس[١]

١ - «تألم بالروح واضطرب» الكلمة الاصلية معناها «ازعج نفسه».

فقال لهم: "أين وضعتموه؟" فقالوا له "يا سيد تعال وأنظر". وبينما كان يتبعهم فاضت عيناه[١] بدموع صامته. ولم يفت القوم ملاحظة دموعه. ولكن بينما لاحظ بعضهم بإعزاز وإجلال أنها برهان محبته للميت تساءل آخرون بخبث وربما أيضاً بما يقرب من السخرية: "أما كان يقدر هذا الذى فتح عينى المولود أعمى أن لا يدع صديقه هذا يموت أيضاً؟"

وعلم يسوع ملاحظتهم وسمعها. ومرة أخرى تجلى المنظر أمامه لكن بأحزانه الخالصة والنادبين الصاخبين والعداوة غير المكتومة كلها مجتمعة حول عمل الموت الزريع وغمر كل روحه. ومع علمه أنه سيقيم الميت فمرة أخرى إهتز كيانه بعاصف من الأحاسيس[٢]. وكان القبر مثل قبور أغنياء اليهود عبارة عن فجوه عرضية محفورة فى الصخر لها حجر كبير أو لوح من الصخر يغطى فتحتها[٣]. فأمرهم يسوع أن يرفعوا هذا "الجلل" كما كان يسمى حينذاك. وعندئذ تدخلت مرثا إذ أنه قد مضى اليوم الرابع لدفن ليعازر، فالغالب أن يكون قد دب إليه التعفن. ولكن يسوع ذكرها بوعده بهيبة. فرفعوا الحجر عن المكان الذى وضع فيه الميت. ووقف يسوع عند المدخل بينما إرتد الباقون قليلاً وعيونهم مثبتة على القبر الساكن المظلم. ووقع عليهم جميعهم صمت عندما رفع يسوع عينيه إلى أبيه شاكراً.

وحينئذ إرتفع ذلك الصوت ذو السلطان المهوب الرنان، وكما فى مثل هذه الظروف نطق بأوجز الكلمات وقال: "ليعازر هلم خارجاً". وهذه الكلمات رنت مرة أخرى فى كورة الظلام المحجب الذى يفصلنا عن الدنيا الآتية. وسرعان ما نطق بهذه الكلمات حتى خرج كالسيف من وسط القبر شخص ملفوف فى أكفانه البيضاء المريعة وهو مربوط اليدين والرجلين ومنديل حول الرأس وقد أعيد كما يخبرنا التقليد ليعيش بعد ذلك ثلاثين سنة أخرى كلها حياة ونور وحب وأمل.

قال إبراهيم فى مثل لعازر والغنى "إن كانوا لا يسمعون لموسى والأنبياء فإنهم ولا إن قام واحد من الموتى يقتنعون". كان هذا هكذا مع كثيرين ممن شاهدوا هذه الآية، ولكن كثيرين أيضاً لم يفلحوا فى شيء سوى أن يحملوا عنها خبراً غضوباً منذراً بالويل والثبور للسنهدرين بأوروشليم. وإجتمع السنهدرين بروح البغضة والحيرة لم يقدروا أن ينكروا الأعجوبة ولم يريدوا أن يؤمنوا بمن فعلها، وخافوا

---

١ – «فدمعت عينا يسوع». الكلمة الاصلية معناها «ذرفتا الدموع» اى بكى يسوع فى صمت وليس كما انتحب بصوت عال كما فعل على اوروشليم (لو١٩ : ٤١).

٢ – (يو٩ : ٣٨).

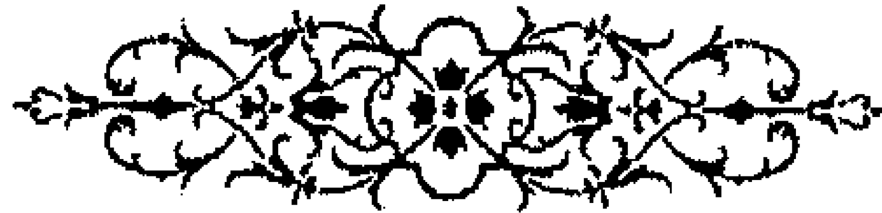
٣ – لازالت مدينه بيت عنيا الى يومنا هذا تسمى أليعازرية نسبة لليعازر وتذكارا دائما للمعجزة. ولازالت هناك فى وسطها حفرة يلصقون بها انها قبر ليعازر.

فقط من تأثيره المتزايد ونمو سلطانه، وإستخلصوا أنه إنما يفعل ذلك ليقيم نفسه ملكاً وينتهى الأمر بتدخل الرومان وفقدانهم وجودهم السياسى. وظلوا فى حنقهم يقدمون بدون جدوى مشورات مختلفة إلى أن وقف يوسف قيافا ليخطب فيهم. كان هو رئيس الكهنة الآسمى والظاهرى. وقدم إقتراحاً أنانياً ظالماً فاجراً خبيثاً، وأخبر السنهدرين بغضب أن كل مساعيهم جهل مطبق وأن الأمر الوحيد الذى يجب أن يعمل هو أن يضحى فرد سواء كان بريئاً أم مذنباً عن أمة، أو كما قال يوحنا البشير ليس عن الأمة فقط بل من أجل كل أبناء الله المشتتين فى كل العالم. قبلوا دون تردد صوت هذه النبوة غير المقصودة وبقبولها قد ملأوا كأس الغضب والدينونة لأنفسهم.

ومن ذلك اليوم صدر الحكم السرى أنه يجب قتل يسوع. ومن ذلك الوقت كان السيد عائشاً وثمنه على رأسه.

ومع أن هذا الحكم كان سرياً بحتاً فى البدء فقد شاع فى الحال ولم يجهله يسوع.

ولذلك فالأسابيع القليلة الباقية من حياته على الأرض إلى أن جاءت الساعة التى كان فيها الفصح الذى أزمع فيه أن يضع ذاته بإرادته قد قضاها فى العزلة عائداً إلى مدينة صغيرة مجهولة بالقرب من البرية إسمها افرايم. وهناك بعيداً عن جلبة وتدبيرات أعدائه صرف هذه الأسابيع الباقية براحة وسكون وسرور محوطاً فقط بتلاميذه يعلمهم فى ذلك الإنفراد المملوء بالسلام ويعدهم للعمل العظيم، ومد مناجلهم فى تلك الحقول التى إبيضت فى العالم كله. وقليلون -أو ربما ليس غير تلك الجماعة الوفية - من علموا مكان عزلته لأن الفريسيين لما رأوا أنه يستحيل عليهم إبقاء تدبيراتهم سراً أصدروا أوامرهم علانية ليدل عليه كل من علم أين هو ليمسكوه ولو بالقوة ويتموا عليه الحكم الذى أصدروه. ولكن حتى ذلك الوقت لم تثمر الرشوة بعد.



الفصل الثامن والأربعون

أريحا وبيت عنيا

من على جبل افرايم المخروطي الشكل أمكن يسوع أن يشاهد جماعات الحجاج عندما اقترب الفصح وإبتدأ ويعبرون وادى الأردن ميممين شطر أورشليم ليطهروا أنفسهم من كل النجاسات الناموسية قبل ابتداء العيد العظيم[1] لقد حان الوقت لترك مكان عزلته ونزل من افرايم إلى الطريق العام ليسير مع قوافل حجاج الجليل.

وإذ أدار ظهره للمدينة وابتدأ الرحلة التى سوف تنتهى فى أوروشليم استولى على كيانه كله تنبؤ وقور وسمو في الروح. وأضفى عظمة جديدة غريبة لكل حركة ولكل نظرة. كان تجلى تضحية الذات مثل ذاك التجلى السابق الذى للمجد أوقع كل من رآه فى الدهشة والخوف بدون أن يستطيع تبيان السبب[2]. لا توجد سوى صور قلائل فى الانجيل أكثر تأثيراً من هذه التى ترى فيها يسوع سائراً إلى موته ماشياً وحده في الممر المؤدى إلى الوادى السحيق بينما يتبعه تلاميذه سائرين خلفه فى إحترام عميق ممزوج بتوقع الخوف والأمل، وعيونهم مثبتة عليه، وهو يتقدمهم برأس منحن، وهم لا يجرأون أن يقطعوا عليه تأملاته. ولكنه أخيراً وقف واستدعاهم وأفصح لهم مرة أخرى ـ للمرة الثالثة ـ بإيضاح وبيان وتفصيلات مدهشة مرهبة عما سبق وأخبرهم به أنه سيسلم للكهنة والكتبة فيحكمون عليه ويسلمونه لأيدى الأمم فيهزأون به ويجلدونه. وللمرة الأولى يفصح بدون غموض عن الخاتمة المروعة. أنهم سيصلبونه وأنه فى اليوم الثالث يقوم. ولكن عقولهم كانت ملآى بأمال المسيا وكانت مشغولة من قبل بالاعتقاد الجازم أن ملكوت الله آتية بكل مجدها فمر هذا التنبؤ على أذهانهم كالريح العاطلة فلم يقدروا ولم يريدوا أن يفهموا.

وليس هناك دليل أكثر غرابة على عدم مقدرتهم فى تفهم معنى ما قاله يسوع من الطلب الذى قدم له بعد قليل وفى نفس الرحلة والذى سجله البشيرون جميعهم[3] الطلب الذى قدم فى غير أوانه والعجيب فى عدم روحانيته. أتت إليه سالومى - إحدى ملازمات يسوع الدائمات ـ وابناها يعقوب ويوحنا اللذان كانا من المتقدمين بين الرسل وخروا إليه وسجدوا وسألوه معروفا. فاستفسر عما يريدون،

---

١ - (مت٢٠: ١٧ - ١٩) و (مر١٩: ٣٢ - ٣٤) و (لو ١٨: ٣١ - ٣٤).

٢ - (مر١٠: ٣٢).

٣ - (مت٢٠: ٢٠ - ٢٧) و (مر١٠: ٣٥ - ٤٥) و (لو١٨: ٣٢ - ٣٤).

وحينئذ تكلمت الأم نيابة عن ولديها الكبيرى القلب الطامعين، وطلبت أن يجلس فى ملكوته واحد عن يمينه وواحد عن يساره. وإحتمل يسوع بلطف أنانيتهم وخطأهم. قد طلبا فى جهلهما وعماهما المكانين اللذين بعد أيام قليلة سوف يشاهدانهما - للخزى والخوف - محتلين باللصين المصلوبين. كانت أفكارهم منشغلة باثنى عشر عرشاً، أما أفكاره فبثلاثة صلبان. كانا يرجوان تيجان أرضية أما هو فأخبرهما عن كأس من المرارة، وصبغة من الدم[1] فهل يستطيعان أن يشربا معه من هذه الكأس ويصطبغا معه بهذه الصبغة؟ وربما قد فهما الآن ما يعنيه، ومع ذلك أجاباه بجرأة [نستطيع]. وحينئذ أخبرهما أنه يجب عليهما حقاً أن يفعلا ذلك. ولكن الجلوس عن يمينه أو يساره فقد حفظ لمن أعد لهم من أبيه السماوى[2] يقول باسيليوس "إن العرش جزاء الأتعاب وليس هبة تمنح للطامعين. إنه مكافأة البر وليس استجابة للالتماسات".

فلما سمع العشرة بما كان تبرموا بالطبيعة وتمكلهم الحنق على هذا المجهود السرى الذى بذله الأخوان لكى يحتفظا لنفسيهما برفعة الشرف، غير عالمين أن التقدم فى الشرف على الأرض - وبهذا فقط كانوا يحلمون - يجب أن يكون هو السبق فى الاستشهاد أو الاستزاده فى الضيقات[3] وهذا سيعلن لهم فى حينه ولكن حتى الآن قد جمعهم وعلمهم - كما علمهم مرارا[4] أن اسمى الشرف إنما يكتسب عن طريق أعمق الاتضاع، مخبراً إياهم أن رؤساء هذا العالم يتميزون بشبه سلطان قليل وقصير على إخواتهم، وكثيراً ما يفرضونه قسرا ويظلمون به إخواتهم. ولكن فى ملكوت السموات يجب أن يكون رئيس الجميع هو خادم الجميع. بلى إن السيد الأعلى قد قضى حياته فى أحقر الخدمات، وها هو ذا مزمع أن يضعها فدية عن الكثيرين.

ولما قرب من أريحا[5] تكاثفت حوله جموع الحجاج السائرين معه. كان اليوم إما عشية الخميس

---

١ – (يو١٨: ١١) و (رؤ١٤: ١٠) و (مز٧٥: ٨).

٢ – النص الأصلى يفيد «ليس لى أن أعطيه إلا للذين أعد لهم من قبل أبى» (مت٢٠: ٢٣) قارن (مت٢٥: ٣٤) و (٢تى٤: ٨).

٣ – (أع١٢: ٢) و (رؤ١: ٩).

٤ – (مت١٠: ٤٢) و (ابط٥: ٣).

٥ – (مت٢٠: ٣٠ – ٣٤) و (مر١٠: ٤٦ – ٥٢) و (لو١٨: ٣٥ – ٤٣). يذكر متى أنهما أعميان أما الباقون فيذكرون واحداً. ومتى يذكر «وفيما هو خارج من أريحا»، بينما يذكر لوقا بوضوح «ولما قرب من أريحا» أى قبل أن يدخلها ولكن لن تضير هذه الاختلافات أى قارئ متسع المدارك إذ لا تتناول «صدق» الحديث، ولكن «دقة» إيراده. أما فكرة ما كنيت أن هذه المعجزة قدحدثت بين الأريحتين – أريحا القديمة العبرانية والمدينة الحديثة نصف الهيرودوسية فهى فكرة غير مستحيلة وكذلك أيضاً الفكرة أن أحدهما شفى عند دخول المدينة والآخر عند الخروج منها.

٧ نيسان أو صبيحة الجمعة ٨ نيسان. فى مكان ما قرب هذه البلدة جلس بارتيماوس بن طيما يستعطى هو وزميل له فى البؤس. وإذ سمع جلبة الجموع السائرة وأخبر أن يسوع الناصرى كان عابراً صاح قائلاً: [يا يسوع بن داود ارحمنى]. واستاءت الجموع من هذا الضجيج العالى ورأوه غير لائق بمقام ذاك الذى سيدخل أوروشليم كمسيا أمته. ولكن يسوع كان قد سمع صراخه وتأثر قلبه الحنون فوقف وأمر أن يدعى إليه. وحينئذ غير الجمع الزاخر نغمته وقالوا لبرتيماوس - وهو الشخص الظاهر فى الحادثة حتى أن اثنين من البشيرين أهملا ذكر رفيقه بتاتا - [تشدد وانهض وتعال فانه يدعوك] فتفجر سروره حالا وطرح رداءه، اى عباءته، وقفز[١] وإقتادوه إلى يسوع. فسأله [ماذا تريد أن أصنع بك] ؟. فأجابه الأعمى ملقباً إياه ربونى[٢]، وهو أعظم لقب احترام يعرفه، وقال [يا سيد أن أبصر]. فقال له يسوع [اذهب إن إيمانك قد خلصك]. ولمس عينيه وعينى زميله، فللوقت أبصرا وتبعاه مع الجموع الفرحة وهما يمجدان الله.

كان لزاما أن يستريح فى أريحا قبل أن يبدأ السير فى الطريق المؤدى منها إلى أوروشليم. ويقطع فى نحو ست ساعات وكان الكهنة والعشارون هما الطائفتين الممتازتين فى أريحا إذ كانت مدينة كهنوتية. وكان المنتظر طبيعيا أن يكرم الملك ابن داود خليفة موسى فى بيت أحد من أولاد هارون. ولكن المنزل الذى اختاره يسوع ليستريح فيه حتمته ظروف أخرى[٣] كانت فى المدينة محلة للعشارين تأسست لجباية الضرائب. وكان أحد رؤساء العشارين يدعى زكا. كان كره الشعب له مضاعفاً لأنه كان يهودياً. وكان يؤدى وظيفته الخسيئة قرب المدينة المقدسة. كانت مرتبته الرسمية تزيد فى كره الناس له إذ كان اليهود يعتبرون أنه ما وصل إليها إلا باجتهاد خارق فى خدمة مستعبديهم الرومان، وينظرون إلى ثروته كدليل على تعدد اختلاساته. هذا الرجل كانت له رغبة حادة أن يرى بعينيه أى نوع من الرجال كان يسوع. ولكن إذ كان قصير القامة لم يستطع أن يختطف نظرة بسبب الجمع المزدحم، فأسرع إلى الأمام وجرى فى الطريق الذى سيجتازه يسوع وصعد على جميزة[٤] تظلله. تحت هذه الشجرة سيمر يسوع وستكون لهذا العشار فرصة طيبة ليرى الشخص الوحيد فى أمته الذى لم يظهر كرها مركزا متعصبا للطائفة التى ينتمى إليها، وليس ذلك فقط بل وجد بين أفرادها كثيراً من المستمعين المخلصين ورفع

---

١ - (مر١٠: ٥٠).

٢ - ألقاب الشرف كانت تصاعديا: «رب» ، «ربى» ، «ربان» و «ربونى».

٣ - (لو١٩: ١ - ١٠).

٤ - الجميزة (لو١٩: ٤) لا يجب أن تختلط بشجرة التوت (لو١٧: ٦) وشجرة الجميز سهل جدا تسلقها.

واحدا منهم إلى مرتبة رسول. ورآه زكا مقبلا، ولا ريب أن قلبه قد خفق بشدة من الفرح وعرفان الجميل عندما وقف النبى العظيم، المسيا المنتظر من أمته، تحت الشجرة ونظر إلى فوق، وناداه باسمه، وامره أن يسرع وينزل لأنه معتزم أن يكون ضيفاً فى بيته، لن ينظره زكا فقط بل سيأتى يسوع إليه ويتعشى معه ويصنع عنده منزلا. المسيح الممجد ينزل ضيفاً على العشار الممقوت. بفرح ظاهر أسرع زكا من على فروع الجميزة وتقدم ليرى الطريق إلى منزله. ولكن تذمرات الجموع كانت عالية طويلة عدائية[1] افتكروا أنه أمر غير لائق، غير سياسى، بل يستوجب التعنيف والزجر، أن الملك فى وسط أتباعه المتحمسين يلوذ بمنزل رجل ذات وظيفته علم على الانحطاط القومى. ثم هو حتى فى وظيفته هذه ذو شهرة سيئة. غير أن ابتسامة يسوع الباعثة على الاطئمنان، وكلمته الكريمة كانتا عند زكا أعظم من كل تذمرات وشتائم الجموع. لم يحتقره يسوع، فأى قيمة لاحتقار الناس ؟ إن يسوع قد أكرمه، فلم لا يكرم ذاته ويحترمها. يجب أن يجتهد أن يكون أهلا، أو على الأقل أكثر استحقاقاً لضيفه المجيد، أو على أقل القليل سيعمل ما فى وسعه ليكون أقل عارا. لذلك وقف ظاهراً بين الجمع وقال للسيد الذى شهد بتوبته وسجل مغفرته [هانذا يارب أعطى المساكين نصف أموالى. ومن ظلمته شيئا أعوضه أربعة أضعاف]. كانت هذه التضحية العظيمة بالشئ الذى كان حتى ذاك الوقت أعز شئ عنده. وهذا الاعتراف العلنى، كان وثيقة لسيده وبرهانا على أن عطفه عليه لم يذهب هباء. وعلى ذلك فالحب بلمسة واحدة قد فك أختام الينابيع المغلقة التى للتوبة بينما الاحتقار كان يغلقها إلى الأبد. ونظر إلى العشار الذى صار نبيلا برفضه السريع لكل ثمار الخطية وهو أصدق اختبار للتوبة الحقيقية وقال له [اليوم صار خلاص لهذا البيت لأنه هو أيضاً ابن لابراهيم]، بالمعنى الحقيقى الروحى وليس بالمعنى الحرفى السطحى المنتفط المادى.

ثم لكى يريهم أى خطأ كانت القواعد التى بنوا حكمهم بها عليه لأنه ارتضى ضيافة زكا بدأ - إما أثناء الطعام فى بيت العشار أو على احتمال أصح عندما عاودوا الارتحال ثانية - يقول لهم مثل الأمناء[2]. قاله على نمط الحوادث المعتادة فى تاريط العائلة الهيرودية فأخبرهم عن رجل شريف ذهب إلى كورة بعيدة ليحصل على ملك جديد، وسلم لعبيده أمناء ليحسنوا الاتجار فيها والربح منها حتى يعود. وكان عبيده يكرهونه فأرسلوا سفارة وراءه ليرفض ولا يملك عليهم. ولكن رغما عن ذلك تثبت ملكه وعاد ليعاقب أعداءه وليكافئ عبيده حسب أمانتهم. ولكن عبدا خائنا بدلا من أن يستعمل المبلغ الذى أؤتمن عليه صره فى منديل وأعاده إليه مع شكاية غير عادلة وغير مؤدبة من قسوة سيده. فهذا الرجل جرد من

١ - (لو١٩: ٧) «الجميع تذمروا».

٢ - (لو١٩: ١١ - ٢٧).

مناه وأعطى للأكثر استحقاقا وصلاحية من عبيده الأوفياء. وهؤلاء قد كوفئوا بغنى، أما المواطنون الثائرون فقد أحضروا أمامه وذبحوا. هذا المثل له عدة وجوه فى تطبيقه. كان يدل على سرعة انتقاله من العالم، وعلى البغضة التى تؤدى إلى رفضه، وعمل الخائنين فى استخدام كل ما ائتمنهم عليه، والشك فى عودته، والايقان أنه عندما عاد كان الحساب عسيراً. ويدل على دينونة الكسالى والجزاء الأوفى لمن يخدمونه صدقا والهلاك التام لكل من حاولوا رفض سلطانه.

بعد ذلك لم يقصد أن يجعل أوروشليم مكانا يستريح فيه وإنما فضل كالعادة أن يمكث فى البيت المحبوب فى بيت عينيا. وقد وصل إلى هناك مساء يوم الجمعة ٨ نيسان.

إنقضى يوم السبت في هدوء. وفى المساء أقاموا له وليمة عشاء[١] وقد ذكر لنا متى ومرقس أن الوليمة كانت فى بيت سمعان الأبرص. وأن الشخصيات البارزة فى هذه الوليمة كانت أسرة بيت عنيا وليعازر كان محط الأنظار كشخص يسوع. وبالاختصار قد تزاحم نفر عديد ليروا ليعازر لأن أسرته كانت ذا مقام رفيع وأفرادها معروفون جيدا ومحبوبون. ثم إن الأعجوبة الشهيرة والتى لا ريب فيها التى عملت لأجله جعلت كثيرين يؤمنون بيسوع. غير أن هذا قد حمس الفئة الحاكمة فى أوروشليم وزاد فى تهورهم الردئ حتى لقد اجتمعوا فعلا ليتشاوروا كيف يتخلصون من هذا الشاهد الحى على قوة المسيح الذى رفضوه.

وقد كانت هذه الوليمة بعيدة الأثر، كبيرة الأهمية، لأنه حدثت فى أثنائها حادثة هامة كانت السبب المباشر لبدء النهاية المظلمة المروعة.

بينما كانت مريم جالسة فى حضرة أخيها المحبوب الذى اختطف من براثن الموت، وفى حضرة سيدها الذى تحبه وتعبده أعمق التعبد لم تستطع حبس عواطفها. وشعرت بوجوب إعلان حبها وشكرها وتعبدها بعلامة ظاهرية. فقامت وأحضرت وعاء مرمريا من طيب ناردين هندى وجاءت بلطف حيث جلس يسوع وكسرت القارورة فى يديها وسكبت هذا العطر الخالص[٢] الكثير الثمن أولا على رأسه ثم

---

١ – (مت٢٦: ٦ – ١٣) و (مر١٤: ٣ – ٩) و (يو١٢: ١ – ٩) كان يوم السبت السابق للفصح يسمى عند اليهود «السبت العظيم» يظهر أن البشيرين الثلاثة يضيفونه ليومين قبل الفصح ولكنهم يفعلون ذلك لذكر خيانة يهوذا التى «عقدت نهائياً» يوم الأربعاء من الأسبوع المقدس. ولكننا نرى من يوحنا أن هذه كانت المقابلة الثانية معهم أما المفاوضة الأولى فقد تركت تفصيلاتها دون جلاء.

٢ – (مر١٤: ٣) قارن «قارورة طيب ناردين خالص» وجود مثل هذا العطر الغالى يظهر غنى الأسرة وهو هدية قيمة ملوكية وكلمة «خالص» معناها «اصلى» وهو خير تفسير لها. كان عملها انفجارا عظيما من عواطف الحب والحزن والتعبد لأن مسح رجلى أى ملك مهما عظم بالطيب لم يكن معروفاً.

على قدميه. وحينئذ - غير واعية لوجود أى أحد سواه - مسحت قدميه بخصل شعرها الطويل بينما امتلأ جو البيت كله بالرائحة الجميلة. كان عمل تضحية وإخلاص وإيثار فريد. والجليليون المساكين الذين تبعوا يسوع ولم يعتادوا أية رفاهية، وإن كانوا يعلمون جيدا قيمة هذه الهدية الغالية ربما أدهشهم مقدار هذا التبذير والاسراف فى برهة قصيرة. ولم يشعر إلا من سمت روحه أن هذه الرائحة الشذية التى عطرت المنزل هى أمام الله تقدمة زكية، وأن هذه العطية كانت قليلة جداً إزاء محبة التى قدمتها أو مقام الذى قدمت إليه.

كان هناك شخص رأى أنه مهما كان السبب فان فعلها هذا غريب بل كريه. لا توجد رذيلة تتملك فتعمى الفكر وتحط القدر مثل رذيلة الطمع. والطمع كان الخطية المختمرة المتسلطة على الروح المظلمة التى ليهوذا الخائن. ثم إن رؤيته لتضحية مريم الباذخة وتيقنه أن الوقت قد فات لتحويل هذا المبلغ الجسيم إلى الصندوق الذى كان مجرد إحرازه ووجوده فيه قد يريح طمعه، فضلا عن المبالغ التى كان يستخلصها لنفسه منه، كل هذا ملأه حنقاً وجنوناً، ملكه الشيطان... شعر كما لو كان قد غبن هو شخصيا، وكما لو أن النقود كانت من حقه، وبطريقة لا تعقل قد اختلست منه وحرم منها، فقال بغيظ [لماذا هذا الاتلاف؟].

واحسرتاه...! كم من المرات تتكرر هذه الكلمات. لأنه كلما وجد عمل تضحية مجيد فانه يوجد دائماً يهوذا ليهزأ به ويسخر منه. [فانه قد كان يمكن أن يباع هذا بأكثر من ثلثمائة دينار ويعطى للمساكين]. ثلثمائة دينار قيمتها تربو على عشرة جنيهات (حالياً عشرة آلاف جنيهاً)! ساوره جنون حانق لافتكاره فى هلاك هذا القدر الكبير من النقود مع أنه كان مستعدا أن يبيع سيده بأقل من ثلث هذا المبلغ. رأت مريم أنه قليل جداً أن تدهن به قدمى المسيح. أما يهوذا فرأى أن ثلثه مكافأة كافية لبيع حياة سيده ذاتها[١].

تمسحه فى قوله [ويعطى للمساكين]، درس تعليمى كبير. كان الستار الذى احتمى وراءه ليخفى اشتهاءه إيداع هذه النقود عنده لكى يتمكن من استلاب بعضها وزيادة ما فى جيبه الخاص إذ كان سارقاً.

ولكن يسوع لم يسمح لهذه العدوى من الحنق العالمى أن تمتد أكثر - وكانت قد بدأت تسرى فى بعض التلاميذ البسطاء - ولم يسمح أن تتحمل مريم من جراء فعلها النبيل أكثر من هذا - وقد بدأت أن

١ - (مت٢٦: ٨) و (يو١٧: ٢).

تصير محور نظرات قاسية آلمتها وجعلتها تضطرب فقال: "دعوها. لماذا تتعبون المرأة. فإنها قد عملت بى عملاً حسناً. لأن المساكين معكم فى كل حين أما أنا فلست معكم فى كل حين. وهذه إنما ألقت الطيب على جسدى لتكفينى" ثم أضاف تلك النبوة التى مازالت إلى يومنا هذا تتمم بدقة "أنه حيثما يكرز بهذا الإنجيل فى العالم كله يخبر أيضاً بما عملته هذه المرأة تذكاراً لها".

(لتكفينى) واضح إذن أن الحكم عليه ودفنه كان قريباً وكانت هذه أيضاً ضربة قاصمة للآمال المسياوية. فلا غنى أرضى ولا إرتفاع إدارى يجب أن يتوقعه أتباع من سيموت سريعاً. وقد يجوز أن هذا كان دافعاً آخر ليأس السارق الخائن الذى سمع خيبة آماله علنياً. وفى كرهه وجنونه ويأسه ذهب خفية هذا المساء بالذات إلى أوروشليم، وإستأذن فى الدخول إلى حجرة المداولة التى لرؤساء الكهنة فى بيت قيافا، وإسترق المقابلة الأولى القتالة التى ساومهم فيها حتى يسلم إليهم سيده "وقال لهم ماذا تعطونى وأنا أسلمه إليكم؟"

بلاشك إن الكهنة اليهود الماكرين قد ختلوا ذلك الرسول اليهودى الجهول المسكين لأن كل ما عرضوا عليه وقدموه له مبلغ ثلاثين من الفضة[1]. ـلا يتجاوز الثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه حالياً ـ وهو ثمن أقل العبيد. بهذا الثمن سيبيع سيده، وببيع سيده يبيع حياته نفسها بلعنة العالم إلى منتهى الأجيال. وعلى ذلك كان يهوذا يتحرك طوال الأسبوع الأخير من حياته ومن حياة سيده وغرض القتل يجوس فى قلبه المظلم اليائس. ولكن حتى تلك اللحظة لم يعين الوقت أو تقرر الخطة. ولكنه إستلم فقط عربون تسليمه. وإنما يبدو أنه كان هناك إتفاق عام أنه لا يجب أن يحاول هذا فى العيد لئلا يحدث شغب فى الشعب من الذين آمنوا به وقبلوه سيما من الحجاج العديدين الذين من وطنه الجليل. وإعتقدوا أن فرصاً عديدة ستسنح لهم إما فى أوروشليم أو أى مكان آخر عندما ينتهى الفصح وتعود المدينة المقدسة إلى هدوءها العادى.

وحوادث اليوم التالى برهنت على صدق حكمتهم الأرضية وشهدت بطول باعهم فى قرارهم الخبيث هذا.

١ — (خر ٢١ :٣٢) و (زك ١١ :١٢) كلمة «تعاهدوا» فى (مت ٢٦ :١٥) يظهر أنها تعنى «دفعوا» لم يكن الشاقل إذ ذاك متداولاً وربما دفعوا له بعملة سورية أو فينيقية تعادله. وتفاهة المبلغ تدل على أن السلطات لم تكن تنظر لخدمات اليهود كما لو كانت ضرورية لا غنى عنها، بل فقط مما توفر التعب وإراقة الدماء.

الفصل التاسع والأربعون

أحد السعف

كان هناك شعور عام أنه رغم كل ما حدث فى الآونه الأخيرة فإن يسوع سيحضر فى عيد الفصح. كان القوم[1] يتناقشون بإستمرار فى إحتمال مجيئه إذ كان حضوره المرتقب منتظراً بدهشة عميقة وإهتمام.

وعلى ذلك فعندما علموا صباح الأحد باكراً إنه لابد سيدخل المدينة المقدسة أثناء هذا اليوم كان الحماس عظيماً جداً. ونشر الخبر عديد من اليهود الذين زاروا بيت عنيا فى الليلة السالفة بعد أن أنهى غروب الشمس السبت وصار مباحاً أن يطيلوا رحلة يوم السبت. ولذلك إستعد جمع كثير جداً لمقابلته والترحيب بالمخلص الذى أقام الميت، إبتدأ رحلته ماشياً. وإذ أن يسوع كان محوطاً بتلاميذ عديدين فمن الواضح أنه إتخذ الطريق الوسيع السهل.

مروا تحت نخيل بيت عنيا وإقتربوا من حدائق التين فى بيت فاجى وهى ضاحية صغيرة أو مزرعة ويغلب أنها كانت جنوبى بيت عنيا وعلى موقع النظر منها. وإلى هذه القرية أرسل يسوع إثنين من تلاميذه. وأخبرهما أنهما إذا دخلا القرية سيجدان أتاناً مربوطة ومعها جحش فليحلاهما ويأتيانه بهما. فإن صادف أن عارض مالكهما فليسكتاه بقولهما له "الرب محتاج إليهما". وحدث تماماً كما قال إذ وجدا فى الزقاق خلف البيت[2] الأتان والجحش الذى كان معداً لهذا الغرض المقدس إذ لم يكن أحد قد ركبه قط[3]. ولما علم صاحبهما بطلبهما سمح لهما فى الحال بأخذ الحيوانين فقادهما إلى يسوع واضعين الثياب عليهما إظهاراً للإحترام الرسمى[4]

وركب يسوع على الجحش الذى لم يعتله أحد قبله وإقتاده من لجامه بعض تلاميذه. وسرعان ما نزع القوم ثيابهم يفرشونها[5] أمامه على الطريق، وقطعوا أغصان الزيتون والتين والجوز وطرحوها أيضاً

---

١ – (مت٢١ :١ –١١) و (مر١١ :١ – ١١) و (لو١٩: ٢٨ – ٤٠) و (يو١٢: ١٢ – ١٩).

٢ – (مر١١ :٤).

٣ – (عدد ١٩ :٢) و (تث٢١: ٣) و (صم ٦ :٧).

٤ – قارن (٢مل٩: ١٣).

٥ – (مت٢١: ٨).

على الطريق. وحينئذ إنفجر التلاميذ فى حماس يهللون قائلين "هوشعنا يا إبن داود. مبارك الملك الآتى بإسم الرب ملك إسرائيل. هوشعنا فى الأعالى" [١]. وتلقفت الجموع هذا التسبيح المفرح ورددوه وأخبروا بعضهم كيف أنه أقام ليعازر من الأموات[٢] ولكن الرسل تذكروا فى الأيام المستقبلة أنه قد أتم نبوة زكريا القائلة! " لا تخافى يا إبنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً أتان وجحشا ابن أتان"[٣]

وكان الطريق يتصعد تدريجياً إلى مراقى جبل الزيتون فى حقول خضراء وتحت أشجار مظللة إلى أن ينحنى فجأة نحو الشمال تظهر هنا أوروشليم بوضوح كامل للنظر. وإذ أنها محاطة بوديان منخفضة خضراء تبدو عالية هذه المدينة ذات الذكريات التى تعد بالآلاف. وكانت أشعة الشمس فى الصباح تتكسر على الأبراج الرخامية وقباب الهيكل الذهبية وتنعكس كالنيران المشتعلة فى أضواء بهية تضطر الناظر أن يخفض بصره أو يحوله عنها. فكان منظرها لا يقاس فى جلاله مع منظر مدينة اليوم الخربة المتهدمة. فمن يقدر أن يصف بل من يقدر أن يتدخل فى موجة العطف الإلهى العظيمة التى شعت من نظر المخلص فى هذه اللحظة، على قبر ليعازر ذرف دموعاً صامتة ولكن هنا بكى بنحيب مرتفع[٤]. المخلص يبكى على المدينة التى فات زمان إفتقادها! الملك يتنبأ عن الخراب الكامل الذى سيحل بالأمة التى أتى ليملك عليها! بينما كانت الجموع تنظر وتدهش ولا تفقه ما تفكر أو تقول صرخ "لو كنت أنت تعلمين فى هذا اليوم ماهو لسلامك" وهنا قاطع الحزن الجملة، وعندما وجد الصوت ليستأنف أضاف فقط "أما الآن فقد خفى عن عينيك. إنه ستأتى عليك أيام يحاصرك أعداؤك بمترسة ويحيطون بك ويضايقونك من كل جهة ويدكونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجراً على حجر حيث أنك لم تعرفى زمان إفتقادك". "كانت هذه آخر دعوة من مجد الله على جبل الزيتون قبل إختفاء بهائه عن عيونهم إلى الأبد".

ولقد تمت هذه النبوة حرفياً بشدة وفظاعة قبل إنتهاء خمسين عاماً.

لم يشأ تيطس أن يحاصر المدينة فى البدء، ولكن يأس وعناد اليهود ألجآه إلى ذلك فأحاطها بسور من

---

١ – هذه التسابيح مقتبسة من مزامير التهليل (١١٣ – ١١٨) والتى كانت ترنم فى عيد المظال وهوشعنا = اوصنا = خلصنا (مز ١١٨: ٢٥).

٢ – (يو١٢: ١٨) الترجمة الأصلية للحرف ليست «حينئذ» ولكن «من أجل هذا» أو «للذلك».

٣ – هذا الاقتباس مزيج من (أش٦٢: ١١) و (زك٩: ٩) والترجمة العبرانية معناها الحرفى «سيأتى فقيراً راكباً على أتان بل على جحش ابن أتان».

٤ – «فدمعت عينا يسوع» (يو٩: ٣٥) «بكى عليها» (لو١٩: ٤١).

الطين والخوازيق. فلما تخرب سور اللبن هذا أقام حولها حائطاً من البناء. ولم يرد أن يضحى بالهيكل، بل عمل كل جهد ممكن للمحافظة عليه، ولكنه إضطر أن يتركه رماداً. ولم يعتزم أن يكون قاسياً على سكان المدينة، ولكن تعصبهم المميت فى مقاومتهم محا كل رغبة عنده فى الإبقاء عليهم حتى أنه أخذ على عاتقه ما قارب إفناء هذا الجنس، ومن يتطلب فى أوروشليم الحديثة أن يجد اثاراً من أيام المسيح لهذه المدينة التى فتحت عشر مرات فعليه أن يحفر عليها على عمق عشرين قدماً تحت الثرى وقلَّ أن وجد شيئاً. وإنما لا زالت فى جهة واحدة من المدينة فقط بعض الحجارة الضخمة شاهدة على مدى الخراب الذى تمثله يجتمع إلى جوارها كل يوم جمعة بعض اليهود الفقراء واقفين كل واحد فى الكفن الذى سيدفن فيه وهم يبكون ويولولون على أمجادهم المتناثرة الغابرة التى لبيتهم الخرب المدنس.

توقف الركب برهة ريثما ذرف يسوع دموعه السخينة ونطق بويلاته التنبؤية.

ولكن ها قد أبصر القوم الذين فى وادى قدرون وحول أسوار أوروشليم والحجاج الذين قد تزاحمت مظالهم وخيامهم على المنحدرات الخضراء -أبصروا الجماعة المقبلة وسمعوا صدى هتاف الفرح فعلموا معنى هذا الهزيج. وفى ذلك الوقت كان النخيل كثيراً حول أوروشليم، وإن كان اليوم قليلاً، فقطعوا من سعفه النضير، وتدفق الناس على الطريق ليرحبوا بالنبى الآتى. وعندما تلاقى الركبان الزخران، من القوم الذين صحبوه من بيت عنيا وممن خرجوا ليقابلوه من أوروشليم، تركوه راكباً فى الوسط وتقدم الذين يسيرون قدامه والذين خلفه وهم يلوحون بالأغصان ويهللون قائلين (هوشعنا) فى طريقهم إلى باب أوروشليم.

وكان بين الجموع بعض الفريسيين، فكان فرح الناس حنظلاً وأفسنتينا عندهم. ما معنى هذا الهتاف المسياوى والألقاب الملوكية؟ أليست غير لائقة وخطرة ؟ ولماذا سمح هو بها؟ "يا معلم إنتهر تلاميذك". ولكنه لم يفعل بل قال لهم "إن سكت هؤلاء صرخت هذه الحجارة". وربما أعادت هذه الكلمات إلى ذهنهم التحذيرات والويلات ضد الأنانية والقسوة ثم نقمة الخراب الكامل الواردة فى حبقوق النبى "لأن الحجارة من الحائط تنادى والشطية من الخشب تجاوبها". وشعر الفريسيون أن لا قوة لهم على مقاومة تيار هذه الحماسة. وعندما وصلوا إلى الأبواب إرتجت المدينة كلها بحماس وخوف وتساءلوا (من هذا) وهم يطلون من المشربيات ومن على السطوح أو ينتحون جانب الأسواق والطرقات ليفسحوا لهم كى يمروا. وأجاب مصاحبوه بشيء من الزهو بمواطنهم العظيم "هذا هو يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل"

لم يتقدم الموكب ذاته أزيد من قاعدة جبل المريا أش٢:٢ حيث لا يمكن أن يجتاز بعدها إنسان فى حلة السفر أو بأرجل غير مغسولة. فقبل أن يصلوا إلى باب شوشان تفرق الجموع ودخل يسوع إلى هيكله.

وعندما نظر إلى كافة الأشياء التى حوله تحرك قلبه ثانية بغضب شديد. لثلاث سنين مضت، فى الفصح الاول، قد طهر الهيكل ولكن ويا للأسف عبثاً! لأنه سرعان ما عاد الطمع فتغلب على الإحترام وإحتلت الردهات المزينة بالفسيفساء والمظلات ذات العمد التى فى رواق الأمم قطعان من الثيران والماشية وباعة الحمام والصيارف، وإمتلأ المكان من قذارة الماشية المحتشدة وإنبعث منه صدى أصوات المساومات ورنين الذهب. لن يبدأ تعليمهم فى المكان المدنس، فمرة ثانية بمزيج من الحزن والغيظ طردهم خارجاً دون أن يقدر أحد أن يقاوم غيرته المحرقة. ولم يحتمل أن يصيروا بيت أبيه الذى هو بيت الصلاة لكل الأمم إلى مكان أشبه الأشياء بالمغاور القذرة حيث كانت تتشاجر عصابات اللصوص على الأسلاب التى نهبوها بغير وجه حق.

وعندما أعاد الهيكل إلى السكون والإحترام إستطاع أن يبدأ تعاليمه المعتادة وتقدم إليه المرضى فشفاهم، وتكاثر حوله السامعون بالمئات متعجبين من التعاليم التى تخرج من فمه[١]، وحتى أطفال الهيكل الصغار فى فرحهم البرىء إستمروا يهتفون "أوصنا"[٢] ترحيباً به. أما رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيون والمتقدمون فرأوا وإحتقروا وتعجبوا وتواروا. ولم يستطيعوا أن يعملوا شيئاً إلا أن يصروا على أسنانهم فى عجزهم قائلين بعضهم لبعض أنهم لا يقدرون أن يعملوا شيئاً لأن كل العالم قد ذهب وراءه. ولكنهم كانوا يأملون أن تأتى ساعتهم وسلطان الظلمة. لقد جرأوا أن يقولوا له كلمة واحدة فردهم جوابه الهادىء فى خزى متفرقين. لفتوا نظره متذمرين من صراخ الأطفال فى أروقة الهيكل قائلين: "أما تسمع ما يقوله هؤلاء" ؟ ولكن يسوع، بسكون، حمى الأطفال من كراهيتهم غير المخفاة وأجابهم "نعم. أما قرأتم قط فى الكتب إن من أفواه الأطفال والرضع أعددت تسبيحاً" [٣].

وإنقضت ساعات هذا اليوم الخالد فى أحاديث ساميه وسط محاولات خاسئة من أعدائه ليعيقوا عمله أو يغيظوه، وإمتاز أيضاً بحادثة لها روعة عميقة. دهش بعض اليونانيين ممن رأوا وسمعوا يسوع -

١ - (لو١٩: ٤٨).

٢ - المعرب: «اوصنا» هو النطق الشائع والوارد فى اللغة القبطية والكلمة معناها «يارب خلصنا».

٣ - (مز٨ :٢). هلا تذكروا بقية الآية "بسبب اضدادك لتسكيت عدو ومنتقم".

وربما كانوا ممن تهودوا حديثاً وإستهواهم العيد للحضور إلى أوروشليم - وأتوا إلى فيلبس وطلبوا إليه أن يحتجز لهم مقابلة خاصة مع يسوع[١]

ولم يذكر لنا يوحنا البشير شيئاً عن الظروف المحيطة. ولم يخبرنا لماذا طلب هؤلاء اليونان مقابلة يسوع من فيلبس خاصة. لم يجرؤ فيلبس أن يستجيب طلبهم فى الحال، وهذا دليل رقيق على الإحترام الشخصى الذى كان يشعر به التلاميذ نحو معلمهم، بل ذهب وإستشار مواطنه اندراوس، وإتحد التلميذان فى آخبار يسوع عن مطلب اليونان. ولا ندرى إن كانا قد قدما الطالبين إلى حضرته فعلاً أم لا. ولكن على أى حال قد رأى يسوع فى هذا الحادث علامة جديدة على أنه قد أتت الساعة كى يتمجد إسمه، إذ أن يسوع أجاب وقال أن حبة الحنطة يجب أن تموت قبل أن تأتى بثمر. وكذلك تمجيده لابد أن يأتى عن طريق آلامه وإن الذين يتبعونه يجب أن يستعدوا فى كل الأوقات لأن يتبعوه حتى الموت. وإذ هو عالم أن ملاقاة تلك الساعة المخيفة معناها الإنتصار عليها قال "أيها الآب مجد إسمك".

وللمرة الثالثة سمع صوت من السماء يقول "مجدت وأمجد أيضاً" [٢]. ويخبرنا يوحنا البشير صراحة أن هذا الصوت لم يميزه الجميع على السواء. حسب بعض الجمع أنه صدى صوت رعد، وآخرون قالوا "ملاك هو الذى كلمه". ولم يفهم الصوت إلا القليلون. لذلك أخبرهم يسوع أن هذا الصوت كان من أجلهم وليس من أجله، وإن دينونة هذا العالم قد أتت الآن، وأن رئيس هذا العالم سيطرح خارجاً، وأنه يجب أن يرفع مثل حية النحاس فى البرية[٣]، وأنه متى إرتفع هكذا سيجذب إليه كل أحد. وتحير الناس من هذه التلميحات المبهمة القاتمة فسألوه ما يمكن أن يكون معنى أن إبن الإنسان ينبغى أن يرفع. فإن كان يعنى أنه يجب أن يؤخذ عنوة إلى ميتة عار فكيف يكون هذا؟ أليس لقب إبن الإنسان أحد أسماء المسيا؟ ثم ألم يذكر النبى أن حكم المسيح يدوم إلى الأبد[٤]. الجواب الحقيقى على سؤالهم لا تقبله سوى القلوب الروحية. لم يكونوا مستعدين له. كان يسيئهم ويجرحهم. لذلك لم يجاوبهم يسوع، ولكنه أمرهم أن يسيروا فى النور فى الزمان القليل الذى سيبقى فيه معهم فيكونوا أبناء للنور. لقد أتى نوراً للعالم، والكلمات التى فاه بها ستدين أولئك الذين رفضوه. لأن كل كلامه - كل رد قصير وكل حديث طويل

---

١ – (يو١٢: ٢٠ – ٢٥).

٢ – (يو١٢: ٢٨).

٣ – قارن (يو٣: ١٤) و (٨ : ٢٨).

٤ – «الناموس» هنا اصطلاح عام على العهد القديم. والاقتباس من (مز٨٩: ٣٦) قارن (يو١٠: ٣٤).

- كان من عند الآب. كان أشعة ضياء من عند أبى الانوار، أشعة محيية من الحياة الأبدية[1].

ولكن كل هذه الحقائق الشافية المجيدة كانت غير مفهومة لدى العيون العمياء وميتة للقلوب المتحجرة. وحتى القليلين من ذوى الرتب العالية والثقافة الواسعة، الذين فهموا قليلاً منها وآمنوا قليلاً بها، لم يجسروا أن يعترفوا بالإيمان به لأن الإعتراف به كان يجر خطر "الشيريم"، أى الحرم الكبير الشنيع، من مجلس السنهدرين، وهذا مالا قبل لهم على إحتماله، "لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله".

وعليه فقد إنسدل فى ختام يوم الإنتصار بعض من الحزن وشعور من الرفض فلم يكن أماناً أن يبقى السيد فى المدينة، ولم يكن أيضاً موافقاً لرغباته، فإنتحى خفية من الهيكل وأخفى ذاته عن أعدائه اليقظين متبوعاً حتى خارج أسوار المدينة بحماس أتباعه الجليليين. "خرج خارج المدينة إلى بيت عنيا" مع الإثنى عشر.



١ - (يو١٢ :٤٤ - ٥٠).

الفصل الخمسون

يوم الاثنين من أسبوع الآلام - يوم الأمثال

إستيقظ السيد مبكراً ويمم شطر المدينة والهيكل، وفى طريقه شعر بالجوع لدرجة جعلته أن يبحث عن ثمر على جانبى الطريق يقوته ويقويه على عمل يومه.

وكانت أشجار التين تزرع على جانبى الطريق إذ كانوا يعتقدون أن الغبار يساعد على إنمائه. وكان ثمرها المنعش ملكاً مشاعاً للجميع. ونظر يسوع أمامه على بعد شجرة تين وحيدة[1]. ومع أن موسم التين لم يكن قد أتى بعد، ولكن إذ كانت هذه الشجرة مكسوة بالخضرة، وإذ أن ثمار التين ينضج دائماً قبل تفتح الأوراق فقد ظهرت تلك الشجرة كما لو أنها مثمرة أزيد من المعتاد. وأوراقها الكثيرة الكبيرة أظهرت أنها عديدة الثمار. أو تدل على وجود "البا كورة" اللذيذة أى الثمار الأولى الناضجة على شجرة التين.

وعلى هذا فأسباب عديدة دعت يسوع أن ينتظر وجود الثمر ولو أن أوان التين العادى لم يكن بعد.

وعندما أتى يسوع إلى التينة ضجر إذ لم يجد عليها شيئاً من الثمر مع أن العصير كان يدور فيها والأوراق مفتحة مزدهرة. كانت الشجرة عاقراً ومثلاً صادقاً للمرائى ذى المنظر الخارجى الخلاب المضل والذى لا يدل على حقيقته، مثلاً صادقاً للأمة الذى تظاهرها الطويل العريض بالدين لم يثمر فيها ثمر الحياة الطيبة. كانت عاقراً ولا أمل فى إصلاح عقرها لأنها لو كانت قد أثمرت فى السنة الماضية لبقى شىء من "الكرموز" بين أوراقها العريضة، ولو كانت قد أثمرت هذه السنة لكانت "الباكورة" فى لذيذ طعمها وجميل رائحتها قد تكونت قبل أن تظهر الأوراق. هذه الشجرة لم يكن فيها أى أمل فى المستقبل كما لم يكن فيها أى بصيص منه فى الماضى.

وإذ كانت غاشة عديمة النفع ومجرد عائق للأرض جعلها التحذير الحسى الخالد ضد حياة الرياء المستعصى الذى إستمر حتى فات الوقت. فعلى مسمع من تلاميذه نطق عليها بالحكم الرهيب "لا يخرج منك ثمر إلى الأبد". وبمجرد الكلمة توقفت الحياة المنتحلة وإبتدأت الشجرة أن تذوى.

---

١ - (مت٢١ :١٩) «فابصر شجرة التين» بالمفرد «وجاء لعله يجد فيها شيئا» (مر١١: ١٣) تدل على نوع من الدهشة لازدهار الشجرة غير العادى.

من هذه الشجرة أسس ثلاثة دروس خالدة. أولاً: كانت رمزاً على إهلاك غير التائبين. ثانياً: تحذيراً من خطر الرياء. ثالثاً: ومثلاً على قوة الإيمان[١].

وساروا في طريقهم ودخلوا الهيكل كالعادة وسرعان ما جوبهوا بدليل من روح المقاومة العنيفة التى كانت تسود حكام أوروشليم[٢]. تقدم إليه وفد منهم عظيم فى عدده مهيب فى فخامته[٣] مكون من رؤساء الكهنة ومن الكتبة المتفوقين ومن الحاخاميين المتضلعين.ولما رتبوا أنفسهم حول يسوع سألوه فجأة بغلظة "بأى سلطان صنعت هذا ومن أعطاك هذا السلطان". سألوه البينة عن السلطان الذى جعله أن يدخل إلى أوروشليم راكباً وسط الهتاف من الجموع المحيطة وأن يطهر الهيكل من المتاجرين الذى كانوا يتغاضون عنهم؟[٤]

ولقد أدهشهم الجواب كما أوقعهم فى حيرة إذ قال لهم يسوع أن جوابه على سؤالهم يتوقف على جوابهم على سؤاله "معمودية يوحنا من السماء كانت أم من الناس؟" فإستولى عليهم سكوت، فقال لهم يسوع مقاطعاً همسهم "أجيبونى"، علموا تماماً أهمية السؤال ولم يستطيعوا أن يهملوه كسؤال غير جدير بالإجابة. لقد شهد يوحنا علناً وبتأكيد ليسوع واعترف به أمام رسلهم أنه النبى أى المسيا، فهل يقرون معموديته أو لا يقرون؟ لقد أوقعهم فى حيرة. لا يريدون أن يقولوا "من السماء" لأنهم رفضوها من القلب. ولا يجرأون أن يقولوا "من الناس" لأن الإيمان بيوحنا كان قوياً ومتيناً فان رفضوه علناً عرضوا سلامتهم الشخصية للخطر[٥]. لذلك إضطروا وهم معلموا إسرائيل أن يخضعوا للضرورة المحتومة ويقولوا "لا نعلم".

قولهم "لا نعلم" كان شيئاً مخالفاً تماماً لعاداتهم، شائناً لمقامهم وضربة قاضية لإدعاءاتهم. لأنهم

١ – مايرمى اليه هذا المثل يظهر جليا لاولئك الذين تعمقوا فى درس الأنبياء أكثر منا (هو٩ :١٠) و (يوئيل١ :٧) و (ميخا٧ :١). ونلاحظ أنه حتى هنا فى برهة اليأس الحزين عندما التفت الى تلاميذه انقلبت كلمة الدينونة الى كلمة الرجاء. ليكن لكم ايمان فى الله ومهما طلبتم فى الصلاة فآمنوا أنكم نلتموه. نلتموه سلفا كما يوحي الطلب — وستنالونه.

٢ – يلاحظ اننى اتبع هنا ترتيب شاهد العيان متى البشير الذى يقف ليتم باقى قصة التينة وان كان يتعلق باليوم التالى.

٣ – (مر١١: ٢٧).

٤ – (مر١١: ٢٧ — ٣٣) و (مت٢١: ٢٣ — ٢٧) و (لو٢٠: ١ — ٨).

٥ – (لو٢٠: ٦) «أيقنت» الكلمة الأصلية تفيد دوام الحال وكلمة «يرجمنا» التى استعملت هنا فقط تدل على الثورة الشنيعة التى كانت تثار لو أنهم أعلنوا رفضهم لنبوة يوحنا.

وهم المقامون لتفسير الناموس، وهم المعتبرون لتعليم الشعب، وهم المعترف بهم كالمحتكرين للعلم الكتابى والتقليد الشفوى، يضطرون ضد ما يعتقدونه حقاً أن يقولوا أمام الجموع "لا نعلم" عن رجل له شهرة ذائعة وتأثير مقدس، رجل اعترف بالكتب التى يفسرونها ومارس العادات التى يحترمونها ثم يقولون عنه "لا نعلم" إن كان مرسلاً إلهياً ملهماً أو دخيلاً غشاشاً!

كان لهم هذا إذلالاً مخيفاً لم يتناسوه قط أو يسامحوه! ولكن أى مجازاة حقة أوجبوها على رؤوسهم. واللعنات التى أعدوها لغيرهم إرتدت عليهم، وإذ أن خيبتهم وقصورهم عن أجابته صراحة قد أحلته من إخبارهم عن سلطان كانوا فى حيرتهم غير قادرين أن يقروه فقد أنهى يسوع الموقف بالإقتصار على قوله "ولا أنا أيضاً أقول لكم بأى سلطان فعلت هذا".

ولذلك عادوا وراء الستار قليلاً ورجع يسوع إلى تعليم الشعب بعد أن إنفضت مقاطعتهم له. وعاد مرة أخرى يحدثهم بأمثال. وتعمد لفت أنظارهم لما كان مزمعاً أن يقول فسألهم "ماذا تظنون؟" جاء دورهم ليسألهم فأخبرهم عن إبنين أحدهما قد رفض بداءة وبغلظة أمر أبيه ولكنه أخيراً ندم وأتمه. والثانى وعد بملق طاعته ولم يتمها أبداً. ثم سألهم "فمن من الإثنين عمل إرادة أبيه". فلم يستطيعوا إلا أن يجيبوا أنه الأول. وحينئذ أوضح لهم المعنى الصريح العظيم لإجابتهم وهو أن العشارين والزناة الذين يكرهونهم ويحتقرونهم سيسبقونهم فى الدخول من الباب الذى لم يغلق بعد.

ثم أمرهم قائلاً "إسمعوا مثلاً آخر"، مثل الكرامين الثائرين الذين لا يودون أن يؤدوا الثمار. كان كرم رب القوات هو بيت إسرائيل، ورجال اليهودية هم أشجاره الزاهية وهم القواد والمعلمون، فكان ينتظر منهم بالطبع أن يقدموا الثمار. ولكن رغماً عن كل ما فعله لكرمه فلم يكن هناك عنب وإن وجد فعنب ردئ. انتظر العدل فاذا ظلم والبر فاذا صراخ. وإذ لم يقدروا أن يقدموا ثماراً ولم يجرأوا أن يعترفوا بالعقم العديم الثمر الذى كانوا هم السبب فيه فقد شتموا وضربوا وجرحوا وقتلوا رسولاً بعد رسول ممن بعث بهم رب الكرم. وأخيراً أرسل إبنه وهذا الابن مع أنهم عرفوه -وما كان يمكن إلا أن يعرفوه- فقد ضربوه وجلدوه وقتلوه. فعندما يأتى رب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين؟ فالجمع بإعتقاد برىء والفريسيون ربما ليظهروا إحتقارهم لمعنى المثل الذى بلاشك لم يقصروا عن فهم بعض مراميه أجابوه أنه بالردىء يهلك أولئك الأردياء ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين. وللمرة الثانية إضطروا أن يصرحوا بأفواههم ويحتموا الدينونة على أنفسهم ويعترفوا بشفاههم أنه من عدل الله أن يحرمهم من كل إمتيازاتهم التى فضلهم بها ويمنحها للأمم.

ولكى يظهر لهم أن كتبهم قد تنبأت عن سلوكهم هذا سألهم إن كانوا لم يقرأوا فى مزمور ١١٨ أن الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار بقصد الله العجيب رأس الزاوية؟ كيف يمكن أن يبقوا بنائين بعد ذلك بعدما تعدوا عن قصد وأبعدوا عامدين أساس عملهم؟ أما تتضمن بوضوح النبوة القديمة عن المسيا أن الله سيختار بنائين آخرين[١] للعمل فى هيكله؟ والويل لمن يعثر -كما كانوا يعثرون- فى هذا الحجر المرفوض منهم، ولكن ما زال الوقت كافياً كى يتجنبوا الإبادة الذريعه التى تحيق بالذين يقع عليهم هذا الحجر. رفضه فى وداعته وتواضعه يورث الألم والخسران. وإن إستمر الرفض له عندما يجىء فى مجده أليس معناه الهلاك التام من أمام الله؟ الجلوس على كراسى القضاء والحكم عليه معناه الخراب لهم ولأمتهم. ولكن الحكم منه هو عليهم أليس معناه أن يسحقهم إلى تراب[٢].

لقد فهموا الآن بجلاء مرمى هذه الأمثال وإشتاقوا إلى ساعة الإنتقام! ولكن الخوف أمسكهم لأن الجموع ما زالت تعتبر يسوع كنبى.

وضرب لهم مثلاً آخر فى يوم الأمثال هذا ينذرهم به وهو مثل عرس إبن الملك. وهو يشابه فى مبناه وأساسه مثل العشاء العظيم الذى سبق ونطق به فى رحلته الأخيرة فى بيت أحد الفريسيين، ولكنه يختلف عنه جد الاختلاف فى كثير من تفاصيله وفى المغزى الذى استخرجه منه. فهنا الشعب غير الشكور الذى وجهت اليه الدعوة لم يستخف بها فقط وظل غير عابىء يتابع أعماله العالمية، ولكن بعض المدعوين شتم وقتل الرسل الذين أتوهم. وأبان المثل نهاية أولئك بحديث يقرب من التنبؤ بأن الملك أهلكهم وأحرق مدينتهم. وأشار بقية المثل إلى مواضيع أخرى حبالى بمعان عميقة[٣]. دعى آخرون، وإمتلأ العرس بمدعوين أخيار وأشرار. ودخل الملك فرأى واحداً قد حشر نفسه وسط الجماعة بثيابه المهلهلة دون أن يرتدى ثياب العرس الأمر الذى تحتمه أوائل آداب الإجتماع[٤].

هذا الضيف الغليظ المتطفل الجرىء كان مصيره أن يطرح خارجاً من خدامه الملائكة ويرمى فى

---

١ – قارن (اش٢٨ :١٦) و (دا٢١ :٤٢) و (اع٦ :١١) و (اف٢ :٢) و (ابط٢ :٦، ٧). معلموا الشعب دعوا «بنائين» فى (قض٢٠ :٢) ونلاحظ ان هذا المزمور هو نفسه الذى استقى منه الجموع «هوشعنا». رأس الزاوية هو الحجر المهم أو حجر الأساس. أحيانا يوضع فى زاوية البناء فيربط حائطين سويا. حرف الاشارة فى (مت٢١ :٤٢) معناه «هذا الفعل» قارن (مز ١١٨: ٢٣) و (١صم٤ :٧).

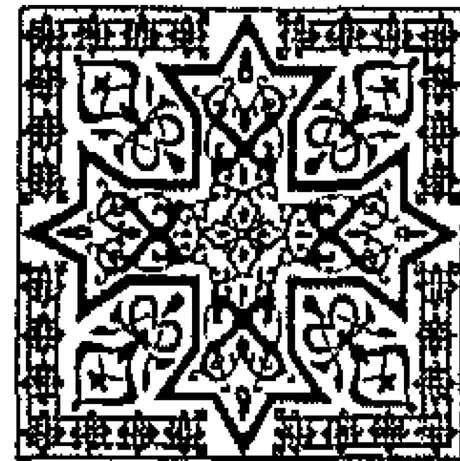
٢ – (دا٢١ :٣٤ – ٤٤).

٣ – قد أمر الخدام ان يذهبوا الى «مفارق الطرق» ولكنا نخبر أنهم ذهبوا الى «الطرق» (مت٢٢ :٩، ١٠) وهنا اشارة لطيفة الى نقص عمل الوسائل البشرية.

٤ – (صفنيا١ :٨).

الظلمة الخارجية حيث البكاء وصرير الأسنان. وللمرة الأخيرة، ليعمق التحذير الذى سبق فساقه وصاغه فى تشابيه عديدة متماثلة نظراً لعظم أهميته، قال لهم يسوع "كثيرون يدعون وقليلون ينتخبون" (١)

هذه التعاليم الواضحة المرمى ملأت عقول رؤساء الكهنة الفريسيين بحنق يتزايد ويشتد مدارة حتى أنهم كانوا يسرون لو أمسكوه من تلك الساعة. ولكن الخوف ألجمهم فتركوه يمضى دون أذى إلى مكان راحته الهادئ. غير أنه إما فى هذه الليلة بالذات أو باكراً فى صبيحتها قد عقد الأعداء مجلساً آخر - ويظهر أنهم فى هذه الأيام العصبية كانوا يعقدونه يومياً - ليروا إن كان فى الإمكان عمل مجهوداً أكثر إجماعاً وترتيباً وقوة ليصطادوه بكلمة أو ليمسكوه متلبساً بتعليم جاهل أو خطأ فيفقدوه إعتباره عند الشعب أو ليوقعوه فى ورطة خطيرة مع السلطة الإدارية. وسنرى فى الفصل التالى نتيجة ترتيباتهم ومشورتهم الرديئة.



١ – (مت٧: ١٣، ١٤) ، (١٩: ٣٠) و (٢٠: ١٦) الذين طرحوا المتطفل هم «خدامه» الملائكة وليسوا «عبيده» البشر الذين ذكروا فى الجزء الأول من المثل.

الفصل الحادي والخمسون

آخر وأعظم يوم فى خدمة يسوع الجهارية

يوم التجارب

فى اليوم التالى بكر يسوع وتلاميذه ليدخل للمرة الأخيرة إلى أروقة الهيكل. وفى طريقهم مروا على شجرة التين الوحيدة التى لم تعد مفرحة فى حلتها الخضراء البهيجة الكاذبة بل قد يبست من أصولها وذوى كل فرع فيها. وكانت عين بطرس الحادة أول من لحظها فقال [يا سيدى ها شجرة التين التى لعنتها قد يبست]. ووقف التلاميذ لينظروا إليها وليعبروا عن دهشتهم لسرعة اللعنة التى حاقت بها. أما المعانى العميقة لعمله المثالى فيظهر أنهم نسوها إلى حين. وترك يسوع هذه المقاصد التعليمية تشرق عليهم رويدا رويدا وتحدث إليهم بمثل أنه لو كان لهم إيمان فى الله ـ إيمان يجعلهم أن يقدموا صلواتهم بثقة كاملة غير مرتابة ـ فأنهم يستطيعون ليس فقط أن يصنعوا ما حدث لهذه التينة بل أيضاً لو قالوا [لهذا الجبل إنتقل وامض إلى البحر فيكون]. وأضاف أن سر الصلاة المستجابة هو الايمان، وطريق الايمان فى الله هو المغفرة لمن يسيئون إلينا. والله لن يغفر إلا للذين يغفرون ويسامحون غيرهم.

وما لبث أن جلس فى الهيكل حتى ظهرت نتائج تدبيرات أعدائه فى الليلة السالفة وإتخذت طريقاً جديداً فى خطط الخداع الماهرة إذ إختاروا أشدها خطرا وأحكمها وضعا ليصطادوه ويهلكوه. وتظهر طبيعة المؤامرة القاتلة من أنه لكى يقوموا بها قد إتحد الفريسيون فى رباط مشئوم مع الهيروديين. قد تصالحت الطائفتان المشهورتان بالعداء لبعضهما على مؤامرة لأهلاك العدو المشترك[1]. فقد رتبوا أن يثيروا فكرة أن خلافا قد حدث بينهم وبين الهيروديين وأنهم راغبون فى حله برفع الأمر إليه وقبول القرار النهائى الذى للسلطان السامى للنبى العظيم. فأتوا إليه وأحاطوا به مظهرين الاعتبار والاكرام واللطف وقالوا له بملق متصنعين الاهتمام [يا معلم نعلم أنك محق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالى أحدا لأنك لا تنظر إلى وجه إنسان]، وكأنهم يتوسلون إليه لكى يعطيهم رأيه الخاص دون خوف أو محاباة، [فقل لنا ماذا تظن أيجوز أن تعطى الجزية للملك أم لا]؟ هذه الجزية التى نكرهها نحن كلنا ولكن الهيروديين يقررون قانونيتها، هل يجب أن نؤديها أم لا؟ من محق؟ نحن اللذين نكرها ونقاومها أم الهيروديين الذين يسرون بها؟

---

١ – (مت٢٢: ١٥ – ٢٢) و (مر١٢: ١٣ – ١٧) و (لو٢٠: ١٩ – ٢٦).

ظنوا أنه "يجب" أن يجيب "بنعم" أو "لا" إذ لا مخرج من سؤال صريح قد وضع بحرص وإخلاص وإحترام. فأذا أجاب صراحة ذاك الذى يتخذونه على أنه المسيا وأقر وناصر هذه المظلمة الوثنية وأجاز تدخلها المرير فان إجابته هذه ستلاشى إعتبار الناس له وتودى حتما بما يشعر به الشعب نحوه. ومن الجهة الأخرى لو أجاب "لا إنه غير قانونى" ففى هذه الحالة أيضاً سيتخلصون منه إذ يكون ثائرا علنيا ضد السلطة الرومانية ويسلمه حلفاؤنا الجدد فى الحال إلى المحاكمة أمام رئيس الربع، وسيعامله بيلاطس البنطى من أجل ادعاءاته بمنتهى الغلظة ولو أدى به الأمر أن يخلط دمه مع دم الذبائح كما سبق أن فعل بجليليين آخرين مثله.

ولا شك أنهم انتظروا الاجابة وقد حبسوا أنفاسهم تلهفا لقد بادؤوه بقولهم [يا معلم]، [محق]، [لاتبالى أحد] [لا تنظر إلى وجه إنسان]. ولكنه يمحوهم برجزه وبكلمة واحدة غاضبة [يا مراؤون]. كلمة تكفى لمحو خداع آمالهم وسحق مكرهم إلى التراب "لماذا تجربوننى. إيتونى بدينار" [١] وكان من غير المحتمل أن يحملوا العملة الرومانية المكروهة برموزها الوثنية وإن كانوا على إستعداد لأن يخرجوا من مناطقهم فى الحال شاقل القدس. ولكن ما كان عليهم سوى أن يخطوا إلى رواق الأمم ويستعيروا من إحدى موائد الصيارفة عملة رومانية سارية. وبينما وقف الناس حواليه فى سكوت متعجبين أتوا إليه بدينار ووضعوه فى يده، وعلى أحد وجهيه سك رأس الأمبراطور طيباريوس، فقال لهم يسوع [لمن هذه الصورة والكتابة] قالوا له [هما لقيصر]. [حينئذ قال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله].

هذا الجواب كان كافياً لأن مجرد قبولهم للعملة جواب لسؤالهم الفاضح لتفاهته. بل نفس الكلمة التى إستعملها السيد كان فيها الدرس الشافى. لقد سألوه [أيجوز أن نعطى]؟ فأصلح خطأهم فى إجابته باستعمال كلمة معناها الأصلى «أعطوا» ثانية أى «أرجعوا». لم تكن هبة إختيارية بل دينا قانونيا. ليس عطاء بسرور ولكن ضرورة سياسية.

لقد كان مفهوما تماما بين اليهود، وقد كتب ذلك بأوضح لغة من حاخامييهم العظام فى الأزمنة الأخيرة "أن قبول عملة أى ملك معناه الاعتراف بسيطرته" وعلى ذلك فقد كان قبولهم الدينار كعملة سارية إعترافاً علنياً أن قيصر كان ملكهم وأنهم قد قرورا - حتى أشدهم حماسا - إجابة السؤال وأن دفع الجزية جائز وأقروا ذلك بدفعهم إياها باستمرار. كان واجبهم أن يخضعوا للقوة التى قبلوا أن تسطير

---

١ - (مر١٢: ١٥،١٦).

عليهم. وكانت الجزية تحت هذه الظروف إنما توازى المنافع التى ينالونها[1]. ولكن يسوع لم يشأ أن يتركهم بهذا الدرس وحده بل أضاف الكلمات الأشد عمقاً والأعظم أهمية [وما لله لله]، لقيصر أنتم مدينون بالعملة التى إعترفتم بها كرمز لسيطرته والتى تحمل صورته وكتابته، وأما لله فأنتم مدينون بذواتكم. ولا شئ يظهر بوضوح كامل مدى رياء هؤلاء السائلين الفريسيين من أنه رغما عن هذه الاجابة الالهية ورغما عن إقتناعهم الذاتى السرى المحبب إلى نفوسهم فانهم جعلوها ـ اختلاقا ـ أساسا لاتهام صاخب ضد يسوع وعزوا إليه أنه [يمنع أن تؤدى الجزية لقيصر][2]

فارتدوا حانقين. لم يجدوا بأنفسهم شيئاً فى كلامه يمكنهم أن يمسكوه عليه ولكن ظن الصدوقيون أنه ربما يكون لهم نجاح أفضل[3] كانت شيعة الصدوقيين تزهو بانتماء بعض رؤساء الكهنة وبعض أعظم أغنياء القوم إليها وبحسن علاقاتها مع الهيروديين والسلطات الرومانية. وإلى ذلك الوقت ما كان الصدوقيون متحمسين ضد يسوع، ولم يهيئوا لأنفسهم غرضاً أزيد من إغاظته بجعله مضطراً للاعتراف بصعوبة الأجابة.

أتوا إليه بسؤال غير قائم على أساس من الواقع بل تولد من روح جهولة معتدة بذاتها، ولكن فيه على كل حال الكفاية من الإرباك يعطيهم سلاحا من الجدل يقوى معتقداتهم الرديئة، خاطبوا يسوع باحترام مفتعل ولفتوا نظره لما جاء فى ناموس موسى بخصوص قوانين الزواج ووضعوا أمامه قصة خيالية خشنة وقالوها كما لو كانت قد حدثت فعلا[4] عن أخ أكبر مات بدون أن يعقب أولادا وتزوجت أرملته أخوته الستة بالتوالى، الأصغر فالأصغر. وماتوا هم أيضاً الواحد تلو الآخر تاركين الأرملة على قيد الحياة. ثم سألوه متهكمين [ففى القيامة لمن تكون زوجة لأن السبعة أتخذوها زوجة]؟

ومع أن السؤال كان مباغتا فجائياً فقد كان الجواب خالدا أبديا، وقد فتح أبواب الفردوس على مصاريعها ليرى الناس ما لم يبصروه من قبل، لم يجاوب يسوع هؤلاء الصدوقيين بنفس الشدة التى إمتازت بها إجاباته للفريسيين أو الهيروديين لأن غرضهم أظهر إستهتاراً وإستخفافاً لا مكرا سيئا خبيثاً. أخبرهم أنهم يضلون جهلا منهم بالكتب وجهلاً بقوة الله، فلو لم يجهلوا قوة الله لما تخيلوا أن حياة أولاد

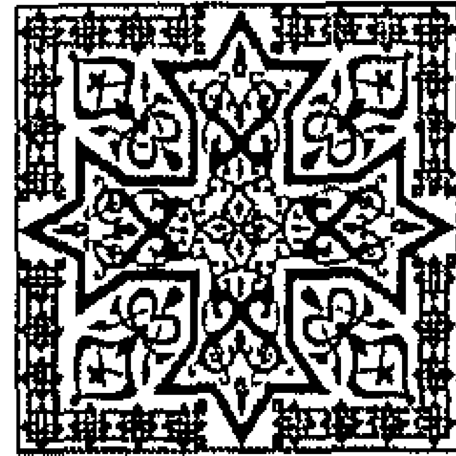
١ – قارن بين أمر أرميا (إر٢٧: ٤ – ٨) أن اليهود يجب أن يطيعوا نبوخذ نصر لكن رفضهم لأوامر الدين جعلهم عبيدا له.

٢ – (لو٢٣: ٢).

٣ – (مت٢٢: ٢٣ – ٣٣) و (مر١٢: ١٨ – ٢٧) و (لو٢٠: ٢٧ – ٣٩).

٤ – (مت٢٢: ٢٥) «فكان عندنا».. عن قوانين زواج الأخوة راجع (تث٢٥: ٥ – ١٠).

القيامة ما هى إلا صورة بارزة منعكسة متكررة من حياة أولاد هذا العالم. ففى السماء ـ ما بعد القبر ـ ولو أن الحب يبقى ويخلد ولكن مجرد الحياة الجسدية فى العلاقات البشرية تتغير وتتسامى والذين سوف يحسبون أهلا للحصول على تلك الحياة والقيامة من الأموات لا يتزوجون ولا يزوجون ولا يموتون فيما بعد ولكن يصيرون كملائكة من السماء، وإذ أنهم أولاد القيامة يصيرون أولاد الله. أما عن جهلهم بالكتب[1] فسألهم يسوع إن لم يكونوا قد قرأوا ما جاء فى سفر الخروج، كيف أن الله قد وصف ذاته لعظيمهم موسى الذى أعطاهم الناموس أنه [إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب]. ولقب مثل هذا كم يكون عديم القيمة لو أن إبراهيم وإسحق ويعقوب ما هم إلا قبضة من تراب أغبر متطاير أو من العظام النخرة البالية [الله ليس إله أموات بل إله أحياء. فأنتم تضلون كثيراً] أليس من المستحيل أن يصف ـ جل وعلا ـ ذاته بأنه إله التراب والرماد! ما أبهى وأعمق هذه القاعدة فى تفسير الكتب!



١ – برهن لهم يسوع على قيامة الأموات من الأسفار الخمسة لا من الأنبياء وإعلاناتهم الصريحة لأنهم كانوا يعطون أهمية أكثر للناموس. كان تقوية قوله «وموسى أيضاً» (لو ٢٠: ٣٧).

الفصل الثاني والخمسون

النبؤ العظيم

كل من سمع هذه الاجابات السامية قد خشع حتى الصدوقيين المتعالين. أما الجموع الصاغية فقد دهشت وفرحت. وحتى بعض الكتبة صرحوا قائلين [حسنا يا معلم]. ولكن عاد روح الحيل الشرعية والخصومة فاستيقظ. وفى هذه المرة تقدم ناموسى[1] من طلبة التوراة وظن هو أيضاً أن يجرب المسيح ويسبر مدى علمه وحكمته. وسأل سؤالاً فضح للحال كذب وعدم روحانية وجهة نظره [يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس] ؟

لم يجاوب يسوع على السؤال بروح الجدل الكسول ومماحكات الكلام التى كان يسمعها بل أخبره أن هذه هي عظمى الوصايا وأولاها [اسمع يا اسرائيل الرب إلهك رب واحد]. والثانية التى تشبهها [أن تحب قريبك كنفسك]. محبة الله التى تبعث على محبة الناس ومحبة الانسان أخينا الناتجة من محبة الله أبينا [بهاتين الوصيتين تعلق الناموس كله والأنبياء].

كانت للناموسى قوة الملاحظة والشجاعة على الأعتراف بأن إجابة يسوع كانت حكيمة ونبيلة [حسنا يا معلم بالحق قلت]. وأظهر أنه قرأ الكتب باقتباسه من تعاليم الأنبياء الحرة ما يعلن أن محبة الله ومحبة الانسان أعظم من جميع المحرقات والذبائح[2] وأثنى يسوع على اخلاصه وامتدحه بكلمات تتضمن تشيجعا كريما وتحذيرا شديداً قائلاً له [لست بعيدا عن ملكوت الله].

لم يجسربعد هذا أن يمسكه أو يصطاده أحد بكلمات شفتيه. إلا أنه قدم لهم سؤالاً واحداً بسيطاً مؤسسا على نفس نمطهم في التفسير ومستقى من أحد المزامير (١١٠) المعتبر عندهم أنه مسيانى. فى هذا المزمور قد ورد [قال الرب . (جيهوفاه) . لربي . (أودناى) . أجلس عن يمينى]، فكيف يكون المسيح ابن داود ؟ هل يستطيع إبراهيم أن يدعو اسحق أو يعقوب أو يوسف أو أى واحد من ذريته رباً له ؟ فان كان هذا نفيا فكيف جاز هذا لداود؟ لن يستطيعوا إلا إجابة واحدة لأن هذا الابن سيكون إلهياً لا بشرياً ـ ابنا لداود بالولاده الجسدية ولكن ربا لداود بوجوده الألهى. ولكنهم لم يجدوا هذا التفسير

---

١ – (مت٢٢: ٣٤ – ٤٠) و (مر١٢: ٢٨ – ٣٤). ذكر متى كلمة ناموسى وهى كلمة يستعملها لوقا البشير أزيد من «أحد الكتبة» كي لا يساء فهمها عند الأمميين الذين كتب لهم.

٢ – (اصم١٥: ٢٢) ويوشيا٦:٦ و (ميخا٦: ٦ – ٨).

اليسير ولا أى تفسير آخر. لم يجدوه لأن يسوع كان مسياهم وقد رفضوه، وإختاروا أن يتجاهلوا أنه ابن داود حسب الجسد، وأنه عندما قال كمسياهم عن نفسه أنه ابن الله رفعوا أيديهم فى رعب تقوى مفتعل وأخذوا حجارة ليرجموه. وهنا أيضاً قد رفضوا مفتاح الايمان الذى يقودهم إلى التفسير الحق فكانت حكمتهم خاطئة جداً. ورغما عن ادعائهم بتعجرف أنهم قادة الشعب ففى مسألة هامة وأولية تتعلق برجاء المسيا قد أجبروا على التأكد مرتين فى يوم واحد أنهم [عميان قادة عميان].

لم يتبق أى أمل فى أن يتصالحوا معه إذ كانوا مغمورين فى كره غير تائب نحوه. لذلك التفت إلى تلاميذه ولكن على مسمع من كل الناس وأنزل على رؤوسهم بموجة من الغضب الروحانى المرة تلو الأخرى رعود ويلاته الملاشية[1]. ولكنه حذر تلاميذه من أن يقلدوهم فى كذبهم وظلمهم وعجرفتهم ومحبتهم للعظمة وولههم بالألقاب وطمعهم وكبريائهم وأنانيتهم وحذرهم من العصائب العريضة والأهداب المبالغ فيها والثياب الفضفاضة التى تكسو قلوبا قاتلة، والصلوات الطويلة التى تخفى نوايا طامعة. وحينئذ نطق برهبة وشدة بويلاته الثمانية [ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون] مرسلاً إياها جملة وراء جملة بلهب فاحص محرق. الويل لهم لأنهم فى مهارتهم الجهولة قد أغلقوا أبواب ملكوت السموات، وفى غيرتهم الضارة لم يسمحوا لغيرهم بالدخول، الويل لهم من أجل ريائهم الظالم وزندقتهم الطموحة! الويل لهم لتعصبهم مع كل دخيل فيجلبون عليه فسادا أعظم! الويل لهم لحذلقتهم العمياء التى تفرق بين قدسية القسم حتى أدت للحلف الباطل الذريع! الويل لهم للتمسك الضئيل الكاذب الذى يقدم عشور الأعشاب ولا يفكر مطلقاً فى العدل والرحمة والايمان، والذى يصفى عن البعوضة فى الكأس ويبلع الجمل فى القلوب[2]. الويل لهم لتنظيفهم خارج الصحفة والكأس بينما هما مملوءان بما يؤدى إلى البطنة والسكر! الويل لهم أمثال القبور التى تظهر بقدسية المعابد مكلسة بلامع الرياء بينما هذا الطلاء إنما يزيد بالمقارنة ما فيها فى الداخل من الفساد وكل النجاسات! الويل لهم لتوبتهم الريائية التى تحكم على أبائهم أنهم قتلوا الأنبياء بينما قد ورثوا هم روح القتل وتغلغلت فيهم وزادوا عن جرائم آبائهم بتلمسهم ضحية تجعل وزرهم أشد وأفظع! نعم سيأتى عليهم كل دم بار سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن براخيا الذى قتلوه بين الهيكل والمذبح.

وعند هذا الحد هدأ الصوت الذى دوى بغضب نبيل عادل ورق برأفة عظيمة وهو يقول [يا أوروشليم يا أوروشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. كم مرة أردت أن أجمع بنيك

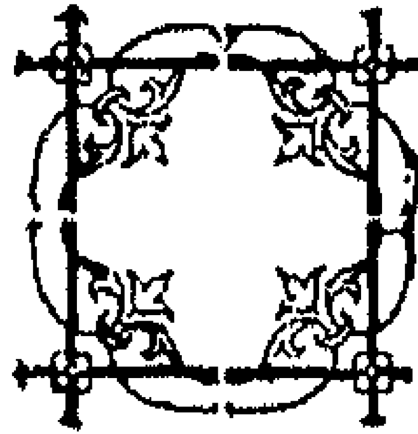
---

١ – (مت٢٣: ١ – ٣٩).

٢ – كانوا يصفون الماء خلال كتان نقى ليتجنبوا بلع أى دبيب قذر (لا١١: ٤١ – ٤١).

كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا. ها أنذا أترك لكم بيتكم خراباً وأنى أقول لكم إنكم من الآن لا تروننى حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الربِ](١)

[ها أنذا أترك لكم بيتكم خراباً] ! ألم تتم تلك اللعنة بحرفية مريعة، لم يذكر التاريخ خبرا مملوءا بالمخاوف والفظائع والبؤس الشامل والانحطاط الذى لا يعبر عنه مثل حادث حصار أوروشليم. ولم تتم نبوءة قاصمة بالشدة والتمام مثل نبوءة المسيح هذه. كان الرجال يسيرون متخفين فى زى النساء وسيوفهم تحت ثيابهم. والكهنة يقذفون بالسهام من أعلى أبنية الهيكل فيقعون مذبوحين إلى جانب ذبائحهم والدماء التى للأجسام المختلفة مختلطة وراكدة كبحيرات فى الأروقة المقدسة. والنيران تلتهم خشب الصندل المطعم بالذهب، حتى انتهى أخيراً عمل هذه النيران وصار هيكل أوروشليم ومسكن الله المقدس الجميل كومة من الخراب الذريع تنطفىء أخشابه المحترقة فى بحيرات الدماء المتخثرة.



١ - يقصد بهذا مجيئه الثانى (زكريا١٢: ١٠) و (هوشع ٣: ٤ - ٥) «كم مرة» تدل على أن كرازة السيد فى أوروشليم كانت أوسع مما ورد فى البشائر الثلاث الأولى...

الفصل الثالث والخمسون

توديع الهيكل

كان واضحاً للجميع أن التنبؤ العظيم الذى أتينا على ذكره فى الفصل السالف لابد أن يكون مبعث الإنفجار الأخير والذى لا أمل بعده. فبعد إستعماله لغة مثل هذه لا يمكن أن يكون إحتمال للمصالحه. لقد فات الوقت وأغلق الباب، وعندما ترك يسوع الهيكل لا شك أن تلاميذه قد تأكدوا أنه يتركه للمرة الاخيرة.

ولكن الظاهر أنه بينما كان يفعل هذا حدثت حادثة أقل إيلاماً جعلته يغادر مقادس بيت أبيه ليس بكلمات الغضب ولكن بكلمات الرضى. كان فى رواق النساء ثلاثة عشر صندوقاً فى هذه كانت تلقى عطايا الإحسان والهبات الدينية التى تساعد على غنى الهيكل العظيم. كان يسوع جالساً هناك، والجميع يلقون عطاياهم، والأغنياء منهم إمتازوا بتشامخهم وهم يلقون الذهب والفضة. ورفع يسوع عينيه[1]، وفى لحظة واحدة رأى كل ما هنالك. فى تلك اللحظة قدمت أرملة قربانها بخوف. وربما إنفرجت شفاه الأغنياء إحتقاراً لعطاء كان الأقل قانونياً. أعطت "فلسين"، أصغر عملة سارية لأنه لم يكن قانونياً إعطاء فلس واحد حتى من أفقر الناس، وفى بؤس الفقر ربما خجلت هى أيضاً من إعطاء قربان حقير مثل هذا بينما كان الأغنياء حولها يجودون بالذهب. ولكن يسوع قد سر بروح الإخلاص والتضحية الذى صاحب العطية. كانت مثل كأس الماء البارد الذى يقدم بدافع المحبة والذى لا تنسى مكافأته فى ملكوته. أراد أن يعلم للأبد الدرس العظيم أن الأصل فى الإحسان هو إنكار الذات. وإنكار الذات الذى تجلى عند هذه المرأة المدقعة الفقر كان أعظم مما لأغنى فريسى جاد بالذهب. "لأن الجميع ألقوا مما فضل عنهم أما هذه فمن عوزها ألقت كل ما عندها، كل معيشتها".

بعدئذ ترك يسوع الهيكل للمرة الأخيرة ولكن إحساس رسله كان متعلقاً بحب الفخر الوطنى لذلك المكان المقدس الخالد[2] فوقفوا ليلقوا نظرة طويلة أخيرة. ولفت أحدهم بتحمس نظره لأحجاره العظيمة وتحفه الفخمة، ظن التلاميذ أن جمال وفخامة المنظر سيشفعان لديه ويمسان قلبه كما بتوسل صامت. ولكن قلب يسوع كان حزيناً. لأن لديه جمال أى هيكل هو إخلاص المتعبدين فيه. وليس الذهب ولا

---

١ – (لو ٢١ :١) «تطلع» يوجد فى التلمود حكم مثل [خيرٌ ألا تعطى من أن تعطى علانيه وبتشامخ].

٢ – (مت ٢٤ :١) و (مر ١٣ :١) و (لو ٢١: ٥ – ٦).

الرخام ولا الفسيفساء اللامعة.

لم يلتفت يسوع إلى هذا المنظر المتألق وأجاب بإختصار يقرب من الشدة "أترى هذه الحجارة العظيمة؟ لا يترك حجر على حجر ههنا إلا وينقض" وكانت الخاتمة النهائية للإله المغادر المكان هى "قوموا ننطلق من هنا".

بحزن وسكون، وبمثل هذه الأفكار فى القلوب، ولت تلك الجماعة الصغيرة ظهورها للبناء المقدس الذى ظل رمزاً للتاريط اليهودى منذ أيام سليمان. وإجتازوا وادى قدرون وإعتلوا الممشى السحيق الذى يؤدى عبر جبل الزيتون إلى بيت عنيا.

ووقفوا عند قمة التل وجلس يسوع ليستريح ربما تحت فروع البلوطتين اللتين كانتا تزينان أعلى التل. كان منظراً يوافق تماماً وحى الأفكار المقدسة إذ كانت المدينة المقدسة ترى على الجانب تحته.

عكست ظلال أفكاره على منظره وتقاطيع وجهه مهابة غريبة وهو جالس صامتاً بين جماعة أتباعه القليلين المخلصين الساكتين. فبشيء من الخوف تقدم إليه تلاميذه المقربين والمعززين، بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس، وعندما رأوا عينيه مثبتتين على الهيكل سألوه على إنفراد "قل لنا متى يكون هذا. وماهى علامة مجيئك وإنقضاء هذا الدهر" [١] أما سؤالهم (متى؟) فقد ظل فى الحاضر بدون إجابة. كانت هذه عادة يسوع عندما يسأله أحد سؤالاً جهولاً أو عديم الإحترام أو غير لائق، لا يوبخه مباشرة، وأنما يمر عليه مر الكرام ويبدل الإجابة بتعليم أدبى عظيم يمت إليه بصلة، ويجعل للسؤال قيمته[٢]. ولذلك إتخذ من هذا السؤال إلى سبيلاً حديثه العظيم عن نهاية العالم، الحديث الذى كان له أربعة مفاتيح (إحترسوا) و (إسهروا) و(أصبروا) و(صلوا).

قامت صعوبات كبيرة عن هذا الحديث وألفت كتب برمتها لإزالتها ولكن إذا قارنا كتبه ما البشيرون الثلاثة[٣]، وأن كل ما كتبه أحدهم يوضح ما كتبه الآخران، وأنها كتبت فى معناها لا مبناها وبصورة قد تحتمل الإختلاف اللفظى، وإذا تيقنا أن الغرض من النبوة فى كل الأجيال التحذير الروحى أكثر من تبيان الأزمنة إذ أن كل الأزمنة إزاء صوت النبوة، كما فى نظر الله، أنما هى حاضر أبدى

١ - (مت٢٤: ٢٥) و (مر١٣: ٣ - ٣٧) و (لو٢١: ٧ - ٣٨).

٢ - قارن (لو١٣: ٢٣ - ٢٤).

٣ - (مت٢٤: ٢٥) و (مر١٣) و (لو ٢١).

مستمر "لأن يوماً كألف سنة وألف سنة كيوم"، سنجد أن أكثر الصعوبات قد زالت من نفسها.

لو قابلنا بشارة لوقا مع البشارتين الأخريين نرى جلياً أن يسوع قد لفت أنظار تلاميذه إلى أفقين، أحدهما قريب والآخر بعيد، كما سمح لهم بنظرة سريعة فى رحاب المستقبل، وأن الحد الفاصل لكل أفق يمثل حقبة أو أبدية لها نهاية عظمى. ويصدق على كل حقبة منهما، أولاً بالمعنى الحرفى "كجيل" وثانياً بالمعنى الأعم "كبشرية" أنها لن تنتهى حتى يتم الكل، وأن إحداهما مثال للأخرى. فدينونة أوروشليم، يتبعها تأسيس الكنيسة المنظورة على الأرض، ظل لدينونة العالم وتأسيس ملكوت المسيح فى مجيئه الثانى.

وإننا نرى بوضوح فى بشارة لوقا أن السيد قد حذربجلاء سائليه من تلاميذه أنه وإن كانت بعض العلامات التى تنبأ بها سيعقبها إنتهاء حقبة عظمى من تاريط العالم فان النهاية العظمى، النهاية الأخيرة، لن تعقبها فى الحال. فلا يرتاعوا بأخبار حروب أو مجاعات ولا تصيبهم حمى الترقب الحار أو السريع[1]. ولو وضعنا نصب عيوننا أن جزءاً من كلام يسوع كان أوليا عن سقوط مملكة اليهود وتشتيتهم، وجزءاً عن نهاية العالم.

نتحقق أنه فى هذا الحديث الأخير قد تنبأ السيد عن حادثين عظيمين، الأول أن أوروشليم تداس بالأقدام طويلاً حتى ينتهى زمان الأمم[2]، والثانى الكرازة بإنجيل الملكوت لكل ممالك العالم[3]

فى هذا الحديث قد حذرهم يسوع من المسحاء الكذبة والأنبياء الكذبة وأخبرهم أن الحروب القاسية بين الأمم والإضطرابات والمصائب التى قد تتواقت مع أزمات التاريط العظمى ماهى إلا مبتدأ الأوجاع وأول علائم الزمان الآتى[4]، فلا يرتاعوا.

وتنبأ عن الإضطهادات المريرة وزيادة الإثم ونقص الإيمان والكرازة العامة كعلامات على إقتراب النهاية. وكما نعلم من مقتبسات أخرى فى البشائر أن هذه العلامات التى سبقت خراب أوروشليم

١ – (لو٢١ : ٩) وايضا (مت٢٤: ٦) و (مر١٣: ٧).

٢ – (لو٢١: ٢٤).

٣ – (مت٢٤: ١٤).

٤ – (مت٢٤: ٨).

ستظهر ثانية وعلى وجه مضاعف قبل إنتهاء كل الأشياء[١].

والجزء الثانى من هذا الحديث إنصب جلياً على المستقبل القريب. تنبأ بوضوح على خراب المدينة المقدسة فأعطاهم الآن العلامات المنذره باقترابه كى يطلبوا السلامة لذواتهم. فاذا رأوا المدينة قد أحاط بها أعداؤها، وقامت الرجسة المؤدية للخراب فى المكان المقدس، فحتى الذين فى الحقول والذين على السطوح فليهربوا من اليهودية وليلجأوا إلى التلال التى فى عبر الأردن من البلايا التى لا يعبر عنها والتى ستتبع بعد ذلك.

ولا يجب حتى ذلك الوقت أن يحملوا بخداع كذاب بسبب حدة الأشتياق للآمال المسياوية. وسيقول لهم البعض أنه هنا وأنه هناك فلا يجب أن يصدقوا لأن مجيئه سيكون مثل البرق الذى يضىء من المشارق إلى المغارب وسيكون ظاهراً ولا يخطئه العالم ومثل النسور التى تجتمع حول الجثة سيطير خدامه المعدين لإنتقامه. وهذه التحذيرات أن راعاها المسيحيون فسيحفظون فى الأمان.

وإنتقل يسوع إلى ظلمة الشمس والقمر وتساقط النجوم. وإضطرب قوات السماء، وهى علامات قد تكون لها مدلولات حسية حرفية ومدلولات رمزية مثالية، هذه التى يجب أن تسبق ظهور إبن الإنسان فى السماء وجمع المختارين من الأربعة رياح بصوت بوق الملائكة.

إن يوم الرب له علاماته كما ليوم خراب أوروشليم. ولهذا أمر أتباعه فى كل الأجيال أن يرقبوا هذه العلامات ويترجموها على صحتها كما يعلمون أن الصيف قريب من شجرة التين إذا أخرجت أوراقها. ولكن ذلك اليوم سيأتى على العالم فجأة، وعلى غير إنتظار، ودفعة واحدة. وكما سيكون يوم الجزاء الحسن لخدامه الأمناء سيكون يوم النقمة والهلاك للسكيرين والمرائين والظالمين.

ولكى يحفر على عقولهم دروس السهر والإيمان وليحذرهم بتأكيد شديد ضد مخاطر الحياة الكسولة والمصباح المدخن[٢] حدثهم بالمثلين البديعين، الجميلين جداً، البسيطين جداً، الغنيين بالتعاليم، مثل العذارى العشرة ومثل الوزنات. ورسم منهما صورة ليوم الدينونة العظيم الذى يميز فيه الأمم كما يفصل الراعى الجداء عن الحملان.

---

١ – (اتس٥: ٣) و (٢تس٢: ٢).

٢ – (مت٢٥: ٨) «مصابيحنا تنطفىء» أى تدخن لا انطفأت. وهكذا نور روح قدس الله ينطفىء داخل «أوعيتنا الأرضية».

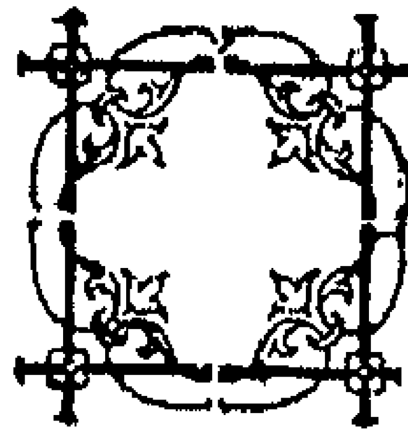
فى ذلك اليوم يعتبر أولئك الذين يظهرون أقل شفقة لأصغر أخوته إنهم به قد فعلوا.

وحينئذ لئلا تكون هذه التعاليم العليا عن الدينونة قد أعادت إلى ذهنهم الأفكار اليهودية القديمة الخلخئة أردفها بالخاتمة المحزنة التى كادت أن تصبح عادية وهى أن موته وآلامه يجب أن يسبق الكل. وأوضح لهم الآن بكل بسلخة وبيان عن الكيفية والظروف التى سيتم بها بل أيضاً عن ذات اليوم "تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح وابن الانسان يسلم ليصلب".

وهكذا إنتهى الحديث العظيم على جبل الزيتون وغابت الشمس فقام وسرى بتلاميذه وعبر الطريق القصير الباقى إلى بيت عنيا لآخر مرة على الأرض.

ولا شك أن هذا السير المسائى إلى بيت عنيا فى غروب يوم الثلاثاء من أسبوع الآلام قد بعث سلاماً عميقاً فى روحه.

ولا شك أن فكر ذلك الكأس المرالذى سيشربه سريعاً كان حاضراً فى ذهنه، ولكن حاضرا فقط بفكر التضحية العالية وإكمال الحب. لم يفكر فى الآلام التى سيتحملها ولكن فى الآلام التى سيخلص العالم منها، ولا فى قوة الظلمة التى ستظهر كأنها تحوز عليه نصراً وقتياً ولكن فى قوة النصر الفدائى للكفارة الكاملة الكافية. هذه هى الأمور التى نظن مع كامل الإحترام أنها كانت موضع تفكيره.



الفصل الرابع والخمسون

بداية النهاية

الكلمات النارية الغاضبة التى نطق بها يسوع فى اليوم الأخير العظيم لكرازته لابد أنها أشعلت كرها وحنقا غير محدودين بين طائفة كهنة اليهود. فليس فقط أنهم قد هزموا وأخجلوا فى موقعة علنية فى نفس المكان الذى تتجلى فيه عظمة مجدهم وفى وجود أخلص أتباعهم، ولكن ذاك الذى ازدروا به كمعلم الناصرة، وجه إليهم وابلاً من الويلات حاصداً فاحصاً خالداً فى شدته حتى أن من سمعه لن يستطيع نسيانه إلى الأبد. اذن حان الوقت لانهاء هذا. فقام الفريسيون والصدوقيون والهيروديون والكهنة والكتبة والشيوخ وحنَّان الظالم القاسى وقيافا الدنئ الذليل، متخوفين من ثورة دينية قد تدمر أساسات طريقتهم، واجتمعوا كلهم غالباً فى ذات المساء فى سراى قيافا ودفنوا كل اختلافاتهم ومحوها فى مؤامرة الحقد المشتعل ضد المسيا المنتظر منذ زمان والذى لم يروا فيه جميعهم إلا عدوا مشتركا.

ولا نعلم شيئاً عن تفصيلات هذا الاجتماع ولكن البشيرين قد سجلوا القرارين اللذين أنتهى إليهما المتآمرون. الأول تأكيد قوى متجدد أنه يجب أن يميتوه دون تأخير وتحت أى ظرف. والثانى أن يتم هذا بمكر لا بعنف خشية الجموع. ولهذا السبب عينه، وليس لقداسة العيد، يجب أن يؤجل موته إلى ما بعد نهاية الفصح وتفرق الحجيج الذين لا يحصون وعودتهم إلى بلادهم.

وحدث هذا الاجتماع على الأغلب الأصح مساء الثلاثاء عندما كانت العواطف الثائرة التى استفزتها حوادث اليوم لا زالت فى غليانها البركانى. ولهذا، قبل انفضاض المجمع، حدث ما غير فى الحال قرار المجلس وجعل القبض على يسوع سريعا وممكنا دون إثارة الشعب التى كانوا يخشونها.

قبل أن ينفضوا وصلتهم رسالة أطارت سهما قتالا من الفرح إلى قلوبهم، إذ أخبروا أن الرجل الذى يعرف يسوع، والذى كان معه، والذى كان تلميذاً له، بل واحدا من الاثنى عشر، كان مستعدا أن يضع نهاية سريعة حاسمة لحيرتهم ويتابع معهم المفاوضة التى سبق أن بدأها.

كان منزل قيافا فى حرم الهيكل أو قريباً منه. وكانت أبواب المدينة والهيكل تغلق عند غروب الشمس. ولكن فى وقت هذا العيد السنوى والازدحام الحاشد كان طبيعياً أن ترخى قليلا هذه القواعد تسهيلاً للراحة العامة. فعندما اختلس يهوذا الاسخريوطى نفسه من وسط أخوته فى ذلك الليل المميت كان واثقاً أنه سيدخل بلا صعوبة إلى داخل المدينة وإلى حضرة الشيوخ المجتمعين. ولذلك فقد طلب

السماح من حراس الهيكل - اللاويين المخصصين لحفظ وصيانة المبانى المقدسة[١] ففى الحال أوصلوا رسالته وقادوه شخصياً أمام كهنة وحكام اليهود.

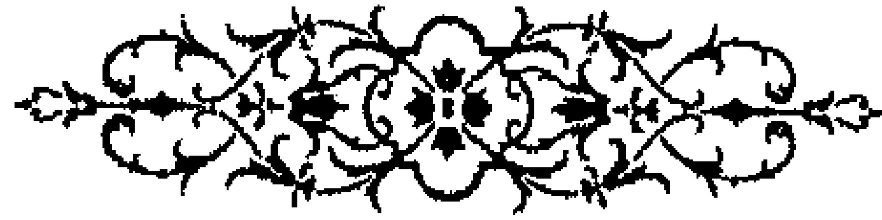
وهكذا اتحد قلب يهوذا وقلوب اليهود فى ارتباط عولخفهم المشتركة.

هل أتى الطلب الدنيء، أى ثمن الدم، منه هو أم هم الذين قدموه؟ وهل دفع فى الحال أم بعد القبض على يسوع؟ وهل كانت القيمة القليلة الدنيئة، الثلاثون من الفضة، وهى ثمن أقل العبيد[٢] كل المكافأة؟

ولا شك أن الاتفاق كان سهلاً وذلك لنظريتهم بأنهم فى غنى عن خدماته. أنه نظر بالجشع إلى العملة الفضية، ومنذ ذلك الوقت كان يغتنم الفرصة ليسلم معلمه وقتما يكون إلى جانبه جمع محب.

لا شك أن اليوم التالى فى أسبوع الآلام، يوم الأربعاء، قد أقلقه. كل يوم كان يترك يسوع بيت عنيا فى الصباح ويذهب إلى أوروشليم، فلماذا لم يذهب هذا اليوم؟ هل ارتاب فى خيانته؟ ولقد انتظر الناس سماع صوت السيد ذلك اليوم فى أروقة الهيكل دون جدوى. لا شك أنهم أنتظروه بحماس فائق، ولا شك أن الكهنة والفريسيين ترقبوه بأمل ردئ. ولكنه لم يأت. وقضى اليوم فى وحده تامة، وإلى ما اتصل إليه علمنا، فى راحة وسكوت. كان يعد نفسه فى لخمئنان وسلام لأجل شدة الجهاد المقبل. ولكن كيف مضى اليوم فهذا ما لا نعلمه. قد أسدل حجاب من الصمت المقدس على هذا. كان معه القليلون الذين أحبوه وآمنوا به فربما تحدث إليهم، ولكن عمله كمعلم على الأرض كان قد انتهى.

وفى تلك الليلة نام للمرة الأخيرة على أرضنا. وفى صبيحة الخميس استيقظ ولم يعد ينام بعد.



١ - أنظر (٢أى٣٥: ٨) و (أع٤: ١) و (٥: ٢٤).

٢ - راجع (خروج٢١: ٣٢) و (تك٣٧: ٢٨) و (زك١١: ١٢، ١٣).

الفصل الخامس والخمسون

العشاء الأخير

فى صباح الخميس حدثت مخاطبة بين يسوع وتلاميذه عن عيد الفصح. سألوه أين يريد أن يعدوه وكانوا يظنون أنه سيأكله في بيت عنيا. ولكن ترتيبه كان خلاف ذلك لأنه، وهو خروف الفصح الحقيقي، سيضحى مرة واحدة وإلى الأبد فى المدينة المقدسة حيث فى هذا الفصح وفى ذات اليوم سيضحى مائتان وستون ألفاً من الخراف التى كانت رمزاً له.

وعليه فقد أرسل بطرس ويوحنا إلى أوروشليم وأعطاهما علامة سرية غريبة. أخبرهما أنه عند الدخول من الباب سيجدان خادماً حاملاً جرة ماء من إحدى العيون القريبة لاستعمالهما ليلاً. فإذا تبعاه سيصلان إلى منزل فيفضيان لمالكه برغبة المعلم[1] ان يأكل الفصح هو وتلاميذه عنده. وسيضع صاحب البيت هذا. تحت تصرفهم فى الحال عليه مفروشة معدة بما يلزم من مائدة وأرائك (مر١٥: ١٥). فأتيا ووجدا كل شئ كما قال يسوع "وأعدا الفصح".

عند إقتراب المساء ترك يسوع وتلاميذه بيت عنيا بالطريق القديم عبر جبل الزيتون ولا نستطيع أن نختطف منهم لمحة إلا عندما نجدهم مجتمعين فى تلك "العلية" الوسيعة.

عندما وصلوا كان العشاء معداً والمائدة مجهزة وذات الأرائك الثلاث قد فرشت وساداتها استعداداً للضيوف وكان كرسى الشرف هو الأوسط فى الأريكة الوسطى. وهذا قد شغله السيد واستلقى كل منهم متكئاً على مرفقة الأيسر كى تكون يده اليمنى طليقة.

واتكأ إلى يمين يسوع التلميذ المحبوب ليستطيع أن يسند رأسه فى أى وقت على صدر صديقه وسيده.

مجرد أخذهم أما كنهم حول المائدة قد أذكى فى عقول الرسل تلك المجادلات عن أيهم أعظم (لو٢٢: ٢٤) والتى فى فرص سالفة قد وبخها[2] السيد بلطف وحزم.

---

١ – (مر١٤: ١٤) يشتم من التعبير أن صاحب المنزل كان تلميذاً ولا سيما لأن الرسالة قد تضمنت «أن وقتى قد قرب» (مت٢٦: ١٨).

٢ – (مر٩: ٣٤) و (مت١٨: ١).

سمع يسوع فى سكوت أليم همسات الحسد بينما كانوا يحتلون أما كنهم حول المائدة. فأراد ليس بمجرد التوبيط الكلامى، بل بالعمل الحسى، الذى هو أعظم أهمية وأعمق أثراً، أن يعلمهم وجميع الذين يحبهم درساً نبيلاً.

تفترش أرضية أى حجرة شرقية بالحصر مالم يكن صاحبها مدقع الفقر. وعندما يدخل أى شخص يخلع نعله عند باب الغرفة، أولاً لئلا يلوث الحصر البيضاء النظيفة بأتربة وأوساخ الطرق والشوارع، وثانياً لئلا ينجس الحصر الذى تقدس بالركوع عليه فى الصلاة. وقد تتبع التلاميذ هذه القاعدة النظيفة المعقولة ولكنهم أهملوا عادة أخرى مرعية محبوبة نعلم أن يسوع يقدرها حقها. لاشك أن أرجلهم قد غطاها التراب من السير فى الطريق ما بين بيت عنيا وأوروشليم، ولا ريب أنهم كانوا ينتعشون للعيد لو أنهم بعد أن خلعوا صنادلهم غسلوا أقدامهم. ولكن غسل الأقدام عمل العبيد. وإذ أن أحداً منهم لم يتقدم لهذا العمل الوديع فيسوع نفسه بكل تواضع لا نهائى وانكار ذات ترك مكانه على المائدة ليؤدى لهم هذه الخدمة الحقيرة التى أبى أى واحد من تلاميذه أن يقوم بها (يو١٣: ١ - ٢٠). وإن دهشة التلميذ الحبيب ظاهرة فى حديثه وهو يسجل بإتقان كل تفصيل من هذا المنظر الوقور. "وإذ رأى يسوع أن الآب قد دفع كل شئ فى يديه وأنه من الله خرج وإلى الله يمضى قام من العشاء وخلع ثيابه وأخذ منديلاً وإتزر به". ومن المحتمل أنه فى انكاره التام لذاته خلع عن ذراعيه ونصفه الأعلى "السينشاه" و"الكيتونث" كما لو كان أحقر العبيد، وإتزر بالمنشفة على وسطه. ثم صب ماء فى الطست النحاس الكبير الموجود دائماً فى كل بيت شرقى وإبتدأ دون التلفظ بكلمة يغسل أرجل تلاميذه ويمسحها بالمنشفة التى كان متمنطقاً بها.

ولقد أسكتهم الخزى والخوف حتى إذا جاء إلى بطرس وجدت عواطفه الثائرة مخرجاً فى سؤاله "يارب أتغسل رجلى؟" أنت إبن الله... أنت ملك إسرائيل الذى كلام الحياة الأبدية عندك.. أنت الذى يجب أن يدهن ملوك الشرق قدميه بالناردين ويغسلهما التائبون بالدموع الغالية، أتريد أنت أن تغسل قدمى بطرس؟. ولكن يسوع علم برأفة ماينطوى عليه تصريح تلميذه، فأخبره أنه لا زال قاصراً عن فهم أعماله، ولو أنه سيأتى اليوم الذى فيه تتفتح معانيها له رويداً رويداً. ولكن بطرس فى عجلته وعناده، وكما لو أنه قد شعر أزيد من سيده بعظمة من يخدم ووضاعة من تقدم له الخدمة، أستمر فى معارضته بحدة قائلاً "لن تغسل رجلى إلى الأبد". وحينئذ أظهر له يسوع خطر إعتزازه بنفسه الذى يستتر وراء اتضاع كاذب وقال "إن لم أغسلك فلا نصيب لك معى". إن كنت تريد أن تكون لى فدع جانباً على حد سواء الغرور بالنفس وامتهان النفس. إن تابعى يجب أن يخضع لإرادتى حتى عندما يستعصى فهمها

عليه، وحتى عندما تظهر أنها تخالف مايعتقده فيَّ". هذه الكلمة الهادئة غيرت مجرى عواطف ومنحى أفكار ذلك التلميذ المتحمس الحار القلب. لا نصيب معك في السماء... حاشا...! "يارب ليس رجلي فقط بل ويدي أيضاً ورأسي"! ولكن، مرة ثانية، لا يجب أن يخضع لإرادة المسيح على طريقته هو بل على طريقة يسوع. هذا الغسل الكامل لا يحتاج إليه الأمر. لقد سبق فاعتمد عند قبوله هذا الغسل الذى للتجديد. لا يحتاج الأمر سوى إلى الغسل اليومى من الأوساخ البسيطة المستجدة. الأرجل التى تتسط من أتربة الخطايا اليومية يجب أن تغسل بالتجديد اليومى، ولكن كيان وقلب الرجل سبق أن غسلاً وتطهراً وتقدساً "قال له يسوع إن الذى استحم[1] لا يحتاج إلا إلى غسل رجليه بل هو طاهر كله. وأنتم طاهرون" واضطر أن يضيف بأنة عميقة "لكن ليس كلكم". يشير بهذا إلى علمة بوجود خائن بينهم لأنه كان يعلم ما لا يعلمونه هم من أن يدى رب الحياة قد غسلت للتو قدمى الخائن. أى عمق غريب لا يسبر له قرار من نكران الجميل وجنون قلب الإنسان! فهذا الخائن الذى يخبىء الخيانة السوداء اللعينة فى قلبه الكاذب قد شعر.. ورأى.. وعلم... ولكنه احتملها. لقد شعر بلمس هذه الإيدى الرؤوفة الرقيقة وانتعش بالمياه المطهرة، ورأى تلك الرأس المقدسة منحنية على قدميه اللتين قد اتسختا من الرحلة العجلى السرية عبر جبل الزيتون التى أوصلته إلى مجمع القتلة المتظاهرين بالتقوى الصاخبة. لكن لم يكن تطهير فى ذلك الماء السلسبيل لم يخرج منه الشيطان بذلك الصوت الرقيق، ولم يشف برص قلبه من اللمسة الصانعة العجائب.

ولم يلحظ باقى الرسل فى تلك الدقيقة معنى الإستثناء المحزن "لكن ليس كلكم". ربما لأن ضمائرهم قدمت لهم، حتى لأشدهم إيماناً، سبباً محزناً ليرجع كل واحد تلك الكلمات بألم إلى نفسه. وبعد أن غسل يسوع أقدامهم لبس ثيابه واتكأ مرة ثانية. على المائدة. وإذ اتكأ على يده اليسرى كان يوحنا إلى يمينه ورأسه قريبة جداً من صدر يسوع. وإلى جانب يوحنا ربما على الطرف الملاصق للأريكة المجاورة كان أخوه يعقوب. ومما نستنتجه من التفصيلات القليلة عن هذا العشاء أن يهوذا كان على يسار يسوع. ربما اغتصب لنفسه هذا المكان، أو ربما لأنه كان أميناً للصندوق العام، فقد احتل مكاناً له أفضليته بين تلك الجماعة القليلة. كما أن بطرس أتكأ غالباً على رأس الأريكة التالية إلى يسار يهوذا. ولما ابتدأ الطعام علمهم يسوع ماعناه بما عمل بأنهم حسناً وبحق لقبوه (المعلم) و(الرب) لأنه كان كذلك. ومع أن السيد أفضل من العبد والمرسل أفضل من رسوله، فهو، ربهم ومعلمهم، قد غسل أقدامهم. كان نوعاً من العمل النبيل. ويجب أن يكون هذا دائماً أساس معاملتهم بعضهم لبعض. لقد

١ – المعرب : وهذا القول دليل على أنه لا يجب إعادة المعمودية.

فعل ذلك ليعلمهم إنكار الذات والتواضع، ليعلمهم المحبة فطوبى لهم إن عرفوا هذا الدرس وعملوا به. علمهم أن أعظم المسيحيين هو أكثرهم اتضاعاً. وأن الأعظم بينهم هو الذى لأجل الآخرين يضع بسرور على نفسه أصغر الأعمال ويطلب لنفسه أحقر الخدمات. لقد حذرهم مراراً وتكراراً من التطلع إلى المكافآت العالمية أو النجاح الدنيوى، فالعرش والوليمة والمملكة والمنازل الكثيرة ليست على الأرض.

ومرة أخرى عاوده إضطراب روحه. كان يتكلم عن الذين قد إختارهم ولكن ليس عنهم كلهم لأنه كان بين هذه الصحبة المباركة شخص يستنزل اللعنة على رأسه.

فهنا بالقرب منه يسمع يهوذا كل هذا الكلام ولا يحرك ساكناً إذ كان مملوءاً حقداً وكرهاً، ويقسى قلبه بشدة ويغلق باب ذلك القلب بكل ثقل امتلاك الشيطان فيغلق بذلك باب رحمة الله، بينما حتى الآن، وفى هذا المكان، كان مخلصه يريد أن يفتحه له. وجلس الخائن وعلى وجهه إبتسامة الرياء الكاذبة ولكن يحتل قلبه الغضب والخزى والطمع والخيانة. مما جعل يسوع يضطرب بالروح إلى أشد الأعماق. وقد عصر الألم قلبه وهو يقول بصراحة ووضوح "الحق الحق أقول لكم إن واحداً منكم هو الذى سيسلمنى."! فى هذه الليلة سيتركونه كلهم حتى أحبهم إليه. ليس هذا فقط بل فى هذه الليلة حتى أجرأهم قلباً سينكره بإقسام. وليس هذا فقط بل سيسلمه واحد منهم. وقد وجفت قلوبهم وهم يصغون إليه. انتشر حزن عميق على العشاء المقدس لقد تزعزعت قلوبهم، وكل تقصير فى المحبة، وكل خلجة من الأنانية وكل ضعف فى إيمانهم، وكل فكر شرير ساورهم قد تجمع كله فى أذهانهم وملأ أفئدتهم من الخوف. لا أحد منهم كان خالياً من شئ ما، وكل واحد منهم قرأ عدم تثبته من نفسه فى عينى زملائه من التلاميذ.

وفى تلك اللحظة من الحزن الشديد أو مايقرب من اليأس المرير، بشفاه مرتجفة، سأل كل واحد منهم السؤال المتواضع "ألعلى أنا هو يارب"؟ وهو سؤال أفضل فى كل وقت من السؤال: "من هو؟". وسكت يسوع. آه... لو أمكن، ولو حينئذ أن يكون وقت ليهوذا ليتوب فيه. ولكن بطرس لم يتمكن من حبس حزنه أو كظم عدم اصطباره. وإذ كان راغباً أن يعرف الخيانة ويمنعها أومأ دون أن يراه يسوع إلى يوحنا ليسأله من هو (يو١٣: ٢٤). وكانت رأس يوحنا بالقرب من يسوع فوضعها بثقة المحبة على صدر سيده وهمس متسائلاً "يارب من هو"؟ يو١٣:٢٣ والجواب الذى قيل بصوت خافت أيضاً سمعه يوحنا فقط وأكد الشك الذى كانت طبيعة يهوذا السيئة تثيرها فيه. على الموائد الشرقية يأكل الأضياف بأصابعهم من طبق عام، ومن المعتاد أن يغمس المرء فى الطبق قطعة من الخبز الرقيق اللين الذى يوضع إلى جانب كل ضيف ثم يطوى داخلها بعضاً من اللحم أو الأرز ويقدمها لآخر. وعمل عادى

مثل هذا يحدث كل يوم على الموائد لا يلفت النظر أبداً. وناول يسوع اللقمة المغموسة للتلميذ الخائن، وهى العلامة التى ذكرها ليوحنا ـوربما نقلها يوحنا إلى بطرس ـ والتى تدل على الشخص الخائن فى هذه الجماعة الصغيرة وحينئذ أضاف يسوع بصوت عال كلمات ليس لها سوى معنى واحد، كلمات هى أشد ما إنفرجت عنها شفتاه: "إن إبن الإنسان يمضى كما هو مكتوب عنه فويل لذلك الرجل الذى به يسلم ابن الانسان. خير لذلك الرجل لو لم يولد"! كلمات قيل عنها حسنا "انها كلمات هلاك لايوصف". بعد أن صمت الجميع وقع على أذن المخلص الصوت الممجوج بهمس فات أوانه وبكل مرارة السخرية المتحدية، ولم يسأل كما سأل الباقون باحترام حبى "ألعلى أنا هو يارب"، بل باللقب الرسمى البارد "ألعلى أنا هو يامعلم"؟ وحينئذ سجلت جريمته تلك الاجابة الخافتة غير الموبخة "أنت قلت". لم يسمع الباقون هذا. ربما يكون يوحنا وبطرس قد سمعاها وحدهما. وأكل يهوذا اللقمة التى أعطاها له يسوع. "وبعد اللقمة حينئذ دخله الشيطان".

فى تلك النفس المفقودة حبلت الخطية وولدت موتا "فقال له يسوع ما أنت عامله فاعمله سريعا". قال له ذلك على مسمع من الجميع. علم ماتنطوى عليه هذه الكلمات وعلم أنها تعنى "إن مقصدك نضج فإعمله بدون هذه الرياءات غير المجدية والتأخيرات التى لا داعى ولا معنى لها". فقام يهوذا عن المائدة، أما التلاميذ الأبرياء القلوب فقد ظنوا أن يسوع أمره أن يذهب ليشترى ما يحتاجونه لفصح الغد، أو ليعطى من صندوقهم المشترك مايساعد الفقراء على شراء خروف الفصح. وعلى ذلك، فمن الحجرة المنيرة، ومن المائدة المقدسة، ومن الصحبة المباركة، ومن حضرة سيده، خرج يهوذا للحال. وأضاف التلميذ المحبوب برعشة لها معنى مخيف سادلا ستار الظلمة وراء الشبح الشائن: "وكان ليلاً".

وفى هذه الليلة تم تأسيس سر الأفخارستيا فى هذا العشاء الأخير، والذى لنا عنه أربعة مصادر، لأن الوصف المختصر الذى كتبه بولس الرسول يوافق حرفيا ماكتبه البشيرون الثلاثة تقريباً. وفى كل منها تتضح الأمور الأساسية التى يخبرنا عنها بولس الرسول بجلاء: "لأننى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً أن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم. إصنعوا هذا لذكرى. كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشوا قائلاً هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى" (١). ومنذ تلك الليلة الخالدة لم تكف الكنيسة عن إطاعة أمر السيد. ومنذ ذلك اليوم جيلا بعد جيل كان هذا السر المبارك المقدس تذكارا لموت المسيح وتقوية وانعاشا لنفوس المؤمنين بالتناول من الجسد المقدس والدم الكريم تحت عرضى الخبز والخمر.

---

١ - (اكو ١١: ٢٣ - ٢٥).

الحديث الأخير

الآن وهو عالم بفراقه لهم سريعاً إذ قد تقرر هذا نهائياً في عزمه العلوى فتح قلبه للصحبة الصغيرة التى أحبته وتكلم مع تلاميذه بأحاديث الوداع التى حفظها لنا يوحنا البشير وحده والتى هى "نسيج فريد من الحزن والفرح ومطعمة بالأسرار كما بالزمرد" قال كما بزفرة راضية "الآن تمجد إبن الإنسان وتمجد الله فيه" قد دنت ساعة المجد، المجد الذى يكتسب عن طريق الآلام والتواضع. وأصبح الوقت الذى سيقضيه معهم قصيراً. وكما قال لليهود فالآن يقول لهم أنه حيثما يذهب لا يستطيعون أن يأتوا وإذ يقول لهم هذا يدعوهم للمرة الأولى والأخيرة (يا أولادى) الصغار. مع أنه كان فى هذه الصحبة مثل بطرس ويوحنا، رجال أثرت كلماتهم وأعمالهم منذ ذلك الوقت وإلى الأبد على كل العالم والبشر، رجال سيكونون القديسين الشفعاء للأمم، وستبنى كاتدرائيات تخليداً لهم، وتدعى مدن بأسمائهم، إلا أن عظمتهم ليست سوى إنعكاس من مجد القائم من الأموات وشعاع مَن الروح الذى سيرسله. فهم لا شئ بل أقل من لا شئ بدونه، صيادو سمك جليليون، جاهلون، غير مسموعين ولا معروفين، غير أنه إعتبرهم "أولاده" الصغار. ومع أنهم لا يستطيعون أن يتبعوه إلى حيث يذهب، غير أنه لم يقل لهم كما قال لليهود[1] أنهم سوف يطلبونه فلا يجدونه، بل على العكس أعطاهم وصية إن ساروا بها فى خطواته فسيعرف العالم أنهم تلاميذه، وسوف يجدونه سريعاً. وهذه الوصية الجديدة هى أن يحبوا بعضهم بعضاً. لم تكن هذه الوصية جديدة فإنه[2] حتى فى ناموس موسى (لا١٩:١٨) وجد لها مكان للتعليم "تحب قريبك كنفسك" بل قد إعتبر المعلمون الحكماء من اليهود أن هذه الوصية أساسية وضرورية[3]. ولكن كما يقول يوحنا فى رسالته إنها وإن كانت قديمة فإنها من وجه آخر جديدة جداً، جديدة فى الأهمية التى أعطيت لها، جديدة فى الدوافع التى تأمر بها، جديدة فى المثال الجديد الذى أمر بها، جديدة بالتأثير الذى قدر أن تتمه من الآن فصاعداً. المحبة التى هى إمتحان وميزة التلمذة له، المحبة التى هى أعظم من الإيمان والرجاء، المحبة التى هى كمال الناموس.

عند هذا تدخل بطرس بسؤال إعتراضى إذ أراد قبل أن يبدأ يسوع بتعليم آخر أن يستفسر عن شئ

---

١ – (يو٧:٣٤) و (٨:٢١).

٢ – من الملاحظ أن الكلمة المستعملة معناها الحرفى «طازج» لا «جديدة».

٣ – (يعقوب٢:٨) و (١يو٣:١١).

أشكل عليه فهمه. لماذا تغلب الصيغة الوداعية على حديث السيد؟ "إلى أين تذهب يارب" فأجابه يسوع "حيث أذهب أنا لا تقدر الآن أن تتبعنى وستتبعنى أخيراً" إذ ذاك فهم بطرس أن يسوع إنما يعنى "الموت" ولكن لماذا لا يقدر هو أن يموت الآن أيضاً؟ أليس هو مستعداً أن يقول كما سبق توما فقال "لنذهب ونموت نحن أيضاً معه" فقال للسيد "لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن. نفسى أضعها عنك"

(لماذا؟) كان ممكناً أن يجيبه يسوع: لأن القلب أخدع من كل شئ. ولأن إفتقارك للتواضع الحقيقى يمنعك. ولكنه لم يعامل هذا القلب النبيل الذى لتلميذه الضعيف المدعى والذى لم يقو حبه على الإمتحان، وإن كان كامل الإخلاص، لم يعامله هكذا بل أعفاه من كل توبيط. وبكل لطف كرر سؤاله "أتضع نفسك عنى؟" وأضاف "الحق أقول لك إنه لن يصيح الديك حتى تنكرنى ثلاث مرات"

قبل أن يبزغ فجر ذلك اليوم المميت فى الأفق الشرقى، وقبل أن يصيح الديك معلناً فى الظلمة الحالكة أن الفجر قد إقترب يكون قد بدأ يسوع أن يضع نفسه عن بطرس وعن كل من يخطئ، بينما يكون بطرس. رغم تحذيره، قد أنكر ثلاث مرات سيده ومخلصه، ورفض ثلاث مرات مجرد فكرة معرفته، كأن هذا عار. وقد فعل يسوع كل ما يمكن عمله ليعفيه من آلام سقوطه الأدبى هذا بتحذيره له وعطفه عليه والصلاة من أجله إذ طلب من أجله لكى لا يفنى إيمانه[١]. لقد سمح للشيطان أن يغربلهم كالحنطة[٢]، ورغماً عن ثقة بطرس بنفسه، ورغماً عن تعبده وإحتجاجه، ورغماً عن كل إخلاصه الخيالى فلن يكون إلا تبناً (ويلاحظ فى بشارة لوقا أن هذه هى المرة الوحيدة فى الإنجيل كله التى خاطب بها السيد سمعان بإسم بطرس وهو الإسم الذى سبق فمنحه له، كما لو أنه عنى أن يذكر رجل الصخرة أن قوته ليست كامنة فيه ولكن مكتسبة من الإعتراف الذى أدلى به يوماً) غير أن يسوع وضع نصب عينيه رجاء بالنعمة أنه سيتوب ويرجع إلى سيده الذى سينكره. وعندما يأتى ذلك اليوم فإنه يأمره أن يظهر أصدق برهان مقبول للتوبة وهو أن يثبت الآخرين، إن كانت سقطة بطرس ضربة قاسية لتحذيرات مخلصه فإن توبته أتمت بنبل هذه النبوات المعزية، ومن الملذ للغاية أننا نجد نفس الكلمة التى قالها يسوع له قد أعادها هو فى رسالته فى موقف مناسب. وهذا يظهر كيف أنها نقشت عميقاً فى نفسه[٣].

١ – (لو٢٢: ٣٢) المعنى الأصيل «ينقص للدرجة القصوى».

٢ – (لو٢٢: ٣١) قارن (عاموس٩: ٩).

٣ – (لو٢٢: ٣٢) قارن (١بطـ٥: ١٠).

أراد يسوع أن يشعر تلاميذه أنه قد حان الوقت الذى يتغير فيه كل شئ صادفوه فى ربيع إرساليتهم فى الجليل. إذ ذاك أرسلهم بلا كيس ولا مزود ولا حذاء ولم يعوزهم شئ ولكنهم الآن فى حاجة إلى الكيس والمزود، بل سيصبح السيف لازماً. "ومن ليس له فليبيع ثوبه وليشتر سيفاً" ولكن طريقة نطقه بهذه الجملة لا تدل على أنه يقصد أن تؤخذ حرفياً. لقد كانت عادة السيد -لأن كلماته كان يقولها لكل الأجيال فيجب أن تثبت كمناخس أو تدق كمسامير فى أماكنها المناسبة - كانت عادته أن يكسو تعاليمه الأخلاقية فى تشبيهات حية وكلمات قوية. وكان غرضه الآن أن يحذرهم من الحال الذى تغير فيجب أن ينتظروا الضيق والبغضة والإهمال والمقاومة والمعارضة التى يصبح فيها الدفاع عن النفس واجباً محتماً. وأضاف أن نهايته قد إقتربت وأنه حسب النبوة القديمة سوف يحصى مع أثمة. ولكن الرسل كالعادة بجهل وبلا إنتباه أخطأوا فهم كلامه ولم يروا فيه الدرس الروحى ولكن مجرد المعنى الحرفى. فكان تعقيبهم الذى يشبه تصور الأطفال "يا رب إن ههنا سيفين".

سيفين..! كما لو كانا كافيين للمدافعة عن حياته المقدسة ضد القوة الغشومة! وكما لو كانا ذخيرة وافية لذلك الذى تحت أمر كلمة واحدة منه تأتى أكثر من إثنى عشر جوقاً من الملائكة! وكما لو أن هذه القوة الضعيفة فى تلك الأيدى الضعيفة تقدر أن تخلصه من الحقد الدفين لأمة من الحقد! فقال بحزن (يكفى). لم تكن هناك فائدة من إتمام الموضوع. وحتى الدرس المقبل فى جثسيمانى لن يعلمهم ضعف فهمهم لكلماته. ترك الموضوع، وترك جانباً السيفين المعروضين، وإبتدأ فى العمل الأكثر رقة، عمل التعزية الذى كان عليه أن يقول كثيراً فيه.

أمرهم ألا تضطرب قلوبهم -فإنهم يؤمنون ويجب أن يكون لإيمانهم ثمر. وأخبرهم أنه سيتركهم ليعد لهم مكاناً فى المنازل الكثيرة التى فى بيت أبيه، وأنهم يعلمون إلى أين يمضى ويعرفون الطريق.

فكان الجواب المرير لتوما الحزين "يا رب لسنا نعلم أين تذهب فكيف نعرف الطريق"

"قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتى إلى الآب إلا بى. لو كنتم عرفتمونى لعرفتم أبى ايضاً ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه"

وحينئذ قفز أحد تلك الإعتراضات الساذجة التى تظهر مدى عدم مقدرتهم على الفهم وعمق جهالتهم الروحية بعد زمن طويل من التعليم الإلهى -ويجب أن نشكر الله لأن سذاجة وجهالة الرسل قد سجلته لنا ببساطة وإتضاع وإخلاص ووضوح. لأن هذا يبرهن على قوة التغيير الذى حدث فى نفوسهم بعد القيامة، إذ كانوا قبلاً رجالاً جبناء جسديين، يهود غير مستنيرين، فأصبحوا الرسل الذين

نعلم قيمتهم، والذين قد ألهمتهم الحوادث التى شهدوها، وأبدلهم الروح القدس الذى منحهم الحكمة والبلاغة فصاروا، قبل أن تنتهى حياتهم القصيرة بميتات عنيفة، أعظم معلمى العالم.

إعترض فيلبس الذى من بيت صيدا قائلاً "يا رب أرنا الآب وحسبنا"

(أرنا الآب) ماذا كان إذن ينتظر فيلبس؟ هل قصر تماماً عن أن يكتشف أنه طوال هذه السنين الثلاث إنما كان سائراً مع الله؟ وأنه لا هو ولا أى مخلوق بشرى يمكنه أن يعرف الله فى هذا الدهر سوى من يعلن له بواسطة "الإبن الوحيد الذى فى حضن الآب؟"

لم تكن فى إجابة السيد الهادئة أية خلجة من الغضب ولكن لهجة تدل على ألم المفاجأة إذ قال له "أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفنى يا فيلبس. من رآنى فقد رأى الآب. فكيف تقول أنت أرنا الآب"

وحينئذ ركن إلى كلماته وأعماله مبيناً أنها لا يمكن أن تكون إلا إذا كان فى الآب. ثم إبتدأ فى إعلان مجئ الروح القدس وكيف أن هذا المعزى سيسكن فيهم ويجعلهم واحداً مع الآب ومعه.

ولكن يهوذا لباوس وجد فى هذا صعوبة لا يفهمها. لم يدرك أن الله لا يرى إلا من الذين قد إنفتحت بصائر أذهانهم فينظرون الأمور الروحية. سأله "يا رب ماذا حدث أنك ستظهر لنا ذاتك وليس للعالم؟"

كانت صعوبته من نفس نوع صعوبة فيلبس، عدم القدرة على التفرقة بين الظهور الجسدى والروحى، ودون أن يزيح السيد هذه الصعوبة مباشرة أعطاهم كلهم مرة أخرى مفتاح فهم كلماته وهو أن الله يعلن للذين يحبونه وأن برهان المحبة هو الطاعة. ثم أحال باقى التعاليم على المعزى الذى سيرسله لهم والذى سيذكرهم بكل شئ. أما الآن فإنه أفاض عليهم بركة السلام ولم يشأ أن يكلمهم كثيراً بعد لأن نزاله مع رئيس هذا العالم يجب أن يبدأ.

وعند هذا الحد من الحديث حدثت حركة بين تلك العصبة القليلة لأن يسوع قال "قوموا ننطلق من ههنا"

فقاموا عن المائدة وإتحدت أصواتهم فى ترتيل جزء من التهليل الكبير (غالباً مزامير ١١٦ و١١٧ و١١٨). أى تأثير خالد قد أصبح لهذه الترانيم من هذه المناسبة، وأى معان مليئة قد حملت بعض

أعدادها لبعض منهم! ولا شك أن عواطفهم قد تأثرت وهم يرنمون سوياً أعداداً مثل: "أحاطت بى أسوار الموت وآلام الجحيم أمسكتنى. وجدت حزناً وألماً وحينئذ دعوت إسم الرب. الرب أطلب. خلص نفسى"، أو مثل: "ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته. آخذ كأس الخلاص وأدعو بإسم الرب"، أو مثل "قد وضعت أمامى معثرة لكى أسقط ولكن الرب عضدنى. الله قوتى وترنيمى. وهو خلاصى الحجر الذى رفضه البناؤون هذا صار رأس الزاوية. هذا هو عمل الرب وهو عجيب فى أعيننا"

وقبل أن يبدأوا سيرهم إلى حديقة جثيمانى على ضوء القمر، ربما وهم ملتفون حول سيدهم، وبعد أن إنتهى ترتيلهم، كلمهم مرة أخرى، أوصاهم أولاً عن الضرورة القصوى للإتحاد به إن كانوا سيأتون بثمر ويخلصون من الهلاك. وقد ضمن هذا فى تشبيه "الكرمة والأغصان" ولا توجد حاجة للبحث عن ظرف خاص أوحى بهذا التمثيل سوى "نتاج الكرمة" التى تناولوا منها. وبعد أن ثبت فى قلوبهم هذه الحقيقة التى صاغها على شكل مثل حى أظهر لهم أن الآلام التى تنتظرهم من دنيا غاضبة ستتحول لهم نبعاً عميقاً من الفرح والسرور. وحينئذ بلغة أعمق وأكمل وأوضح مما سبق أن تكلم بها إليهم أخبرهم أنه رغم الحزن الذى سيملأ قلوبهم لتركه إياهم فإن إنطلاقه خير لهم. خير لهم أن ينتهى وجوده الأرضى معهم حتى يكون حضوره الروحانى ألصق وأقرب إليهم مما كان قبلاً وهذا سيتم عندما يحل الروح القدس. وحينئذ، من هو الآن معهم سيكون فيهم، سيبكت الروح القدس العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة. ويرشدهم إلى جميع الحق ويخبرهم بكل شئ. "وذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم" وها هو ذاهب إلى أبيه، فعما قليل لا يرونه ثم بعد قليل سوف يرونه.

وعدم تحقق الرسل مما يعنيه حملهم مرة أخرى فى فترة سكوت أثناء حديثه الرهيب على أن يتساءلوا فيما بينهم، وكانوا يريدون أن يسألوه ولكن خوفاً عظيماً وقع على أرواحهم فلم يجسروا. لقد قاطعوا مجرى أفكاره قبل ذلك مراراً عديدة بأسئلة مع أنه لم يوبخهم عليها ولكن بلا ريب قد أحزنته لفراغها ولعدم الفهم الذى أظهروه لكل الأمور التى رغب أن يثبتها فيهم. وعلى ذلك إنتهت همسات تساؤلهم إلى صمت، ولكن سيدهم برأفة أتى لعونهم وأوضح لهم أن هذه الساعة القصيرة الآتية عليهم ستكون للنوح والحزن ولكن سيثبتها فرح لا ينزعه أحد منهم، ولا يكون لفرحهم حد لأن كل ما يحتاجونه من الآب فاياه يعطيهم. أما هو فسيمضى إلى الآب الذى من عنده أتى(١) والذى يحبهم لأنهم آمنوا به.

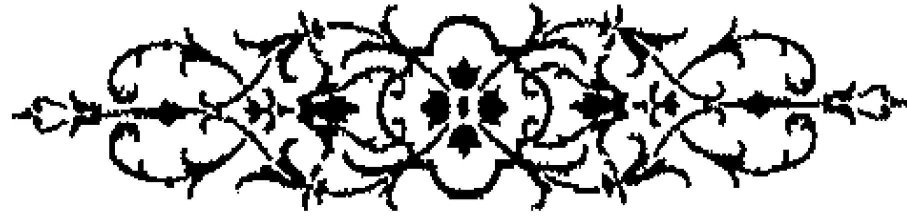
---

١ – من الأمور الدقيقة – التى لا يمكن للترجمة أن تظهرها – التي نستدل بها على تمسك السيد بأصله الإلهي أنه يستعمل كلمة «بيتو» لكل سؤال وصلاة إلى الله من الآخرين – وهي كلمة تستعمل فى الطلب من الأصغر إلى الأعلى وأما لصلاته هو فكان يستعمل كلمة «روجو» وهي كلمة معناها الطلب من الند إلى الند. وأيضا عندما كان يطلب من تلاميذه أن يصدقوه كان يستعمل كلمة «يؤمنوا» (يو ١٤ : ١) وهي لا

وكان شكر الرسل عميقاً لهذه الكلمات البسيطة الكاملة التعزية. فأعلنوا إعتقادهم بالإجماع مرة أخرى وإعترفوا أنه من عند الله قد خرج. أما يسوع فقد حد من حماسهم لأنه كان يقصد من كلامه أن يمنحهم سلاماً فى الحاضر وشجاعة ورجاء للمستقبل. ولكنه عرف وأخبرهم -رغم كل ما قالوه- أنه قد أتت الساعة التى فيها يتفرقون فى خوف أنانى ويتركونه وحده، ولكنه ليس وحده لأن أباه معه.

بعد هذا رفع عينيه إلى السماء وصلى صلاة رئيس الكهنة العظيمة فطلب أولاً أن يمجد الآب تأنسه الإختيارى بالمجد الذى أخلى نفسه منه عندما إتخذ صورة العبد، وثانياً أن يحفظ فى إسمه هؤلاء الذين أحبهم والذين ساروا معه على الأرض[1]، وأيضاً لكى يقدس ويكمل ليس هؤلاء فقط بل كل الملايين وكل الأجيال الذين سيؤمنون بواسطة كلامهم إلى الأبد.

وعندما إنتهى من هذه الصلاة الإلهية تركوا العلية وخطوا فى السكون الملتمع بضياء القمر فى ذلك الليل المشهود.



تستعمل إلا لله بينما تستعمل كلمة معناها «ثقوا» لتصديق الناس (يو١: ١٢) و (٢:٢٣) و (مت١٨:٦) وأيضا عندما كان يتحدث إلى الله أبيه كان يقرنها دائماً بحروف التعريف «يا أيها الآب» «يا أبتاه» أما إذا تحدث عنه كأبينا فكان لا يستعمل حرف التعريف. وهذا ظاهر تماماً فى يو ٢٠:١٧ أصعد إلى «الآب الذى لى وأبيكم» يقول أوغسطين: [أصعد إلى أبى الذى هو أبوكم].

١ – «كنت أحفظهم» الواردة ترجمة ليوحنا١٢:١٧ ومعناها الأصلى «حرستهم» أو «رعيتهم».

الفصل السابع والخمسون

جثسيماني- والآلام والقبض

الذي سار في الطريق الذي سلكه يسوع وتلاميذه إلى أبواب المدينة ومنه إلى جانب المنحدر السحيق عبر وادي قدرون الذى ينخفض مائة قدم، ثم إلى الطريق المتصعد ذى الزرع الذي يتشعب منه يمكنه أن يتحقق مدى الرهبة والخوف اللذين ساورا هؤلاء الجليليين القلائل وهم يسيرون في سكوت لا يقطعه شيء، ويمشون بشيء من التستر بينما يحوم رعب خفى حول رؤوسهم، ويتبعون ذاك الذى كان يخطو أمامهم، برأس منحن وقلب كسير إلى نهايته التى إختارها.

لقد أخبرنا عن حادثة واحدة وقعت أثناء هذا الإسراء الخالد فى منتصف الليل إلى البستان المعتاد فى جثماني. كان التحذير الأخير للتلاميذ عامة ولبطرس خاصة. ساورت قلوبهم رعشة قاسية من الجبن من حالك الظلمة والتخلى عن الممتلكات والصدى المكتوم لخطواتهم والصبغة الخفية لحركاتهم والشعور أن الخيانة قد بدأت. لذلك إستدار يسوع بحزن وقال لهم أنهم جميعهم يشكون فيه هذه الليلة بالذات لأنهم سيجدون إذن أى علاقة معه حجر عثرة فى طريقهم، وستتم النبوة القديمة القائلة "إضرب الراعى فتتفرق خراف الرعية". ولكن كراع سوف يمشى أمامهم ويقودهم إلى الجليل فنفروا جميعاً من مجرد إحتمال تركهم لسيدهم. وكان بطرس أعلاهم صوتاً وأشدهم تأكيداً فى نفيه ربما لأن ثباته فى إيقانه كان موضع مغمز أو ربما يكون قد ساوره شك فأكد أنه إن شك فيه الجميع فهو لا يشك، لم يزحزحه عن تأكيده الصارم حتى تكرار تحذيره أنه قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات سيكون قد أنكره ثلاث مرات. وأصغى يسوع بسكوت حزين رصين لتلك الأقسام التى ستتطاير سريعاً فى الهواء.

وعلى هذا النحو وصلوا جثسيماني الذى يبعد نحو نصف ميل عن أسوار المدينة وكلمة جثسيماني معناها (معصرة الزيت). ولا شك أن هذا الإسم أطلق على هذا المكان لوجود معصرة تدرس الزيتون الناتج من الأشجار التى لا تحصى والتى بسببها أطلق على هذا التل إسم جبل الزيتون.

قد علم يسوع أنه قد أتت الساعة المريرة لإنسحاقه العميق وأنه منذ الآن لم يبق أمامه سوى الآلام الجسدية ومر العذاب النفسي. فكل ما يمكن لكيان جسدى أن يحمله كان سيتجمع على جسمه الناحل. وكل شقاء ممكن أن تسببه الشتائم القاسية القاصمة كان سيقع بثقل على نفسه. سيجابه الألم فى أشد أنواعه، والعار فى أقسى وحشيته، وكل أثقال الخطية، وأسرار وجود الإنسان وإرتداده وسقوطه.

سيجابهها متجمعة سويا. ولكن بقى شئ واحد قبل هذا الصراع الفعلى، أى قبل إبتداء الآلام المادية الصريحة. عليه أن ينعش قوى جسمه ويشدد أعصاب نفسه ويهدئ روحه بالصلاة والوحدة قبل أن يواجه ذلك الوقت الذى فيه سيقذف كل ما هو شرير فى مملكة الشر أردأ ما فيه على البار القدوس. والآن سيقابل تلك الساعة منفرداً فلا تنظره عين وهو في عمق إنسحاقه إلا عن بعد وخلال الظلام والظلال، مع انه كان يسر لو شاركه تلاميذه عواطفهم. كان يخفف عنه فى تلك الساعة التى لسلطان الظلمة أن يشعر أنهم قريبون منه وأن الأقربين منه هم الأحب إليه. فقال للغالبية "إجلسوا ههنا حتى أمضى لأصلى هناك". وتركهم ليناموا على الحشائش ملتحفين عباءاتهم، وأخد معه بطرس ويعقوب ويوحنا على بعد رمية حجر. كان حسناً أن يرى بطرس كل ما يثبت الوفاء والإخلاص للمسيح. وكان جيداً أن ينظر يعقوب ويوحنا الكأس التى أرادا فى السابق أن يشرباها. ولكن بعد قليل حتى صحبة أولئك المختارين والموثوق بهم كانت أثقل مما يحتمل. إستولى عليه حزن لا ينطق به وصراع فوق الطاقة وإرتعاد شديد الحلكة ودوار كما لو كان إغماء متزايداً لموت مرتقب[1]. وهذا المزيج المختلط من العواطف لا يجب أن يراه أحد. "حينئذ قال لهم إن نفسى حزينة حتى الموت. أمكثوا ههنا وإسهروا معى". وسلط نفسه من عطفهم وحبهم القوى، ثم إنتحى على مضض بعيداً عنهم وهناك إلى أن غلبهم النعاس إختبروا روعة تلك الصلاة والأحزان التى كان يجتازها. وقد رأوه جاثياً على ركبتيه وهو يصلى بحرارة. وقد سمعوا نتفا من غمغمة الصلاة التى تضرع بها إلى إرادة أبيه. كان مضمونها واحداً من الأول للآخر وإن تغيرت الألفاظ "وكان يقول يا أبتاه كل شئ مستطاع لديك فأجزعنى هذه الكأس ولكن ليس كإرادتى أنا بل كإرادتك أنت".

وهذه الصلاة فى كل روعتها وقدسيتها اللانهائيتين قد أستجيبت. هذه الصرخة القوية وهذه الدموع السخية لم ترفضا. ولن نتطفل على هذا المنظر فإنه مخفى بسر ومحاط بهالة لا تخطو بعد دائرتها أقدام. ونحن ان نفكر فيها نصير كالتلاميذ، تثقل عيوننا وتختلط حواسنا. يكفينا أن نشاركهم فى الدهشة والحزن. شعروا وهم نصف صاحين ونصف مثقلين بحمل من النوم المضطرب. إنهم شهود خمود غير متيقظين لآلام لا ينطق بها أعمق بما لا يقاس من أن يتبينوها لأنها فاقت كل الأشياء التى قد ندعى فهمها حتى فى الأوقات التى يكون فيها ذهننا أصفى ما يكون. وشاهدوا قطرات العرق التى تتساقط منه فى الصراع المميت كقطرات الدم. وظهر لهم خلال الظلال المظلمة للأشجار على ضياء القمر المتقطع ملاكاً يشدد قوته كى يقوم منتصراً فى هذه الصلاة الأولى وليس به من آثار هذه المعركة الحامية

١ – (مت١٦: ٣٧) و (مر١٤: ٣٣) قارن (اي ١٨: ٢٠) و (مز ١١٦: ١١).

إلا الآثار القرمزية على جبهته.

من أين أتى كل حزن القلب وهبوطه هذا؟ وهذا الدهش المخيف والإرتياع المظلم، وهذا الإنفعال الذى كاد يودى به من قبل أن يناله تعذيب واحد والذى جعل عرقه يتفجر كقطرات الدم وكاد يسحق الجسد والنفس والروح كما بضربة قاضية؟ هل كان الخوف من الموت؟ هل كان من مجرد الجهد والعزم على مجابهة ما عرفه من قبل هو وكل ما فيه من الآلام فإرتخت لذلك نفسه.

كلا كان سر الإثم وثقل خطية العالم هو الذى جثم بعنف على قلبه. كان مذاق الإله المتأنس ذى الحياة الخالية من الخطية للكأس المر الذى سممته الخطية. وكان أيضاً الشعور كيف أن قوة الشر قد إستفحلت فصارت مريعة فظيعة فى العالم الذى أبدعه الله حتى إستلزمت ضرورة هذه الضحية. كان الإحتمال لمن هو بلا خطية لأنكى الشرور التى يمكن أن يقترفها الإنسان. كان إختبار نبع الطهر الكامل والحب الكامل لكل ما هو كريه من الجحود البشرى، كان الشعور أن خاصته التى جاء من أجلها قد أحبت الظلمة أكثر من النور، وأن أمته المختارة قد أجمعت على رفض جنونى للبر والقداسة والمحبة.

كل هذا مر به فى هذه الساعة فأثار فيه التياعاً طاهراً لا تبلغه مداركنا وذاق مقدماً مرارة أشد من أشد مرارة للموت.

وأتى يتطلب لمسة من التقوية الإنسانية والعطف بين المختارين من المختارين. أى رسله الثلاثة. ولكن يا للأسف وجدهم نياماً. كان ساعة خوف وشدة، ولكن ليست ساعة خطر محقق، فلم يحفزهم حبهم ليسوع ولا شعورهم بإكتئابه الذى يجل عن الوصف أن يفتحوا عيونهم مستيقظين، بل تحول حزنهم وتعبهم وإنفعالهم إلى نوم عميق. وحتى بطرس بعد إدعاءاته ووعوده المتسرعة كان نائماً إذ كانت عيناه ثقيلتين. فكل ما قاله لبطرس "أتنام يا سمعان" وعندما وقعت هذه الجملة الموبخة الحزينة على آذانهم وأيقظتهم من نومهم سألهم "أهكذا لم تقدروا أن تسهروا معى ساعة واحدة. فإسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة". ثم أضاف لا ليخجل تراخيهم ولكن ليظهر خطره "أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف".

تركهم مرة أخرى وأعاد دفعة ثانية، ولكن بعمق أكثر، تلك الصلاة. وفى فترة من سكون عاطفته عاد إلى تلاميذه ولكنهم كانوا نائمين أيضاً ولما أيقظهم لم يجدوا شيئاً يقولونه فى حيرتهم وإضطرابهم. فحسناً تم ما تنبأ به داود "إنتظرت رقة فلم تكن ومعزين فلم أجد" مز٦٩ : ٢٠

وللمرة الثالثة والأخيرة. ولكن بسلام أعمق وإرتياح أبهج، عاد ليجد التعزية الوحيدة فى الإتصال مع الآب. وقبل إنتهاء ساعة كان مستعداً لمجابهة أخس ما يمكن أن يعمله الشيطان والإنسان. كان يعلم كل ما سيقع عليه وربما يكون الآن قد رأى الأنوار المرتعشة إذ كان مطاردوه نازلين من حرم الهيكل. ومع هذا فلم يكن إضطراب فى كلماته الهادئة عندما جاء للمرة الثالثة فوجدهم نياماً أيضاً، بل قال لهم "ناموا الآن وأستريحوا. ها قد إقتربت الساعة وإبن الإنسان يسلم إلى أيدى الخطاة". وبعد قليل إبتدرهم قائلاً لهم: "قوموا ننطلق هوذا الذى يسلمنى قد إقترب". كان قد مضى أكثر من ساعتين مذ خرج يهوذا من تلك العلية المضيئة والصحبة المجيدة المفرحة إلى الظلام. ولكنه شغل هاتين الساعتين تماماً، فذهب إلى رؤساء الكهنة والشيوخ يهيجهم ويضرم فيهم نيران الحماس لأنه كان يود الإسراع فى تنفيذ مهمته، ولأنه كان يخاف حقاً ممن سوف يسلمه، وربما أيضاً ليزيد فى أهمية عمله فحمل علماء اليهود على تزويده بعصبة من خدامهم ومن حرس الهيكل وقوادهم ومن بعض الحامية الرومانية التى ببرج أنطونيا تحت أمر رئيسهم. كانوا ذاهبين لمهاجمة شخص وحيد ليس عنده وسائل للدفاع ومع ذلك فقد كان الجند مسلحين بالسيوف وكذلك الحشد الصاخب سلح نفسه بالعصى.

وبينما كان يسوع يتكلم أقبل الخائن[١]. وإذ بالغ فى لعب دوره تدفعه الجريمة المنكرة تعجل ولم تكن له الجرأة لينظر ويفكر، فتقدم وإندفع مسرعاً إلى داخل السياج وكان يتقدم كل الباقين[٢]. فقال له يسوع وهو يدنو منه "يا صاح. لماذا جئت". لم يرد يهوذا جواباً. ولما كان مصراً على إعطاء رفقائه العلامة الشائنة المتفق عليها قائلاً لهم "الذى أقبله هو هو فإمسكوه وخذوه فى حيطة" [٣] أسرع للوقت وتقدم إلى يسوع وقال منادياً إياه باللقب البارد العادى "سلام. يا معلم" وطبع على الوجه المقدس قبلة مصنعة نجسة. فقال له يسوع بتوبيط حزين رصين "يا يهوذا أبقبلة تسلم إبن الإنسان". وكانت هذه الكلمات كافية لأنها أظهرت حقيقة الرجل لنفسه إذ كشفت له عمله المنكر بكل بساطة وأعلنت خيانته التى لا مثيل لها فى شناعتها وشرها وإنتفاء الموجب لها. وحينئذ تسلل ذلك الشقى بشعور حتى نفس الشياطين من هوله تعطف عليه، وهرول إلى باب السياج الذى كان يقتحمه الآن باقى الجموع.

"يارب. أنضرب بالسيف؟" كان هذا سؤال بطرس المتحمس والتلميذ الآخر وهما اللذان كان معهما السيفان لأن الرسل كانوا حتى ذاك الوقت داخل البستان فلم يقدروا عدد الذين أتوا للقبض على

١ – في وصف هذه الوقائع قد اعتبرت البشائر الأربع كأنها حديث واحد تتم بعضها بعضا.

٢ – (لو٢٢ : ٤٧).

٣ – (مر١٤ : ٤٤).

السيد. ولم يجب يسوع فى التو لأنه بمجرد أن دحض الكذب الإجرامى الذى ليهوذا تخطى بنفسه السياج ليجابه مضطهديه. ما هرب وما إجتهد فى إخفاء ذاته بل وقف أمامهم فى كامل ضياء البدر الكامل، فى عظمته الفريدة، وحيداً غير مسلح، فكسف بحضرته الهادئة مشاعلهم وأسلحتهم التى لا موجب لها. "قال لهم من تطلبون؟" لم يكن هذا السؤال دون مقصد. إنما سأله كما يذكر يوحنا البشير كى يعفى تلاميذه ويحفظهم من كل عدوان. ويسوغ لنا أن نتخيل أيضاً أنه سأله كى يجعل كل الحاضرين شهوداً على القبض عليه ويحول هذا دون الغدر به أو قتله خلسة. "أجابوا وقالوا له يسوع الناصرى". دفعهم حماسهم وخوفهم إلى هذه الإجابة غير المباشرة. مع أنه لو كان هناك أدنى شك فى شخصيته فإن يهوذا كان واقفاً هناك -لاحظته عين البشير وهو يجتهد دون جدوى أن يستتر بين مختلف طبقات الجموع - كان هناك كى يضمن عدم وقوع أى خطأ قد ينجم من جراء فشل العلامة التى تعجل إبداءها فنشرت. "قال لهم يسوع أنا هو". يو١٨:٥

هذه الكلمات الهادئة أثارت نوبة مفاجئة من الخوف والدهشة. وهذا الجواب الرقيق "كان فيه قوة أعظم من الرياح الشرقية أو صوت الرعد لأن الله كان فى (الصوت الهادى)، وقد صرعهم أرضاً". والشواهد لا تنقصنا من التاريخ للدلالة على أن الجبين غير المضطرب والنظرة الثابتة والوقفة الهادئة لرجل أعزل قد شل حركة أعدائه وجرد سلاحهم.

ولما عادوا ووقفوا سألهم مرة ثانية "من تطلبون؟" وأجابوا أيضاً "يسوع الناصري". "أجاب يسوع قد قلت لكم أني أنا هو. فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء ليذهبوا". لأنه قال في صلاته "إن الذين أعطيتنى لم أهلك منهم أحداً".

كانت هذه الكلمات إيذاناً للرسل أنه لم يعد فى مقدورهم تقديم أى خدمة له وأن لهم أن يتبصروا فى أمر سلامتهم لو أرادوا. ولكنهم عندما رأوا أنه قصد ألا يبدى مقاومة وأنه كان على وشك تسليم ذاته لأعدائه نبض بعض النبل أو الحماس فى روح بطرس الوثابة. ومع أنه لم يكن أمل فى المقاومة ولا منفعة من ورائها فقد إستل سيفه وبضربة ضعيفة غير موفقة قطع أذن رجل يسمى ملخس كان عبداً لرئيس الكهنة. ففى الحال أوقف يسوع هذا التلاحم الخطر الذى فى غير موضعه وقال لبطرس[1] "رد السيف إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون". وحينئذ وبط تلميذه المتسرع بحزن

١ - يوحنا الحبيب وحده يذكر اسمي بطرس وملخس وهذا نتج من أنه كان ألصق من باقي البشيرين في حضور هذه الحوادث التي تهز القلوب. ولنلاحظ ان اسم بطرس لم يذكر في البشائر الأولى ربما لم يدرج اسمه عن قصد للخوف عليه من اليهود.

سائلاً إياه إن كان لا يعتقد حقاً أنه يمكنه لو أراد أن يضمن السلامة لولا أنه يريد إختيارياً أن يتم فيه المكتوب بأنه سيشرب الكأس التى أعطاها له الآب. لو أراد أن يضمن السلامة لفعل ليس بمساعدة الإثنى عشر رسولاً الضعفاء ولكن بمساعدة أزيد من عشرة جيوش من الملائكة. وحينئذ إستدار للعسكر الذين يقبضون عليه وقال "كفى إلى هنا" [١] وبعمل رحمة معجزية لمس الأذن فشفاها.

يبدو أنه فى هذا الليل المضطرب قد مرت هذه الآية بدون أن ينتبه لها إلا القليلون. وعلى أى حال لم يكن لها أى تأثير على هؤلاء الرجال الغلاظ الذين قد زال خوفهم الآن تماماً وحل بدله جرأة وقحة. لقد سلم السيد ذاته بإرادته وأصبح أسيرهم وبعد أن أمسكوه بحرص تجرأ للحال بعض رؤساء الكهنة والشيوخ وقواد جند الهيكل أن يظهروا من مكامنهم التى راقبوا منها سالمين كيفية القبض عليه وتجمعوا حوله بإستطلاع مخزى. فلهؤلاء خاصة قال "كأنما إلى لص خرجتم بسيوف وعصى وقد كنت معكم فى الهيكل كل يوم ولم تمدوا على أيديكم. لكن هذه هى ساعتكم وسلطان الظلمة". وهاته الكلمات القاتلة أطفأت آخر بصيص من الأمل فى عقول أتباعه. "حينئذ تركه التلاميذ كلهم...." حتى بطرس النارى وحتى يوحنا المحب "... وهربوا" [٢] ولكن شاباً مجهولاً، ربما مالك جثسيماني، وربما مرقس الرسول، وربما ليعازر شقيق مرثا ومريم، قد تجرأ فى هذه اللحظة الرهيبة أن يتريث ويسير جانباً فى ذيل الجمع المعادى السائر. ويبدو أنه قد أوقظ من النوم لأنه لم يكن مؤتزراً بشئ سوى "السيندون" أى ملاءة من الكتان ملتفاً بها على عريه وهو نائم. ولكن مبعوثى اليهود ساءهم هذا، ربما لمجرد رعونة الجماهير لرؤية شخص فى غير الملابس المحترمة، أو ربما لأنه ساءهم تدخله عن قريب، فأمسكوا الأزار الذى كان ملتفاً به وللوقت فاجأه خوف مرعب هو أيضاً فجرى عرياناً تاركاً الأزار فى أيديهم[٣].

صار يسوع الآن وحيداً فى قبضة أعدائه وعند أمر القائد ربطت يداه خلف ظهره[٤]. وأحاط به الجند الرومان من كل ناحية وسار وراءهم خدم اليهود. ومرة ثانية فى هذا الليل البهيم قادوه عبر وادى قدرون وإعتلوا الطريق المتصعد المؤدى إلى المدينة وأخذوه إلى بيت رئيس الكهنة.

---

١ – بمعني «اتركوني لحظة لأشفى هذا الرجل المجروح» أو بمعني «سامحوا عمل المقاومة الوحيد هذا».

٢ – (مت٢٦: ٥٦).

٣ – ذكر هذه الحادثة (مر١٤: ٥١) وحده.

٤ – (يو١٨: ١٢).

الفصل الثامن والخمسون

يسوع أمام الكهنة والسنهدرين

من الممكن جداً فهم ترتيب الحوادث بأن نجمع إلى واحد كل الوقائع التى تذكرها البشائر الأربع، فالحوادث المتتابعة المتزاحمة المتراكمة فى ليل ويوم شنيعين مليئين بالإضطرابات، بقليل من التعب والدرس ترينا محاكمة سداسية وإستهزاء رباعياً وبراءة ثلاثية وإدانة ثنائية للمسيح يسوع ربنا.

وإذ نقرأ البشائر جنباً إلى جنب نرى فى الحال أن المحاكمات الثلاث المتتالية التى كانت أمام اليهود كانت أولها أمام حنان ولم يذكرها إلا يوحنا وحده، وثانيها[1] كانت أمام قيافا وقد ذكرها متى ومرقس، وثالثها أمام السنهدرين، وقد ذكرها لوقا فقط. وليس فى هذا عجب لأن الأولى كانت الفعلية، والثانية الإسمية، والثالثة الرسمية الحقيقية، حتى يصير حكم الموت عليه معترفاً به قضائياً. وكل واحدة من جهة قد أعتبرت أنها الأشد فتكاً والأهم شأناً فى الثلاثة. فالأولى التى أمام حنان مثلت السلطة التحضيرية، والتى أمام قيافا مثلت المحكمة الفعلية، والتى أمام السنهدرين عند شق الفجر كانت المصادقة النهائية[2].

عندما أمر القائد الذى يرأس فرقة جند الرومان أن يوثقوا يسوع ساروا به من غير أن يبدى أى مقاومة. كان الليل أن ذاك قد إنتصف فأسرعوا به من ظلال جشيمانى إلى دار رئيس الكهنة[3] التى يبدو أنه كان يقطنها المحركان الأولان لهذه المظلمة السوداء، حنان وزوج إبنته يوسف قيافا. قادوه أمام حنان أولا. حقيقة أن هذا الحنان كان رئيس الكهنة لمدة ٧ سنين (٧ -١٤م) وأنه قبل الوقت الذى نحن بصدده بأزيد من عشرين سنة قد خلعه الحاكم فاليريوس وخلفه صهره يوسف قيافا. ولكن العائلات الكهنوتية ما كانت تقيم أهمية -إلا ما ترتضيها - للأوامر التى يعتبرها المتمسك بالناموس تماماً أنها تعد

---

١ - ومع هذا فان يوحنا يلمح بوضوح للمحاكمة الثانية (١٨: ٢٤) ومتى ومرقس يلمحان الى الثالثة (مت ٢٧: ١) و (مر١٥: ١).ومع ان لوقا لم يذكر سوى المحاكمة الثالثة وهى القانونية وحدها فانه يشير أيضا الى الأولى والثانية (٢٢: ٥٤).

٢ - يمكن اعتبار المحاكمة الأولى أمام حنان كأنها مؤامرة،والثانية أمام قيافا كأن بها نوعا من «أخذ الأقوال»، والمحاكمة أمام السنهدرين انها القانونية وحدها.

٣ - «دار» (مت٢٦: ٥٨) قد تعنى السراى كلها مع الفراغ الذى فى حرمها. والغالب أن الدار كانت قريبة من الهيكل (نح١٣: ٤)،وأن حنان وقيافا سكناها سويا ويظهر هذا من مقارنة (يو١٨: ١٣، ١٥). إذ نرى يوحنا المعروف لدى قيافا يسمح له بالدخول فيشاهد المحاكمة التى أمام حنان.

باطلة. ولن تنقص شعب اليهود الماكر حيل تساعدهم على إبطال الأمر الروماني ومعاملة حنان كلما أرادوا كرئيس كهنتهم الفعلى ولو لم يكن الرسمى.

المحاكمة الأولى

كان أمام حنان أولاً[١] أن وقف يسوع كسجين أمام القضاء. والغالب أن حنان هذا هو الذى إستدعاه وأسرته هيرودس الكبير من الإسكندرية كى يكونوا عوناً له فى ظلمه البغيض. ونحن نعرف من أخلاقه ما يكفى لأن لا نرى فيه سوى صدوقى متعصب، ظالم، غير وقور، مع أنه بلغ السبعين من العمر مملوء من الغش الملتوى والضعة والقسوة التى تخالف بتاتاً معنى إسمه[٢]. وفى هذه اللحظة كان يغوص فى مؤامرة ظالمة شائنة يستخزى منها حياء أخسأ الرجال. فأمام هذا الرئيس الزائف المتآمر، وفى منتصف الليل، بدأت المرحلة الأولى من تلك المحاكمة الطويلة الشنيعة.

ومن المهم أن نلاحظ أنه وإن كان الفريسيون قد دفعهم لمقاومة يسوع حقد نارى، وإن تحمسهم لأماتته كان متملكاً عليهم حتى أنهم إرتضوا أن يتحدوا فى العمل مع شيعة الصدوقيين الكهنوتية الإرستوقراطية التى تخالفهم جد الإختلاف فى الأمور السياسية والإجتماعية والدينية، فإنه بمجرد أن تمت خطة القبض عليه وإدانته لم يلعبوا سوى دور بسيط للغاية بعد ذلك حتى أن إسمهم لم يذكر ولا مرة واحدة جلياً فى أى أمر يمس عملياً القبض أو المحاكمة أو الحكم أو الصلب. إختفى الفريسيون كجماعة من الميدان وحل مكانهم رؤساء الكهنة والشيوخ.

فمن أين الآن هذا الإنفجار المفاجىء لمعارضة هوجاء قاتلة أشد من القتل؟ إنها ملاحظة لم ينتبه إليها أحد من قبل ولكن بعض إشارات فى التلمود جعلتنى أعتقد تماما أن غضب هؤلاء الكهنة كان نتيجة كلام وأعمال السيد بخصوص بيت الله الذى إعتبروه كمعقلهم ومكان سلطانهم الخاص سيما تطهيره الثانى العلنى له.

قد يجوز أن يمر التطهير الأول على إعتبار أنه عمل شخصى أملته الغيرة، لا أهمية له، لأن تعاليم يسوع كانت فى ذلك الوقت قاصرة على بعض الجليليين المحتقرين البعيدين. ولكن التطهير الثانى كان علانية وأشد تحقيراً لهم. ويظهر أنه أشعل غضباً عاماً ضد سوء إستعمال الهيكل إستدعى هذا التطهير.

١ – (يو١٨ : ١٣، ١٩ – ٢٤).

٢ – معناه «الرحوم» او «الرؤوف».

ونرى بوضوح فى البشائر الثلاث أن الذين إشتكوا من عمله هذا لم يكونوا من الفريسيين بل رؤساء الكهنة والكتبة (مت٢١: ١٥ و مر ١١: ١٨ و لو ١٩: ٤٧). الذين وجدوا فى عمله هذا حافزاً جديداً يطلبون من أجله إهلاكه.

ولكن قد يسأل أحد ألا يوجد عنصر آخر فى عمله هذا غير كسر سلطانهم الجسور وتوبيط الترتيبات التى يقرونها، سبب آخر آثار غضب هذه الأسر الكهنوتية؟ نعم لأننا نستنتج من التلمود أن عمله سيؤول إلى التعرض إلى طمعهم والتدخل فى كسبهم الجشع غير المشروع الطمع الذى هو خطيئة يهوذا الرابضة وخطيئة الأمة اليهودية الرابضة كان أيضاً الخطيئة الرابضة فى أسرة حنان.

وعليه كان يوجد سبب جوهرى لحنان أن يشد أقصى وتر عنده من وحشية وقسوة كى يسحق نبياً كانت أعماله تؤدى به وبأسرته القوية إلى الإحتقار والفقر النسبى معاً.

بهذه المشاعر المريرة من الإزدراء والكراهية إغتصب رئيس الكهنة السابق حق سؤال يسوع أولاً وكما كانت ذات المحاكمة غير قانونية كانت طريقتها، وفى مثل هذا المكان، وفى مثل تلك الساعة، غير قانونية، ولا تتفق أبداً مع أى إجراء شرعى مهما كان. كان تواقاً أن يستخلص بأية وسيلة من يسوع تهمة عن إثارة فتنة سراً أو عن تعليم غير قويم فسأله عن تلاميذه وعن تعليمه. وكانت الإجابة مع كل هدوءها تنطوى على توبيط عميق "أنا كلمت العالم علانية وكنت أعلم كل حين فى المجامع وفى الهيكل حيث يجتمع كل اليهود ولم أقل شيئاً فى الخفاء. لماذا تسألنى سل الذين سمعوا ما قلت لهم هوذا هؤلاء...." وربما أشار للواقفين "....يعلمون ما قلته أنا". وتكرار ضمير المتكلم أنا ووضعه الظاهر غير المعتاد فى آخر الجملة يظهر أن المقارنة كانت مقصودة وكأنه يقول "إنتصاف الليل، وإثارة الفتنة، والخفاء، وهذه السخرية غير المهذبة بالعدالة، هى لكم وليست لى أنا".

لم يكن شئ مستور فى تعليمى ولا شئ مخفى فى أعمالى. ولم تكن هناك مؤامرات فى المخابئ بين تلاميذى، ولكن أنتم! والذين لكم! شعر حتى خدم حنان بسوء مركز سيدهم عند هذا التوبيط الهادئ، وأن البراءة النقية لهذا الربى الشاب الذى من الناصرة قد أخجلت الرياء الأشيب لهذا الصدوقى، فإنفجر أحدهم فى قحة لا يبررها قانون وقال له "أبمثل هذا تجاوب رئيس الكهنة؟" وإذ لم يوبط من رئيس الكهنة المعتدى على العدالة إنتهك حرمة وجه المسيح المقدس باللطمة الأولى. إن بولس الرسول عندما أهين بالمثل إلتهب بغضب مفاجئ ضد هذه القسوة غير القانونية ووبط الدهماء ومن دفعهم بقوله

"سيضربك الله أيها الحائط المبيض" [1]. ولكن إبن الله الذى هو أعلى من كل الرسل والملائكة بما لايقاس، بدون أى شعلة من الغضب، وبدون حدة زائدة للكرامة الذاتية، وبط المعتدى الوقح بهذه الكلمات "إن كنت تكلمت رديئاً فإشهد بالردئ وإن حسناً فلماذا تضربنى؟"

ثم وضح لحنان أنه لا شئ يحمل يسوع على الكلام وأنه أمام هذا القاضى لن يجيب على أى سؤال. ومع أنه لم يسمع منه ولم يدنه فقد أرسله موثقاً ـ عربون إدانته ـ مخترقاً فناء السراى إلى صهره يوسف قيافا الذى لا بنعمة الله ولكن بأمر الحاكم الرومانى كان رئيس الكهنة الرسمى.

المحاكمة الثانية

كان قيافا مثل حميه صدوقياً، ومثله متعصباً مرن الأخلاق، ولكنه كان أقل منه فى قوة الإرادة. وفى منزله تمت المرحلة الثانية من المحاكمة الخاصة غير القانونية[2]. ولكى تعقد لجنة من لجان السنهدرين يجب أن يجتمع ثلاثة وعشرون عضواً على الأقل. وقد نخال أن هؤلاء الذين إجتمعوا وكان يسوع يحاكم الآن أمامهم كان أغلبهم كهنة.

فمن الجلى أن الكهنة قد إضطروا إلى تغيير خطتهم فبدلاً مما فعله حنان مجتهداً أن يخيفه ويصطاده فى شباك من الأسئلة الملتوية التى قد تجر إلى إتهامه بثورة مستترة إجتهدوا هم أن يصموه بجناية الخطأ العام. ولقد جعلت إنقساماتهم المريرة وإختلافاتهم الشديدة وإلصاق التهمة به مهمة إتهامه مأمورية صعبة. فإن أقاموا ضده بهتاناً أنه يقاوم السلطات المدنية فهذا يستدر عطف الفريسيين عليه وإحتمال إنحيازهم إلى صفه. وإن زعموا أنه كسر السبت زورا أو أنه أهمل مراعاة التقاليد فهذا يوافق آراء الصدوقيين. ولم يجرأ الصدوقيون على أن يشتكوا عليه لأنه طهر الهيكل. ووجد الفريسيون أنه عبثاً أن يشتكوا عليه برفض تقاليدهم. وإذ لم يجدوا ما يتمسكون به عليه كان رؤساء الكهنة وكل المحفل "يطلبون شهادة زور". هذا هو التعبير المريع الذى إستعمله البشيرون: "يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه". أناس كثيرون ذوو طمع يطلبون شهود زور غالباً من النوع الحقير غير النبيل فتمنحهم قوات الشر ما يطلبون.

---

١ - (أع٢٣: ٣).

٢ - (مت٢٦: ٥٩ - ٦٨) و (مر١٤: ٥٥ - ٦٥) غير قانونية لأن المحاكمات الشرعية يجب أن تكون فى النهار (سنهدرين٤: ١).

فانا نعلم من البشائر أنه مع إستعداد أذناب أولئك الكهنة للكذب فإن شهاداتهم كانت ممعنة في الكذب والخيال والتناقض حتى أنها إنتهت إلى لا شئ وحتى أن أولئك القضاة الموتورين غير العادلين لم يرتضوا أن يقبلوها.

وأخيراً تقدم إثنان بشرت شهادتهما المزورة أنها أكثر قبولاً. لقد سمعناه يقول شيئاً عن نقض الهيكل وإعادة بنائه فى ثلاثة أيام. وحسب قول أنه صرح "أنى أقدر أن أنقض هيكل الله"، وعلى قول آخر أنه صرح "أنى أنقض هذا الهيكل". والحقيقة أنه لم يقل لا هذا ولا ذاك بل صرح "أنقضوا هذا الهيكل" فالأمر كان صادراً إليهم. سيكونون هم الهادمين وإنما وعد هو بالبناء. كانت إحدى شهادات الزور التى بولغ فى تزويرها لأن لها صلة ما بالحق وبتغيير مبنى الكلمات ذاتها ومع سبق الإصرار. قلبوا معناها راجين أن يبنوا عليها بطريق الإستدلال تهمة التجديف. ولكن حتى تهمة الزور هذه التى عليها سيماء الحق لم تتفق وبقى يسوع صامتاً. ولكن هذا السكوت الملكى أوقعهم فى إضطراب، بل خيبهم واربكهم وأجنهم. وإذ رأوا أن كل سهم مسموم من شهادات الزور المرتبة بإعتناء سابق قد سقط دون أضرار عند قدميه كما لو كان قد إرتد كليلاً وصده درع من طهارته الناصعة. وإبتدأوا يخشون أنه بعد كل هذا قد يخيب تعطشهم لدمه فيذهبون دون أرواء غلتهم وتسقط كل مؤامرتهم.

حينئذ إستولت على قيافا هزة من الخوف والغيظ فنزل من على كرسى القضاء ووقف في الوسط وقد نتخيل على أى صورة وبأى صوت سأل يسوع:"هلا تجيب بشئ فإن هؤلاء يشهدون عليك". ولو كان يسوع يعلم أن قضاته لا يرعون الرماد ولا يتطلبون الأكاذيب فربما أجابهم ولكنه بقى فى صمت غير مشوب.

عند ذلك تملك رئيس الكهنة الكاذب هذا يأس تام وغضب جارف، وبكل تناقض مدهش مخجل قام واقفاً فى الوسط[1] كما فى وضع تهديدى لسجينه وقال "أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح إبن الله الحى".

سؤال غريب من سائل هو رئيس كهنة شعبه، ولكن اذ إستحلفه هكذا ولمثل هذا السؤال لم يستطع يسوع أن يصمت. لا يقدر أن يترك نفسه للفهم الخاطئ فى هذا الأمر. فى هذه اللحظة العصيبة التى لا يتوقف عليها كل شئ، دوى فى الأبدية، أى فى كل الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلة، الجواب

١ – (مر١٥: ٦٠).

الرهيب "أنا هو[١]. ولسوف ترون إبن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً وسحاب السماء " [٢]. وفى هذه الإجابة دوى رعد أشد مما كان فى سيناء ولكن لم يسمعه المضادون ولا الصدوقيون حينذاك ولا يسمعونه الآن. وفى إفتعال مغال فيه من الخوف والتطهير مزق ذلك القاضى الظالم الذى خاب فى إقامة شهود الزور، مزق[٣] رئيس الكهنة الكاذب ثيابه الكتانية أمام رئيس الكهنة الحقيقى وخلب من المجمع الحكم عليه في الحال قائلاً "قد جدف. ما حاجتنا بعد إلى شهود. ها قد سمعتم الآن التجديف. فما رأيكم؟" وفى أصوات مختلطة وهرج صرخوا أنه «إيش مافت» أنه رجل الموت،«مستوجب الموت». وبذلك إنفض محفلهم الأسود وإنتهت المرحلة الثانية من محاكمة يسوع[٤].



١ – (مت٢٦: ٦٤).

٢ – (دا ٧: ١٣).

٣ – هذا كان محرما على رئيس الكهنة حتى فى أوقات الحزن (لا ١٠: ٦) و (٢١: ١٠).

٤ – قارن (عدد ٣٥: ٣١).

الفصل التاسع والخمسون

الفترة التى بين المحاكمات

من تلك اللحظة إعتبره كل أعضاء مجلس اليهود هرطقياً مستحقاً للموت رجماً. وإنما ألقى فى الحبس حتى يلوح الصباح، لأنه فى ضوء النهار فقط، وفى قاعة المحاكمة، وفى التئام كافة السنهدرين، يمكن أن يكون الحكم عليه قانونياً وإذ إعتبروه الآن كشخص يجوز شتمه بغير جناح أو عقوبة فقد زف فى الفناء إلى حجرة الحراس بالضربات والشتائم التى لم يشارك فيها الخدام الوضيعون فقط بل ربما أيضاً قام بقسط منها الصدوقيون الذين أهاجهم الغضب وأخرجهم عن برودة طباعهم. وقد كان الزمن قد تخطى انتصاف الليل بوقت طويل، وهواء الربيع يهب حينئذ باردا جداً، فكان خدام الكهنة يصطلون حول نيران موقدة من الفحم وهم فى الفناء تحت ظل النجوم فى العراء الزمهرير. وعندما مر بهم يسوع سمع ما كان أشد مرارة قاتلة من كل ما يمكن أن يملأ به أعداؤه كأس آلامه من مرارة ـ سمع أجرأ تلاميذه ينكره بحلف.

لأنه فى تلكما الساعتين الحزينتين اللتين بدأت فيهما هذه المأساة، بينما كان يسوع واقفاً أمام حنان وقيافا كانت تجرى مأساة أخلاقية أخرى فى الردهة الخارجية.

وعلى قدر ما يمكن إستخلاصه من مختلف الروايات يظهر أن السراى التى فى أوروشليم التى كان يقطنها حنان رئيس الكهنة الرسمى وقيافا رئيس الكهنة الاسمى كانت مبنية حول فناء مربع ومدخلها على شكل ممر مسقوف فى نهايته بضع درجات تؤدى إلى القاعة التى اجتمع فيها المحفل. وكان إثنان فقط من تلاميذه قد إستفاقا من إنزعاجهما وتبعا عن بعد مؤخرة الركب المحزن. أولهما وهو التلميذ المحبوب كان معروفاً عند بيت رئيس الكهنة كشاب صياد سمك من بحيرة الجليل. لذلك أدخل فى الحال بدون إحتياج لأخفاء شخصيته أو عواطفه. لكن لم يكن الأمر هكذا مع زميله الآخر. وإذ أنه جليلى مجهول فقد أوقفته البوابة الشابة. خير له ألف مرة لو كان قد توارى نهائياً لأنه كان ليل إضطراب وخوف وإرتياب. وكان بطرس ضعيفاً، وحبه الغزير كان ممتزجاً بالخوف، ومع هذا فقد تجرأ على الدخول فى وسط ألد أعدائه. وأسف يوحنا لأنه أعيق عن الدخول وربما قاس ثبات زميله بثباته هو فتدخل بنفوذه كى تسمح له البوابة بالاجتياز. ودخل بطرس بجرأة غير فطنة وهو يخفى الدوافع الطيبة التى جعلته يأتى إلى هذا المكان مع أنه قد حذر من قبل، ولكن حذر بدون جدوى. وسار فى الفناء

وجلس وسط خدم[١] الرجال الذين فى تلك اللحظة كان سيده واقفاً أمامهم يجرون عليه حكم الموت. ويظهر أن البوابة التى أدخلت كل من له علاقة بالقبض على يسوع قد إستبدلت - كما هو طبيعى فى تلك الساعة المتأخرة - ببوابة أخرى[٢] فأتت هذه وتقدمت إلى جماعة الخدم، وعلى ضوء النيران الأحمر، تفرست بنظرة ثاقبة إلى الغريب المريب الجالس بينهم، وللحال تذكرته فقالت [وأنت أيضاً كنت مع يسوع الجليلى][٣] أخذ بطرس على غرة. وفى تلك الفترة من حياته كانت طبيعته السريعة التأثر عرضة تماما للتغير حسب الظروف بسرعة تحت تأثير العواطف المتباينة. وعلى ذلك فبمجرد سؤال بسيط من جارية صغيرة ضعيفة مستطلعة يهتز من المفاجأة ويلجأ إلى نكران سريع. ولا شك أنه فى هذه اللحظة لم ير فى إنكاره هذا لسيده إلا إبعادا لبقاً لخطر لا لزوم له.

ونكرانه هذا قبل إلى لحظة لأنه كان علنيا جداً مؤكداً جداً[٤]. ولكنه أخذ حذره من الخطر وإنسحب متلبساً بالجريمة من قبالة النيران إلى المدخل المسقوف وعندئذ وقع على أذنيه[٥] صياح ديك إسترعى بعض إنتباهه. ولكن وقت إمهاله وأمانه كان قصيراً جداً إذ يظهر أن البوابة، وكان من واجبها أن تلفت الأنظار للغرباء المشبوهين، ثرثرت بخصوصه للجارية التى إستلمت منها نوبة الحراسة على الباب. فهذه بدورها إذ رأته بين بعض المتسكعين الواقفين هناك أشارت إليه وصرحت أنه بالتأكيد [كان مع يسوع الناصرى]. وظهر لبطرس أن كذبة ثانية كانت ضرورية جداً الآن. ولكى يحصن نفسه ضد كل ضرر دعمها بقسم. وإذ أصبح الهرب مستحيلاً لأنه كان يزيد الشك فإنه بعزم يائس وباحساسات يصعب تصورها عاد ووقف بين الجماعة الملتفة حول النيران.

ومرت ساعة كاملة لا ريب أنها كانت ساعة مخيفة، ساعة لا يمكن أن تنسى، لأن طبيعة بطرس العصبية الضعيفة ما كانت تشعره بالراحة تحت هذا الثقل الجديد من نكران الجميل والكذب. لو مكث صامتا بين خدم الكهنة هؤلاء فإن عصبيته وعدم إستقراره يفضحانه بلا ريب إذ وهو شاعر تماما بجرم هذه الخطية المخفاة يجتهد دون جدوى أن يتظاهر بعدم الأهمية ولو تحدث فان لهجته الجليلية تفضحه.

---

١ - (لو٢٢: ٥٥).

٢ - (لو٢٢: ٥٦). قارن أيضاً (يو١٨: ١٧) مع (مت٢٦: ٦٩) و (مر١٤: ٦٧). لأجل «البوابة» أنظر (مر١٣: ٣٤) و (أع١٢: ١٣).

٣ - من المهم أن نلاحظ أنه ولا واحد من البشيرين يضع على فم الجارية ذات الكلمات (وهذا يؤيد طبيعة كتابتهم) إلا أن كلا منهم يحتفظ بكلمة «أيضاً» التى فى سؤال الجارية وتقصد بها يوحنا مع بطرس.

٤ - (مت٢٦: ٧٠) و (مر١٤: ٦٨).

٥ - (مت٢٦: ٧٠) و (مر١٤: ٦٨).

وواضح أنه رغم إنكاره بقسم لم يأتمنوه بل إحتقروه. وبعد قليل إتهمه أحد خدام رئيس الكهنة - نسيب للعبد الجريح ملخس - وأكد بشدة أنه كان مع يسوع فى البستان، ودعم قوله ببرهان أنه ينطق خطأ بعض الحروف فى لهجته الريفية. وإقتفى رجال آخرون أثره فى إتهام بطرس. [فإبتدأ حينئذ يحلف ويلعن إنى لا أعرف هذا الرجل] وفى هذه اللحظة المهلكة - التى كان يحتمل أن تكون لحظة جحود وإرتداد كما حدث لزميله الرسول الآخر. صاح الديك فى السحر والظلام باق والجو بارد. وفى اللحظة عينها سمع الرب آخر مقاطع تلك الشتائم الكاذبة، ربما من باب قاعة المحاكمة المفتوح، أو ربما وهو مار على الجماعة المستدفئة حول النار ويدفع بقسوة وغلظة وسخرية مقذعة وبصق ولكم، فالتفت الرب فى كامل عظمة صمته، [فالتفت الرب ونظر إلى بطرس]. وطوبى للذين عندما ينظر إليهم يسوع بحزن ينظر إليهم أيضاً بحب! كانت نظرة كافية. كانت هذه النظرة المعاتبة بحزنها الصامت البليغ مثل سهم أصاب نفسه الداخلية. "لم ير أعداء بعد، لم يعرف خطراً بعد، لم يخف موتاً بعد". ووضع طرف عباءته على رأسه، ومثل يهوذا أيضاً مرق إلى الليل. ولكن ليس كيهوذا. إلى الليل ولكن كما قيل بمجمال "لكى يقابل فجر الصباح". إن كان ملاك البراءة قد فارقه فإن ملاك التوبة قد إقتاده بلطف من يمينه. وأوقفت روح النعمة بقوة، ولكن بعطف، ذلك التائب الكسير القلب أمام محكمة ضميره حيث حكم على حياته القديمة وعاره القديم وضعفه القديم، ونفسه القديمة، بالموت من الحزن الالهى الذى يؤول إلى ولادة جديدة نبيلة.

ولقد كان هذا الانكار المشفوع بالشتائم هو الذى سمعه يسوع مباشرة عقب الحكم عليه بالموت ومباشرة قبل البدء فى الاستهزاء الأول به. لأنه فى غرفة الحراس التى حبس فيها سجيناً إلى مطلع الفجر حلت قيود كل جهالة الحقد الذى للتعصب الدينى، وكل قساوة ضيق العقل التى للشدة الشرسة. وإنسابت بعنف ضده. إذ بصقوا على وجهه وضربوه بالعصى ولكموه بجماع أيديهم وصفعوه بأكفهم[1]. وفى خصب عدم حيائهم الكريه الخانق إبتكروا لهم نوعا من التسلية، فحجبوا عينيه وغطوا وجهه ولطموه المرة تلو الأخرى وهم يكررون السؤال [تنبأ من الذى لطمك الآن يا أيها المسيح]. وعلى هذا النحو صرفوا الساعات السوداء الباردة الباقية من الليل إلى الصباح وهم ينتقمون لدناءتهم الحالية ومخاوفهم الماضية من براءته الايجابية الناصعة. وفى وسط هذه السفالة السافرة الطائشة وقف ابن الله موثوقاً، مربوط العينين، فى عذاب طويل، صامت، وحيداً وبلا دفاع. كان هذا هو الاستهزاء الأول، الاستهزاء به كمسيح.

---

١ - (مت٢٦: ٢٧) و (مر١٤: ٦٥) و (لو٢٢: ٦٣،٦٤).

المحاكمة الثالثة

عند الفجر الباكر - لأنه هكذا يقضى الناموس الشفوى - أخذوا يسوع إلى القاعة المبلطة جنوبى شرقى الهيكل حيث دعى السنهدرين لمحاكمته الثالثة فعلاً ولكن الأولى شكلاً وقانوناً[1] والغالب أن الساعة الآن السادسة صباحاً. وإجتمع السنهدرين بكامل أعضائه أو بما يقرب من الاجماع. وكانوا مصممين تماماً على إماتته عدا الأقلية النبيلة أمثال نيقوديموس ويوسف الرامى - ونأمل أيضاً - غمالائيل حفيد هلليل. كان هناك الكهنة الذين وبط يسوع طمعهم وأنانيتهم والشيوخ الذين كشف رياءهم والكهنة الذين ندد بجهلهم. وأنكى من هؤلاء كان الصدوقيون الدنيويون المتعصبون الذين يدعون الفلسفة دائماً أشد الأعداء خطراً ومكراً وهم الذين دحض بجزن حكمتهم. كل هؤلاء كانوا مصممين على إماتته.

وفى الوقت الحاضر لم تكن ضد يسوع تهمة سوى تهمة التجديف مع سبق الاصرار مبنية على إعتراف إستخلصه رئيس الكهنة بالقوة بينما حتى شهودهم الذين رشوهم قد فشلوا فى تدبير شهادة الزور كما يحبون. كانت المشكلة التى أمامهم هى تحوير التهمة الدينية التى للتجديف مع الاصرار إلى التهمة المدنية وهى الخيانة العظمى مع الاصرار. ولكن كيف يمكنهم عمل ذلك؟ لم يكن حتى نصف أعضاء السنهدرين مجتمعين فى المحاكمة السريعة الليلة؟ والتى كانت لذلك غير قانونية، فى بيت قيافا. والمقرر أنهم يجب أن يسمعوا كلهم شيئاً كي يستطيعوا قانونياً أن يعطوا أصواتهم. فى إجابته على سؤال قيافا قد أقر بجلال أنه المسيح إبن الله. وإعلانه هذا لا معنى له كتهمة عند الحاكم الرومانى. ولكن إن أعاد أمامهم إقراره فيمكن تحريفه وتأويله أنه حض على ثورة سياسية، ولكنه لم يكرره رغم كل إستدراجهم له لأنه كان يعلم أنه عرضة للتحريف بعناد ولأنه كان واضحاً أنهم يحاكمونه متعدين كل قواعدهم المرعية وتقاليدهم المتبعة التى تأمر أن كل مجرم أمام المحكمة يجب أن يعتبر بريئاً حتى تثبت إدانته.

أخيراً لينهى منظراً بائساً وفى الوقت ذاته مشينا تكلم يسوع وقال: **[إن قلت لكم لا تؤمنون وإن سألتكم أيضاً لا تجيبون]**. ولكن حتى لا يجدون عذرا فى عدم فهمهم من هو، أضاف فى صوت من التحذير الرهيب: **[ومن الآن يكون إبن الانسان جالساً عن يمين قوة الله]**. فقال

---

١ - (لو٢٢: ٦٦ - ٧١).

جميعهم [أنت إذن إبن الله]؟[١] فأجابهم بجملة إعتادوا سماعها وعرفوا كامل مداها [أنتم تقولون إنى أنا هو]. وحينئذ صرخوا كما فعل قيافاً من قبل: [ما حاجتنا بعد إلى شهادة فإننا نحن قد سمعنا من فمه]. وعلى ذلك فبهذا الحكم الثالث من سلطة اليهود الذى ظنوا أن بيلاطس سيقره ببساطة فيطفئ شعلة كراهيتم الملتهبة، أنتهت المرحلة الثالثة لمحاكمة السيد. وهذا الحكم أعقبه، كما يبدو الاستهزاء الثانى وهو يماثل الأول ولكن أمعن فى الشتائم وأشد فى الاحتمال لأن إستهزاء الكهنة والشيوخ والفريسيين أشد وقعا من إستهزاء الخدم والأفاكين.

بسرعة وقعت النقمة الالهية على الفاعل الأصلى والمحرك للسفالات الدنيئة لهذه المحاكمة. كان يهوذا بلا ريب خلال كل هذه الساعات مشاهدا وهو مضمون السلامة لكل ما حدث. وعندما لاح صباح هذه الليلة الباردة وعلم قرار الكهنة والسنهدرين ورأى أن يسوع قد أسلم للحاكم الرومانى ليصلب إبتدأ أن يتحقق تماماً مما قد فعل. إذ أنه توجد دائماً فى كل جريمة فظيعة قوة منيرة فضاحة تنير مسرح الضمير بلمعان غير عادى وتطرد ظلال المنفعة الذاتية وتظهر الأعمال والدوافع فى وضعها الصحيح الحقيقى. وفى يهوذا، كما فى آلاف عديدين من قبله وبعده، فتح العيون هذا الذى يعقب إتمام الخطايا المريعة التى أدت إليها خطايا كثيرة، قد ساقه من التوبيط إلى اليأس ومن اليأس إلى الجنون ومن الجنون إلى الانتحار. ولو أنه قد ذهب حتى ذلك الوقت إلى سيده ومخلصه وخضع تحت قدميه طالباً المغفرة لسار كل شئ حسناً. ولكن وآسفاه إنه ذهب لمن ساعدوه وشاركوه ورغبوه فى خطيته فلم يقابل منهم لا بشفقة ولا بنصيحة.

لقد كان آلة مكروهة مكسورة يجب أن ترمى جانباً الآن. قابلوا ندمه المؤدى إلى الجنون بلا إهتمام بارد وإحتقار قاس. قال لهم [قد اخطأت إذ سلمت دما بريئاً]. هل كان يطمع أن يخففوا عذابات ندمه أو يشاركوه فى إحتمال لوم جريمته أو ليعزوه وليعذروه!؟ على العكس فى غلظة من علياء كبريائهم قالوا له [ما شأننا نحن! أنت أبصر!][٢] وكان هذا هو الجواب الوحيد الذى لا قلب فيه الذى قدموه لذلك الخائن المسكين الذى شجعوه ورحبوا به وحرضوه على جريمته. شعر ألا أهمية له بعد ذلك وتحقق أن التحالف على الخطية لا مجال فيه للاحترام المتبادل ولا أساس فيه للعواطف بل للكراهية المتبادلة وتأكد أن الصلة الوحيدة بينهم هى أنه تقاضى منهم الثلاثين من الفضة، القيمة التافهة التى لأجلها قد باع نفسه ولن يتمتع بها أزيد مما تمتع عاخان بالذهب الذى طمره أو آخاب بالحقل

١ – قارن (دا ٧: ١٣) و (مز٨: ٤) و (١١٠: ١).

٢ – (مت٢٧: ٤) نفس الكلمات قد أرجعت إليهم من بيلاطس (مت٢٧: ٢٤).

الذى إغتصبه، فطرح الفضة بحنق على أرض المكان المقدس، حيث جلس الكهنة، والذى لن يسمح له بعد الآن بدخوله. وأسرع إلى وحدة يائسة لم يعد منها حيا. وإختلف القول عن كيفية موت هذا البائس فقد جاء أنه علق ذاته وشنق نفسه. وفى قول آخر ـ ليس مما يستحيل توفيقه مع القول الأول إذا تخيلنا أن الحبل إنقطع أو الفرع انكسر تحت ثقله ـ إنه وقع على الأرض فانشق من الوسط وخرجت أمعاؤه[١]. أما المتآمرون العظام ففى حذلقتهم ووسوستهم الكهنوتية لم يريدوا أن يلقوا ثمن الدم الذى أعيد فى "القربان" أى الصندوق المقدس[٢] بل بعد المشاورة إشتروا بها حقل الفخارى مقبرة للغرباء، وهو حقل ربما كان فى نية يهوذا أن يشتريه وربما أيضاً لقى حتفه فيه. وهذا الحقل كان مرعباً معروفاً إلى زمن نخويل "بحقل الدم".



١ – (أع ١: ١٨).

٢ – متى البشير يقتبس دائماً مماثلات من العهد القديم أردف باقتباس ظاهر أنه من (أرميا١٨: ١، ٢) و (٣٢: ٦ –١٢) و (زكريا١١: ١٢، ١٣) ومن الغريب أنه لا يذكر أبداً زكريا مع إنه إقتبس منه ثلاثة مرات.

الفصل الستون

يسوع أمام بيلاطس

صلب على عهد بيلاطس البنطى. هكذا سلم فى كل عقائد الطوائف المسيحية هذا الإسم غير السعيد إلى اللعنة الأبدية. ولكن لم يكن الغرض من ذكر هذا الإسم فى قانون الإيمان نقد خلقه بل تعيين زمنه لأنه فى الحقيقة من كل الحكام الدينيين والمدنيين الذين وقف أمامهم يسوع للمحاكمة كان بيلاطس أقلهم حقداً وكرهاً وأكثرهم رغبة فى إعفائه من العذاب أو على الأقل فى الإبقاء على حياته.

أى نوع من الرجال كان ذلك الذى وضع فى يديه سلطان من فوق ليقرر المصير الأخير لحياة المخلص؟ لا نعلم إلا النزر القليل عن أصله وعن أسلافه قبل سنة ٢٦م عندما أصبح الوالى السادس لليهودية. أما عن مركزه فهو من "مرتبة الفرسان"، أما لقبه "البنطى" فيدل إشتقاقه على أنه سامى من الساميين، وإسم "بيلاطس" دعى به تيمناً لسلف حربى، ولقد سار فى اليهودية بكل غلظة الكبرياء وقسوة العجرفة كحاكم رومانى صميم.

فى الدار الملوكية التى لم تطأها قدما المسيح فى أيام حريته إبتدأت على أجزاء ثلاثة منفصلة المرحلة الأخيرة لتلك المحاكمات المحزنة التى سبقت آلامه الأخيرة.

لم تكن مثل المحاكمة الفارغة التى أجراها حنان، ولا الإعتراف الذى إستخلصه بالقوة قيافا، ولا القرار غير القانونى الذى إتخذه السنهدرين. لأن القاضى هنا كان فى صفه وإجتهد بكل القوة أن يخلصه. لذلك كانت محاكمة نشيطة متحمسة مليئة بالحوادث. وقد شملت ثلاثة مناظر متغيره وتهمة مثلثة وتبرئة مثلثة من الرومان ورفضا مثلثا من اليهود وتحذيرات مثلثة لبيلاطس وجهوداً مثلثة من قبله مع نشاط متزايد وإضطراب متكاثف حاول فى أثنائها جميعاً أن يثنى عزم متهميه ويطلق سراح الفريسة.

المحاكمة الرابعة

كانت حوالى الساعة السابعة صباحاً عندما ظن اليهود أن يخيفوا الوالى بعددهم ومقامهم وبجفل كبير يؤثر على الناظرين من أعضاء السنهدرين والكهنة وعلى رأسهم قيافا بلاشك، فقادوا يسوع مربوطاً بحبل حول عنقه[1] من قاعة الإجتماع فوق القنطرة التى تعلو وادى طيبريون وساروا به على

١ – (مت٢٧: ٢) و (مر١٥: ١).

مرأى من كل المدينة موثوق اليدين كمجرم محكوم عليه، فصار حقاً منظراً للملائكة والناس.

وإذ أقلقوه فى هذه الساعة المبكرة وربما كان على إستعداد لقلاقل أزيد مما تصحب عادة أى عيد للفصح دخل بيلاطس إلى إيوان المحاكمة حيث أقتيد يسوع ومعه -كما هو ظاهر - عدد من الذين يشتكون عليه وبعض من يهتمون تماماً بقضيته. أما رؤساء اليهود العظماء إذ تحرزوا من النجاسة التقليدية وليس من إجرام الضمير، خائفين من الخبز الخمير لا من الدم البرئ، رفضوا أن يدخلوا لئلا يتنجسوا فلا يستطيعون أن يأكلوا الفصح ذلك المساء. فخرج إليهم بيلاطس[١] وألقى نظرة سريعة غاضبة على الحفل الشائن للكهنة النبلاء وعلى الغوغاء المتهيجة لهذا الشعب الغريب الذى يكرهه كروماني وكحاكم سواء. وبهذه النظرة الواحدة لاحظ عواطف متهميه المفترسة كما لاحظ أيضاً العظمة الوديعة المتعالية التى لفريستهم. كان سؤاله قصيراً وبغلظة "أية شكاية تقدمونها على هذا الإنسان؟" وفاجأهم السؤال على غرة. ولكنه أراهم أنه يجب أن يستعدوا لعداوة غير مخفاة لكل مقاصدهم. وظهر لهم أن بيلاطس مزمع على النظر فى القضية بينما كانوا ينتظرون منه إقراراً بقتله ليس بطريقة الإعدام اليهودية ولكن بوسيلة يعتبرونها أشنع وألعن[٢] فكان جوابهم غير المحدد ولكن المؤكد "لو لم يكن هذا شريراً لما كنا نسلمه إليك" ولكن معرفة بيلاطس الرومانية للقانون وفطرته الرومانية لحب العدل وإحتقاره الرومانى لتعصبهم القاتل جعله يرفض إصدار الحكم بناء على تهمة غير محدودة بتاتاً ويختم بالتنفيذ على قراراتهم غير القانونية المظلمة. وربأ بنفسه أن يكون هو الجلاد بينما لم يكن هو القاضى. فأجابهم بإحتقار متعال إذن "خذوه أنتم وأحكموا عليه حسب ناموسكم" بذلك أرغموا على الاعتراف المحقر أنهم إذ منعوا من "حق الحكم بالموت" فإنهم لا يستطيعون أن يودوا بحياته بالحكم الوحيد الذى يرضيهم. لأنه حقاً كان قدر فى الحكمة الأبدية أن يموت المسيح ليس بالرجم أو الخنق اليهودى ولكن بطريق الإعدام الرومانى الذى كان يثير فى اليهود رعباً لا ينطق به. سيموت موت الصليب، ميتة علنية بطيئة، ملعونة، مؤلمة، لا يفقد معها الإنسان الشعور، وألمها أشد من الحرق. وهى أسوأ الميتات جميعاً كما كانت أسوأ نتائج اللعنة التى سيمحوها إلى الأبد.

أسقطوا مؤقتاً تهمة التجديف التى لا توافق مقصدهم[٣] وإندلعوا فى نوبة تعبيرات وتهم أظهرها

١ - إذ كان بيلاطس والياً فقط كان عليه أن يستمع إلى القضايا بنفسه وفى هذه القضية بالذات ربما قد رفض التنفيذ إلا بعد النظر والمحاكمة. ولم يشأ أن يحقر ذاته فيكون فقط آلة لتنفيذ خزعبلات اليهود.

٢ - (تث٢١: ٢٢ - ٢٣).

٣ - قارن (أع١٨: ١٤).

ثلاث: إنه أضل الامة، ومنع إعطاء الجزية، وسمى نفسه ملكاً. وهذه التهم الثلاث كانت كذباً صريحاً. وكانت الثالثة أمعن فى الكذب لأنها تحمل رائحة من الصدق. ولكن إذ لم يواجهوا يسوع ببراهين أو شهود فإن بيلاطس الذى في تصرفه ولغته يظهر الإحتقار المرير الممزوج بالخوف الذى يضطره إليه اليهود -تنازل ليعير التهمة الثالثة وحدها إلتفاتاً وبدأ يستكشفها من إعترافات السجين - ليساعده ذلك على فهم التهمة، فترك السنهدرين العجول والجمع الصاخب وعاد داخلاً إلى دار الولاية. ولم يحفظ لنا وصف هذا المنظر الخالد سوى يوحنا البشير. وأقتيد يسوع إلى الداخل. أخذ بيلاطس الذى إبتدأ يهتم بأمر هذا السجين وسبق فرأى فيه شيئاً من النبل أثر فى طبيعته الرومانية -أخذ يسأله بكلمات شفوقة "أأنت ملك اليهود!" توجد ملوكية لا يفهمها بيلاطس ولا الرجال الذين على شاكلته، ملوكية القداسة وسمو التضحية. فإن قال "لا" فإنه ينكر الحق وإن قال "نعم" فإنه يحير السائل. لذلك أجاب بمهابة رقيقة "أتقول هذا من ذاتك أم آخرون قالوا ذلك عنى" [1] فقال بيلاطس بإزدراء "ألعلى أنا أيضاً يهودى. إن أمتك ورؤساء الكهنة هم الذين أسلموك. ماذا فعلت" ولكن يسوع رجع إلى إجابة السؤال الأول بعد أن مهد الطريق أمام بيلاطس ليفهم إجابته وقرر أنه ملك، ولكن ليس من هذا العالم، وليس ممن يحارب خدامهم عنهم. فقال بيلاطس بدهشة "فأنت إذن ملك؟" فأجاب نعم، ولكن ليس ملكاً من أرض الباطل والأوهام، ملك وُلد ليشهد للحق وكل من هو من الحق يسمع له. فقال بيلاطس دون إصطبار، الحق! "ماهو الحق؟" ماله وهو الحاكم الرومانى العملى المكدود ولهذه النظريات الغامضة؟ وما دخلها فى مسألة هى حياة أو موت. ومع أن بيلاطس قد رفض الدخول فى هذه المجادلة بإحتقار فإنه قد تأثر وتحركت عواطفه إذ أن عقله القضائى وتربيته الحقوقية ومعرفته بطبائع الإنسان قد جعلته يسبر غور حقيقة الناس وأرته أن يسوع لم يكن بريئاً فقط بل أيضاً أنبل بما لا يقاس من متهميه الكهنة الهادرين. ووضع جانباً كأمر خيالى فكرة الملك غير الأرضى ورأى فى السجين الماثل أمام المحكمة رجلاً حالماً بريئاً عالى النفس ولا شئ أكثر من هذا. فترك يسوع مكانه وخرج لليهود ثانية ونطق بأول حكم للبراءة، مؤكداً غير متردد "أنا لم أجد علة ما فى هذا الإنسان"

المحاكمة الخامسة

ولكن هذه البراءة العلنية المؤكدة عملت على زيادة إشعال حنق أعدائه إلى لهيب مفترس. هل بعد كل المؤامرات التى دبروها وقاموا بها، هل بعد كل ما إحتملوه فى إجترامها وبعد ليل لا نوم فيه

١ - هذا يدل على أن يسوع الذى أدخل من البدء إلى دار الولاية لم يسمع الشكايات التى قدمت ضده امام الوالى.

قضوه فى المخاتلة وشراء شهود الزور والمناورات، هل يفسد عليهم مقصدهم تدخل هذا الأممى الذى كانوا متكلين عليه بالذات لتتميم مرماهم المر؟ هل ستخلص هذه الفريسة بعد أن أمسكوها فى مخالبهم المميتة وتفلت من أيدى رؤساء الكهنة والحكام لمجرد إزدراء أو شفقة وثنى متعجرف؟ إن هذا يفوق الإحتمال! فإرتفعت أصواتهم فى ضجيج وحشى "أنه يهيج الشعب وهو يعلم فى كل اليهودية مبتدئاً من الجليل إلى ههنا"

فى وسط هذه الصيحات الصاخبة الحماسية إلتقطت أذن بيلاطس المتمرنة كلمة "الجليل" وفهم أنه كان المكان الأهم فى كرازة يسوع[1] وإذ كان يميل إلى التخلص من مأمورية يسر لو أعفى منها فكر بضربة معلم سياسية حاذقة أن يتخلص من سجين محير ويريح نفسه من قرار لا يوافقه ويعمل عملاً رقيقاً غير منتظر مع رئيس ربع جليلى غير صديق. ولهذا وهو مسرور سراً ليرمى عن عاتقه مسؤولية كريهة بعث به إلى هيرودس أنتيباس[2]، وعلى ذلك جروا مرة ثانية المتألم التعوب وسط الشوارع الضيقة المزدحمة بين إستهزاءات الجماهير الغاضبة.

لقد حفظنا لمحات عن هيرودس أنتيباس هذا من قبل. وإنى أعلم أن صفحات التاريخ وصور المتاحف لا تحوى شخصاً زرياً مثيلاً لهذا الصدوقى الفاسد المجرم الآدومى.

وفرح أنتيباس جداً لرؤية يسوع إذ كان يريد أن يراه منذ زمن طويل لما كان يسمع عنه. فخاطبه وسأله فى كلام كثير، ولكنه لم يظفر منه ولا بلفظ واحد يجيبه به. لقد واجه السيد كل أسئلته البذيئة بعظمة الصمت. وحينئذ ظهرت كل سفالة الرجل خلال القشرة الرقيقة المموهة للتهذيب السطحى. وأصابت يسوع السخرية الثانية وهزأ به هذه المرة ككاهن ونبى. فقد سخر منه هيرودس وجلادوه المولدون غاية السخرية وعاملوه بغلظة وإحتقار مدرب. وهزأوا من إتضاعه وبراءته بإلباسه ثوباً لامعاً. وبعد ذلك أعاده هذا الأمير الشرير إلى الوالى وأصبح وإياه نصف متصالحين بعد العداء الطويل الذى كان بينهما من قبل. وهكذا بعد أن أشبع هويته من الهزء الدنئ رمى مسئولية إصدار الحكم على دار الولاية. هذه هى المحاكمة الخامسة والبراءة الثانية العلنية.

---

١ - (لو٢٣:٦).

٢ - (لو٢٣:٧) كان الحسد المتبادل والميل لتدخل كل فى سلطة الآخر كافيين للخصومة بين بيلاطس وأنتيباس فضلاً عن أنه فى كل الإختلافات كانت سياسة أنتيباس الظاهرة أن ينحاز إلى اليهود.

المحاكمة السادسة

والآن وقد أوقف يسوع ثانية أمام الحاكم المتردد المتحير إبتدأت المرحلة السادسة والأخيرة والأكثر هياجاً وأشد إيلاماً من هذه المحاكمة الشنيعة. لقد آن الأوان لبيلاطس ليعمل حسب إعتقاده الحق الواضح وينجى نفسه من جريمة الدم البرئ.

فخرج إليهم مرة ثالثة ثم دعا إليه الكهنة والسنهدرين والشعب وأخبرهم أنهم قدموا إليه يسوع لمحاكمته كمثير فتنة وإضطراب ولكنه بعد تمحيص كامل عادل قد وجده، وهو واليهم الرومانى، بريئاً تماماً من هذه التهم وإنه حينئذ أرسله إلى ملكهم الوطنى وهو أيضاً وصل إلى النتيجة ذاتها وهى أن يسوع لم يأت جرماً يستوجب عليه حكم الموت. وكانت الفرصة الذهبية سانحة الآن لدى بيلاطس ليعلن عظمة عدل دولته الإمبراطورية فيعلن براءته ويطلق سراحه، ولكنه عند هذه النقطة بالذات تلكأ وتردد. ساوره الخوف ككابوس من حدوث ثورة أخرى فتنازل أن يسير إلى منتصف الطريق ليسر أولئك المتعصبين الخطرين وكما لو أنه يعطيهم بعض الحق ويتمشى مع إتهاماتهم فإنه سيؤدب يسوع فيجلده علناً ويهزأ من إدعاءاته المضحكة ويخزيه ويجعله دنساً فى عيونهم[1] وبعد ذلك يطلق سراحه. وفكرة إطلاق السراح هذه أوحت إليه وسيلة أخرى من وسائل السياسة الملتوية، فتذكر وكذلك الشعب فى وقت واحد تقريباً، أن العادة دائماً أن يطلق أسيراً فى الفصح، ولهذا فإنه يقترح أن يطلق سراح يسوع لا كأنه واجب من مقتضيات العدالة بل كإنعام بالعفو.

وإذ قدم هذا العرض، وإذ تلاعب بإجرام مع شعوره الداخلى بالحق وتنازل ضد رغبته عن حقوق وإمتيازات سلطانه، وصله تحذير رهيب لا ريب أنه ظهر لديه كتحذير إلهى شديد. تجرأت أن ترسل إليه زوجته كلوديا بروكيولا[2] رسالة علنية حتى وهو جالس على كرسى القضاء قائلة أنها فى ساعات الصباح الباكر عندما تكون الأحلام حقيقية قد رأت حلماً مزعجاً مؤلماً[3] بخصوص هذا البار. وكانت أشجع من زوجها إذ طلبت إليه أن يحترس فلا يصنع به شراً.

بسرور، كان يود بيلاطس أن يطيع إحساسه الداخلى وأن يرضى عدله وشفقته وأن يرضخ لهذا التحذير الغريب الذى وصله ولكن بيلاطس كان خاطئاً، والخاطئ جبان، والجبن ضعف، ونقمة خطاياه

---

١ - (تث٢٥ :٣).

٢ - إسمها هذا ورد فى كتاب نيقوديموس الذى يذكر أيضاً أنها دخلت حظيرة الإيمان.

٣ - (مت٢٧ :١٩).

الماضية هى أنه أصبح غير قادر أن يعمل البر. وتحرش الكهنة والسنهدرين والشعب به[١] بتهور طالبين ما ذكرهم به من منحه أسير الفصح.

فإنهم صرخوا طالبين إطلاق حرية رجل تلطخت ثورته بالسرقة والقتل. لقد ذنبوا البرئ وأحبوا المجرم وطلبوا عفو الوالى لا عن يسوع الناصرى ولكن عن رجل إسمه باراباس كان فى الواقع قائد ثورة ولصاً وقاتلاً.

ووضع بيلاطس السؤال صريحاً أمامهم فسمع بحنق مزدرى إختيارهم الصريح. وإذ أراد أن يخفى عاره المر وحنقه فى التشهير بهم، الأمر الذى زاد فى هياجهم بدون أن يأتى بأية نتيجة، سألهم بإحتقار "إذن ماذا أفعل بمن تقولون عنه أنه ملك اليهود" وحينئذ علت الصرخة الجنونية لأول مرة (أصلبه) وعبثاً مرة بعد الأخرى، عارضهم قائلاً "وأى شر عمل" "إنى لم أجد فيه علة للموت" "فأنا أؤدبه وأطلقه" ومثل هذه المعارضة التى لم تكن بعزيمة كاملة كانت غير كافية بالمرة وإنما فقط أظهرت لليهود المخاوف الداخلية التى لواليهم وجعلتهم فعلاً سادة الموقف، فمراراً وتكراراً وبصورة غضب أشد توقداً مزقوا الهواء بصيحاتهم الكئيبة "خذ هذا" "أطلق لنا باراباس" "أصلبه أصلبه"

وفى لحظة مال بيلاطس مع العاصفة وأطلق باراباس وأسلم يسوع ليجلد.

والكلمة المستعملة[٢] تعنى أن ذاك لم يكن بالعصى، ولكن كان بما دعاه "الكرباج الشنيع" والذى لا شبيه له الآن إلا "العقدة الروسية" وكان الجلد هو الإجراء المبدئى للصلب أو أية عقوبة بالغة[٣]. وكان الجلد تعذيباً متناهياً فى الشناعة حتى ليثور العقل ضده، كان المتألم الحزين يعرى علناً ويربط من يديه فى وضع منحن إلى عمود ثم تكال الضربات على أعصاب الظهر المشدودة المرتجفة بألسنة من الجلد فى أطرافها أثقال من العظم أو الرصاص غير المصقولة. وأحياناً كانت تنزل الضربات عرضاً أو أحياناً تكال عمداً بوحشية بربرية على الوجه والعينين. كان عقاباً شنيعاً لدرجة أنه من جراء آلام التمزق كان يغمى على المجلود المعذب، أو كثيراً ما يموت أثناء الجلد، أو يهلك بعد الجلد بقليل متأثراً من الآلام المبرحة وإنحلال الأعصاب. وهذه القسوة البالغة التى لا نجرأ أن نطيل فى وصف شناعتها، هذه القسوة

---

١ – (مر١٥ : ١١).

٢ – (مت٢٧ : ٢٦) ولوقا يقول بحزن "وأسلم يسوع كإرادتهم" وكأنه أراد أن يسدل حجاباً عما كان بعد ذلك. لم يرد أن يقول وإقتادوه بل يردف "وفيما هم يقتادونه".

٣ – (مت٢٧ : ٢٦).

التى تبعث فى القلب رعشة وبرودة أعقبها الإستهزاء الثالث الشديد المرارة - الإستهزاء بيسوع كملك.

أبهج العسكر والجنود أن يتخلل شئ جديد حياتهم الرتيبة المملة فدعوا كل الكتيبة حتى الخالدين من نوبة العمل ليشهدوا ألاعيبهم الوحشية وأمام أولئك القساة مثلوا بإسهاب حفلة مسخرية جوفاء لتتويج هازئ وتمليك هازئ وإكرام هازئ. فعلى جبين يسوع فى تقليد طائش لإكليل الغار الإمبراطورى ضفروا جدائل من الغصون المورقة ذات الأشواك الناتئة. وفى يده الموثقة وضعوا قصبة بدل السيف. ومن على أكتافه الممزقة الدامية نضوا الثوب الأبيض الذى ألبسه إياه هيرودس وهو يسخر منه والذى لابد أن أصبح الآن مبللاً من دماه ووضعوا عليه ثوباً أرجوانياً، ثم برصانة مفتعلة شبكوها على كتفه الأيمن. وحينئذ تقدم كل واحد منهم وأحنى ركبته بخضوع سخرى مصطنع وبصق ذريع وكال ضربة على الرأس بالقضيب الذى لم تستطع يده الموثقة أن تحمله وكانوا يمرون أمامه وهم يحيونه قائلين **"السلام يا ملك اليهود!"** (١)

وحتى الآن وبعد هذا الحد من الإيذاء أراد بيلاطس ورجا بل وجاهد أن يطلقه. وحاول أن يجعل ذلك الجلد المخيف لا كسابق للصلب ولكن كعقوبة بالتعذيب بعد أن قصر القضاء أن يستخلص من المهتم أى إعتراف أزيد. لهذا عندما جئ بيسوع ووقف إلى جواره كشهيد فوق بلاط المحكمة العالى، وقطرات الدم القانية تخضب إكليل العذاب الأخضر، وعلامات اللطم والبصق على وجهه، وتعب ألمه المميت ظاهر على عينه التى لم تنم، والأرجوان الباهت يشف عن بقع من الدم النافر من ظهره الممزق ويتقطر منه نقط حمراء على الأرض الملونة بالفسيفساء، فحتى ذاك وحتى هكذا فى ساعة شدة تواضعه وهو واقف فى عظمة سكوته المقدس أمام هذه المحكمة العالية وحوله أصوات الجموع الصاخبة أشرق عليه سمو ونبل علوى حتى أن بيلاطس صرح طواعية بتلك الجملة التى حركت قلوب الملايين وقال **"هوذا الإنسان"!**

ولكن لم يثمر فيهم هذا القول سوى إعلاء صراخهم بأصوات أعلى "أصلبه أصلبه" لأن مجرد رؤيته على هذه الحال من الخزى والحزن الذى لا يعبر عنه قد رمى وقوداً جديداً لنيران كرههم. فقال لهم بيلاطس **"خذوه أنتم فأصلبوه فإنى لا أجد علة ما يؤخذ بها"**

أى إقرار من قاض رومانى! إنه برئ على ما أرى ولكن إن كنتم لابد صالبيه فخذوه أنتم وأصلبوه إذ لا يمكن أن أقر هذا الحكم الجائر الذى يخالف القانون ولكنى سأتغاضى عن تعديكم له، فبجرأة ذروا

---

١ - (يو١٩: ٣).

مع الرياح كل المسائل المختصة بالجرائم السياسية، وبكل إدعاءاتهم الريائية وحماستهم المشبوبة صرخوا ”لنا ناموس وحسب ناموسنا هو يستحق الموت لأنه جعل نفسه إبن الله“

«إبن الله» لم تكن هذه الفكرة بالغريبة ولا بالمستهجنة عند بيلاطس. لم يكن سمعها من قبل. وقد أرهبته كعلامة منذرة محذرة من الجريمة التى كان ينساق إليها تحت تأثير خوفه وسوابقه. فمرة أخرى ترك الجماهير الصاخبة خارجاً وأخذ يسوع معه إلى دار الولاية الهادئة. وسأله بلهجة مملوءة من الرعب ”من أين أنت؟“ وآسفاه لقد صار الوقت متأخراً جداً ليجاوبه. لقد غاص بيلاطس عميقاً فى قسوته البالغة وظلمه. لقد تكلم يسوع إليه سابقاً بما فيه الكفاية، ”فلم يجبه يسوع“ وحينئذ بما يقرب من الغضب قال له بيلاطس ”لماذا لا تكلمنى[1] أولا تعلم أن لى سلطاناً أن أصلبك وأن لى سلطاناً أيضاً أن أطلقك“ وفى الحقيقة وواقع الأمر إنه لم يكن لبيلاطس أى سلطان حتى ولا بمعنى سلطان الظالمين الغاشمين فكان إفتخاره هذا كاذباً عاطلاً لأنه فى نفس تلك اللحظة كان يضع ”لا أجرؤ“ فوق ”أنا أريد“.

ورأف يسوع بحيرة هذا الرجل الضعيف الذى أبدلته الخطية من حاكم إلى عبد. وبدون أن يدحض قوله أو يوبخه بل على العكس مخففاً خطيته لا مثقلاً لها أجابه بلطف ”ليس لك على أى سلطان لو لم يعط لك من فوق. من أجل هذا فالذى أسلمنى إليك له خطية أعظم“ إنك حقاً تقترف جريمة عظيمة ولكن يهوذا وحنان وقيافا والكهنة واليهود جرمهم أعظم. وعلى ذلك فبكرامة فائقة وفى الوقت ذاته برقة فائقة قاضى يسوع قاضيه! وفى أعماق نفسه الداخلية شعر بيلاطس بصدق هذه الكلمات وإعترف صامتاً بسمو أسيره الموثق الممزق. وبكل ما بقى فيه من إنسانية ونبل ”شعر برهبة الصلاح وعلو الفضيلة وجمال منظرها فشعر وحزن لسقوطه“، إنتفض فى داخله كل ما تبقى من نفسه ولم تأكله الكبرياء والقسوة كصدى غير مرغوب فيه من مجرد تلك الكلمات القليلة الهادئة من إبن الله، وفى ذلك الحين رغب بيلاطس أكثر من أى وقت أن يطلقه. وبضمير مضطرب إعتلى كرسى الولاية للمرة الثالثة والأخيرة وبدأ فى عمل مجهود يائس. فتقدم بيسوع وهو ينظر إليه وهو واقف صامت فى ألمه بكامل الهدوء على تلك ”الجباثا“ اللامعة وحواليه إضطرابات الجماعة الوحشية، وقال لأولئك المتوحشين كما لو كان قد توصل إلى إعتقاد جديد ”هوذا ملككم“ ولكن هذا وقع على أذنهم مثل هزء مخز أن يقال عن هذا المتألم المضروب المسبوب إنه ملكهم. فقال لهم بيلاطس صارفاً غضبه وجرح قلبه فى التنكيت عليهم ”أأصلب ملككم؟“ أجاب الصدوقيين والكهنة وقد ضربوا عرض الحائط بكل الرغبات الوطنية وبكل رجاء مسياوى ”ليس لنا ملك إلا قيصر“ وردد الغوغاء مراراً وتكراراً ”إن أطلقت هذا الرجل

١ – الوضع الأصلى لضمير المتكلم هنا يفيد التوكيد ويكون بمعنى «تكلمنى أنا».

فلست صديقاً لقيصر. كل من يجعل نفسه ملكا يكون معادياً لقيصر".

وعند ذكر إسم قيصر الأسود المخيف إرتعب بيلاطس. كان إسماً ساحراً سيطر عليه وغلبه إذ تذكر الوسيلة الظالمة الرهيبة وهى إلصاق تهمة الخيانة العظمى والتى يمكن أن تطلق جزافاً على جميع التهم والتى جعلت العذاب ومصادرة الأملاك أمراً شائعاً بل والتى صيرت الدماء تسيل كالمياه فى شوارع روما.

وربما كان هناك جواسيس بين هؤلاء الغوغاء فاعتراه فزع وأذعن هذا القاضى غير العادل لمخاوفه الذاتية. خان بارادته هذه الفريسة البريئة وأسلم يسوع إلى ألم الموت.

ولم يتركه ضميره مستريحاً لأنه فى هذه الأثناء ـ أو فى وقت قبل هذا من المحاكمة ـ لعب دوراً فى رواية مضحكة مبكية أراد به أن يحل ضميره من وزر الجريمة. فطلب ماء وغسل[1] يديه قدام الجميع قائلاً: "أنى برئ من دم هذا البار. أبصروا أنتم" هل ظن أنه بهذا قد غسل جريمته؟ يستطيع أن يغسل يديه فهل يستطيع أن يغسل قلبه، فصرخوا صرخة هى الأشد رعباً والأشد فتكاً والأشد خلوداً فى كل سجلات التاريخ "دمه علينا وعلى أولادنا" عندئذ سلم بيلاطس نهائياً، وبغضب وتلكؤ قال كلمة "مستوجب الصلب" وأسلمه ليصلب.

ولنقف لحظة لنشاهد إنتقام التاريخ، ألم يصر دمه عليهم وعلى أولادهم؟ ألم يقع دمه بالأكثر على أولئك الذين كانوا أشد إنغماساً فى هذه الجريمة؟ قبل أن تتم هذه الذبيحة الرهيبة مات يهوذا فى ويلات إنتحار بشع، وخلع قيافا فى السنة التالية، ومات هيرودس منفياً شريداً، وأنزل بيلاطس عن الولاية بعد ذلك بقليل بنفس التهم التى أراد أن يتفاداها بمنحهم هذا القرار الدنئ ومات منتحراً فى المنفى وقد أثقلته المصائب تاركاً وراءه إسماً ملطخاً. وبيت حنان خرب بعد جيل واحد بأيدى رعاع مهتاجة جرت إبنه فى الشوارع وجلد وضرب فى مكانه حتى مات. وبعض أولئك الذين رأوا وشاركوا مناظر ذلك اليوم وآلاف من أبنائهم قد رأوا وشاركوا أيضاً عذاب حصار أوروشليم المريع الذى يشهد التاريخ أن ليس له مثيل فى كل رعبه وهوله الفائق حتى أن رينان يقول "ظهر كأن الأمة كلها ضربت موعداً مع الفناء".

---

١ – مع أن هذه العادة كانت يهودية (تث ٢١ : ٦، ٧) "ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة... أيديهم.. ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر" فقد كانت أيضاً رومانية ويونانية.

الفصل الحادي والستون

الصلب

"إذهب يا جندى وجهز الصليب" بجملة مثل هذه من الأمر المريع أصدر بيلاطس أمره أخيراً ولاشك أن التنفيذ أعقب الحكم في الحال. والغالب أن الساعة الآن حوالى التاسعة والوقت اللازم للإستعدادات الواجبة لن يكون طويلاً. وفى أثناء هذه الفترة القصيرة جرد العسكر الذين كان من واجبهم أن يقوموا بتنفيذ الحكم يسوع من عباءة الحرب الأرجوانية والتى إصطبغت بحمرة قانية من دمائه وألبسوه ثانية ثيابه الخاصة[1].وعندما جهزوا الصليب وضعوه علي كتفيه وساقوه إلى مكان الصلب. ولقرب العيد العظيم وإحتشاد الملايين من اليهود فى أوروشليم صار من المرغوب فيه أن تنتهز الفرصة لإيقاع الخوف فى قلوب كل فاعلى الشر. لذلك أختير إثنان منهم لينفذ فيهما الحكم مع يسوع. ووضع صليباهما عليهما ومشى الموكب على هذا النحو شاقاً طريقه بين آلاف المتفرجين.

ولكى يحمل الصليب جسم إنسان يجب أن يكون لجسمه حجم وعزم كافيان. ولشخص قد أضعفته القسوة الشنيعة لابد أن يسبب له حمل مثل هذا بؤساً زائداً. ولكن يسوع لم يكن منهوكاً من هذه القسوة فقط ولكن أضعفته الأيام السالفة العنيفة من الجهاد والإضطراب وكذلك الليل المفعم بالعواطف العميقة والذى لا نوم فيه. والعذاب النفسى فى البستان. ثلاث محاكمات، وثلاثة أحكام بالموت أمام اليهود. كل هذا مضافاً إلى التمزقات الأليمة الناجمة من الجلد قد حطم تماماً قواه البدنية. ووضح من خطواته المتعثرة بل وسقوطه الفعلى مراراً تحت هذا الثقل المريع أنه يحتاج لقوة تمكنه من حمل الصليب من دار الولاية إلى جلجثه. ولو لم يكن من باب الشفقة على ضعفه فمن باب عدم رغبة العسكر الرومان.

فى هذه العقبات والتأخير وجدوا طريقة سهلة للخروج من هذه المشكلة. لم يبتعدوا إلا قليلاً عن أبواب المدينة حتى وجدوا رجلاً عائداً من الحقل، معروفاً عند المسيحيين الأولين بإسم سمعان القيروانى، أبا ألكسندر وروفس، وربما لملاحظة من اليهود السائرين عرفوا أنه كان يعطف على تعاليم المتألم فسخروه فى خدمتهم الغريبة. وإستمر الموكب الخاسىء فى سيره فى (طريق الآلام). حادثة واحدة هى التى دونتها البشائر فى هذا الطريق، ذكر لوقا أنه كان بين الجموع الزاخرة التى تبعت يسوع نسوة عديدات. ويبدو أن يسوع لم يظفر من الرجال الحاشدين فى الجمع الزاحف ولا بكلمة حنان أو عطف.

---

١ – «فجلده» الواردة في (مت٢٧: ٢٦) رجوع الى ما سلف.

ولكن أولئك النسوة وهن أسرع إلى الشفقة وأقل تقدير للظروف السائدة لم تستطعن ولم يردن إخفاء حزنهن ودهشتهن اللتين أثارهما هذا المنظر فقرعن صدورهن وملأن الهواء بندبهن إلى إن أسكت يسوع ولولتهن بكلمات تحذير رهيب. إلتفت إليهن وقال لهن: "يا بنات أوروشليم لا تبكين عليَّ بل إبكين على أنفسكن وعلى أولادكن. فها أيام تأتي يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع. حينئذ يبتدئون يقولون للجبال أسقطى علينا وللآكام غطينا فإن كانوا يفعلون هذا بالعود الرطب فماذا يكون باليابس"

كان ندبهن نتيجة إنفجار عواطف حنان نسائية لم تستطعن ضبطها عندما رأين نبى الإنسانية العظيم فى ساعة عاره وضعفه فحذرهن وأظهر أن كل ما رأينه فى هذا الموكب السارى من الويل لا يقاس بدواعى الأسى الأعظم من هذه التى تنتظرهن وأولادهن وأمتهن ستعيش كثيرات منهن وأغلب أولادهن - حتى يرين أنهار الدم المسفوك وآلام تعذيب لم يعرف العالم شبيهاً لها وأياماً تفقد مقدرة الناس على إحتمال الألم فيطلبون المهرب تحت التل المبنية مدينتهم عليه[1].

هذا التحذير الرهيب الذى يعتبر آخر عظة للمسيح على الأرض قصد به أولاً من سمعوه ولكن مثل كل كلمات يسوع لها معنى أعمق وأوسع لكافة الجنس البشرى. تحذر هذه الكلمات كل إبن آدم أن يوم المسرة المفرطة وعدم الإيمان التجديفى سيتبع حتماً بالهلاك. أنها تحذر كل إنسان يعيش فى الأرض بترف ويأكل ويشرب ويسكر وإن كان إمهال الله يتأنى وأن كان صمته يظل غير مشوب فستأتى أيام يزمجر فيها برعود ويحرق غضبه كنيران آكلة.

وأتوا بعد هذه الحادثة الفريدة المحزنة إلى المكان القاتل المسمى جلجثة أو باللاتينية (كالفارى) أى الجمجمة. وكان خارج أسوار المدينة. وخلال هذا العقاب المتناهى فى الوحشية والشر إلى أقصى حد، كان يتضمن إعطاء المحكوم عليهم قبل البدء مباشرة فى التنفيذ جرعة من النبيذ يضاف إليه مخدر قوى ولكن عندما قدمت ليسوع لم يرد أن يشرب منها. كان هذا الرفض من أسمى أعمال البطولة.

ووضعت الصلبان الثلاثة على الأرض. وصليب يسوع الذى ربما كان أطول من الإثنين الآخرين وضع فى الوسط بإستهزاء مرير. سمرت الآن العارضة الأفقية مع العارضة الرأسية. وبالتأكيد سمر أيضاً على رأس الصليب العنوان الذى قد يجوز أن يكون حمله يسوع مغلولاً إلى عنقه، أو يجوز أن يكون قد حمله أحد الجند أمامه. وعروه من ثيابه وتبعت بعد ذلك اللحظة الأشد عذاباً من الكل. وضع على آلة

---

١ - (هو٩: ١٢ - ١٦) و (١٠: ٨) و (اش ٢: ١٠) و (رؤ٦: ١٦) وكلمات يسوع هذه قد تمت بكل ألم حرفياً. فإنه عند حصار أورشليم خبأ مئات من اليهود المساكين أنفسهم فى مغاور قذرة مظلمة تحت الأرض فمات فضلاً عمن أغتيلوا حوالي ٢٠٠٠، قتلوا دفناً تحت خرائب مخبأهم.

العقاب وشدت ذراعاه على العارضة الأفقية وفى وسط الكف المبسوط وضع طرف مسمار حديد كبير ودق بضربات المطرقة حتى دخل فى الخشب وبعدئذ إما فى كل قدم على حدة أو فى الإثنين سوياً، وهما موضوعان على بعضهما، دق مسمار آخر كبير الحجم شاقاً طريقه ممزقاً اللحم المرتجف. ولا نعلم إن كان المتألم قد ربط أيضاً إلى الصليب أم لا. ولكن لمنع تمزق اليدين والقدمين من ثقل الجسم الذى يصعب أن يرتكز على أربعة جروح كبيرة كان قرب وسط الصليب بروز خشبى قوى يحمل ولو جزئياً ثقل الجسم الذى يصبح سريعاً ثقلاً من الآلام.

غالباً فى هذه اللحظة من الآلام التى لا يعبر عنها سمع صوت إبن الإنسان، لا فى صرخة طبيعية من ألم هذا العذاب المخيف، ولكن فى صلاة هادئة، بعطف إلهى، من أجل أولئك القتلة المتوحشين غير الشفوقين، وأيضاً من أجل جميع الذين فى جهل الخطايا يصلبونه دائماً ثانية من جديد قائلاً: "يا أبت إغفر لهم لأنهم لا يعلمون ما يفعلون".

بعدئذ رفعت الشجرة الملعونة[١] مع حملها الإنسانى معلقاً فى ألم، لا حول له، متحملاً آلاماً جديدة لأن كل حركة كانت تهيج ألم الجروح الحديثة فى اليدين والرجلين وبأيد قوية ركزت تلك الشجرة بثبات فى حفرة عميقة عملت خصيصاً فى الصخر. وكان القدمان مرتفعين قليلاً عن الأرض، فكانت الفريسة فى متناول يد كل من يختار أن يضرب ومواجهة كل إشارة شتيمة أو كره. وكان المصلوب يترك الساعات الطويلة ليشهر به ويهان ويسب بل وليعذب أيضاً من الجموع المارة التى تستهويهم شهوة رؤيا كل ما هو مريع، الأمر الذى هو صفة لازمة للقلوب الغليظة. وقد تجمعوا حول منظر كان الأحرى أن يجعلهم يذرفون الدم مع الدموع.

وهناك فى آلام مبرحة تفوق حد الإحتمال وتزداد إلى درجة الجنون مع مرور الوقت الذى قد يطول على المصلوبين فى عذاب قاس حتى أنهم كانوا كثيراً ما يضطرون أن يتوسلوا ويتضرعوا لمشاهديهم بل أيضاً لمنفذى الحكم فيهم ويستحلفونهم باسم الرحمة أن يضعوا حداً لهذا العذاب المريع الذى لا يستطيع إنسان أن يحتمله سيما أن الحس يظل سليماً إلى النهاية ولا يفقد الشعور، كانوا بدموع اليأس القاتل يترجون من أعدائهم منحة الموت الغالية.

إن الموت على الصليب يشمل فى الحقيقة كل ما يمكن للموت أن يمتلك من الأهوال، فمن دوار إلى تشنج إلى عطش إلى جوع إلى قلق إلى حمى جراحية إلى تصلبات إلى عار علنى إلى خوف الترقب إلى

١ – خشبة العار. هذه الشجرة التى كانت للخزى واللعنة ترفع الآن على قضبان السلطة وتحفر وترسم على جباه الملوك.

آلام الجروح المهملة، كل هذه مركزة للدرجة التى لا تحتمل، هذا التعليق فى وضع غير طبيعي يجعل كل حركة مؤلمة والعروق الممزقة والأوتار المنسحقة تنبض بألم لا يسكت، والشرايين سيما التى للرأس - تنتفط وتضغط بالدم الزائد ومع الإزدياد التدريجى لكل أنواع العذاب هذه يتزايد معها عطش محرق مغيظ لا يحتمل. وكل هذه المضاعفات الجسمانية تنتج إضطراباً وعصبية داخلية تجعل الموت ذلك العدو المجهول الذى يهز إقترابه أغلب الناس هزا - تجعله راحة عذبة مرغوبة.

كان هذا هو الموت الذى إرتضاه المسيح، عندما رفع الصليب رأى رؤساء اليهود بوضوح لأول مرة الهزء المميت الموجه لهم الذى أفرغ فيه بيلاطس غضبه لأنه على القطعة المربعة الخشبية المعلقة على رأس الصليب فوق يسوع كتبت باللغات الثلاث المتمدينة فى الدنيا القديمة حروف معلنة للجميع إن هذا الإنسان المحكوم عليه بهذه الميتة المملوءة عاراً وعبودية، هذا الرجل المصلوب بين فاعلى شر منظراً للعالم كان: (ملك اليهود).

فأوفدوا رؤساء الكهنة يرجون الوالى أن يغير هذا العنوان البغيض قائلين لبيلاطس "لا تكتب أنه ملك اليهود بل هو قال إنى ملك اليهود". ولكن شجاعة بيلاطس التى كانت قد خانته قد عاودته الآن فبدون أن يكلف بيلاطس نفسه بيان أحقية ما فعل، صرف هؤلاء الشيوخ الوقورين بجواب قصير بارد محتقر "ما كتبته قد كتبته".

توجد حوادث قد أنزل فيها رجال من على الصليب وأعيدوا إلى الحياة. فلكى تمتنع أية وسيلة للإغاثة ولو فى الدقيقة الأخيرة وضع الوالى أرابع من العسكر ومعهم رئيس مائة فى موضع الصلب ليحرسوه. وكانت ملابس الفرائس تصبح عادة نهبا مشاعا للرجال الذين كان من نصيبهم أن يؤدوا هذه المهمة الكريهة المتعبة. وبدون أن يحلموا كيف أنهم كانوا يتمون عفوا ولكن بتدقيق النبوة القديمة اليهودية بدأوا يقتسمون ثياب يسوع فيما بينهم. فقسموا الطاليث إلى أربعة أجزاء غالباً بتفتيق أماكن الخياطة. ولكن الكيثونيت، أى القميص كان نسيجاً قطعة واحدة، فإذا مزق يتلف. لذلك قنعوا أن يصير ملكاً لمن تصيبه القرعة من الأربعة.

كان منظر إضطراب مقبض، ووقف أغلب القوم يتفرسون صامتين. ولكن أقلية منهم وهم يمرون على الصليب - ربما بعض شهود الزور والمتآمرين عليه فى الليل السابق - سخروا من يسوع بشتائم عالية وإتهامات غضوبة، وكانوا يأمرونه أن ينزل من على الصليب ويخلص نفسه مادام مستطيعاً أن يهدم الهيكل ويبنيه فى ثلاثة أيام. ولم يستح رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ -وكانوا أقل شفقة من عامة الشعب - أن يلطخوا كرامتهم الوقورة وشعرهم الأبيض وشهرتهم العالية بإضافة توبيخاتهم القاسية لتوبيخات أولئك النفر القليل الشرير. لم يروعهم الصبر النبيل الذى للمتألم، ولم يكفهم إتمام إنتقامهم العنيف، ولم

يحرك عواطفهم الألم الذى ليس معه حول، بل كانوا يهنئون بعضهم ويهزأون فيما بينهم تحت صليبه قائلين "خلص آخرين ولم يقدر أن يخلص نفسه"، "إن كان هو المسيح ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب لنرى ونؤمن به". بلى إن العدوى الجبارة قد أصابت البائسين المسكينين اللذين صلبا معه. هذان عيراه أيضاً وأمراه أن يخلص نفسه ويخلصهما كذلك ان كان ما يدعيه صحيحاً ولكن وسط هذه الصيحات المنكرة المترددة لم يتكلم يسوع.

كان هذا الصمت مضافاً إليه عظمته الصابرة وقداسته الإلهية وبراءته التى أحاطته أثرت على أحد اللصين. ويظهر أن هذا (اللص الطوباوى) إشترك قليلاً فى التعبيرات التى نطق بها زميله فى الخطية. ولكن عندما تطورت هذه التعبيرات إلى تجاديف إعترف بما فى صميم فكره. وكلما أمعن فى النظر إنبلج فجر الإيمان فى قلبه تدريجياً إلى ضياء النهار الكامل. لقد خرس من مدة طويلة عن النطق بكلمات التعيير وإبتدأ الآن يزجر تجاديف زميله. ثم أدار رأسه إلى جهة يسوع وصرخ إليه بدعاء حار قائلاً "أذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك". وحينئذ تكلم فى الحال، ذاك الذى ظل صامتاً وسط الإتهامات القاسية، باستجابة لهذه الصلاة الخاشعة قائلاً "الحق أقول لك أنك اليوم تكون معى فى الفردوس".

ومع أنه لم يتكلم أحد ليقوى يسوع، ومع أن الحزن العميق والخوف والدهشة أخرست الجميع إلا أنه كانت بين الجمع قلوب تنبض بالعطف تجاه المتألم الرهيب. ووقفت عن بعد نسوة عديدات ينظرن وينتظرن حتى فى هذه الساعة نجاته السريعة كثيرات من هؤلاء كن من اللواتى خدمنه فى الجليل وأتين من هناك مع جماعات الحجاج. ومن البارزات فى هذه الجماعة الكسيرة القلب كانت مريم أمه وأخت أمه[1] مريم زوجة كلوباس أم يعقوب ويوحنا ويوسى، ومريم المجدلية، وسالومى زوجة زبدى. ومع مرور الساعات زحفن أقرب فأقرب إلى الصليب. وأخيراً وقعت عينا المخلص الذابلتان على أمه فإخترقتا قلبها مراراً كما بسيف وهى واقفة مع التلميذ الآخر الذى كان يحبه. كانت تود أن تعمل له كل ما يستطيع حب وحنان أم أن يفعل. وهو أيضاً لم ينس لحظة من حنت عليه فى وقت الطفولة، والتى شارك معها العيش فى كوخ الناصرة ثلاثين عاماً. فبحزن وشفقة دبر المستقبل الذى ينتظرها فى السنين الباقية من حياتها التى لابد أن ستذخر بإضطهادات وإضطرابات معتقد جديد نابت. فبعد قيامته سيكون نصيبها مرتبطاً بتلاميذه. والتلميذ الذى أحبه أكثر وكان أقرب إلى حياته وقلبه كان أوفقهم للعناية بها. لذلك سلمها كوديعة مقدسة ليوحنا الذى أحبه أكثر من زملائه، ليوحنا الذى أسند رأسه على صدره فى العشاء الأخير. فقال لها بكلمات مختصرة ولكن نفثت أرق روح للحنان "يا إمرأة هوذا إبنك". ثم

---

١ – (يو١٩: ٢٥).

قال ليوحنا البشير "هذه أمك". ما كان يستطيع أن يشير بيديه المثقوبتين ولكن بلفت رأسه. ومن تلك الساعة - وربما من تلك اللحظة - ليعفيها من منظر يقطع نياط قلبها بعذاب لا قبل لها على إحتماله أخذها ذلك التلميذ إلى بيته[١].

حل الآن وقت الظهر، ولا ريب أن أشعة الشمس فى المدينة المقدسة كانت عالية حامية محرقة تشرف على هذا المنظر الرهيب بقوة وحدة تضارع قيظ الظهر فى صيف بلادنا، غير أنه قد إسود وجه السماء "وتحولت إلى ظلمة" فى "يوم الرب العظيم الرهيب" هذا. ولا يمكن أن تكون ظلمة كسوف طبيعى فإن قمر الفصح كان فى تمامه. ولكنها كانت (آية السماء) طالما طلب الفريسيون شيئاً من قبيلها بإلحاح ولكن بدون جدوى فى أيام كرازة يسوع.

لم يذكر لنا شئ عن حوادث الساعات الثلاث الأخيرة. ذلك الإنحجاب الرهيب لشمس الظهيرة أخاف كل قلب فتوقف عن عمل أى شئ فلم يكن هناك ما يدون. ولكن عند إقتراب نهاية هذه الفترة تضاعف عذابه، وأخلى إلى آخر حد من المجد الذى كان له من قبل إنشاء العالم، فصرخ تلك الصرخة العجيبة التى لن يسبر غور كامل معناها أى إنسان قائلاً: "ايلى ايلى لما صبختنى. أى إلهى إلهى لماذا تركتنى" [٢].

فى هذه الكلمات التى إقتبسها من المزمور الذى عده الآباء الأولون نبوة قديمة عن آلام المسيح قد نطق يسوع بكلمات داود فى إنسحاقه تعبيراً لآلامه هو. كان فى تلك الساعة وحده، يهبط أعماقاً تلو أعماق لاغور لها، ويقترب من النهاية الأخيرة من موت أشد عليه مما على أى شخص من أولاد البشر، لأنه كان إلهاً وقد صار إنساناً. فظهر أن ناسوته الإلهى لم يعد يحتمل أكثر.

لا ريب أن صوت المتألم رغم أنه كان عالياً فقد كان غير واضح أو جلى من شدة الإنهاك الذى كان عليه وهو مصلوب حتى أن بعضاً من الوقوف نظرا للظلمة المدلهمة والضوضاء المضطربة ووقع الأقدام المتحركة لم يسمعوا ما قاله. وإنما سمعوا فقط المقطع الأول فقالوا لبعضهم إنه نادى ايليا. والآن إقتربت النهاية سريعاً. كان يسوع معلقاً ما يقرب من الست ساعات على الصليب وكان يتألم من عذاب العطش وهو أقسى ما يمكن للكيان البشرى أن يتحمله، ولهذا نطق بالكلمة الوحيدة التى لألم

١ - (يو١٩ : ٢٧).

٢ - هذه الصرخة علي الصليب لم يدونها سوي يوحنا ومرقس وكتبها مرقس باللهجة الآرامية البحتة «الوى الوى». ونطقه بالآرامية في هذه اللحظات الأخيرة يدل علي انها كانت اللغة السائدة في كلامه طول حياته.

جسمانى إنتزعت منه بعد كل الساعات الطويلة التى إحتمل فيها أقسى ما يمكن من العذاب الذى يستطيع أن يوقعه إنسان. صرخ قائلاً: "أنا عطشان". وفى الحال أخذ أحدهم - ولا ندرى إن كان عدواً أم صديقاً أم عابراً دفعه حب الإستطلاع للوقوف - أخذ الإسفنجة وملأها خلاً ليعطيها ليسوع. ومع أن الصليب لم يكن مرتفعاً إلا أن رأس المتألم المرتكزة على العارضة الأفقية التى للشجرة الملعونة كانت أبعد من متناول يد ذلك الرجل فوضع الإسفنجة على قصبة من جذع الزوفا[1] يقرب طولها من القدم، وأدناها من الشفتين المائتين[2]. إلا أن هذا العمل البسيط الذى أملته الشفقة والذى لم يرفضه يسوع قد أثار هياجاً عصبياً عند بعض اليهود الناظرين وقالوا للرجل "دعه لنرى هل يأتى ايليا ليخلصه". أما الرجل فلم يتراجع عن عمل الرحمة هذا ولكن بعد أن إنتهى منه يظهر أنه أيضاً ردد مع الباقين هذه الكلمات المتحدية[3]. ولكن ايليا لم يأت ولا معزياً بشرياً ولا منجداً ملائكياً. كانت إرادة الله. كانت إرادة إبن الله أن "يكمل بالآلام" [4]، ولكى يكون مثلاً أبدياً لكل أولاده إلى منتهى العالم أن "يصبر إلى المنتهى".

والآن قد جاءت النهاية. ومرة أخرى إقتبس كلمات مرنم إسرائيل الحلو[5]، ولكن أضاف إليها اللقب المليء من الحب والثقة والذى سمح المسيح وبواسطته أن يستعمله كافة البشر، وقال "يا أبتاه فى يديك أستودع روحى". وبعدئذ بجهد أعظم صاح بصرخته الأخيرة الكلمة المنتصرة الوحيدة "قد أكمل". وسرعان ما قالها حتى خفض رأسه على صدره و "أسلم الروح" "فدية عن كثيرين" وذبيحة راضية لأبيه السماوى[6]. إنتهت حياته المقدسة، وبإنتهاء حياته إنتهى جهاده، وبإنتهاء جهاده إنتهى عمله بالجسد، وبإنتهاء عمله إنتهى فداؤه، وفى تلك الدقيقة إنشق حجاب الهيكل إلى إثنين من فوق إلى أسفل[7] وحدثت زلزلزلة جعلت الأرض تضطرب فتشققت الصخور ودحرجت بعضها من أماكنها العالية وكانت هذه تغلق وتغطى مغاور مقابر اليهود وهنا قام بعض الأموات وإنطلقوا من قبورهم وظلوا

---

١ - (مر١٥: ٣٦).

٢ - (مت٢٧: ٤٨) و (يو١٩: ٢٩).

٣ - (مر١٥: ٣٦).

٤ - (عب٥: ٧ - ٨) و (٢: ١٠) و (في٢: ٨ - ٩).

٥ - (مز ٣١: ٥) قارن (اع ٧: ٥٩) و (ابط٢: ٢٣).

٦ - قد يكون مقصودا ان البشيرين قد استعملوا كلمه «وأسلم الروح» (مر١٥: ٣٧) و (لو٢٣: ٤٦) وكذلك (مت٢٧: ٥٠) و (يو١٩: ٣٠) ولم يستعملوا فعل «مات» كما يقول اوغسطين ان ذلك معناه «بذل حياته» لانه اراد ذلك (اش٥٣: ٧).

٧ - (عب٦: ١٩، ٢٠).

بعد قيامته في المدينة المقدسة[١]. هذه الظروف المدهشة كان لها شديد الأثر على قائد المائة الذى كان على أمرتهم. فعندما كان واقفاً قبالة الصليب ورأى يسوع يسلم الروح قال "حقاً كان هذا الإنسان باراً". "حقاً كان هذا إبن الله". ومنذ هذه الساعة التى مات فيها المسيح قرعت أجراس الوفاة لكل ظلم شيطانى وكل رجس متملك. من تلك الساعة أصبحت القداسة هى المثل الأعلى لمن يتخذون إسم السيد المسيح سيداً وإلهاً. وصار الوصول إلى ذلك المثل التراث المشترك لكل النفوس التى يحل فيها روحه.

ومع أنه واجب حتى على غير المؤمن أن يرى التغييرات التى أحدثها حياة يسوع وموته في العالم فإن المؤمن يرى أموراً أعمق فى حياة وموت يسوع، أموراً لديه ليست بأقل من القيامة من الأموات. إنه يرى فى صليب المسيح ما يفوق أهميته التاريخية بما لايعبر عنه. يرى فيه إتمام كل النبوات وإكمال كل التواريط. يرى فيه تفسير سر ولادة المسيح وتفسير الإنتصار على الموت. يرى فى حياته المثل الكامل وفى موته الفداء الشامل. وعندما يتأمل فى التجسد والصلب لا يشعر أن الله بعيد أو أن أرضنا ما هى إلا بقعة صغيرة فى الأفق اللانهائى، أو أن نفسه ما هى إلا ذرة لا قيمة لها رمتها الصدفة بين ملايين أرواح الأحياء من أجناس البشر العديدة، بل يقر فى إيمان ورجاء "ويكون سكنى فوقهم. وأكون لهم إلهاً ويكونون لى شعباً" و "أنتم هيكل الله الحى كما قال الله إنى سأسكن فيهم وأسير بينهم" [٢].

قاربت الشمس على الغروب عندما بدأت الظلمة ترخى سدولها على الذبيحة التى أكملت. وحتى لا تبقى الأجساد على الصليب للغروب. سأل اليهود بيلاطس أن تكسر سيقانهم وترفع أجسادهم. وهذا "التكسير" يتم بضرب سيقان المصلوب بمطرقة ثقيلة وهى قسوة كانت دائماً تعجل الوفاة إن لم تحدثها فى الحال. لذلك منحت هذه الرغبة سريعاً. وكسر الجند سيقان فاعلى الشر أولا وعندما جاءوا إلى يسوع وجدوا أن صرخته العظيمة كانت الأخيرة، وأنه قد مات، فلم يكسروا سيقانه. فبدون قصد حفظوا تشابهه التام لخروف الفصح الذى كان رمزاً له والذى أمر "أن عظمة لا تكسر" [٣]. ولكن لئلا يكونوا فى إغماء ولكى يتأكدوا من موته طعن واحد منهم جنبه بالنصل العريض لحربته وإخترق الجرح كما رغبت الطعنة المصوبة مكان القلب. ويقول يوحنا بتأكيد من عاين وشاهد برؤية العين أنه "للوقت خرج ماء ودم". وهذه الطعنة أكدت للجند أنه قد مات.

---

١ - (مت٢٧: ٥٢،٥٣).

٢ - (حز٣٧: ٢٦) و (٢كو٦: ١٦).

٣ - (خروج١٢: ٤٦). يوحنا يرجع إلي (زك١٢: ١٠) (رؤ١: ٧).

القيامة

في اللحظة التى مات فيها السيد المسيح ما كان شئ يبدو فى منتهى الضعف ولا أزيد إستحقاقاً للرثاء وإنعداماً للأمل ولا أشد وجوباً للسخرية والخذلان واليأس والمحو من الكنيسة التى أسسها. لم تكن سوى حفنة ضئيلة من الأتباع الضعفاء، أجرأهم قد أنكر سيده بتجديف وأحبهم إليه قد تركه وهرب. كانوا فقراء، وكانوا جهلاء، وكانوا بلا رجاء فكيف تسنى لهؤلاء الرجال الجهلاء الضعفاء وصليبهم الخشبى أن ينتصروا على المغريات الشهوانية القاتلة للخرافات الوثنية، ويخضعوا ملوكاً وجيوشاً، ويغلبوا العالم؟

ما الذى أخرج القوة من ضعف كامل وبغيض؟ يوجد لذلك جواب وجواب واحد "القيامة من الأموات". كل هذا الإنقلاب كان نتيجة قوة قيامة المسيح.

السبت يقترب و "**لأن يوم السبت ذاك كان عظيماً**"، سبت له عظمة ومهابة خاصة لأنه كان سبتاً وفصحاً فى آن واحد[1]، قد إتخذ اليهود كل حيطة لمنع النجاسة القانونية ليوم مقدس فأسرعوا بحماس عقب التحقق من موت الضحايا لإنزال أجسادهم من على الصلبان. ولم يتبعوا أنفسهم بخصوص القبور تاركين ذلك لخدمات الأصدقاء العرضية أو الأقارب لمواراة رفاتهم فى قبور مجهولة. وترك جسد يسوع المائت معلقاً للنهاية لأن شخصاً لا يمكن تجاهل مقامه قد ذهب ليستأذن بيلاطس أن يعمل بالجسد كما يريد. كان هذا هو يوسف الرامى، رجلاً غنياً ذا خلق عال وحياه بلا لوم وعضواً بارزاً في السنهدرين. ومع أن ناحية فى طباعه أو ضعفاً فى إيمانه قد منعه حتى الآن عن إعلان إيمانه بيسوع إلا أنه سبق أن إمتنع عن إبداء صوته فى السنهدرين وأبى التستر على جريمتهم. والآن قد أثارت فيه الكرامة والأحزان كل الشجاعة. أما وقد فاته أن يعلن عطفه على يسوع كنبى وهو حى، فعلى الأقل سيبدى إخلاصه له كشهيد فريسة لمؤامرة دنيئة. فذرى مع الرياح كل تستر وحذر وما أن رأى أن صليب جلجثة يحمل جسداً لا حياة فيه حتى ذهب سريعاً إلى بيلاطس فى ذات أمسية الصلب وتضرع إليه أن يهبه الجسد، ولكن بيلاطس دهش للسرعة التى دب بها الموت إلى يسوع وأرسل إلى قائد المائة ليتحقق أن موته كان له زمان لئلا يكون فى إغماء أو غيبوبة[2]. وإذا تأكد أن هذا قد تحقق أمر فى

---

١ – (يو١٩: ٣١) و (تث٢١: ٢٢) و (لا٢٣: ٧).

٢ – هذا ما يظهر من (مر١٥: ٤٤).

الحال أن يعطى الجسد ـ وبلا ريب ببعض الرضا الحقيقي ـ لعناية هذا «المشير الشريف». وبدون أن يضيع يوسف ثانية واحدة إشترى مقطعاً من الكتان الثمين وأنزل الجسد من على الصليب. في الوقت ذاته ساعدت قوة مثاله فى إيقاظ شعور مماثل فى روح نيقوديموس المحب الخائف فقد كان غنياً جداً. ومهما كان قد تستر وإنكمش فى حياة يسوع فقد إمتلأ قلبه الآن فى أمسية موته بنوبة من العطف والندم وأسرع إلى مكان صلبه ودفنه بتقدمة لها قيمة ملوكية حقيقية. وهذا الكتان الثمين (السنديون) الذى إشتراه يوسف نثر بغنى بمائة رطل من المر وخشب الند العطر الذى إشتراه نيقوديموس[١]. وحمل الجسد الممزق إلى قبره الهادى المحبوب بينما كانت روح الإله المتأنس تعمل عملها العظيم. قرب مكان الصليب كان بستان ليوسف الرامى فى داخل سياجه أمر أن يحفر فى الصخر الأصم قبر جديد لنفسه ليوارى فيه قرب المدينة المقدسة. لم يتردد يوسف أن يهب جسد يسوع المثوى الأخير الذى كان قد أعده لذاته. وكان يجب أن تتم الإستعدادات بسرعة وعجلة لأنه إن غربت الشمس بدأ السبت. فكل ما أمكن عمله هو غسل الجسد ووضعه فى العطور وربط الرأس بمنديل أبيض ولف الكتان مراراً حول الأعضاء الجريحة ووضع الجسم الطاهر بإحترام فى الفجوة الصخرية. وبعدئذ بمجهود إشترك فيه عدة رجال دحرج صخر عظيم على الفتحة العرضية للقبر. وما أن انتهوا من هذا حتى إختفت الشمس وراء تلال أوروشليم وإنبثق فجر السبت الجديد[٢].

عرفت المكان مريم المجدلية وكذلك مريم أم يعقوب ويوسى ونساء أخريات جليليات. وتأكدن من القبر فأسرعن إلى منازلهن ليعددن عطوراً وأطياباً قبل أن يبدأ السبت ليتسنى لهن الرجوع فى بكور يوم الأحد لكى يتممن تحنيط الجسد الذى بدأ فى تكفينه بسرعة نيقوديموس ويوسف. وقد أمضين بسكون ذلك السبت الحزين الذى كان عند كل القلوب الكسيرة التى أحبت يسوع سبت خوف ويأس.

ولكن لم يكن أعداء يسوع ساكنين فإن الجحود الشنيع للضمائر المجرمة لم ينته حتى بعد موته على الصليب. تذكروا برعب النبوات الشائعة عن قيامته، وآية يونان النبى التى قال أنها وحدها سوف تعطى لهم[٣]، والقول الهام عن الهيكل المنقوض الذى سيقيمه فى ثلاثة أيام فتظاهروا بالخوف من أن يسرق تلاميذه الجسد ويسببوا ضلالاً، فطلبوا من الوالى أن يحرس القبر بحرص حتى اليوم الثالث. ولقد أعطاهم بيلاطس إذناً مختصراً غضوباً أن يعملوا كل ما أرادوا. والظاهر أنه بعد إنتهاء سبت الفصح العظيم ووضع

١ - (لو٢٣: ٥٤).

٢ - وكانت عادة اليهود اعتبار غروب الجمعة كأنه بدء السبت وسموا ذلك باسم خاص.

٣ - (مت١٢: ٣٩).

جندياً رومانياً وختم الحجر أرسلوا هم أيضاً خدامهم وحراسهم زيادة فى الإحتياط.

إنقضى الليل، وقبل أن بدأ بصيص الفجر يبدد ظلام اليوم الأول من العيد، حفز الحب القوى الذى جعل أولئك النسوة يتأخرن أزيد عند الصليب أن يكن السابقات عند القبر. فحملن الأطياب الثمينة غير عالمات شئ عن الحراس أو الأختام "كن يقلن فيما بينهن من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر". وسبقت المريمات متقدمتين على هذه العصبة الصغيرة وتبعتا سالومى ويؤانا[1]. وقد وجدت النسوة أن المعضلة قد حلت لهن. علمن إذ ذاك أو بعد ذاك أن رؤيا خاطفة للإبصار وملائكة بثياب بيض قد أرهبوا حراس القبر ودحرجوا الحجر عن بابه بينما زلزلت الأرض. وحين وصلن إلى المقبرة وجدن ملائكة فى ثياب بيض أمروهن بالعودة سريعاً إلى الرسل وإخبارهم، سيما بطرس، أن المسيح حسب كلمته قد قام من الأموات وسيسبقهم مثل الراعى إلى الجليل موطنهم المحبوب. فعدن مسرعات مضطربات من الفرح والخوف ولم يخبرن أحد سوى الرسل. وحتى عند تلاميذه كان كلامهن كقصه خيالية عجيبة.

ولكن مريم المجدلية التى منحت رؤيا لظهوره على حده أسرعت فى الحال إلى بطرس ويوحنا اللذين سرعان ما تلقفا هذه الأنباء المدهشة حتى قاما ليريا بعيونهما ما قد حدث. وقد سبق يوحنا زميله الأكبر سنا منه، وإذ وصل أولاً نظر بدهشة صامتة داخل القبر المفتوح. كان القبر خالياً وكل جزء من الكفن الكتانى ملفوف بعناية. وحينئذ أتى بطرس وبجرأته الطبيعية غير ملتفت إلى النجاسة الطقسية ولا إلى آى شئ آخر سوى محبته ودهشته فدخل إلى القبر فتبعه يوحنا فرأى وأمن. وعاد التلميذان يحملان هذا التحقق غير المشكوك فيه إلى إخوانهما الحائرين. ورغما عن الخوف والإضطراب والفهم الثقيل الذي بإعترافهم كان أبطأ من أن يدرك الحقائق التى لقنوها فقد أنبلج فى هذا الحين رجاء متردد سرعان ما نما إلى يقين تام أن المسيح حقاً قد قام. فى ذلك الصباح كان قبر يسوع فارغاً، وفراغه أوقع تلاميذه فى غاية الحيرة، حيرة مشوبة في صدور بعضهم بحزن وجزع[2] وإعتقدوا بعد ذلك وببراهين متعددة أنه قد قام حقاً من الأموات، ولتيقنهم من هذا الإعتقاد أصبحوا مستعدين أن يلاقوا الموت فى كل وقت، وأن هذا الإعتقاد قد أحدث تأثيراً كاملاً فى أخلاقهم فجعل الجبان شجاعاً والضعيف قوياً.

---

١ - (مر١٦: ١ - ٧) و (يو٢٠: ١) و (لو٢٤: ١ - ١٠) و (مت٢٨: ١ - ٧).

٢ - وهذا رغما عن الانذارات المتكررة للرسل الواردة في (يو٢: ١٨ - ٢٢) و (٦: ٦١ - ٦٤) و (١٠: ١٧، ١٨) و (١٣: ٣١) و (مت١٢: ٣٨ - ٤٢) و (١٦: ١٣ - ٢٧) و (١٧: ١ - ٩) و (٢٦: ٦٣، ٦٤) و (مر٩: ٣٠ - ٣٢) و (١٠: ٣٢، ٣٤) و (لو٩: ٤٣ - ٤٥). قد يجوز ان كلهم لم يسمعوا كل هذه الانذارات ولكنهم سمعوا الكفاية من السيد ليجعله ان يقول لهم «يا عديمى الفهم وبطيئى القلب في الايمان».

وعلي إعتقاد القيامة قد بنى المسيحيون حفظ اليوم الأول، يوم الأحد من كل أسبوع الى ما زال يراعى فى العالم كله، وبنوا أساسات الكنيسة المسيحية. ولكن حتى تلك اللحظة لم تره عين، وكان لمريم المجدلية التي كانت روحها الآن حارة كاللهيب شفافة كالبللور والتى أخرج منها سبعة شياطين، كان لها منحة هذا الشرف المجيد أولاً. أن رؤية الملائكة لم تخفف من حدة الإضطراب والخوف التى استولت عليها عندما رجعت مرة ثانية إلى المقبرة ورأت أنه أصبح مستحيلاً أن تقدم الخدمات الأخيرة المنبعثة عن الحب والحنان لجسد سيدها المصلوب. لم يقدر الملائكة اللابسون الثياب البيض ولا كلماتهم أن تنزع الإضطراب الذى ساورها للفكر الذى تملكها وهو "أنهم أخذوا سيدى ولا أعلم أين وضعوه" وفيما كان قلبها مفعماً بهذا الخاطر التفتت وإذا يسوع ذاته واقفاً أمامها.

إنه كان يسوع ولكن ليس كما عرفته. كان هناك شئ روحانى، شئ ليس من هذه الأرض، فى هذا الجسم المقام الممجد. تغير فى الهيئة أو الملابس جعلها تظن أنه حارس البستان. وبرجاء حار طلبت منه أن يفسر لها سر هذا القبر الفارغ الملئ بالملائكة. قالت له باسترحام مر وقد أدارت رأسها وهى تخاطبه ربما لتخفى دموعها الجارية المنسكبة وقالت "أن كنت أنت قد حملته فأخبرنى أين وضعته وأنا آخذه". قال لها يسوع "يا مريم". هذه الكلمة الوحيدة في نبراتها الرهيبة الرقيقة سويا أخترقت فى الحال قلبها فإستدارت إليه والظاهر إنها إجتهدت أن تمسك قدميه أو هدب ثوبه وصرخت فى لغتها الوطنية الآرامية "رابونى. الذى هو يا معلم". وعقد الفرح الرهيب لسانها عن أن تنطق بغير هذا. أما يسوع فأوقف بلطف حدة عاطفتها الحماسية وقال لها "لا تلمسينى[1] لأنى لم أصعد بعد إلى أبى. فإذهبى إلى أخوتى وقولى لهم إنى أصعد إلى أبى الذى هو أبوكم وإلهى الذى هو إلهكم". فأسرعت طائعة خائفة وأعادت عليهم تلك الرسالة الرهيبة ـ وقد رن صوتها كالبشير الأول الذى طبع على عقول جميع من سمعوه أثراً لا يمحى إذ أخبرت "أنى رأيت الرب".

٢ ـ وما كانت شهادتها غير مدعمة. لقد قابل يسوع النسوة الأخريات وقال لهن(سلام). وإختلط الخوف بالفرح. حينئذ قال لهن "لا تخفن. إذهبن وإعلمن إخوتى أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يروننى"[2]. كان بقاء الحراس جوار قبر فارغ لا ضرورة له. وخشية العواقب والرعب من كل ما رأوا هربوا وهرعوا لرجال السنهدرين وأسروا اليهم بما شاهدوا. لكن كان الإيمان أو البحث بعيدين جداً على السواء عن تلك القلوب الغليظة، بل كان حصنهم الوحيد هو الكذب. إجتهدوا أن يخفتوا المسألة

١ – (يو٢٠: ١٧).

٢ – (مت٢٨: ٩،١٠).

كلها. فأوعزوا للحراس أن يقولوا أنهم كانوا نياما، وفيما هم كذلك سرق التلاميذ جسد يسوع. لذلك رشا الصدوقيون الجند ليتشاوروا فيما فيه صالحهم وليدفنوا الأمر كله سراً مكتوماً، ورغماً عنهم بعد سته أسابيع من القيامة كانت هذه الحادثة العظيمة لكل مسيحى الإيمان الذى لا يتزعزع. وبعد سنين قليلة تقوت براهينها التاريخية المحسوسة وشهاداتها المختلفة عن حقيقتها برؤية خالدة أعلنت. وقد حققها وإرتضاها شاب ذو عقلية حادة ونبيلة، فريسي غيور مضطهد إسمه شاول[١].

٣ ـ الظهور الثالث كان لبطرس، ولا ندرى تفصيلاته بالمرة. ربما كانت في طبيعتها شخصية جداً عن أن تعلن. وحقيقة هذا الظهور ترتكز على شهادتى لوقا البشير وبولس الرسول[٢].

٤ ـ الظهور الرابع حدث في ذات اليوم وأحيط بظروف عميقة الأهمية. كان تلميذان ذاهبين إلي قرية أسمها عمواس وموضعها غير معروف ولكنها تبعد حوالى ثمانية أميال عن أوروشليم. وكانا يتحدثان بقلب حزين مضطرب من الحوادث المريعة التى صارت فى اليومين السابقين، وإذا بغريب يصحبهما ويسألهما عن سبب نظرتهما العابسة وكلماتهما القلقة، فوقفا وحدقا فى هذا المسافر المجهول بنظرة عدائية مريبة[٣]. وعندما أجاب أحدهما الذى كان إسمه كليوباس كان فى الجواب الذى جرأ أن ينطق به شئ من الريبة والدهشة "أأنت وحدك غير مقيم بأوروشليم فلم تعلم ما حدث فيها فى هذه الأيام. فسألهما وما هو؟" وحينئذ أخبراه كيف أن آمالهم التى رجوها من أن يسوع كان النبى العظيم الذى سيفدى شعبهم قد تحطمت وديست إلى الأرض وكيف أن أعماله المقتدرة أمام الله والناس قد مضت وإنتهت منذ يومين على صليب العار. ثم وصفا له الدهشة التى إستولت عليهم فى اليوم الثالث هذا عندما حيرهن بعض النسوة وأسمعنهم شائعات عن رؤيا ملائكية وشهادة بعضهم أنهم رأوا القبر فارغا. وأضاف المتكلم بأنه حزينة "أما هو فلم يروه".

وحينئذ وبخهما لعدم فهمهما وبطء قلبيهما. وآراهما ذلك الغريب كيف أنه فى كل العهد القديم من موسى فما بعده كانت نبوة طويلة عن آلام المسيح كما عن مجده. وإذ كانوا يتحدثون في هذه الأمور الهامة إقتربوا إلى عمواس وظهر أن الغريب سائر إلى مكان أبعد منها ولكنهما أمسكاه بإلحاح

١ - (رو٦: ٤) و (اف١: ٢٠) و (غل١: ١) و (اكو١٥: ٤ - ٨)..الخ. والأخيرة هى اول استشهاد عن القيامة وكتبت سنة ٥٤ م.

٢ - (لو٢٤: ٣٤) و (١كو١٥: ٥).

٣ - (لو٢٤: ١٣ - ٣٥). هذا وإن إجابة كليوباس التى تنطوى علي شئ من التأكيد تظهر أن التلميذين لم يكونا مستريحين لتدخل هذا الغريب. وبعد الحوادث الأخيرة القريبة كان هذا الحرص أمراً طبيعياً.

ليمكث معهما. وإذ جلسوا لتناول الطعام البسيط بارك وكسر الخبز وناولهما وحينئذ إنفتحت عيونهما فجأة ورغماً عن شكله المتغير[١] عرفاً أن الذى كان معهما هو الرب. ولكن عندما عرفاه لم يجداه فقال أحدهما للآخر "أما كان قلبنا ملتهبا فينا وهو يكلمنا فى الطريق ويوضح لنا الكتب؟" وقاما للحال وعادا لأوروشليم يبشران بهذه الأخبار الغريبة الفرحة. ولم يجدا الآن سامعين مرتابين بل قوبلا هما أيضاً بالتأكيد المفرح المفعم بالسرور "حقاً لقد قام الرب وظهر لسمعان".

٥ ـ مرة أخرى، وللمرة الخامسة في يوم القيامة هذا، الخالد إلى أبد الدهور، أظهر يسوع ذاته لتلاميذه. كان عشرة منهم مجتمعين سوياً والأبواب مغلقة من خوف اليهود وفيما هم يتبادلون هذه الأخبار السعيدة إذا بيسوع ذاته قد وقف فى وسطهم "وقال لهم السلام لكم". والهيئة غير العادية لهذا الجسم الممجد، والأمر الرهيب أنه قد قام من الأموات صيراهم فى إضطراب وخوف. كان حضور السيد جسدانياً بلا شك ولكنه متغير فظنوا أن روحاً هو الماثل أمامهم "فقال لهم لماذا تضطربون ولماذا تخطر أفكار على قلوبكم. أنظروا يدى ورجلى فإنى أنا هو. جسونى وأنظروا فان الروح ليس له جسم بعظم كما ترون لى". ولما قال هذا أراهم يديه وجنبه. وعندما كان يتنازع قلوبهم الفرح والدهشة وعدم التصديق سألهم أن كان عندهم شئ يأكله. ولكى يزيد تأكدهم أكل قدامهم جزءا من سمكة مشوية وشهد عسل. وحينئذ مرة أخرى قال لهم "السلام لكم. كما أرسلنى أبى أرسلكم أنا أيضاً. ثم نفط فى وجوههم وقال إقبلوا الروح القدس. من غفرتم لهم خطاياهم تغفر لهم ومن أمسكتموها عليهم تمسك".

٦ ـ واحد فقط من الرسل كان غائباً وهو توما أى التوأم. وقد رأينا فيما سلف إنه كان محبا ولكنه حزين. ظهر له أن الخبر أجلّ من أن يصدق وعبثاً حاول باقى الرسل أن يأكدوا له "أنا قد رأينا الرب". من حظنا وليس من حظه أن أعلن بتأكيد قوى أنه لا شئ يقنعه ما لم يضع أصبعه فعلا فى أثر المسامير ويده فى جنبه. مضى أسبوع والشكوك المدونة بأمانة عن الرسول المخلص بقيت كما هى. فى اليوم الثامن أو كما نقول نحن بعدذلك بسبعة أيام -لأن القيامة قد جعلت اليوم الأول من الأسبوع حتى من ذلك الوقت مقدسا لقلوب الرسل- كان الأحد عشر مجتمعين داخل الأبواب المغلقة، ومرة أخرى ظهر لهم يسوع. وبعد بركته المعتادة الرهيبة اللطيفة دعا توما وأمره أن يمد أصبعه ويضعه فى أثر المسامير ويضع يده مكان الحربه فى جنبه كى لا يكون فيما بعد "غير مؤمن بل مؤمنا". أجاب التلميذ غير المصدق بموجة من الإيقان "ربى وإلهى". قال له يسوع "لما رأيتنى آمنت. طوبى للذين لم يروا وآمنوا".

---

١ - (مر١٦ : ١٢) «بهيئة اخرى».

٧ ـ الظهور التالى للمخلص القائم كان لسبعة من التلاميذ عند بحر الجليل، سمعان وتوما ونثنائيل وإبنى زبدى وإثنين آخرين ليس من المستبعد أن يكونا فيلبس وأندراوس ولو لم يذكر اسمهما[١]. مرت فترة لم يظهر فيها المسيح، فقبل أن يعودوا لأوروشليم فى العنصرة ليقبلوا وعد إنسكاب الروح القدس قال سمعان إنه سيعاود مؤقتا صناعته الأولى كصياد للسمك. لم يكن لهم بعد كيس مشترك، وربما نفذت مرافق العيش فكان هذا هو السبيل الوحيد الواضح للحصول من طريق شريف على ما يحتاجون إليه. وإقترح الآخرون أن يصحبوه وإقلعوا مساء لأن الليل هو أحسن وقت للصيد وتعبوا الليل كله عبثا.

وعند الفجر باكراً وقف فى ضباب السحر شخص على الشاطئ لم يتبينوه، وسمعوا صوتا يناديهم هل أمسكوا شيئاً فكانت الإجابة القانطة (لا). فأمرهم "**إلقوا الشبكة عن يمين السفينة فتجدوا**". فألقوا ولم يقدروا أن يجتذبوها لكثرة السمك. وهذه الحادثة أيقظت بقوة قاهرة ذكرى الأيام السالفة. فهمس يوحنا إلى بطرس قائلاً "إنه الرب". ففى الحال شد ذلك المتحمس الحار القلب منطقة الصيد على حقويه[٢] وقفز إلى البحر ليسبح المائة ياردة التى تفصله عن الشاطئ. وألقى بنفسه وقد بللته الأمواج عند قدمى يسوع، وتبعه الباقون ببطء يجرون الشبكة المليئة غير المخرقة وبها مائة وثلاث وخمسون سمكة كبيرة. ولما أتوا تطلعوا فرأوا جمراً موضوعاً على الشاطئ وسمكاً يشوى عليه وخبزاً إلى جانبه. وهو منظر قد يرى إلى يومنا هذا على شواطئ بحيرة الجليل. وذاك الواقف أمرهم أن يحضروا سمكاً مما أمسكوا فللحال قام سمعان وساعد بذراعه القوية فى جر الشبكة إلى الشاطئ. وذاك الذى علم جميعهم أنه الرب ولكن صوته وهيئته ملأتا قلوبهم إحتراماً مهيباً فلم يجسروا أن يسألوه من أنت، أمرهم أن يأتوا ويأكلوا وفرق عليهم الخبز والسمك.

وإنتهت الأكلة السعيدة فى سكوت وبعدها قال يسوع لتلميذه الضعيف ولكن المحب (يا سمعان). ولم يكن قد حان الوقت بعد ليعيد له إسم بطرس "يا سمعان بن يونا أتحبنى أكثر من هؤلاء". أجابه "نعم يارب أنت تعلم إنى أحبك". فقال له السيد "ارع خرافى".

وقد شعر سمعان في داخل قلبه بما عنى يسوع من توبيط رقيق بقوله "أكثر من هؤلاء". قد أرجعت هذه الكلمات إلى روحه التائبة قوله الفخور الذى أكده بين أخوانه "**ولو شك فيك الجميع فأنا لا أشك**". قد علمه الخذلان الإتضاع. ولذلك فلن يدعى الأولوية فى الحب، بل لم يستعمل

---

١ – (يو ٢١ : ١ – ٢٤).

٢ – من المعتاد فى الشرق الصيد دون ستر للجسم سوى قطعة قماش حول الوسط.

الكلمة الدالة على منتهى الإحترام والحب والإكرام التي أستعملها يسوع فى سؤاله بل أبدلها بكلمه أضعف تعبر عما يكنه قلبه من المحبة البشرية والإحترام الحار. أما فى المرة الثانية فقد ذكره سؤال يسوع بإعتداده بنفسه ولكن بإيلام أقل إذ سأله قائلاً فقط: "يا سمعان بن يونا أتحبنى" ومرة أخرى أجاب التلميذ المتواضع بنفس الكلمات السابقة "نعم يارب أنت تعلم إنى أحبك" فقال له السيد "ارع خرافى"[(١)]. ولكن سمعان قد أنكر ثلاث مرات فكان من الأنسب أن يعترف ثلاث مرات. فبعد فترة قصيرة سأله أيضاً، وهذه المرة بنفس الكلمة الاقل إحتراماً ولكن أكثر حرارة والتى سبق أن إستعملها الرسول نفسه. "يا سمعان بن يونا أتحبنى؟" فحزن بطرس وإكتأب عميقاً وصرخ "يارب أنت عارف بكل شئ وأنت تعلم إنى أحبك". "ارع غنمى" وبعدئذ أضاف برهبة "الحق الحق أقول لك إنك لما كنت شاباً كنت تمنطق ذاتك وحدك وتذهب إلى حيث تشاء ومتى شخت فإنك تبسط يديك وآخر يمنطقك ويحملك إلى حيث لا تريد".

وفهم الرسول أن كلمة سيده تنبئ عن سنى خدمته المقبلة وآلام إستشهاده. ولكنه لم يكن الآن سمعان بل بطرس. دخل الصخر إلى نفسه وكان فى قلبه مستعداً حتى الموت أن يطيع ذلك الصوت الذى قال له (إتبعنى). وبينما كانت تلك المحادثة مستمرة كان بطرس يمشي إلى جانب المسيح على بعد خطوات قليلة قبل زملائه وإذ إلتفت بطرس رأى زميله الوحيد المقرب إليه التلميذ الذى كان يسوع يحبه، يتبعهما على مهل فأشار إليه وسأل يسوع قائلاً "يارب. وهذا ما هو". وكان جواب يسوع رادعاً لروح الإستطلاع الفضولى "إن أردت أن أتركه حتى آجىء فما بالك أنت. فأنت إتبعنى". ولم يجرؤ بطرس أن يسأل أكثر. والجواب الذى قصد يسوع أن يكون غير واضح أدى إلى الإعتقاد الذى ذاع فى الكنيسة الأولى أن يوحنا لن يموت حتى يجئ المسيح الأمر الذى جعل الرسول يصحح بهدوء هذا الخطأ بإيراد الكلمات الحقيقية التى قالها يسوع ونحن نعلم إنه عاش أكثر من أخوته التلاميذ، وإنه قد عاش حتى رأى خراب أمته الزريع.

٨ ـ ربما فى هذه المرة قد أخبر يسوع تلاميذه عن جبل الجليل حيث يراه للمرة الأخيرة كل الذين عرفوه وأحبوه ولكن فى الوقت المحدد إجتمع أكثر من خمسمائة شخص مع التلاميذ الأحد عشر[(٢)]

١ – (يو٢١: ١٥).

٢ – (مت٢٨: ١٧) وكلمة «أما بعضهم شك» تعني أن بعضهم لم يصدق المنظر كله. ربما كان هذا البعض واقفا بعيدا أو ربما لم يعرفه كما سبق أن رآينا في أربعة مواضع (مت٢٨: ١٧) و (لو٢٤: ١٦، ٢٧) و (يو٢١: ٤) ان شيئاً غير معتاد فى جسده المقام من الأموات جعله ليس من السهل التعرف عليه فى الحال.

ليتقبلوا من يسوع آخر أوامره ليعلموا ويعمدوا كل الأمم ويتقبلوا منه الوعد الأخير أنه سيكون معهم دائماً كل الأيام وإلى إنقضاء الدهور. وقد كتب بولس الرسول بعد حدوث هذا الظهور بعشرين عاماً معطياً شهادة قيمة عنه وأن أغلب هذا العدد من شهود الرؤيا للقيامة كانوا أحياء وأن بعضهم قد رقد.

٩ ـ ظهور تاسع ليسوع لم تسجله البشائر وإنما وصل إلينا مما كتبه بولس الرسول في رسالته إلى الكورونثيين إذ قال "فإنني سلمت إليكم فى الأول ما قبلته أنا أيضاً أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب وأنه دفن وأنه قام فى اليوم الثالث حسب الكتب وأنه ظهر لصفا ثم للاثنى عشر. وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمائة أخ.... وبعد ذلك ظهر ليعقوب ثم للرسل أجمعين وآخر الكل كأنه للسقط ظهر لى أنا" (١). ولا نعلم شيئا عن هذا الظهور ليعقوب إلا إن كان هناك أساس من الصحة للتقليد الوارد فى كتاب العبرانيين من أن يعقوب، أول أسقف لأوروشليم وأخا الرب، قد أكد تأكيداً صارماً بعد العشاء الأخير أنه لن يأكل أو يشرب حتى يرى يسوع مقاماً من الأموات، ولذلك فى بكور يوم القيامة ذاته جاء يسوع وبعد أن أعطى السنديون لخادم الكاهن أعد مائدة وشكر وأعطى يعقوب قائلا: **[كل خبزك الآن أيها الأخ لأن إبن الإنسان قد قام من الأموات]**.

١٠ ـ مضى الآن أربعون يوماً منذ الصلب ظهر فى خلالها الرب تسع مرات ورأته عيون البشر ولمسته أيدى البشر، ولكن جسده لم يكن مجرد جسد إنسانى ولم يكن خاضعاً للقوانين البشرية ولم يعش فى هذه الأيام حياة الناس. وأتى الوقت الذى ينبغى فيه أن يحتجب حضوره الأرضى إلى الأبد حتى يأتى فى مجده ليدين العالم. قابلهم فى أوروشليم وأقتادهم معه فى طريق بيت عنيا وأوصاهم أن يمكثوا فى المدينة المقدسة حتى ينالوا موعد الروح القدس. وأوقف عند حد أسئلتهم المتحمسة عن الأزمنة والأيام وأوصاهم أن يكونوا له شهوداً فى كل الأرض. وهذه التوديعات الأخيرة لا ريب أنه قالها لهم على أحد المرتفعات المنفردة التى تحيط بالقرية الصغيرة(٢) وعندما أنتهى من قولها رفع يديه وباركهم، وفيما هو يباركهم إفترق عنهم وصعد أمام عيونهم وأخذته سحابة عن أبصارهم.

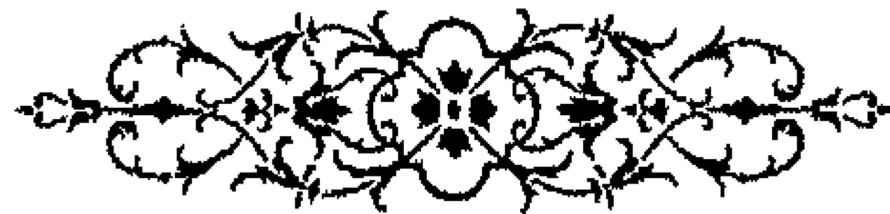
بيننا الآن وبين حضوره ورؤيته بالعين، بيننا وبين ذلك الفادى الممجد الذى يجلس الآن عن يمين الله لا زالت تلك السحابة مخيمة فوقنا. ولكن عين الإيمان تقدر أن تخترقها، وبخور الصلوات الحقيقية يعلو عليها، ومن خلالها يستطيع غيث البركات أن ينهمر. وإن كان قد غاب عنا إلا أنه قد منحنا فى

١ – (١كو١٥: ٣ – ٨).

٢ – (لو٢٤: ٢٠).

روحه القدوس شعوراً أقرب لوجوده معنا وإحتضاناً ألصق بين ذراعى حنانه أزيد مما لو كنا قد تمتعنا بالعيش معه فى ذلك الزمن الغابر فى بيت الناصرة أو أقلعنا معه فى القارب الصغير على مياه جنيسارات البللورية، وقد يجوز أن نكون قريبين منه فى كل الأوقات سيما فى الأوقات التى نركع فيها للصلاة، قريبين مثل ذلك التلميذ الحبيب عندما وضع رأسه على صدره. كلمة الله قريبة منا بل هى فى أفواهنا وآذاننا. نعم قد لايسمع صوته فى الآذان التى صمت. قد يجوز أن ضوضاء الحروب العالية التي تهز العالم ومناداة الأخماع والملذات قد تطغى على الهمسات الرقيقة اللطيفة التى تأمرنا (إتبعنى) ولكن سر الله لخائفيه، وسيريهم عهده، وهو يتكلم للآن لجميع الذين ينصتون له. لقد وعد أن يكون معنا كل الأيام وإلى إنقضاء الدهر، ولم نجد أن وعده يسقط قط. إنها كانت ثلاثة وثلاثون سنة قصيرة لحياته القصيرة على الأرض. أنها كانت ثلاث سنين متقطعة مضطربة هى التى كرز فيها بإنجيل الملكوت ولكن إلى الأبد وإلى إنقضاء الأزمنة وإلى أن تزول الأرض ذاتها وكل الأفلاك والسموات الموجودة الآن من الوجود. سيظل كل فرد من أولاده الحقيقيين الأمناء يجد فى إسمه السلام والرجاء والغفران، هذا الإسم الذي يدعى عمانوئيل الذى تفسيره :

الله معنا



المحتويات

كتاب «حياة المسيح»

كان له تأثير فعال فى نفسى فصرت أطالع منه أجزاء متفرقه مراراً متعدده.

فراعتنى حلاوة إسلوبه ودقة بحوثه والعناية الفائقة فى توخى الصدق فى كافة الأمور.

من الوجهة العلمية اللاهوتية ومن الوجهة التقوية الروحية فكانت فكرة تعريب الكتاب لافتقارنا إلي تاريخ مطول محقق عن المسيح يفصّل حياته صحيحة جلية قريبة إلى الأذهان محببة إلى القلوب.

المترجم

